

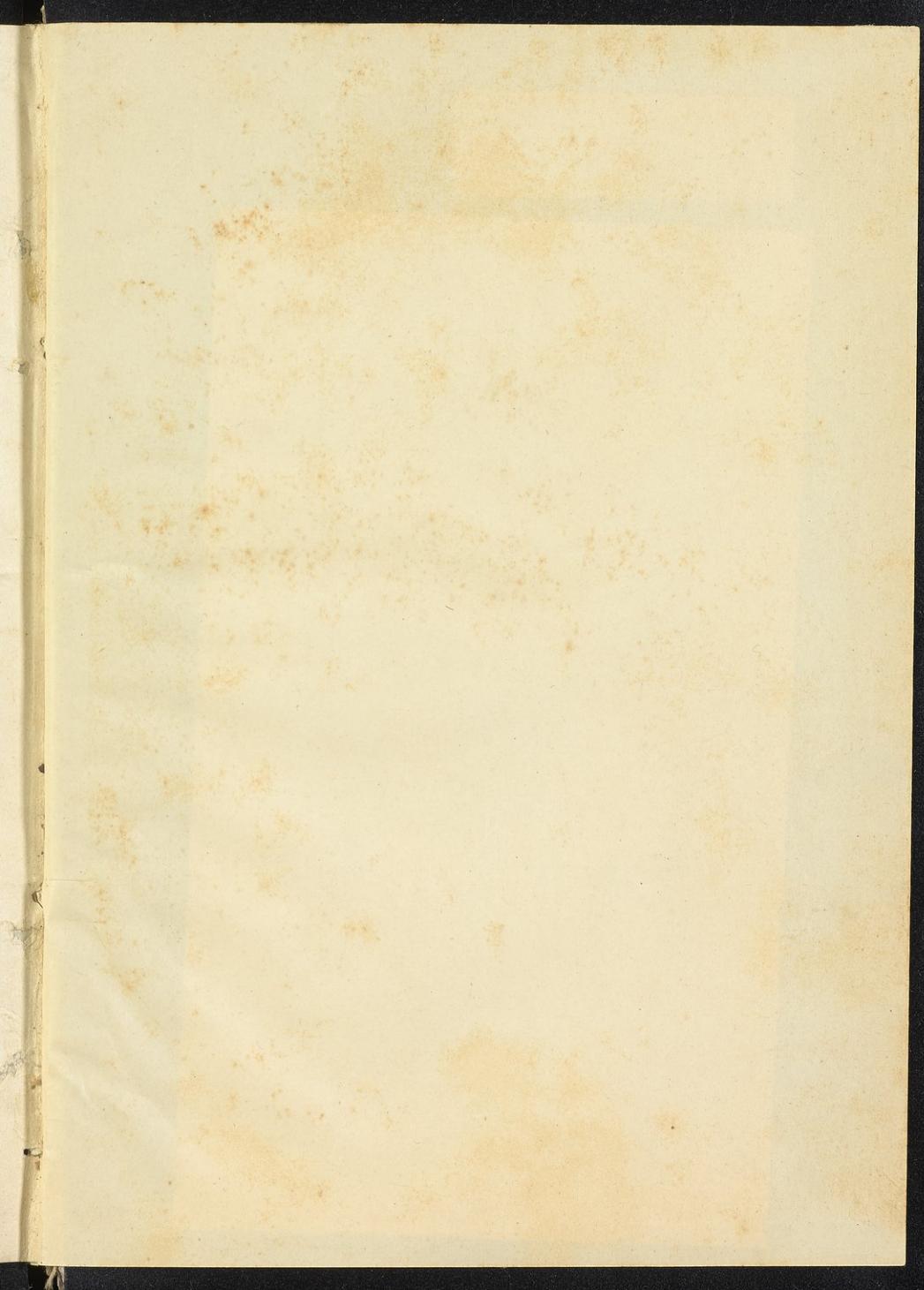
PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

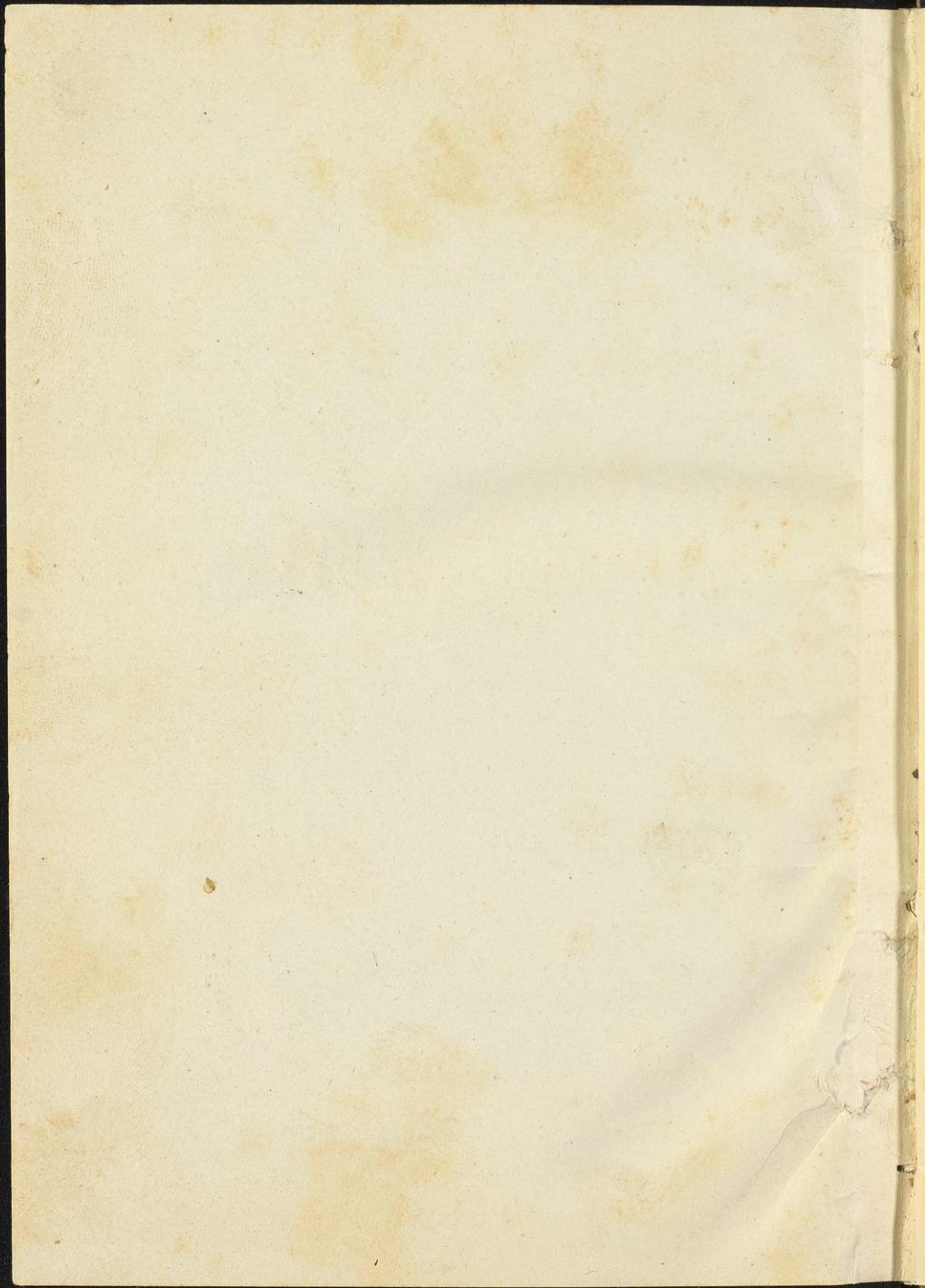


32101 010594776

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.





إلى حضرات الكتاب والقراء !

قد عزمنا بعونه تعالى على متابعة نشر كل ما تعم فائدته وتلذ
مطالعته من المؤلفات الأدبية والاجتماعية والعلمية والتاريخية والفكاهية
والروايات والقصص وغير ذلك بعنوان :-

سلسلة المطبوعات العصرية

وذلك بالاتفاق مع بُلغاء الكتاب والمؤلفين . وسنبدل كل
ما في وسعنا في سبيل مرضاتهم ، وعرض عرائس أفكارهم على القراء
مجلوّةً في حل الإجادة والإتقان ۝

الباص انطواه الباص



احمد زكي ابراشدی
A.Z. Abushady



تايلاند

فرانسی

تألیف

أنا نول فرنسى

(عضو الاكاديمي الفرنسي)

ترجمة

احمد الصاوى محمد

—————*

عني بنشرها

اليمان بطبع اليمان

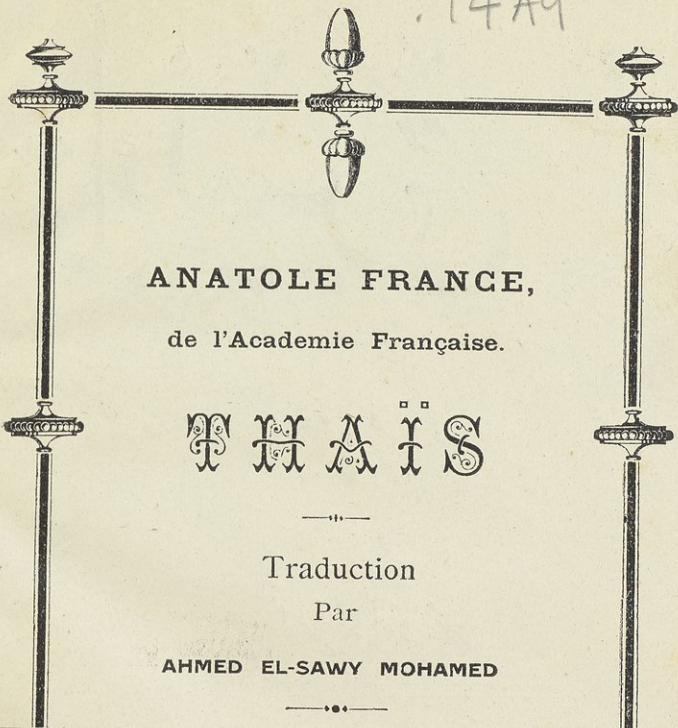
صاحب

المطبعة العصرية بمصر

شارع علوی رقم ٥

جميع حقوق الطبع محفوظة لناشر الكتاب

(Arab)
PQ 2254
.T4 A9



EDITEUR :
ELIAS A. ELIAS
5, Rue Eloui,
Le Caire
1924

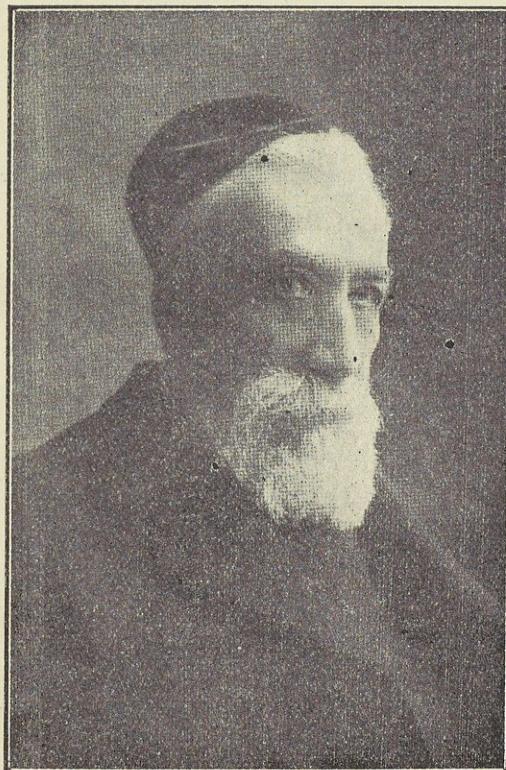


تقديمة الكتاب

من المأثور إلى الجمهور

تقدّم اليوم إلى الجمهور الكريم هذه القصّة الممتعة ، التارِيخية ،
الفلسفية ، الجامعية لدعابات «أناةول فرانس» المشهورة ، وفنه الجميل ،
الذى يفتح أبواب الخيال من أقدم الأجيال بفتاحه السحري - القلم .
تقدّمها مغتبطين كدرّة من درر الفن الخالدة ، واثقين إنها ستلقى
من نفوسهم المتسامحة ارتياحًا ، ومن عقولهم الراجحة رضيًّا وقبولاً
ونجده العهد على بذل الجهد في التوفيق بين أدب الشرق
والغرب ، ولغات الأفرنج ولسان العرب ، قياماً بالواجب علينا نحو
النهضة الشرقية والناطقيين بالضاد ۹

الياس انطونيو الياس



﴿أَنَّاتُولْ فِرَانس﴾

صفحة من كتاب (الورود الدارمية)

لسمو الأمير الجليل حيدر فاضل

إلى أنطول فرانس

أفلاطون العصر ومؤلف تايس

A ANATOLE FRANCE

(Au Platon Moderne).

Ces vers humbles et doux, à toi je les apporte
Du pays de THAIS... Daigne les recevoir.
Et pour te les offrir je me fais un devoir
De les déposer tous sur le seuil de ta porte.
O maître, ne crois point qu'un fol orgueil m'emporte,
Jusqu'à m'imaginer qu'il soit en mon pouvoir
De taquiner la Muse en caressant l'espoir
De plaire à ton regard que le génie escorte.
Non ! Je suis un rêveur... un pauvre troubadour,
Chantant le ciel, la mer, les roses et l'amour,
Respirant ta pensée et toujours vivant d'elle...
Et si j'eus le courage, avec l'ami Silvain,
D'entrer à ton foyer pour te serrer la main.
C'est que «FRANCE» à ton nom je demeure fidèle !

* *Roses Ensanglantées*

par S.A. Le Prince Haidar Fazil.

* Impr. de l'Institut Français D'Archéologie Orientale,
le Caire 1919, £ 1.

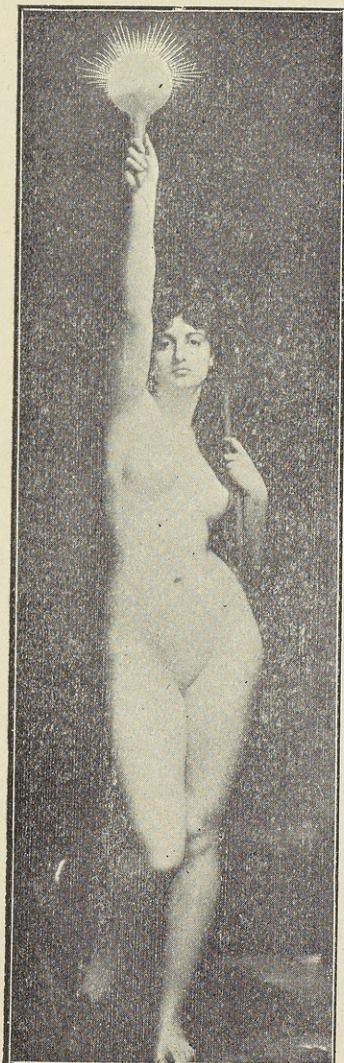
*Ut vitam habeant
et abundant.*

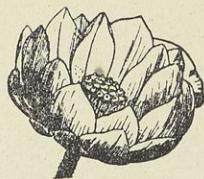
لَكُمَا تَكُونُهُ لَرَمِ حَيَاةً مَوْفُورَةً

هذه هي القصة الأولى من مجموعة
الشعلة الحالية ، نستعين بالله مبعث
النور والحياة على نقلها الى لغتنا باباً ،
إذكاءً للنار المقدسة في قلب
الشرق العظيم .

أقدمها الى شباب بلادي وغيرهم
من طلاب الحب والحق والحكمة .
قصة رجل مسكيين راح ضحية هذه
الدنيا الغرور ، لعلهم يتذمرون ما فيها
من عظام سامة ، فيسيرون في الحياة
في طريق الاخاء الروحي بأقدام
تابة متذمرين رمال التعصب الخائنة ،
أوفياء للانسانية ، مخلصين للحقيقة ،
هامين بالحكمة ، ناصرين الفضيلة
دواًماً - لكِيما تكون لهم حياة موافرة

احمد الصادق محمد





اللوتس

كانت الصحراء في ذلك الزمان يسكنها النساك في أكواخ
لاتحصى، بنوها من الأغصان والصلصال، وهي تتدلى شاطئ الليل
متجاورة متشورة بحيث توافر لساكنها الغايات، العزلة، والموازرة
لدى الحاجة. وبرزت الكنائس هنا وهناك بين الأكواخ عليها شارة
الصلب يقصدها الرهبان أيام العيد لاقامة الشعائر والمشاركة في التبرك
بالاسرار الدينية. وكان على صفة التهر اديار آهلة بالرهبان وكلهم
يصومون حتى غروب الشمس ثم يتبعون بقليل من الخبز والملح.
وطمر بعضهم أنفسهم في الرمال متخذين الكهوف او المقابر مساكن
قابع في كسر صومعته الضيق لا يتذانون الا ليدوقوا طعم الوحدة.

عاش الرهبان المتبولون والمعاكفون في زهد وتقشف، وكانوا
يصومون حتى غروب الشمس ثم يتبعون بقليل من الخبز والملح.
وطمر بعضهم أنفسهم في الرمال متخذين الكهوف او المقابر مساكن
كانت غاية في العزلة والانقطاع.

أخذوا جميعاً بأسباب التقشف، فارتدوا ملابس من وبر
الإبل وكانوا بعد طول التهجد يفترشون الأرض، ويصلون
وينشدون المزامير. وقصيرى القول ان هؤلاء الزهاد كانوا في كل

يُوم يزأولون جمِيع اعْمَال الصَّلَاح والْتَقْوَى . وَلَم يَكُنُوا يَقْفُون فِي الْوَرَعِ عِنْدَ حَدِّ تَحْرِيمِ الْخَطِيئَةِ الْأَرْلِيَّةِ عَلَى أَجْسَادِهِمْ بَلْ تَجاوزُوهُ إِلَى تَحْرِيمِ الْعِنَايَةِ بِأَبْدَانِهِمْ ، مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ مِبَاحةً فِي عَهْدِهِمْ ، وَذَلِكَ لَا عَتْقَادَهُمْ أَنْ إِصْعَافَ الْبَدْنِ يَقْوِي النَّفْسَ وَيَطْهُرُهَا ، وَإِنْ أَشْرَفَ حَلْيَةُ الْجَسْمِ إِرْهَاقَهُ بِتَكْلِيفِهِ مَا يُشْقَى عَلَيْهِ ، وَهَذَا صَدَقَتْ فِيهِمْ نَبْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ : « يَتَهَجَّ الْقَفْرُ وَيَزَهُرُ » !

وَكَانَ بَعْضُ نَزَلَاءِ « طَبِيهِ » الْمَقْدَسَةِ يَقْضُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِي النَّسَكِ وَالتَّصْوِفِ يَنْبَغِي يَسْعَى غَيْرَهُمْ فِي تَحْصِيلِ مَعَاشِهِمْ بِضَفْرِ الْيَافِيِّ النَّخِيلِ وَخَدْمَةِ الزَّرَاعِ الْمَحَاوِرِيِّينَ فِي اثْنَاءِ الْحَصَادِ عَلَى أَجْرِ مَعْلُومٍ . أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَكَانُوا يَعِيشُونَ مِنْ قَطْعِ الْطَّرُقِ وَمُدَاخَلَةِ الْبَدْوِ الرَّحْلِ الَّذِينَ يَنْهَاوْنَ الْقَوَافِلَ . وَهُلْ يَنْفَيُ ذَلِكَ أَنْ هُؤُلَاءِ الرَّهَبَانَ كَانُوا يَحْتَقِرُونَ الْمَالَ وَالثَّرَاءَ ، وَكَانَتْ رَأْحَةُ فَضَائِلِهِمُ الْمَذْكُورَةِ تَتَصَاعِدُ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ؟

وَكَانَ الْمَلَائِكَةُ يَغْدوُنَ عَلَى هَيَّةِ فَتَيَانٍ لِزِيَارَةِ الصَّوَامِعِ وَبِأَيْدِيهِمْ عَصِيمَهُمْ كَالسَّاحِرِينَ . وَكَانَ الشَّيَاطِينُ يَتَخَذُونَ اشْكَالَ الْأَحْبَاسِ أَوْ ضَرُوبَ الْحَيَوانِ وَيَجْوَلُونَ بَيْنَ النَّسَكَ لِيَضْلُوْهُمْ . وَكَانَ الرَّهَبَانُ يَذْهَبُونَ فِي الصَّبَاحِ لِهِلَاؤِهِمْ أَبْارِيقَهُمْ مِنَ النَّبْعِ فَيَرُونَ آثَارَ أَقْدَامِ الشَّيَاطِينِ عَلَى الرَّمَالِ ! وَكَانَ التَّأْمِلُ بَعْنَ الْعُقْلِ فِي حَالِ طَيَّةِ الرُّوحِيَّةِ يَرَاهَا مِيدَانًا لِلِّقْتَالِ بَيْنَ أَبَالَسَةِ جَهَنَّمِ وَمَلَائِكَةِ النَّعِيمِ !

ولما كانت جيوش الشياطين تهاجم الزاهدين بعنف وفظاعة
كان هؤلاء يدافعون عن أنفسهم بالصوم والتقوى والتقصيف مستعينين
بالله والملائكة ! وكانت رغبات شهواتهم تنسو عليهم حيناً فتخزهم
وخرزاً يرزق أحساءهم من شدة الألم ، فتتجاوب صيحاتهم المزعجة تحت
قبة السماء الملوءة بالكواكب هي وعوا الصبا العجاء ! وعند ذلك
كانت الشياطين تبدو في صور جميلة فتاتنة ، تحول دون معرفة
طبيعتهم الباطنة ، فزرع رهبان طيبة اذ رأوا في صوامعهم مشاهد
التمتع غير المعروفة حتى عند معاصرיהם المترفين . وكان الصليب يعلو
صوامعهم ويحيمهم من شرور الخطيئة ، فتتخد الشياطين أشكالها
الحقيقة وتبتعد لدى الفجر وقد ملئت خجلاً وغيظاً . وكان يحدث
احياناً في مطلع الفجر أن عابراً يلقى واحداً من هؤلاء باكيًا متسبحاً
فيسأله عن سبب بكائه فيجيب « أبكي وأنتحب لأن أحد هؤلاء
المسيحيين الساكنيين هنا ضربني بهراوته وردّني بخزي وفضيحة » !

أما شيخ الصحراء فقد عرفوا مبلغ سلطانهم على الآئمـين
والكافـرين ، وكان صلامـهم في بعض الاحـيان صلاحـاً مـروعـاً . فقد
أخذـوا عن الرـسل سـلطة مـعاقـبة العـصـيـان لـلـهـ الـحـقـ ، وما من شيءـ كان
يـسـتطـيعـ اـنـقـاذـ الـذـيـ يـحـكـمـونـ عـلـيـهـمـ . وـتـنـاقـلـ النـاسـ حـتـىـ فيـ مدـيـنةـ
الـاسـكـنـدـرـيـةـ ، أـنـ الـارـضـ اـنـشـقـتـ لـتـبـتـلـ الـاـشـرـارـ الـذـيـنـ مـسـتـهـمـ عـصـيـ
الـزـاهـدـينـ ! وـهـذـاـ السـبـبـ كـانـواـ مـرـهـوـبـيـ الـجـانـبـ يـخـافـهـمـ كـلـ الـذـيـنـ

يحيون حياة الانس ولا سيماء أهل المساحر والماقص ، والقساوسة
المتزوجون ، وربات الخلاعة !

وقد ظهرت فضيلة هؤلاء الزاهدين فامتد نفوذها الى الوحوش
نفسها . فكان إذا دنا أجل أحد هم أقبلأسد وخط له مضجعاً بمخالبه
فيعرف القديس بهذا أن الله قد دعاه اليه فيتجه نحو اخوانه ويقبلاهم
قبلة الوداع ويرقد بانشراح لتأخذه سنة الموت في الله عز وجل !

ومذ صعد « انطوان » الى قمة جبل كلزين بعد أن أربت سننه
على المائة مصطحبًا أحباً مریديه اليه وهما « مقار واماtas » لم يبق
في طييه كله راهب أبّ وأصلاح من « بافنوس » كاهن بلدة أنصينا^(١)

حقاً كان افرايم وسرابيو ن يحتمل في كثيرين من الرهبان وكانا
متقوين في خططهما الروحانية وال زمنية وفي ادارة مناسكيما . أما
بافنوس فكان يراعي أنظمة الصوم فيقضي ثلاثة أيام بليلتها لا يذوق
طعاماً ، وكان يرتدي عباءة من الصوف الخشن ، ويجلد نفسه صباح
مساء ، وطالما انبطح على الارض ممزرعاً جبهته في التراب !

أما تلاميذه الاربعة والعشرون بعد أن بنوا اكواخهم على
مقربة من كوهه فقد اقتدوا به في تقشفه فأحبهم في يسوع المسيح حبّاً

(١) قامت على اطلال مدينة أنصينا (بلدة الشيخ عبادة) المعروفة بالصعيد
(المترجم)

جماً وكان يخضهم دائمًا على التقوى . وكان من أبناءه الروحيين رجال قضاوا سنين طولية في قطع الطريق ، لكن وعظ هذا الصالح القدس هداهم سواء السبيل فتخلقوا بأخلاق الرهبان . وكانت طهارة عيشتهم مما يشرف رفقاءهم ، ومنهم طاهي ملائكة الحبسة الذي صار بعد أن هداه كاهن «أنصينا» يذرف الدموع بلا انقطاع ! ومنهم أيضًا الواعظ فلاقيان ، وهو رجل عالم بالكتابة وخطيب مفوّه . على أن أعجب تلاميذ بافتوس كان فلاحًا صغيراً يدعى بولس ، ولقب بالساذج لسلامة نيته التي لا حدّ لها . ولشد ما ضحك الناس من سذاجته . لكن الله شرّفه بأن بعث له بالرؤى الصادقة وأتم عليه نعمة النبوة .

وقف بافتوس حياته على تهذيب أتباعه وتنقيفهم ومزاولة العبادة والبحث والتنقيب في تصاعيف الكتب المقدسة يقتبس منها المواقظ والامثال . فكان على حداثة سنّه موفور الحظ من الفضيلة ، فلم تكن الشياطين التي هاجمت الرهبان تلك المهاجمة العنيفة لتجروء على الدنو منه . واعتاد أن يجلس في الليل في ضوء القمر سبعة من جراء^(١) بنات آوى منصته امام صومعته بلء المهدوء والسكون . وقيل ، بل تلك

(١) جمع جرو وهو الصغير من الحيوانات

سبعة من الجن كان قد استيقاها ببابه لا تعددَى عتبته بقوَّة طهره
وقداسته !!

* * *

ولد بافنوس في مدينة الاسكندرية من أبوين نبيلين وتأدب
بأدب الدنيا، ولشد ما أصلته أكاذيب الشعراء ! وكانت تلك الأكاذيب
مغالطة لعقله مشوشة لافكاره في ريق صباح . حتى انه صدق أن
طوفانًا قد أغرق الجنس البشري كله في عهد ديوقليس ! وجادل
رفاقه في الدرس في طبيعة الله ، وصفاته ، وجوده . ثم استرسل في
الخلافة ، وكانت تلك بدعة الخارجين على الدين .

وكان قد اعتاد في تلك الأيام أن يقول لأخوانه ، لقد غلبت
في مرجل اللذات المزيفة !

يريد بذلك انه أكل اللحم المطبوخ جيداً ، واختلف الى
الحمامات العامة !

ودرج على سنن الحياة في عصره حتى بلغ العشرين ، وهذه
المدة أجرأ أن تسمى بالموت منها بالحياة . ولكنها بعد أن تهذب
على يدي السماحة « ما كرير » خلق خلقاً آخر وعاد رجلاً جديداً
وكذلك تغفل الحق فيه ونفذ في روحه — كما كان يقول —
كالحسام ! فاعتنيق عقيدة الصليب عبد المسيح المصلوب . وبقي
سنة أخرى بعد تعميده ، بين السكافرين مقيداً بسلاسل العادة . وفي

ذات يوم سمع واعظاً في كنيسة يقرأ من الكتاب المقدس آية
مودها : « اذا شئت أن تكون كاماً فاذهب بع مالك واعط
ثمه للفقراء » فباع من فوره متاعه وانفق ثمنه في وجوه البر والاحسان
وامخرط في سلك الرهبنة .

وفي العشر سنين التي قضتها بعيداً عن البشر لم يغل في
مرجل الشهوات الجثمانية بل استفاد بعالجة نفسه بيلسم التقوى
تعود التفكير في ما مضى من حياته قبل هدايته ، وعرض خطاياه
الواحدة تلو الاخرى فأدرك جسامتها واستغفر منها . تذكر بينها إذ
ذاك انه رأى منذ بضع سنين في ملعب الاسكندرية ممثلة ساحرة

بحجابها ومحاسنها تدعى « تاييس ». كانت تمثل
في الالعاب أدواراً شتى . ولم تكن تتحرج من
رقص يثير في النفس بحركاته أقوى الشهوات
ويعرض نفس الرأي لأشعن الرغبات ، وتبدو
في مشاهد مخجلة ، مما الصفة الكافرون بالزهرا
وليديا وپاسقيه . فكانت تشعل نيران اللذة في

جميع المشاهدين . وكان مختلف اليها الشبان المدهون والشيوخ
الاغنياء المغرمون ، يعلقون أكاليل الزهر بيابها ، فكانت ترحب
بهم وتنيلهم منها ما يشتهون . بحيث انها لما أضاءت نفسها أضاءت
نفوساً أخرى .

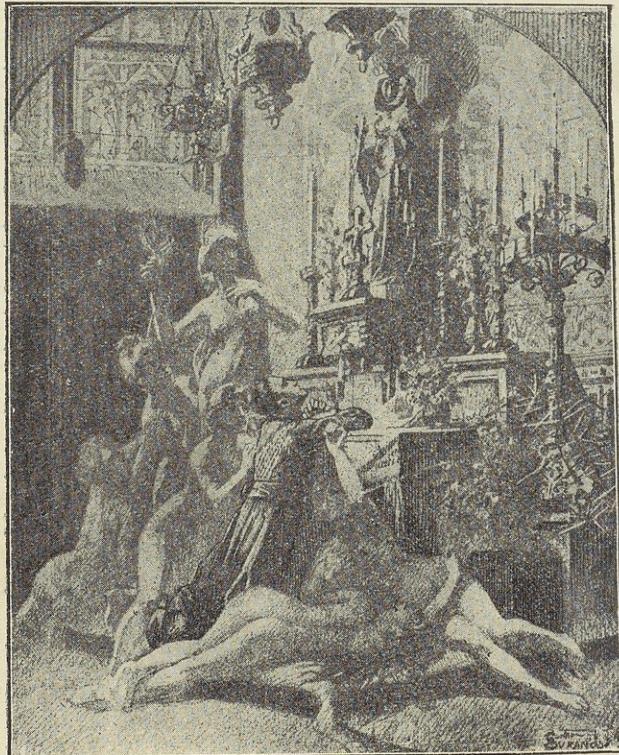


وكان بافنوس نفسه من المعجبين بها . فقد أضرمت نار الصباية في قلبه ، وأشعلت لهيب الشوق في نفسه . فاقترب ذات مرة من بيته لكنه وقف بالباب وصدّته الجبانة واحتجزه التهيب الفطري في الشباب الغضّ (كان في الخامسة عشرة من عمره) وكان تحرجه كذلك خشية أن يُزجر لخلوات يد ، إذ كان أبواه يأبىان عليه البذل الكبير . ومن رحمة الله ان قيض له ذلك استنقاذًا له من وزير كبير . بيد أن بافنوس لم يحمده تعالى لأنّه كان في حينها لا يستطيع أن يميز بين ما ينفعه وما يضره ولا أن يفرق بين نفعه الحقيقي ونزعاته الباطلة .



أما وقد ركع بافنوس في صومعته أمام صورة ذلك الصليب المقدس المعلق عليه « فدية العالم » ، فقد بدأ يفكّر في تاييس ، التي كانت معصيته ، وقد فكر طويلاً ، بحسب الطقوس الدينية ، في مخافة الملاذ الدنسة المروعة ، تلك اللذات التي أذاقته إياها هذه المرأة في أيام الحنة والجليل . وبعد تفكير عدة ساعات تراءت له صورة تاييس بجلاءٍ تام ، فرأها ثانية جميلة الجسد كما كانت حين نصبَت له حبات الغواية ، فظهرت له أولاً مثل « ليدا » راقدة فوق

مضجع من حجرٍ يانِ ، ناكسة الرأس ، مغورقة العينين الملؤتين
نوراً ؛ باسمة ترتجف شفتاها ، وثديها كزهرتين ، وزندتها كجدولين .
فضرب بافنوس صدره عندئذٍ وقال :



— أدعوك ربى لتشهد على شعوري بشناعة خطيئتي !
ثم غيرت الصورة شيئاً فشيئاً ملامحها ، اذ زاد ابتسام ثغرها
فافقر عن ألم مبرح ، وامتلأت عينها النجلاءان دموعاً ونوراً ، وجعل
صدرها يعلو وينخفض بالتهجدات وهي تزفر زفيراً يشبه اول هبوب
العاصفة . فاضطراب باقنوس لهذا المنظر اضطرباً شديداً اثر في صميم
قلبه ، وخرّ ساجداً رافعاً هذه الضراعة :

— أنت يا من أشربتَ قلوبنا رحمةً مثلما أشربت الرياض
ندى الصباح ! أيها الإله العادل الرحيم ! تبارك وتعاليت ! انزع
من قلب عبده هذا الحنان الباطل الذي يؤدي الى الشهوة ،
وأوزعني الا أحب مخلوقاتك الا فيك وحدك ، لأنها تفني جميماً
وأنت وحدك الحي القيوم . فاذا كنت قد عنيت بهذه المرأة فذلك
لأنها صنع يديك وان الملائكة أنفسهم ليتوجهون اليها بعناية واهتمام .
ألم تكن يا إلهي فحة من روحك ؟ إن عليها أن تصفع حدّاً لما ترتكبه
من الخطايا مع اهل البلاد والغرباء . لقد انبعث في قلبي شعور عطف
زاد نحوها ، إن ذنبها لفظيعة ، وان مجرد التفكير فيها يروعني
إلى حدّ أن شعر رأسه يقف رعباً . سيبقى اشفافي عليها عظيمَاً كذنبها ،
وكلا ازدادت طغياناً زدت حناناً . اني ابكي حين افكر في أن
الزنانية سوف يعذبونها في نار جهنم ، التي كلما خبت زادوها سعيراً
وانه ل كذلك اذ رأى ابن آوى صغيراً متعيناً عند قدميه ،

فأدهشه ذلك كثيراً لأن باب صومعته كان موصدًا منذ الصباح .
ولاح على الحيوان أنه قرأ ما جال بخاطر السكاهن فحرّك ذنبه كالكلب
فرسم بافنوس علامة الصليب فاختفى الحيوان . وهنالك علم بأن
الشيطان قد دخل حجرته للمرة الأولى ، فصلى صلاة قصيرة ثم فكر
ثانية في تاييس وقال

— يجب أن أتقذها بعون الله !

ثم نام .

* * *

في صبيحة اليوم التالي ، بعد الصلاة ، زار القديس « بالمون »
الذي كان يعيش في دار قرية عيشة الترهب والزهد ، فألفاه
هادئاً مطمئناً ضاحكاً مستبشرًا يفلح حديقته كعادته . وكان بالمون
شيخاً هرماً له حديقة تنتابها الوحوش الضارية تلحس يديه ، ولم
تقر به قط الشياطين . فقال بالمون وهو مستند إلى فأسه .

— حمداً لله يا أخي بافنوس !

فاجاب بافنوس

— الحمد لله ، والسلام عليك يا أخي !

فرد عليه الراهب بالمون بقوله

— وعليك السلام يا أخي بافنوس !

ثم مسح عرق جبينه بكمه

— أي أخي باللون . ليكن موضوع حديثنا حمد الله الحي «
الذي وعد بأن يكون بين الذين يجتمعون باسمه ، هذا هو غرضي من
المجيء لأحاديثك عن خطة لتجيد الرب .

— بارك الله في خطتك يا بافنوس مثلكما بارك في خسيّ ! فهو
في كل صباح يسبغ على نعاءه بسكب الندى على حديقتي ، وإن
رحمته لتدعني أن أسبح بمحمه على ما ينحي من القناء والقرع .
دعنا نضرع اليه أن يكلاًنا برعايته وينزل على قلينا السلام ! فليس
شم ما يخيف أكثر من المشاعر التي تعب القلوب فلا يلبث المفتونون .
بها ان يكونوا كالسكارى يتذمرون يميناً وشمالاً وهم على أبهة السقوط
المزري في هوة الشقاء . لقد تعمروا هذه الانفعالات بفرح مفرط ،
والذي ينهك في هذه الغوايات يكون هزاً تصيحك منه البهائم
ضحكاً يتعدد عالياً في أجواز الفضاء . ولكن قد تنتهي وقت
الروح والحواس كآبة مضنية ، وهذه أشأم الف مرة من الفرح . اي
أخي بافنوس ، لست إلا خاطئاً تعسماً ، ولكنني وجدت في أثناء
حياتي الطويلة أن ما من عدو اعدى للراهب من الكآبة . أعني
الكآبة المستعصية التي تغشى الروح كالضباب وتحجب عنها نور الله .
وما من شيء مثلكما ينافي الراحة والسلام ، وان أعظم نصرة للشيطان

أَن ينفث الزيف والتزعات السوداوية في قلب رجل متدين . فلو أَنْه
بعث لنا التجارب والغوايات في سياق الفرح والمسرة لَمَا كان مخوفاً
نصف هذا الخوف المروع . وأَسْفاه ! إِنَّه بارع في إِيالمنا ، متقن في
تعذيبنا . أوَّلَم يظهر لَيْبَنَا « أنطوان » طفلاً أَسود جميلاً إِلى حد
أَن روئيَّته استدرفت دموعه واستعبرتْه ؟ عَلَى أَنْ أَبَانَا نجَا بِعِونَةِ الله
مِنَ الْوَقْوَعِ فِي حِبَائِلِ الشَّيْطَانِ . وَإِنِّي لاأُعْرِفُ مَدِيَّ الزَّمْنِ الَّذِي
قَضَاه يَبْنَنَا طَرُو بَأَمْشَرَ الصَّدْرِ مَعَ تَلَامِيذه وَلَمْ يَكُنْ قَطْ كَيْيَا .
لَكِنْ أَلَمْ تَأْتِ يَا أَخِي لِتَحْدَثُ عَنْ خَطْطَةِ هِيَأَتَهَا فِي نَفْسِكِ ؟ إِنْ
إِطْلَاعُكِ إِيَّايِ عَلَيْهَا فَضْلَ مِنْكِ مَقِيْ كَانَتْ لِتَحْمِيدِه تَعَالَى .

— يَا أَخِي بِالملون ، إِنِّي راغب حقيقة في تمجيد الله ، فاشدد
أَزْرِي بِمَشْوَرَتِكِ وَأَوْلَانِي نَصْحَكِ ، فَانْتَ عَالِمٌ مُسْتَنِيرٌ لَمْ يَحْجُبْ الْأَثْمَ
قَطْ أَشْعَةَ فَطْسَتِكِ !

— يَا أَخِي بِالفنوس ، إِنِّي لَسْتَ جَدِيرًا بِأَنْ أَحْلِ شَرَاكِ نَعْلَاكِ !
فَانْ آثَامِي كَرْمَالِ الصَّحْرَاءِ لَا تَحْصَى وَلَا تُعْدَ ، غَيْرَ أَنِّي بَلَغْتُ مِنْ
الْكَبْرِ عَيْنَا فَلَنْ أَرْفَضَ أَنْ أَكُونَ عَوْنَاكِ بِتَجَارِيَّيِّي .

— اذًا سَأْلُقِي إِلَيْكِ هُومِي وَاحْزَانِي يَا أَخِي بِالملون ، فَانِّي
لَيَحْزُنَنِي التَّفْكِيرُ فِي أَنْ هَنَاكَ بِمَدِينَةِ الْاسْكَنْدَرِيَّةِ غَائِيَّةٌ تَدْعِي تَائِيسَ
تَمْرَغُ فِي الْأَمَّةِ حِيثُ تَعِيشُ وَيَلَّا عَلَى النَّاسِ وَمَذْلَةً لَهُمْ .

— يا أخي بافنوس إِنْ هذا في الحقيقة لرجس محزن ، وإن النساء اللواتي يحيين هذه الحياة بين الوثنين لـكثـيرـات ، فهل فـكـرت في علاج لهذا الداء ؟

— سأذهب يا أخي باللون في طلب هذه المرأة بالاسكندرية وبعون الله سأهديها إلى الحق . هذه هي خططي ، فهل تقرني عليها يا أخي ؟

— لست سوى آثم منكود يا أخي بافنوس . لكن أباـناـ أنطـوانـ اعتـادـ أنـ يقولـ : « حـيـثـاـ كـنـتـ لاـ تـسـرـعـ بـغـادـرـةـ مـكـانـكـ إلىـ مـكـانـ سـوـاهـ »

— أترى يا أخي باللون خطأً ما في مسعـايـ الذيـ اـعـتـزـمـتـ ؟

— يا بافنوس الوديع ، أعادـنيـ اللهـ منـ اـتـهـامـ مـقـاصـدـكـ ياـ أـخـيـ !ـ لكنـ أـبـانـاـ أـنـطـوـانـ قـالـ أـيـضـاـ « كـاـنـ السـمـكـ الـذـيـ يـوـضـعـ فـوـقـ أـرـضـ جـافـةـ يـوـتـ ،ـ كـذـلـكـ يـضـلـ النـسـاكـ الـذـينـ يـغـادـرـونـ صـوـاعـهـمـ وـيـخـتـلـطـونـ بـالـعـالـمـ فـيـتـعـدـونـ عـنـ طـرـيقـ الـخـيـرـ »

وبـعـدـ هـذـاـ القـوـلـ نـكـتـ الشـيـخـ بـالـلـوـنـ الـأـرـضـ بـعـولـهـ ،ـ وـبـدـأـ يـحـفـرـ التـرـبةـ حـوـلـ شـجـرـةـ تـيـنـ مـثـقلـةـ بـهـارـهـاـ .ـ وـبـيـنـاـ كـانـ يـحـفـرـ قـفـزـتـ وـعـلـةـ مـتـخـطـيـةـ سـيـاجـ الـحـديـقةـ عـائـثـةـ بـالـأـورـاقـ وـوـقـفتـ فـيـ دـهـشـ بلاـ حـرـاكـ ،ـ مـرـتـدـعـةـ الـمـأـبـضـ ،ـ ثـمـ بـلـغـتـ الشـيـخـ الـهـرـمـ بـوـثـبـتـيـنـ وـغـطـتـ رـأـسـهـ الـبـدـيـعـ فـيـ حـجـرـ صـدـيقـهـاـ .ـ فـقـالـ بـالـلـوـنـ :ـ

— أَسْبَحْ بِهِمْدَهُ فِي غَزَّةِ الصَّحْرَاءِ !

شَمْ مَضَى إِلَى كَوْخِهِ يَتَّبِعُهُ الْحَيْوَانُ الرَّشِيقُ فَأَحْضَرَ خَبْرًا أَسْوَدَ
أَكْلَتُهُ الغَزَّالَةُ مِنْ رَاحَتِهِ .

لَبِثَ بِأَفْنُوسٍ شَاخِصًا يَبْصُرُهُ إِلَى حِجَارَةِ الطَّرِيقِ ، ثُمَّ قَفَلَ
رَاجِعًا بِطَءَ إِلَى صَوْمَعَتِهِ يَفْكُرُ بِعِنْيَاهُ فِيمَا سَمِعَ وَقَالَ وَقَدْ تَنَازَعَتْ
ذَهْنَهُ الْفَكِيرُ :

— لِعْنِي أَنْ هَذَا الزَّاهِدُ نَافِذُ الرَّأْيِ بَصِيرٌ ، وَانِهِ لِحَصِيفٍ
حَذُورٌ ، فَقَدْ ارْتَابَ فِي صَوَابِ فَكْرِتِي ، غَيْرُ أَنَّهُ مِنَ الْقَسْوَةِ أَنْ أَتَخْلِي
بَعْدَ الْآنِ عَنْ تَائِيسِ لِلشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يَحْظَوْنَ بِهَا . اللَّهُمَّ اهْدِنِي سَوَاءِ
السَّبِيلِ وَهِيَ لِي مِنْ أَمْرِي رَشَدًا .

وَبَيْنَا كَانَ فِي طَرِيقِهِ رَأَى كَيْرُونَانًا وَاقِعًا فِي شَبَاكٍ نَصِبَهَا صِيَادٌ
عَلَى الرِّمَالِ ، وَادْرَكَ أَنَّ الطَّائِرَ أَنْتِي . لَأَنَّ الذَّكَرَ أَقْبَلَ مُحَلَّقًا حَوْلَ
الشَّبَكَةِ وَقَطَعَ عَيْنَهَا وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ بِنَفْقَارِهِ إِلَى أَنْ أَحَدَثَ فَتْحَةً
كَافِيَةً لِخَرْجِ رَفِيقَتِهِ وَنَجَاتِهَا . فَتَأَمَّلَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ هَذَا
الْمَنَظَرُ ، وَلِكُونِهِ يَسْتَطِيعُ ، بِفَضْلِ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ ، قِرَاءَةَ خَفَايَا
الْأَشْيَاءِ ، تَمَثِّلُ لَهُ أَنَّ الطَّائِرَ الْأَسِيرَ تَائِيسٌ ، وَاقِعَةٌ فِي حِبَائلِ
الرَّذَائِلِ ، وَعَلَى ذَلِكَ — طَبِقًا لِمَثَلِ الْكَيْرُونَ الَّذِي قَطَعَ عَيْنَ
الشَّبَكَ بِنَفْقَارِهِ — يَحْبُّ أَنْ يَقْطَعَ بِالْأَقْوَالِ الْمُؤْثِرَةِ الْبَلِيغَةِ الْقَيُودِ

الخفية التي تربط تايس بالكبار . وهذا حمد الله وثبت على تصميمه الاول ، ولكنها عند ما رأى الكيروان واقعاً هو نفسه ومنشأ أذفاره في الشبك الذي قطعه ، عاد ثانية الى تردد وارتباطه .

فبات مسهدًا ارقًا لم يذق طعم النوم سواد ليله ، ورأى عند الفجر رؤيا . ظهرت له تايس مرة أخرى . لم تبد على وجهها أية علامات للأهواء الضالة أو الملاذ التي يازجها الاثم ، ولا كانت مرتدية كعادتها شفوفها المبللة ، بل كانت في بُردة تعظيمها كلها وتحجب بعض وجهها بحيث لم يستطع الراهب ان يرى سوى عينين تقىضان بالسموع السخينة البيضاء .

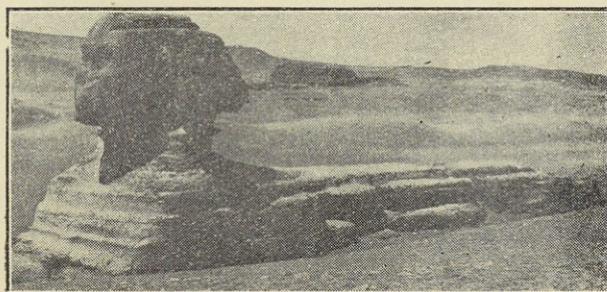
بدأ يبكي لرؤيه هذا المشهد ويعول اعواالاً . وجرى في ظنه أن هذا الحلم وحي من عند الله ، فطلق التردد ، ونهض ل ساعته وتناول عصماً معقدة ، هي رمز العقيدة المسيحية ، وغادر صومعته . وأغلق الباب بعنایة حتى لا تدنس الحيوانات التي تعيش فوق الرمال أو الطيور التي تحلق في الفضاء ، الكتاب المقدس الذي حفظه في رأس مضجعه ! ودعا الشamas فلاقيان ليستودعه تلاميذه الثلاثة والعشرين . واكتفى بوضع عباءة طويلة من الوبر ، وسار والنييل قاصداً ان يمشي محاذياً الشاطيء اليجي حتى المدينة التي أسسها اسكندر المقدوني . وبدأ السير عند ابتساق الفجر فوق الرمال مستهيناً

جالتعب والجوع والعطش . وكانت الشمس تحت الافق حين رأى النهر الرهيب زاخر الموج مخضوبًا بالدماء بين صخور الذهب والنيران . سار على الشاطئ ، مستعطفاً الحبز لوجه الله عند ابواب الاكواخ المنفردة ، متلقياً الانتهار بابتهاج ، غير خائف من الاصوص ولا الوحوش الضارية ، ولكنه تخى أن ينكب القرى والأقصار التي في طريقه . فقد كان يخشى ان يلقى الأولاد يلعبون امام منازل آباءهم بالکعب ، أو يرى الصبيا في جلايیب زرقاء ، يملأن جرارهن مبتسمات . فكل هذه أشياء خطرة على الناسك تركبه الغرر ! بل كان يتهيب أحياناً أن يقرأ في الكتاب المقدس أن « معلم اللاهوت ^(١) » ذهب من مدينة الى مدينة وتعشى مع تلاميذه ! فالفضائل التي يطربها الرهبان بعناية على نسيج ايامهم ، سريعة التلف بقدر ما هي بدعة ، فان نسمة من نسمات الحياة العادلة قد تقم الواهنا الزاهية . وهذا امتنع بافнос عن دخول المدن خشية افستان يصيب القلب ، او خوار يلم بالنفس من جراء مرأى البشر .
فانطلق يضرب في الطرق الموحشة ، وكلما أمسى فداعب النسم شجر التمر الهندي ، فزع فأسدل غطاء رأسه على عينيه حتى لا يشاهد جمال الكائنات !

(١) هو السيد المسيح عليه السلام (المترجم)

وبعد مسيرة ستة أيام وصل إلى مكان يدعى « سيلسيليه » حيث يجري النهر في وادٍ ضيق تحدّه من جانبيه جبال الجرانيت ، هناك تحت المصريون أوثانهم ، أيام كانوا يعبدون الإله بالسنة . فوجد بافнос رأساً هائلاً لأبي هول لا يزال قائماً بين الصخور . خوفاً من أن يكون البليس قد نفخ فيه من روحه الشيطانية ، رسم عالمة الصليب وفاه باسم يسوع ، وطار للحال خفاش من أحدى أذني الصنم ، فعلم بافнос أنه قد طرد روح الشر التي سكنت المتمثال عدة أجيال ! فازدادت حماسته ورفع حجراً ضخماً قذفه في وجه المتمثال ، فاستبان اذ ذاك في تقاطيعه كآبة حركت في نفس بافнос عامل الحنان والشفقة . والواقع أن صورة الحزن الباردية على هذا الوجه الحجري كانت كفيلة بأن تؤثر في أقسى الناس قلوباً وأغاظتهم أكباداً وأشدّهم جموداً . . .

من أجل هذا خاطب بافнос أبا المول بقوله : —



— أَيْهَا الْوَحْشُ ! اتَّبِعْ مَثَالَ الْجِيَادِ وَالْمَعْزِ الْأَدْمِيَةِ الَّتِي رَأَاهَا
ابُونَا انطوان فِي الصُّحُرَاءِ ، وَاعْتَرَفْ بِالْوَهْيَةِ يَسُوعَ ، لَكِمَا أَبَارَكَ
بِاسْمِ الْأَبِ وَالْابْنِ وَالرُّوحِ الْقَدِيسِ !

وَلَمَّا فَاهَ بِذَلِكَ سَطَعَتْ عَيْنَا أَبِي الْمُهُولِ بِضَوءِ أَحْمَرَ ، وَارْتَعَشَتْ
جَفُونُ الْأَسْدِ الْغَلِيلِيَّةِ ، وَبَاحَتْ الشَّفَقَاتُ الْصَّوَّانِيَّاتُ بِتَأْوِهِ — كَصَدِي
صَوْتِ إِنْسَانٍ — بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ .. وَعِنْدَهَا مَدَّ بِأَفْنُوسِ يَدِهِ
الْيَمِنِيِّ وَبَارَكَ أَبَاهُولَ سِيلِسِيَّلِيهِ !

* * *

استأنف سفره بعد ذلك ، وانفسح الوادي امامه فرأى أطلال
مدينة عظيمة لا تزال المعابد باقية فيها ، تسندها الاصنام بدل العمد .
وقد القت هذه الاصنام نظرات طويلة ثابتة على بافنوس امتنع لها
واضطرب ! وهكذا سار سبعة عشر يوماً ، كان غذاؤه الوحيد فيها
بعض الاعشاب والثمار يأكلها فيجده غير ناضجة . وكان يقضى ليلاً
في خراب القصور مع القطط البرية وجرذان فرعونية ، وخلائق
هذا صدور اثنوية واعطاف مائية كأنها عرائس البحار . لكن
بافنوس ادرك انه خرجن اليه من الجحيم فأقصاهم برسم علامة
الصليب !!

وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ عَشَرَ رَأَى كُوكَحًا حَقِيرًا بَعِيدًا عَنِ الْقُرْيِ مُصْنُوعًا
مِنْ لِيفِ النَّخِيلِ ، مَطْمُورًا إِلَى نَصْفِهِ فِي الرَّمَالِ الَّتِي سَقَتْهَا رِياحُ

الصحراء . فباءه آملاً أن يجده مأهولاً ببعض المتسكين الصالحين .
ولم يكن له باب فرأى فيه جرة وركام بصل وفراشاً من المهمش ،
فقال في نفسه :

— هذا متاع ناسك ، والزاهدون لا يبعدون كثيراً عن
آ��وا خهم ، فلا ألبث أن القى الرجل وأرى أن أهبه له قبلة السلام
مقتدياً بالقديس المتسك « انطوان » الذي عانق « بولس الزاهد »
ثلاث مرات وهو مارّ به ! ! سوف نتكلم في الابديات ، وربما انزل
الله عليه خبراً بواسطة غراب فيتفضل بدعوي لتناول شيء منه !

ثم دار حول الكوخ معللاً نفسه بهذا الامر باحثاً عن الناسك .
ولم يسر الا قليلاً حتى رأى رجلاً متربعاً على ضفة النيل . وكان
الرجل عاريًا ، وشعر رأسه ناصع البياض كالحية ، وكان لون جسده
شديد الحمرة كلون الآجر ، فلم يشك بافروس في أنه هو الناسك
وخياه بتحية الرهبان المعتادة عند الملاقيا :

— السلام عليك يا اخي ! أمتلك الله بذات التعيم المقيم !

فلم يحب الرجل ولبث بلا حراك كأنه لم يسمع ، فظن بافروس
أن سكوته ناشيء عن حالة الانجذاب الذي اعتاده القديسون ،
فرفع بجانب الرجل الجھول ، مشبك الأنامل ، وظل هكذا جاثياً حتى
الغروب . ولما رأى ان رفيقه لم يحرك ساكناً قال :

— اذا كنت قد فرغت يا أبَتِ من حالة التجلي التي اراك
فيها ، فباركني باسم سيدنا المسيح !
فأجابه الرجل دون ان يلتفت اليه :
— أيها الغريب ! لا علم لي بما تعنيه ، ولا اعرف هذا السيد
المسيح !
فصاح بافنسوس :

— يا سبحان الله ! التجهل من انبأت به الأنبياء ، واعترفت
باسمك الرسل والشهداء ، وعبدك قيسر نفسه ؟ ومنذ وقت قصير
أنطلقت أبا المهوول بتجيده ، فكيف لا تعرفه ؟
— نعم يا صاحبي ! حقاًني لا اعرفه !
فدهش بافنسوس ورثى لشدة جهل هذا الرجل وقال له :
— اذا لم تكن تعرف السيد المسيح فظاهر تقواك لا تجديك
فنيلاً ، ولن تNAL الحياة الابدية .
فأجابه الشيخ الهرم :

— عبشاً يأملُ المرء ، سواه سعى او لم يسعَ ! وسيان عندي
الحياة والموت !

— واعجبنا ! أترغب عن الحياة الخالدة ؟ ألسنت تسكن صومعة
في هذا القفر مقتفيآ آثار الزاهدين ؟

— في الظاهر !

— ألا تعيش عارياً محروماً كل شيء ؟

— يُحِيلُّ اليك ذلك !

— السيدة تتغنى بالجذور ؟ السيدة متعلقاً بأهداب العفة ؟

— يظهر أنني أفعل هكذا !

— أو لم تتبدل لذات الدنيا ؟

— الحقّ أني زهدت فيها لأنني رأيت الناس شديدي الكفّ بها.

— إذن أنت مثلي في الرزق والتقشف ولكنك لست مثلي في
محبة الله وطلب سعادة السماء . فلماذا تتمسك بالفضيلة اذا لم تكن
تؤمن باليسوع ؟ لماذا تحرم نفسك متعة الدنيا اذا لم تكن تطمع في نعيم
الآخرة ؟

— أيها الغريب ! أني لا احرم نفسي ، ويسرني أنني اهتديت
إلى عيشة راضية ، وإن كانت الحياة خلواً من الطيب والرديء جائعاً .
الحقّ أن الحياة ليس فيها شيء مما يقال له شرف وعار ، وعدل
وظلم ، ولذة وألم ، وحسن وسوء . ولكنّ الناس خصوا هذه الأشياء
بأوصافها كما يعطي الماح للطعم مذاقاً .

— ففي رأيك اذاً ان ليس ثمة يقين ؟ انك تنكر الحقيقة التي
تشدّها الوثنيون أنفسهم . انك غارق في جهالتك كما يغرق الكلب
المضى من التعب في الحماة !

— أيها الغريب ! لا فائدة من سبّك الكلاب والحكاء ! إنما
لا ندرى ماهيّة الكلاب ونجعل ماهية افسنا . فلا ندرى شيئاً . . .

— أتراك إلى جماعة الألادريين تنتسب ؟ أنت اذاً أحد
أولئك الباسئين ذوي العقول السخيفة ، الذين ينكرون الحركة
والسكنون معًا ، ولا ييزرون بين نور الشمس الساطع وظلام الليل
الحالك ؟

— أجل ! أني « لا أدربي » يا صاحبي ، وأنتم الى طائفه ، اذا
كانت في رأيك مداعاة للسخرية ، ف فهي في رأيي جديرة بالاعتبار .
لان الاشياء نفسها لها مظاهر عديدة . فاها رام منفيس تبدو في مطلع
الفجر مخاريط من ضياء وردي ، لكنها تلوّح عند غروب الشمس مثلثات
حالة السواد في السماء المقدمة كشعلة من نار . فمن ذا الذي يستطيع
ان يسرّع غورها ويدرك كنهها ؟ انت تعيرني إنكار الظواهر ، والظواهر
هي وحدتها الحقائق التي أسلم بها . تبدو لي الشمس منيرة ، ولكن
طبيعتها خافية على ، وارى النيران تشتعل ، لكنني لا أعرف كيف
ولم . انك عاجز عن إدراك فكري ، ولكن هذا لا يهمني !

— أَسْأَلُكَ ثَانِيَةً لِمَاذَا تَعِيشُ مَكْتِفِيًّا بِالبَحْرِ وَالبَصْلِ فِي الْبَادِيَةِ ؟

لِمَاذَا تَقَاسِي شَظْفَ الْعِيشِ وَالْحَرْمَانِ ؟ إِنِّي أَتَحْمَلُ مُثْلَ هَذِهِ الشَّدَائِدِ

وَالْقِيَ مَا تَلَقَّى ، وَلَكِنِّي أَفْعُلُ هَذَا إِرْضًا لِلَّهِ تَعَالَى لِكِيمَا أَسْتَاهُلُ السَّعَادَةِ

الْأَبَدِيَّةِ ! فَمِنْ الْمُعْقُولُ أَنْ يَتَعَذَّبَ الرَّجُلُ لِقاءً أَجْرًا كَبِيرًا ، وَلَكِنْ مِنْ

الْجَنُونِ أَنْ يَعْنِي الْإِنْسَانُ بِمَحْضِ ارْدَادِهِ مَشْقَاتٍ لَا فَائِدَةَ مِنْهَا .

فَلَوْلَمْ أَكُنْ مُؤْمِنًا — غَفْرَانُكَ لِهَذَا التَّجْدِيفِ أَيْهَا النُّورُ الَّذِي لَمْ

يُولَدْ ! — فَلَوْلَمْ أَكُنْ مُؤْمِنًا بِحَقِيقَةِ تَعَالَيمِ اللَّهِ بِلِسَانِ أَنْبِيَاهُ وَبِبَيْنَةِ أَبْنِهِ

وَأَعْمَالِ رَسُلِهِ ، وَأَحْكَامِ الْجَامِعِ ، وَشَهَادَةِ الشَّهِيدَاءِ الْخَتُومَةِ بِدَمَائِهِمْ ،

وَلَوْلَمْ أَعْلَمْ أَنْ تَعْذِيبَ الْجَسَدِ وَاجِبٌ لِتَطْهِيرِ النَّفْسِ ، أَوْ كَنْتُ مَثْلَكَ

أَجْهَلُ أَسْرَارِ الدِّينِ ، أَعْدَتُ تُوْجًا إِلَى الْعَالَمِ وَسَعَيْتُ لِاحْرَازِ الْغَنِيَّ

لِأَعْيُشُ فِي تَرْفٍ وَرَفَاهِيَّةٍ كَالسَّعَادَةِ فِيهِ ، ثُمَّ أَصْبَحَ فِي عِبَادَ الْمَذَادِ

قَائِلًاً : هَلْمَ يَا بَنَاتِي ! هَلْمَ يَا خَوَادِمِي ! تَعَالَيْنِ جَمِيعًا وَاسْكِنْنِ خَمُورَكُنْ

وَرِحْيَقَ غَرَامَكُنْ وَعَطْوَرَكُنْ . — وَلَكِنْكَ أَيْهَا الشَّيْخُ الْمَأْفُونُ

تَمْنَعْ نَفْسَكَ كُلَّ الطَّيَّابَاتِ فَتَخْسِرُ دُونَ أَنْ تَكْسِبَ شَيْئًا ، تَعْطِيْلِي وَلَا

أَمْلَ لَكَ فِي أَنْ تَسْتَرِدَ شَيْئًا مَمَّا أَعْطَيْتَ . فِي أَغْبَى النَّاسِ مَا حَجَّتَكِ ؟

قَالَ بِأَفْنُوسٍ هَذَا بِحَدَّهُ وَعِنْفٍ ، لَكِنَّ الشَّيْخَ لَبِثَ هَادِيًّا وَأَجَابَ

بِصَوْتِ رَقِيقٍ : —

— وَمَاذَا يَهْمِكَ مِنْ حَجَّةَ كَبِيرٍ رَاقِدٍ فِي الْحَمَّةِ ؟

ولما لم يكن لبافوس سوى عرض واحد ، هو تمجيد الله ،
فقد ذهب غضبه ، واعتذر بخسوع قائلاً : —

— اعفُ عنِي يا أخي الشَّيخ ! إن غضبتي للحق حملتني على تجاوز
حدود الادب . ويشهد الله أنِي ما مقت شخصك ولكنني استنكرت
خطيئتك ، ولشدَّ ما يؤمنني أن أراك في ظلمات الضلاله مع أنِي أحبك
في المسيح ، ورغبي في خلاصك تشغلك بالى . تكلم ! ادل اليَّ
ببراهينك ، آتي مشوق الى معرفتها لا فندها .

فأجابه الشَّيخ بهدوء : —

— ان ميلي الى الكلام كرغبي في السكوت ، على أنِي سأديلي
الىك بمحاججي دون أن أسألك حجاجك ، فانك لن تستمياني بأي
حال من الاحوال . أنا لا أبالي سعادتك او شقاءك ، وسوء لدبي
السبل التي تتجه اليها أراوئك . وكيف أحبك أو أكرهك ، والميل
والنفور كلاما لا يليقان بالحكيم ؟

أما وقد سألتني فاعلم ان اسمي « تيموكايه » ، وانني قد ولدت
في « قوص » من أبوين أثرياء من الصناعة . وكانت صناعة أبي
تسليح السفن ، وكان ذكاؤه يضارع كثيراً ذكاء الاسكندر المقرب
بالاكبر . وكان لي اخوان اتخذنا صناعة أبينا ، أما أنا فقد احترفت

الحكمة . و اكره والدي أخي الكبير على الزواج بأمرأة كورية تدعى « تيماسا » ، فلم ترقه ولا طابت له عشرتها . ثم ان تيماسا هذه اغرت شقيقنا الصغير على عشق أثيم . ولم تثبت هذه العاطفة ان تحولت الى جنة مستعمرة وولع شديد . على أن الكورية أبغضتهما كائهما وهامت بزمار كانت تخلي به ليلاً في مخدعها حيث ترك ذات صباح تاجه الذي اعتادلبسه في المآدب . فلما وجده أخواني أقساما على قتل صاحبه . وفي اليوم التالي قتلا الزمار ضرباً بالسياط ولم تشفع له دموعه ولا توساته . فقدت زوج أخي رشدها من القنوط وأصبح هؤلاء الثلاثة البائسون كالوحش يهيمون على شواطئ قوص . وكانوا من شدة جنونهم يعوون كالذئاب ، يعلو الزبد أشداقهم ، وتحدق في الأرض ابصارهم ، والاطفال يضجون من حولهم ويرمونهم بالحجار والحمى . الى أن ماتوا ودفونهم أبي بيديه . ولم يلبث ان امتنع عن تناول الطعام فمات جوعاً ، مع انه كان لوفرة غناه يستطيع شراء ما يشهيه الأصحاء في أسواق آسيا . وكان يتميز غيظاً من توريثي ثروته التي بددتها بعد موته في الاسفار . فزرت ايطاليا وبلاد اليونان وأفريقيا ، فلم ألق قط عافلاً ولا سعيداً . درست الفلسفة في أثينا والاسكندرية حتى أزعجتني جلة الحوار في اختلاف الآراء . ولما وصلت أخيراً الى الهند ، رأيت على شاطئ نهر الكانج رجالاً عارياً متربعاً في مجلسه لم يفارقه منذ ثلاثين عاماً ، وقد علقت بجسمده

الضامر النباتات المتسلقة وعششت الطيور في شعر رأسه ، وهو باقٍ حيًّا . ذكرت لرؤيته تيماسا والزمار وأخويٌ وأبي ، وأدركت أن هذا الهندي حكيم . وقلت لنفسي ، « الناس يتالمون لأنهم محرومون ما يظنوه خيراً ، وإذا نالوه خسروا ان يفقدوه ، أو لأنهم يعانون ما يظنوه شرًّا . فإذا بطل كل اعتقاد من هذا القبيل زالت جميع الشرور » . هذا هو السبب الذي حال دون اعتباري شيئاً نافعاً ، وجعلني على ان أذهب مذهب الانفصال التام عن طيبات هذه الدنيا ، وجعلني أعيش في وحدة وسكون مبتعداً عن ضجيج العالم ، اقتداء بالهندي .

وكان بافنوس يصفعى بابتباه لحكایة الشیخ ، فأجاب :

— حقاً يا تيموكاية القوچي ، ان كل ما قلته غير بعيد عن الصواب . فن الحکمة ازدراء متاع هذه الدنيا ، ولكن ازدراء النعيم الابدي ، وتعريض النفس بذلك لغضب الله ، من الجنون . اني ارجي لجهلك يا تيموكاية ، وسأهديك الى الحق ، وأقودك الى محجة الصواب . فانك اذا علمت أن الله موجود في ثلاثة أقانيم ، أطعت هذا الاله كما يطيع الابن اباه . . .

فقطاعه تيموكايه بقوله : —

— كفى أيها الغريب ! كفى شرحاً وتبيناً لتعاليمك . لا تحاول ان تكرهني على قبول آرائك ، فكل جدل عقيم ؟ ورأيي الا يكون

لي رأي . إني أعيش خلواً من الهموم مادمت لا أُفضل بين الأشياء .
سر في طريقك ولا تعالج تحويلي عن الجمود الحمود الذي يغمري
كأني في حمام منعش بعد مشاغل أيامي المرهقة

كان بافظوس راسخ العقيدة قوي الإيمان . ولشدة اختباره
لقلوب البشر عرف أن تيموكيليه الشيخ قد عدته رحمة الله ، وإن يوم
خلاص تلك النفس الخاسرة لم يحن بعد ، فلم يجب خشية أن تنقلب
التبصرة تهلكة . فقد يحدث أن مجادلة المشركين تزيدهم ترددًا
وعصيًّا بدلاً من أن تردهم إلى حظيرة الإيمان ، وهذا ينبغي لمن هم
على الحق أن يذيعوه بفطنة وحذر .

قال : —

— اذن ، فالوداع يا تيموكيليه التعس !

ثم تهدت تهدًا عميقًا واستأنف سراه تحت ستار الغسق .

* * *

رأى في الصباح سرباً من « أبي قردان » واقفًا على ساق
واحدة لا يتحرك عند حافة المياه التي تعكس ظلَّ عنقه الوردية .
وقد بسطت أشجار الصفصاف أوراقها الغضة الرمادية على الشاطئ
إلى مدى بعيد ، وكانت السكرابي تطير على شكل مثلث في السماء

الصافية الأديم ، ومن بين عيadan القصب يتردد نواح مالك الحزين .
والى آخر ما تستطيع العين أن ترى يتلاطم النهر في لجته الحضراء
وفوقها الاشارة البيضاء كأنها أجنحة الطير . وهنا وهناك تهدى على
الشاطيء بيوت بيضاء يغشاها ضباب خفيف . وفي ظلال الجُزر المثقلة
بالنخيل والازهار والثمار يدوى صياح أسراب البط والأوز والنحام
والشرشير . والى اليسار يمتد الوادي الخصيب حتى الصحراء تمایل
حقوله وجناهه طرّباً . والشمس تصبغ السنابل بالذهب ، وقد فاح
عرف التربة الخصبة وعقب شذاها

ولما رأى بافتوم ، في روعة هذا المنظر ، برهان وجود ربها ،
آخر ساجداً يقول : —

— تبارك الله الذي وفقني في سفري ! سبحانك أنت الذي
أنزل نداء على أشجار التين ، أنزل غفرانك يا إلهي على روح تايس
التي برأتها وفي أحسن صورة صورتها ، لا تقل عن زهر الحمائ وأشجار
البساتين ! دعها يا إلهي تزهر بعناتي شجيرة ورد باسمية في بيت
مقدسك السماوي !

وكان كلام رأى شجرة مزهرة أو طائراً غرداً ، فكر في تايس .
وهكذا سار على ضفة النيل اليسرى بين البقاع الخصبة الآهلة حتى
وصل بعد أيام الى الاسكندرية ، التي لقبها الاغريق بالجميلة والذهبية .

وكان الفجر قد تبلجَّ منذ ساعة فلاحت له المدينة الرحمة العظيمة من مرتفع ، تتلاًّأ قبابها في ضباب الصباح الوردي . فوقف وضمَّ ذراعيه إلى صدره ، وقال :

— اذن ، هذا هو المقرُّ البديع الذي تخض بي في الخطيئة ! وهذا هو الهواء الذي منه استنشقت العطور السامة ! وهذا بحر الشهوات الذي فيه سمعتُ أغانيَّ بناته ! هودا مهدي الجنسي وموطني العالمي ! وانه في نظر الناس لمهد الورد والزهر ، ووطن المجد والفخر ! ليس عجيباً أيتها الاسكندرية أن يعزك بنوك كأم رءوم . وقد نشأتُ في أحضانك ذات الرواء وشببت في ربوعك ربة البهاء .
يد آن الزاهد يستخف بالطبيعة ، والصوفي يزدري الظواهر ، والمسيحي ينظر إلى وطنه الدنيوي كأنه منقى ، والراهب يعرض عن الدنيا ! ايتها الاسكندرية ! لقد حولت قلبي عنكِ ، فأنا أكرهكِ وأمقتكِ لغذاكِ ، لعلمكِ ، للذاتكِ ، لجمالكِ ! لعنة الله عليك يا معبد الشياطين ! يا مصحح الفجّار ! يا منبر الاريوسين الموبوء ، عليك اللعنة ! .. وأنت يا ابن السماء ، يا من هدى أبانا الناسك « القديس انطوان » لما أتى من مجاهل الصحراء ودخل معقل الوثنية هذا ، ليثبت إيمان المحتدين ، ويشد أزر المستشهدين . يا مالك الرب الجميل ، ايها الطفل غير المنظور ، يا نفحـة الله الاولى ، حلق امام عيني

وعطر برفقة جناحيك المواء الفاسد الذي سأستنشقه عماً قريب مع
مردة الشر وأبالسة الظلام :

قال ذلك واستمر في طريقه ، ودخل المدينة من « باب
الشمس » الرفيع ، وكان على تساميه وخياناته يتربع في ظله القراء
البائسون ، يستجدون المارة أو يلعنونهم التين والليمون
وكان هناك عجوز جالسة في إطار بالية ، فامسكت بسough
الراهب قبلها وقالت :

— أي رجل الرب ! باركني ليباركني الله ! لقد ذقت مر
العيش وكابدت آلاماً كثيرة في هذه الدنيا ، وأريد أن أحظى
بالمسرات في الآخرة . إنك آتي من عند الله أيها القديس ، لذلك
أعدّ تراب قدميك أغلى من التبر .

فقال بافنيوس :

— الحمد لله !

ورسم بيده عالمة الفداء والخلاص على رأس العجوز ، وسار
في طريقه

على انه لم يكدر يبتعد قليلاً حتى اعترضته شرذمة من الأطفال
جروا وراءه مستهزئين ، ورجموه بالطوب وهم يصيحون :

— يا للراهب الخبيث ! انه أسود من الغراب الاسخم ، وأقبح
التحاء من تيس ! يا له من غبي مستميت ! لماذا لم ينصبوه لعييناً^(١)
في حقل لتخويف العصافير ؟ لكن لا ! ان وضعه هناك يجعل البرد
على زهر التفاح ! انه يجعل النحس والشوم ! القوا به الى الغربان ! ؟
على الراهب ! الى الغربان !

وانهالت عليه الحجارة مع صيحاتهم ، فتمتم بافنيوس :

— اللهم بارك في هؤلاء الاطفال المساكين !

واستمر في طريقه مردداً ما يحول بخاطره :

— لقد احترمتني تلك العجوز ، وامتهنتي أولئك الصبيان ،
وكذا الشيء الواحد يقدر على وجوه مختلفة من الناس الذين هم
عرضة للخطأ في احكامهم . فيجب التسليم بأن الشيخ الهرم تيوكايه ،
مع انه كافر ، لم يكن خلواً من الاذراك . اذ أنه يعرف انه محروم
النور على الرغم من كونه أعمى . ان كل شيء في هذه الدنيا
سراب خادع ، وظلّ زائل ، ولون حائل . والبقاء لله وحده



اجتاز بافنيوس المدينة سريعاً الخطى ، وتذكر بعد غيلته عشر
سنوات كل حجر فيها ، وكان كل حجر لديه فضيحة تذكره بعصبية .

(١) اللعين ما ينصب في الزرع بئية رجل لطرد الطيور والوحوش

لأجل هذا كان يطأ حجارة الطريق حافياً بشدة وعزم ، وكان يتهج
كما تركت قدماه المزقتان أثر دمائهما عليها .

ثم سار عن يمين أروقة معبد السراليس الفخمة ، في طريق
محفوف بالقصور المنيفة التي كانت كأنها تنطف عطرًا . وهنالك
أشجار الصنوبر والاسفندان شاحنة برعوتها فوق الطنواف الحمراء
وقواعد التماثيل المذهبة . ورأى من خلال الأبواب تماثيل من
النحاس في أروقة من المرمر ، وخيوطاً من الماء النافر ترقص بين
اغصان الشجر . ولم يك ثمة صوت يكدر صفو سكون هذه الوحدة
الراقة ، سوى أنغام ناي بعيدة . فوقف الراهب أمام منزل صغير
يدفع التقسيم ، قائم على اعمدة كأنها لحسن صنعها فتيات ، ومزدان
بتماثيل نصفية من البرونز لأشهر فلاسفة اليونان ، عرف بافنوس
منهم أفلاطون وسocrates وأپيقولوزينون .

قرع الباب ولبث ينتظر وهو يفكري « إن من العبث أن يجدد
المعدن هؤلاء الحكماء المزيفين ، فترهاتهم باطلة ، وأرواهم في نار
الجحيم تلغى ، وأفلاطون الشهير نفسه ، الذي ملأ الأرض بشهرة
فضاحتها ، يجادل الآن الزانية في جهنم » ! ! !

فتح الباب زنجي . ولما رأى رجلاً حافى القدمين يطأ فسيفساء
العتبة قال بخشونة :

— اذهب ايها الراهب المهزأة ، واستجده في غير هذا المكان
ولا تنتظر حتى أطرك بالنبوت

فأجابه كاهن انصينا :

— لا أسالك شيئاً الاّ أن تأخذني الى سيدك نسياس .

فأجابه العبد وهو يعن في حنقه :

— حاشا لسيدي أن يلقى الكلاب أمثالك .

فأجابه بافوس :

— تفضل يا بني وافعل ما طلبته اليك . أخبر مولاك انى

راغب في رؤيته

فصاح الباب الساخط متھيجاً :

— اخرج من هنا أيها المستجدي الملماح !

ولكنزه العبد بعصاه ، فتلقي الضربة على وجهه ساكناً ساكتاً ،

وكرر قوله بلطف :

— أرجو يا بني أن تؤدي رسالتي الى سيدك .

فارتحف الباب ، وقد أوجس خيفة مما رأى ، وتم قائلًا :

— ثُرى من يكون هذا الرجل الذي لا يخشي الألم ؟

وانطلق ليخبر مولاه .

كان نسياس خارجاً من الحمام ، والجواري الجميلات يمسحن جسده بأدوات التدليك . وكان رجلاً رشيقاً بشوشاً ، يجمع محياه بين حلاوة الدعاية ومرارة التهمك . فلما أبصر الراهب ، تقدم اليه مفتوح الدراعين هاتقاً :

— هذا انت يا بافنوس ! رفيقي في طلب العلم ، صديقي ، أخي ! آه ! لقد عرفتك مع انك — والحق يقال — قادمٌ في صورة أشبه بالحوش منها بالبشر . أتذكري أيام كنا ندرس معاً النحو والبيان والفلسفة ؟ كنت في ذلك الحين ذا مزاج فظٍّ وحشي . ولكنني أحبيتك لأخلاقك الذي لا تشوبه شائبة . وكنا اعتدنا أن نقول عنك أنك تنظر إلى الكائنات بعيون جواد غضبان نفور ، ولم يكن جماحك ونفورك بالشيء المدهش . فلم تكن على جانب كبير من رقة القدماء ، ولكن كرم أخلاقك لم يكن له حد . لم تكن تصن بمالك ولا تبخل بحياتك . وكنت على خلق شاذ وعقرية حبتك إلى وجعلتي أميل إليك كل الميل . أهلاً بك إليها العزيز بافنوس ، ومرحباً بك بعد فراق عشر سنين ! لقد غادرت الصحراء وزهدت في خرافات المسيحية وخزعبلاتها والآن تعود إلى حياتك الأولى . ان اليوم ليوم ميمون !

ثم التفت إلى النساء وقال :

— يا كروبيل ويا مرتال ، ضمّنا بالطيب قدمي ضيفي العزيز
و يديه ولحيته .

فابتسمتا واقبلا عليه بابريق وفناني ومرأة معدنية . لكن
بافنوس وفهمها باشارة الامر ، ثم غض من بصره كي لا يراها ، لأنهما
كانتا عاريتين . فجاءه نسياس بالوسائل ، وقدم اليه طعاماً وشراباً
مختلبي الالوان ، فرفضها بافنوس كلها بازدراء وقال :

— اعلم يانسياس انني لم أهجر ما سميتها خطأ بالخرافات المسيحية
والتي هي بلا ريب حقيقة الحقائق : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة
كان عند الله ، وكان الكلمة الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن
شيئاً مما كان . فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ... »^(١)
فأجابه نسياس وهو يرتدي جلباباً معطرأً : —

— أظن يا عزيزي بافنوس أنك تدهشني بذكر أقوال
مشوشة فارغة ، لا معنى لها ولا طעם ؟ أنسىت أنني أنا نفسي فيلسوف
إلى حد معين ؟ أتخيل إليك أنك تستطيع اقناعي ببعض خرق مزقت
من ثوب اميليوس الارجوني ، في حين أنت اميليوس وبورفير
وافتاطون في أوج مجدهم ما استطاعوا اقناعي ؟ ! ان المذاهب التي
أنشأها الحكماء ليست سوى حكايات اختلقت لتسليمة طفولة الناس
الحالدة ، ويجب أن ننهو بها كما ننهو بحكايات الحمار ، ودون التبذل ،

(١) من الانجيل المقدس (المترجم)

وماترون الافيوسي ، أو أية أسطورة أخرى من الاساطير الميلزية .
ثم أخذ بذراع ضيفه وقاده إلى بهو فيه آلاف من أوراق البردي
مرکومة في سلال وقال :

— هذه مكتبتي . وهي تحوي شيئاً يسيراً من الآراء التي ابتدعها
الفلسفه لتفسير الغاز هذا الكون . ان مكتبة الاسكندرية بكل
غناها لا تحويها كلها . واأسفاه ! ليست هذه سوى أحلام قوم مرضى !

وأرغم ضيفه على الجلوس على مقعد من العاج ، وجلس هو
أيضاً . فألقى بافنوس على الكتب نظرة المعجم ” وقال :

— يجب أن تحرق كلها !

فأجابه نسياس :

— إنها تكون خسارة يا ضيفي الكريم ! فاحلام المرضى تكون
بعض الاحيان مسلية . فضلاً عن انه اذا اعدمت كل أحلام الناس
وتخيالاتهم فقدت الارض زينة اشكالها و بهجة ألوانها ، وكان نصيحتنا
جميعاً الرقاد في خمول محزن .

لكن بافنوس استطرد قائلاً :

— من الحق أن تعاليم الوثنين ليست إلا ترّهات فارغة ،
لكن الله ، وهو الحق بآيات بينات ، قد تجسد وعاش بيننا .

فأجاب نسياس :

— ما أخفم كلامك عن تجسده أيها العزيز ! لعمري أن إلهـا يفكر ويعمل ويتكلم ويمرح حسب الطبيعة ، كما كان شأن عوليس العتيق على البحر الأخضر — ان هو الا انسان عريق . وكيف يخطر ببالك أن تؤمن بچوپيتر هذا الجديد ، في حين أن صبية أثينا ، في عصر بركليس ، فرغوا من اليمان بسمـيهـ القديم ؟ ولكن دعنا من هذا ، إنك لم تأت ، كما أحسب ، للجدل في الأقانيم الثلاثة . فخبرني عـماـ أستطيع القيام به لكـ أيـهاـ الرـفيـقـ العـزيـزـ .

فأجابه قسيس انصينا :

— أعرني حلة معطرة ، كتلك التي تلبسها ، ومن عـلـيـ بنعال مذهبـةـ وقارورة ملئت زيتـاـ لأـطـيـبـ بهـ لـيـتـيـ وـشـعـرـيـ . وزد على ذلك سقطـاـ فيـهـ الفـ درـهـ . هذا ما أـتـيـتكـ فيـ طـلـبـهـ ياـ نـسـيـاسـ حـبـاـ للـهـ واـكـرامـاـ لـعـهـدـ صـدـاقـتـاـ القـدـيمـ .

فدعـاـ نـسـيـاسـ بـجـارـيـتـهـ كـروـبـيلـ وـمـرـتـالـ ، فـأـخـضـرـتـاـ أـخـرـ حـلـةـ لـهـ ، وـكـانـتـ موـشـاةـ عـلـىـ الطـرـازـ الأـسـيـوـيـ بـصـورـ الزـهـرـ وـالـحـيـوانـ . فـأـمـسـكتـهاـ المـرـأـتـانـ وـنـشـرـتـاهـاـ بـحـذـقـ بـحـيـثـ بـدـتـ الـوـانـهاـ البرـّاـقةـ ، وـأـمـهـلـتـاهـ حـتـىـ يـخـلـعـ مـسـوـحـهـ الـتـيـ تـغـطـيـهـ مـنـ رـأـسـهـ إـلـىـ قـدـمـيـهـ . فـأـعـلـنـ الـرـاهـبـ أـنـهـ يـفـضـلـ تـمـزـيقـ لـمـهـ إـرـبـاـ إـرـبـاـ دونـ أـنـ يـخـلـعـ مـسـوـحـهـ . فـسـتـرـتـاـ

المسوح بتلك الحلة . ومع ان كروبيل ومرتال كانتا من طبقة الرقيق
الاّ انه كانت لها على الرجال دالّة الحسن ، فطفقتا تضحكان من
اهيئه الغريبة التي أصبح الراهب فيها . ودعته كروبيل مولاها
العزيز ، بينما كانت واقفة أمامه بالمرأة . وشدت مرتال لحيته . غير
أن بافوس كان يصلى للله ، ويعرض عنهم بصره . ولما احتدى النعال
المذهبة وشد السقط الى حزامه قال لنسياس الذي كان ينظر اليه باسماً :

— أي نسياس ! يجب الا تكون الاشياء التي تراها معرّة في
نظرك . كن واثقاً اني ساحسن استخدام هذا الثوب ، وهذا السقط ،
وهذه النعال ، واعمل بها عملاً صالحًا .

فأجاب نسياس :

— لست أظن شرًا ولا سوءًا ، لاعتقادي أن الناس متساوون
في العجز عن فعل الشر والخير . فالخير والشر لا يتعديان حدّاً
الظن . وليس لدى الحكيم لأسباب الدعوى سوى العادة والعرف .
اني احذّر الآراء الشائعة في الاسكندرية في عهدهنا هذا . وذلك هو
سبب اعتبار الناس إياي رجلاً شريفاً اميناً . فاذهب يا صاحبي وتقنع
بما اخذت كيف شئت

لسكن بافوس استحسن أن يطلع مضيقه على حقيقة الامر ، فقال:

— أتعرف تايس ، تلك التي تمثل في المسرح ؟

— امرأة جميلة فتاة ! وقد كانت يوماً ما عزيزة جداً على
حتى أني بعثت في سبيل هواها طاحونة وحقاين كانوا يزرعان حنطة !
وأكرمتها بثلاثة دواوين من الشعر مشحونة مراثي سقيمة ! حقاً ان
الجمال هو اعظم قوة في العالم ، فإنه اذا قدر لأحدنا ان يظفر به الى
الا بد ، أغار « الخالق » و « الكلمة » و « الخلود » أقل ما يمكن
من المبالغة ! على اني أعجب يا بافتوس الصالحة لجيئك من اعمق
طيبة لستحدث عن تاييس .

ثم تهد ، فرشقه بافتوس بنظرة الذعر والخوف ، لأنه لم يخطر
بباله قط أن رجلاً يمكنه أن يقترب مثل هذا الاسم بثل ذلك المدوء .
وتوقع أن يرى الأرض قد انشقت وابتلعته . لكن الأرض لم
تشق . وباقي الاسكندري الصامت معتمداً رأسه يبتسم ببرارة
لذكيارات شبابه المدبر . فوقف الراهب وأجاب بصوت جهوري :

— اعلم يا نسياس انني أروم بمعونة الله انقاذ تاييس من حضيض
الشهوات الأرضية السافلة ، وإشراب قلبها حب المسيح لتكون
عروسه . وإذا لم يفارقني الروح القدس ، فستغادر تاييس هذه المدينة
اليوم لتهذهب الى الدير .

فأجاب نسياس :

— احذر أن تغضب « الزُّهرة » إنها إلهة قادرة ، ان أنت
حرمتها أبدع عبادها ، أوغرت صدرها عليك !

فقال بافнос :

— ان الله سيقيني ويدفع عني السوء . وعسى ربى أن ينير
قلبك يا نسياس ، ويرفعك من الهوة التي تتردى فيها .

وخرج فتبعه نسياس حتى أدركه بالباب ووضع يده على كتفه
وهمس في اذنه مكرراً قوله :

— احذر أن تغضب الزهرة ، فانتقامها شديد !

على أن بافнос لم يعبأ بهذا النذير وخرج طاوياً عنه كشحه .
فلم تبعث فيه أقوال نسياس إلاّ عاطفة الاشتياز والاحتقار . وقد
احفظه جدًا ، اذ علم أن صديقه نال حظوة عند تايس . وخيّل
إليه أن ارتكاب الخطيئة مع هذه المرأة أشنع وأشد هولاً منه مع
آية امرأة أخرى ! كان يرى في هذا الشر مخزنة مستنكرة على مثله ،
وأصبح نسياس عنده مبغضًا حقيقًا باستنزال الاعنات . كان من طبعه
كراهية الرجس ، ولكنه تمثل هذه الرذيلة فبدت له بأفظع مظاهرها .
وما سبق له أن شاطر من حميم قلبه ، المسيح في غضبه ولا الملائكة
في حزنهما ، كما شاطرهم الآن .

وكان كلاماً فكراً في ذلك يزداد ميلاً إلى اقتاذ تابيس من وسط الفجار . وما كان ينقصه إلا أن يراها ليتسللها من بينهم . غير أنه كان لا مناص له من التريث حتى يعتدل الجو ، إذ كانت الشمس لا تزال رأد الصبحى . فسار بافنوس في شوارع البلد الآهلة ، وقد اعتزم الامساك عن الطعام في هذا النهار حتى يكون أهلاً لما يتلمسه من عون الله ورضاه . وكان لشدة حزنه لا يجرؤ على دخول كنيسة من كنائس المدينة لعلمه بأنها ملوثة بدنس الآريوسيين الذين قلبوا موائد الرب . وكان امبراطور الشرق يشد أزر هؤلاء المراهقة الضالين الذين طردوا اثناسيوس بعد أن القوه عن كرسى اسقفيته وبثوا الفتنة بين نصارى الاسكندرية .

فسار معتسفاً ، تارةً يلقي بنظره إلى الأرض في اتضاع وخشوع ، وتارةً يرفع بصره إلى السماء في تحلي الانجداب . وبعد أن سار قليلاً على غير هدى وجد نفسه على رصيف من أرصفة المدينة . وكان المينا يضم سفناً عديدة والبحر يوج معجباً بلجاجه اللجيئية الزرقاء . وكان هناك مركب يحمل في مقدمته « بنت البحر » وقد رفع البخار مرساه وهم يغنوون ويشقون صدور الأمواج بمجاذيفهم ، ولم تثبت السفينة البيضاء المغطاة باللؤلؤ الرطب ، أن أصبحت في عيني الراهب أثراً بعد عين ، وأبحرت يقودها ربانها في مضيق حوض

«الاينستوس» ، وأوغلت في عباب البحر الزاخر تجُّرُوراً وراءها ذيلاً من الزبد .

فقال بافنوس في نفسه :

— لقد تمنيت أنا أيضاً أن أختر عباب اوقيانوس العالم رافعاً عقيرتي بالغناه ، لكنني ما لبست أن أدركت مبلغ حماقتي فلم تغلبني إلهة البحر على أمري .

ثم جلس على ربطه من الجبال وما لبست أن استغرق في النوم ، ورأى رؤيا : خليل اليه فيها أنه يسمع نفخاً في صوري ، ورأى السماء حمراء كأنها صبغت بالدم ، فعلم أن الساعة قدأت وحان يوم الحساب . وفيما هو يضرع إلى الله بحرارة ، رأى وحشاً هائلاً يتقدم اليه وعلى جيئنه صليب من نور ، فعرف فيه أبا هول سيلسيليه . فأمسكه الوحش بين فكّيه من غير أن يصبه بأذى وحمله في فمه كا تتحمل القطة صغارها وقطع به ممالك عديدة عابراً الانهار ، محتازاً الجبال ، حتى آتى مكاناً قفاراً مغطى بالصخور الضخمة والرماد الحار ، وكانت الأرض مشققة في عدة مواضع يخرج من فوهاتها لهيب وبخار ، فأنزله الوحش على الأرض برفق وقال له :

— ازظر !

فأشرف بافنوس من حافة الهاوية فرأى وادياً من النيران
يتلألئ في جوف الأرض بين جرفين من الصخور السوداء . وشاهد
الزبانية تسموم أرواح الخاطئين سوء العذاب ، وقد احتفظت تلك
الأرواح بظاهر أشكالها الجسدية ، حتى ان قطعاً من النسيج كانت
لا تزال عالقة بها . وأدهشه أنه كان يبدو على هذه الأرواح علامات
الطأينة في هذا العذاب الذي يكابدونه . ومنها روح طولية القامة ،
بيضاء ، مغمضة العينين ، على جبينها عصابة ويدها صولجان . غفت
فلا صوتها الوادي الجدب بالحان موزونة ، وشدت بذكر الآلة
والبطال ، وكانت العفاريت الصغيرة الخضراء تحرق شفتيها ونحرها
بحديد محمي . . وظل طيف هوميروس يعني . . ! وعلى مقربة منه ،
الشيخ أناجزاجور ، وكان أصلع أشيب ، يرسم بالفرجار أشكالاً في
التراب ، وهناك شيطان يصب الزيت الغالي في اذنه وهو جاد في عمله !

ورأى الراهب فيما رأى ، طائفة من الناس على جانب وادي
السعير ، يقرأون ويتحدثون في اطمئنان وهدوء ، وهم يتزهرون كما
ي فعل الاستاذة والطلبة في ظل اشجار الأكاديمي !!

وهناك على حدة ، وجد تيموكيليه الهرم قد اخذ مكاناً قصياً ، يهز
رأسه هزة الجحود والانكار ، وبجانبه أحد زبانية الهاوية يحرك
شعلة امام عينيه ، وتيموكيليه لا ينظر اليه !

عقدت الدهشة لسان بافوس فالفت الى الوحش واذا به قد
اختفى ، ورأى مكانه امرأة مقنعة قالت له :

— انظر واعتبر بهؤلاء المشركين فانهم خالدون في جهنم فرائس
الأوهام التي أغواهم وأضلتهم في الحياة الدنيا . لأن الموت لم يكشف
الغشاوة عن بصائرهم ليروا . فما الموت بكافي لرفع الحجاب عن الحقيقة .
والذين كانوا في الحياة جاهلين سيفرون في الجهل خالدين . وما اولئك
الشياطين الذين يستدون في تعذيب تلك النفوس سوى صور محسوسة
يتحلى فيها العدل الرباني . لهذا ترى تلك النفوس عاجزة عن رؤيتها
والشعور بها لأنها بعيدة عن كل حق فلا تدرى قضاء الله عليها وتعمى
عن الصواب

فقال كاهن انصينا :

— ان الله على كل شيء قادر

فأجابـت المرأة المقنعة :

— انه جل شأنه لا يفعل شيئاً عبثاً . فعقابهم يقتضي انارة
بصائرهم ، فإذا ملـكـوا ناصية الحق أصبحـوا كالمحـتـيين
عاد بافوس يطل ثانية على المـاوـية . وقد طـارـ لهـ روـعاـ
وفزـعاـ . فرأـى طـيفـ نـسيـاسـ تحتـ الـريـحانـ المحـترـقـ يـبتـسمـ وجـيـنهـ متـوجـ
بالـزـهـرـ وـبـجـانـبهـ «ـ اـسـيـازـ يـاـ »ـ تـختـالـ بـدـلـالـ وـرـشـاقـةـ فـيـ ثـوـبـهاـ الصـوـفيـ ،

يلوح عليهما انهم يتكلمان معًا في الحب والفلسفة . وعلى محياتها
سمات الملاحة والنبل . وكان سيل النار يتساقط عليهمَا كأنه برد
وسلام . وكانت أقدامهما تطاً الأرض المضطربة وكأنها العشب
الندي . فاهتاج بافنوس لهذا المنظر هياجاً شديداً وصاح :

— عدلك يارب عدلك ! أنزل مقتتك وغضبك ! هذا نسياس ،
دعه ييكي ويتوجع ! اجعل اسنانه تصطرك ، انه جنى على تاييس !
واستيقظ بافنوس بين ذراعي بحار قوي كهرقل كان يحمله
ليضعه على الرمل وهو يقول له :

— هدوءاً وسلاماً ايها الصاحب ! بحق « بروتية » الـ
البحر ، انك تضطرب في نومك ! ولو لم اكن قد أمسكت بك
لسقطت في « الاينوسitos ». فلا تشک في اني أنقذت حياتك ،
كلا أأشكُ في أن أمي تتبع الفسيخ !!

فأجابه بافنوس بقوله :

— الحمد لله !

ثم نهض وسار يفكر في الحلم الذي رأه ويقول في نفسه :

— ان هذا الحلم شر ظاهر ، انه يسيء الى العزة الالهية بتمثيل
الجحيم كأن ليس له ظل من الحقيقة ، حقاً ان هذه أضطرابات أحلام
من عمل الشيطان !

وينما كان يعاتب الله على تحاليفه عنه وتركه لسلطان الشيطان ،
كانت تدفعه جماهير من الناس تسير مسرعة في طريق واحد .
ولما لم يكن معتاداً السير في المدن فانه تعثر في طيات ثوبه وسقط
غير حرة .

وأراد معرفة مقصد أولئك الناس فسأل أحد هم عن سرّ هذه
العجلة فأجابه :

— ألا تعرف أيها الغريب أن الألعاب ستبدأ ، وأن تاييس
ستمثل ؟ هؤلاء كهم ذاهبون الى الملعب وأنا ذاهب اليه مثالم .
فهل ترق لك صحبتي ؟

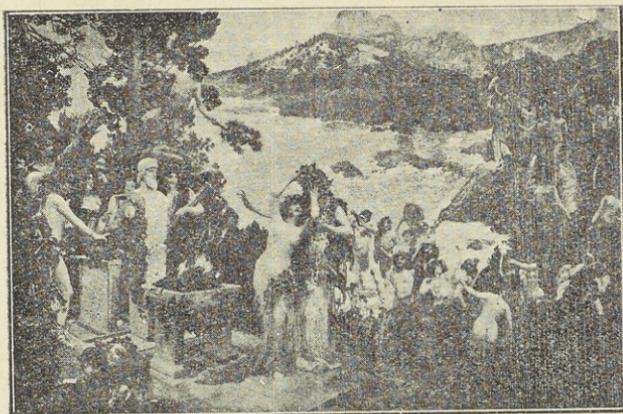
فقطن بافنوس الى أن رؤية تاييس في العابها توافق خطته ،
وتبع الرجل الغريب .

وكان الملعب امامهما عزانا ايوانه بصور الوجوه المستعارة
الزاوية ، وعلى سوره تماثيل لا تمحى . فتبعا الجمود ودخلوا دهليزاً
ضيقاً في نهايته مدرج تستطع فيه الأنوار . فجلسا في أحد الصنوف .
وكان المسرح باديأاً في أجمل زينة وأبدع مثال ولا يزال خالياً . ولم
يك ثمة ستار يحجب المشهد . وكان على المسرح هضبة كالتي كان
يقيمها الأقدمون لأرواح أبطالهم . وكانت هذه الهضبة في وسط
معسكر . وقد وضعت امام الخيام حزم الرماح ، وعلقت الترسos

الذهبية على الأعمدة بين أكاليل من الغار وتيجان من أوراق شجر البلوط — ينحيم عليها جمِيعاً السكون . لكن دويًا كأزير النحل دوى من نصف الدائرة حيث جلس المشاهدون ، وقد تحولت وجوههم الحمراء ، من انعكاس الثياب القرمزية عليها ، نحو ذلك المكان الرب الصامت بهضبه وخيمه . وكان النساء يضحكن وهن يأكلن الليمون ، وكان المتربدون على الملعب يتلاقون فيتعارفون بابتهاج وابتسم .

صلى بافнос في نفسه ، وأمسك عن لغو الكلام ، لكن رفيقه أخذ ينتقد الملعب ويشكو من تأخر حاله ، فقال :

— قدِيماً كان الممثلون البارعون يلقون من تحت الوجوه المستعارة أشعار يورپيدس ومناندر ، أما الدراما فلا تلقي الآن وإنما يقلدونها باشارات كأنهم صم بكم ، ولم تبق لنا من المشاهد السامية التي وضعَتْ أكراماً لباخوس في اثنينا إلا ما يستطيع أن يفهمه الرجل الساذج ، لأنَّه ليس سوى مظهر وإشارة . أما برقع المأساة الذي كان موضع الفم فيه مجهزًا بأسنة من معدن تزيد في جهارة الصوت ، والمطوالات التي كان يلبسها الممثلون فتبليغهم طول الآلة ، وجلال المأساة والقصائد التي كانوا يتنون بها — هذه كلها قد امْحَتْ ، وحلَّ الممثلون الصامتون ، والراقصات السافرات محلَّ بولوس



(تكريم باخوس ، الـ الحـرـ ، في أثـينـا)

وروسيكوس . ثـرى ماذا كان الأثـينـيون معاصرـو پـركـلـيس يقولـون
لو انـهم رأوا امرـأة تـبـدو للـعيـان ؟ انـ سـفـورـ المـرأـة عـيـب ، ولاـ رـيب
أنـ رـضـانـاـ به تـقـهـرـ وـالـحـطـاطـ . حـقـاـ ، انـ المـرأـة هي عـدـوـ الرـجـلـ الطـبـيعـيـ
وـسـوـءـ الـوـجـودـ .

فـأـجـابـ بـافـنـوسـ :

— أـصـبـتـ ! فـانـ المـرأـة أـشـدـ أـعـدـائـناـ ، لأنـها تـمـلـكـ قـيـادـ
الـذـاتـ ، وهذا سـرـ قـوـتهاـ .

فـصـاحـ دـورـيـونـ :

— وـحقـ الـآلهـةـ إـنـ المـرأـة لاـ تـمـنـحـ الرـجـالـ لـذـةـ بلـ تـجلـبـ الحـزـنـ ،
والـنـصـبـ ، والمـمـومـ السـاحـقةـ ! الحـبـ مـصـدرـ آـلامـاـ المـحرـقةـ ! اـسمـعـنيـ
أـيـهاـ الـأـجـنبـيـ :

ذهبتُ في صباعي الى تيريزنا بأرجوليد، ورأيت هناك ريحانة كبيرة
الحجم موخزة الاوراق ، ويقول سكان تيريزنا عنها : انه لما هاجمت
الملكة فيدروس بحب هيپوليتس ، قضت سحابة يومها جاثية في ضفني
وكلال تحت هذه الشجرة. وفي أثناء ضجرها وإعياها أخذت دبوسها
الذهبي الذي يمسك شعرها الاشقر ووخررت به اوراق الشجرة ذات
الشذى العطري، وبعد ان صادت الرجل البريء الذي نصب لها شرك
هواها ، ماتت فيدروس شر ميتة كما تعلم ، فقد أغلقت باب مخدعها
وشقت نفسها بمنطقتها الذهبية معلقة في سمار من العاج . وأرادت
الآلهة أن تبقى الريحانة شاهدة على هذا الشقاء ، تحمل فوق اوراقها
الغضة المتتجدة وخرزات الدبوس الى نهاية الدهور . وقد قطفت احدى
هذه الاوراق ووضعتها فوق مضجعي زجرًا للنفس عن التطوع في مهامه
الحب ، مستعيناً بحكمة أستادي العظيم الذي من تعاليمه أن الشهوة
محوفة . وصفوة الكلام أن الحب دائم محروم لاخلاص منه غالباً

فسألة بافموس :

— فِيم مَسْرّاتِكَ اذَاً يَا دُورِيونَ ؟

فأجاب دوريون باكتئاب :

— لي لغة واحدة ، هي التفكير . وليس الذي معدة ضعيفة

مثلي أن يبحث عن سواها .

فأتهز بافوس هذه الفرصة ، وبدأ يعرّف الأيقوري بالسرات
الروحية الناشئة عن مناجاة الله والتأمل في ذاته العالية ، فقال :

— استمع للحق يا دوريون ، وتلق النور

فما لبث أن رأى الرؤوس والأذرع تتوجه إليه من كل صوب
تأمراه بالسكتوت . وخيم على الملعب سكون عميق أعقبته نغمات
المusic الحماسية .

بدأت الالعاب، وشوهدت الجنود تغادر الخيام وتسعد للرحيل ،
وعندئذ حدث أمر عجيب رهيب ، اذ غطت سحابة قمة الهضبة ثم
انفسحت وظهر طيف «أشيل» في درع من ذهب ومد ذراعه نحو
الحاربين كأنه يقول لهم : «ما هذا يا أبناء دانوس ، أتعودون الى
الأرض التي لن أراها ثانية ، وتغادرون قبرى بغير أن تقدموا لديه
الذبائح والقربائن؟»

فاجتمع فوراً قواد الأغريق حول سفح الهضبة ، ولينهم
أكناس بن تزيس ، ونستور الشيخ ، وأجا منون يحمل الصولجان
وعلى جبينه عصابة — وجعلوا يتفرسون فيما حدث . وكان بيروس
ابن أشيل الصغير ساقطاً على الأرض ، واتضحك من حركات عوليس ،
المعروف بقلنسوته التي يظهر من تحتها شعره الجعد ، انه راض بما يطالبه

طيف البطل ، وكان يحاور أجاممنون ، واستطاع الحضور أن يفهموا
أقوالها من اشاراتها ، وحسبوا ملك اتيكا يقول :

— ان أشيل يستحق منا كل إعظام وتقدير ، وهو الرجل
الذى مات أشرف ميتة في سبيل اليونان ، وهو يطلب العذراء بوليسكينا
ابنة پريام ليضحي بها على قبره ، فيا أيها اليونانيون ! ادخلوا السرور
على طيف البطل واجعلوا ابن پيسليه يفرح في مقره الابدي

لكن ملك الملوك أجاب :

— لنبقين على عذارى طروده اللواتي اقذناهن من المذاجع ،
فكمي ما نزل من الإحن والمصائب بالجنس الپريامي الجليل .

قال ذلك لأنه كان يهوى اخت بوليسكينا ويقاسمها مضمتعها .
فعيره عوليس الحكيم أنه يفضل فراش كساندرا على رمح أشيل
وأخيراً ، وافق اليونانيون على اقتراح عوليس بأن قرعوا
أسلحتهم بعضها البعض . وتهرت تصحية بوليسكينا ، فاطمأنت روح
أشيل واحتفي طيفه مغبظاً .

وكانت الموسيقى تارة تعصف وثور ، وتارة تئن وتتوح ، وهي
تتشي إحساس الجمهور وعواطفه . فصفق الحضور طر يا واعجايا
الا بافنوس ، الذي يعزو كل شيء الى الله الحق ، فانه قال :

— من هذه القصة نرى كيف كانت قسوة الذين عبدوا
الآلهة الباطلة !

فأجابه الإبيوري :

— ان الأديان كلها تلد الجرائم ! ولحسن الحظ ، أوي أغريقي
الحكمة ، خلص الناس من مخاوف المجهول التي لا أساس لها . . .

وهنا غادرت هيكيو با الخيمة التي كانت فيها اسيرة وهي شعثاء
الشعر ، ممزقة الشوب . فارتفعت تأوهات عالية من قلوب الحاضرين
حين شاهدوا صورة شقائهما مجسمة . وكانت هيكيو با قد أندرت بروءيا
صادقة ، فبكت واستبكت لنفسها ولابنتها ، فدنا منها عوليس وسألها
أن تسلم بوليكسنا ، فشدت شعرها بيديها ، وخدشت خديها بأظافرها ،
و قبلت يدي ذلك الرجل الغليظ القلب الذي خاطبها بقوله :

— تعقلي يا هيكيو با وأخضعي لحكم الضرورة . فان في منازلنا
أيضاً أمهات عجائز يكينن اطفالهن الذين ناموا تحت أشجار صنوبر
إيدا نوماً أبداً .

أما كسنдра التي كانت يوماً ملكة آسيا الغنية ، وأصبحت
الآن جارية ، فانها حبت التراب على رأسها .

ثم رُفع ستار الخيمة . وظهرت العذراء بوليكسنا . فسرت

في المشاهدين جمِيعاً هرَّةً اذ عرَفُوا انها تاييس . وأبصراً بفنوس ثانية
المرأة التي جدًّا في طلبها

وظهرت تاييس بعد ان رفعت يدها البيضاء ستار الخيمة ، ثم
لثبت واقفة بلا حراك كتمثال بديع ، والقت من عينيها البنفسجيتين
نظارات الدلال والخيال ، فقتن جمالها الباهر كل قلب ، وأحس كل
من شاهدها برجفة آثارت فيه عوامل الشفقة والحنان .

وارتفعت من الحاضرين أصوات الاستحسان ، حتى أن بافنوس
عقد يديه فوق صدره ، وشدّ على فؤاده مفتوناً ، وتهجد متاؤها ،
وقال : —

— رب ان هذا سلطان شديد ، لواحدة من خلقك ، على عبادك !

وكان دوريون أقل تأثراً منه فقال :

— حقاً إن الذرّات التي تألفت منها هذه المرأة كونت تركيّاً
بديعاً يسر النظر . وليس ذلك الا احدى دعابات الطبيعة وهي تاهو
وتلعب ، فالذرّات لا تدرك ماتكونه ، وسوف ينحل بعضها عن بعض
وتقترن كما اتحدت ، أي بغير شعور بالاتحاد ولا بالتفرق . وأين أين
الذرّات التي تكونت منها لاعيس أو كليو بطرا ؟ لست انكر أن النساء
في بعض الاحيان جميلات ، لكنهن جُعن عرضة للقبح والقليل !

هذه مسائل تشغّل عقول المفكّرين ، في حين أنّ السفلة
الاجلاف لا يعنون بها ولا يتقدّنون إليها. النساء يصرّمن الحبّ فينا
ويوحّنه إلينا ، ولكنّ الهمّ بهن مخالف للعقل والحكمة .

كذلك فكر الفيلسوف ، وكذلك فكر الزاهد في تاييس ،
وتابع كلّ منهما سبيلاً خواطره ، فلم يلحظا اتجاه هيكوا إلى ابنتهما
وقوها باشارتها :

— حاويي أن تؤثّري في قلب عوليس القاسي ، كميه بدموعك
وجمالك وشبابك !

فأرخت تاييس ، أيّ بوليكسنا ، باب الخيمة ، وخطّت خطوة
فاستولت على كلّ القلوب . ولما تقدّمت نحو عوليس بخطى ثابتة
سريعة ، بعثت حركاتها المتوازنة المرتبطة بأنعام الناي الشجّية ، في
أذهان الحضور كلاماً لذيدة فأحسّوا كأنّها هي الحور الآلهي
الذى تدور حوله أنظمة الكون جميعاً ! فلم يروا أحداً سواها ،
وكشفت أنوار جمالها كلّ ما عداها ، ولم يحظ المثلون الآخرون
بأدئني التفات . ثم استمرّ التمثيل .

أدّار « ابن ليت » الحصيف رأسه ، وأخفى يده تحت معطفه ،
ليتّحاشى نظرات الفتاة المتضرّعة وقبلاتها ، فأشارت إليه العذراء ألاَّ
يخافها ولا يخشّها ، وقالت بسان نظراتها الماءة :

— أني أمتك يا عوليس ! سأبعك خاضعة للقضاء ، لأنني
راغبة في الموت . أنا ابنة بريام وأخت هيكتور التي كانت يوماً
جديةة بالملوك فلن أرضي سيداً أجنبياً - أني بملء الرضى أندى الحياة ؟
وكانـت هيـكـوـ باـ جـاهـيـةـ عـلـىـ التـرـابـ ، فـهـضـتـ جـاهـةـ وـعـاقـتـ
ابـنـهـاـ عـنـقـ الـيـاسـ وـالـقـنـوـطـ ، فـأـبـعـدـتـ پـوـليـكـسـنـاـ ، بـلـطـفـ لـاـ يـقاـومـ ، ذـرـاعـيـ
أـمـهـاـ عـنـهـاـ ، وـكـأـنـهـاـ تـقـوـلـ :

— لا تعرضي نفسك يا أماه لعدوان السيد ، لا تنتظري منهـ
شفقة ولا رحمة ، أيتها الأم المحبوبة ، هات يدك ذات الغضونـ
وقربني خديك الضامرین الى شفتي !

زاد الحزن وجه تاييس حسناً واشراقاً ، وشعر الجبهور بامتنانـ
نحوها لمتشيلها أمامه أهواء الحياة وأشكالها في رقة فائقة . وسامحـ
بافنوس زهوها الحالى اكراماً لاتضاعها الم قبل ، واثنى على نفسهـ
سالفاً من اجل القدسية التي سيضمها عما قريب الى السماء !



وقارب المشهد الختام . فسقطت هيـكـوـ باـ كـالـمـيـةـ ، وـتـقـدـمـتـ
پـوـليـكـسـنـاـ ، يـقـودـهـاـ عـولـيسـ ، إـلـىـ القـبـرـ المـحـوطـ بـصـفـوـةـ رـجـالـ الـحـرـبـ ،
وـصـعـدـتـ مـزـفـوـفـةـ بـتـرـاتـيـلـ الـحـزـنـ الـمـؤـثـرـةـ ، إـلـىـ قـمـةـ الـهـضـبـةـ حيثـ قـدـمـ

ابن أشيل الخمر في كأس ذهبية الى طيف البطل . ولما مدد المقربون
أذرعهم ليمسكوا بها وأشارت اليهم برغبتها في الموت طلقة غير مقيدة
كما يليق بسليلة الملوك مثلها ، ثم مزقت قميصها وكشفت عن موضع
قلبها ، فغيب فيه بروس حسامه وقد حوال رأسه ، ففاض الدم ، بحيلة
فنية باهرة ، متدققاً من صدر العذراء الناصع ، وسقطت بجسدها وخفر
منحنية وقد نكس رأسها ، وغارت عيناهما من تأثير الموت وهو له .

كفن المقربون الضاحية وغطواها بالزنبق وشقائق النعمان في
برهة مليء الجوف فيها بصيحات الفزع والانين والتاؤهات . فهض
باقوس واعتل مقعده وتباً بصوت جهوري كالرعد ، هذه النبوة :

— أيها الذين كفروا وعبدوا الشياطين ! أيها الأريوسيون
وأنتم أشد طغىاناً من الوثنين ! ان ما ترون الآن إن هو إلا مثال
ورمز ، هي خرافة تشتمل مغزى دينيًّا ساميًّا . فان المرأة التي مثلت
أمامكم التضحية سوف تقبل الموت باختباط في سبيل الله . . .

ولكن الجموع كانت قد تسبقت الى الخروج كلوج الزاخر ،
واستطاع كاهن أنصينا أن يتخلص من دوريون المذهول فانطلق
وهو لايزال يردد نبوءته .



وبعد ساعة من الزمن طرق باب تايس .

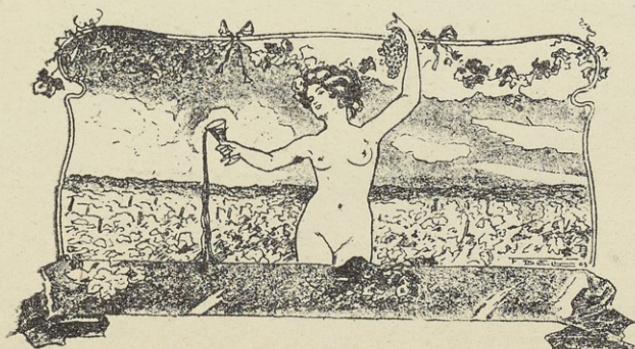
وكان الممثلة تسكن بيتاً محاطاً بجنبات وارفة الظلال فيها
صخور صناعية ينساب في وسطها غدير مزدان بأشجار المور، في
حي را كوتيس بقرب قبر الاسكندر.

ففتحت له الباب جارية سوداء شمطاء مقللة بالحلي، وسألته عما
يريد، فأجابها:

— اروم رؤية تاييس، والله يشهد أني ما أتيت إلى هنا
الآن لرؤيتها.

وأبصرت الجارية أنه يلبس ثوباً فاخراً ويتكلم بأبهة السيادة
فسمحت له بالدخول وقالت:

— تجد تاييس في كهف العذاري





البردى

ولدت تايس من أبوين فقيرين ، وثنين . وفي أيام حداثتها كان ابوها يدير حانة على مقربة من باب القمر بالاسكندرية يتعدد اليها البحارة . فرسخ في ذهنها تذكرة أمور كثيرة عن الحانة وما يتعلق بها . كانت تذكر أباها وهو متربع في زاوية البهو ، طويلاً ، وهيباً ، هادئاً كأنه أحد أولئك الفراعنة الذين كان العبي المسؤولون يمجدونهم في أغانيهم المخزنة وهم جالسون في مفارق الطرق . وتذكر أيضاً أمها النحيلة المكتتبة تذرع البيت وتطوف به كقطة جائعة ، يملأ صوتها المنكر رعباً ، وعينها البراقان شرراً . وقد شاع عنها في الصاحية أنها ساحرة تتتحول في الليل إلى بومة لتقلاقى

عشاقها ! على أن هذه الاشاعة زور وبهتان ! فقد تحققت تاييس من ملاحظتها الدائمة لأمها أنها لم تستغل قط بفنت السحر ، ولكن لشدة تفانيها في الشح والجشع كانت تقضي سواد ليلاً تحصي دخل يومها .

فأبواها الفاتر المهمة ، وأعماها البخيلة ، كلّاهم أقلياً حبلها على غارها ، وتركاها كدجاجة في حظيرة الطيور البيتية ! فهُرِت مهارة لا تُجاري في سلب دراهم البحارة السكارى ، تتناولها من أحزمتهم وهي تباسط لهم بالغنى الصبيانية ، والكلمات الشنيعة التي كانت تحمل معناها . وكانت تتنقل من ركبة إلى ركبة في القاعة المشبعة برائحة الحمور والقربانى الناجية ، ثم تعود ويداهما الصغيرتان قابضتان على الذريهات ، ووجهها مندّي برشاش الجمعة المتطاير ، مخدّش من اللحى الكثثة ، وتجري لشراء أقراص الشهد من امرأة عجوز جالسة في كُنْتَةٍ تحت باب القمر

وهذه المشاهد كانت تتكرر كل يوم . فيذكر البحارة ما لا يقهرون من الاخطار في أثناء اشتداد العاصفة ، ثم يلعبون النرد والسكاك ، ويطلبون ، وهم يجذفون ، أحسن جمة كل كشكية .

وكانت الطفلة تاييس تستيقظ كل ليلة على شغب السكارى وعرّاً ك THEM ، وعلى ما يتتساقط فوق الموائد من قذائف المخار وسط

الصحاب والضجيج المتعالي ، وترى بعض الاحيان ، على ضوء المصابيح الكثيرة الدخان ، المدى تلمع والدم يسيل . . .

ولم تعرف الطيبة البشرية في ريق عمرها الا في شخص « احسن » الذي كانت تقاسمها المذلة . وأحسن هذا عبد البيت وهو توبي أشد سواداً من القدور التي يعني بفركها وتنظيفها ! لكنه كان طيباً كالليل الذي يُقضى في نوم عميق لا يتخلله سهاد ! وطالما وضع تاييس على ركبتيه يقص عليها قصصاً عن معاور مملوءة كنوزاً وقد بُنيت لملوك أشحاء أعدموا الذين بنوه لهم ! وكان في تلك القصص أيضاً لصوص حذّاق يتزوجون من بنات الملوك ، وسراري يلعن اهرااماً !

فأحببت تاييس الصغيرة أحسن حب الطفلة للأم والاب والمرضع والكلب ! تعلقت بالعبد وكانت تتبعه إلى قبو دنان الجمر وحظيرة الدجاج بين الفراغ الضامر المتقدمة التي ترفرف طائرة أمام مدينة الطاهي النجفي أسرع من فراغ النسور ! وفي كل ليلة تقريباً ، كان يصنع لتاييس الطواحين والسفن بحجم راحة اليد ، وفيها كل معداتها .

وكان إحدى أذنيه مصلومة من سوء معاملة سادته له ، وقد غطت الندوب جسده ، ولكن كان على وجهه مسحة الطفانية

والانبساط ، ولم يخطر لأحد أن يسأله من أين استمد عزاء النفس وراحة الضمير . فقد كان ساذجًا كالطفل ، وكان وهو يؤدي عمله اليومي الشاق ينشد بصوت أبجشٌ أناشيد تبعث في نفس الفتاة الرجفة والاحلام .

كان يتربم مسروراً بصوت جهوري يقول :

« — خبرينا يا مريم ، ماذا رأيت حيث كنت ؟

« — رأيت الكفن ، ونسيج الكتان ، والملائكة جالسين

عند القبر ، وشهدت محمد المبعوث

فسألته تايس مرةً :

— لماذا تتغنى يا ابنت بقولك : « الملائكة جالسون عند

القبر ؟ »

فأجابها :

— أيتها الصغيرة ، يا نور عيني ! أني أتعنّى بذكر الملائكة ، لأن سيدنا المسيح قد صعد إلى السماء

كان أحسن مسيحيَاً ، مُعمَداً . وفي اجتماعات المؤمنين التي يحضرها سرًّا في الوقت المعين لنومه ، كان معروفاً باسم تيودور .

في ذلك العهد كانت الكنيسة تقامي أكبر البلاء وأشد

الاضطهاد . فأمر الامبراطور هدمت الكنائس ، وأحرقت الكتب المقدسة ، وصهرت الاوعية الطاهرة والمسارج ، وجرّد المسيحيون مما ملكت أيديهم ، وما كانوا يتوقعون سوى الموت . وساد الرعب طوائف الاسكندرية وببلاد العرب وبين النهرين وغيرها من بلدان الامبراطورية الرومانية . وسلطت السياط ومطابا التعذيب والخالب الحديديه والوحوش الضاريه على الاساقفة والعذارى ففرّقهم شرّ ممزق . فانقضَّ انطوان ، زعيم المؤمنين الذي كان مشهوراً في مصر بزهده وتقواه ، انقضاض النسر على مدينة الاسكندرية ، وخفَّ من كنيسة الى كنيسة يشدد عزم المؤمنين ، ويليث في قلوبهم روح الشجاعة والقوة وال毅ان والصبر على المكاره . وكان اضطهاد العبيد على الخصوص بالغاً أشدَّه ، فارتدىَ كثيرون منهم لما أصحابهم من المزعزع ، وهرب آخرون الى الصحراء بأمل أن يعيشوا فيها نساً كاكاً زاهدين ، أو لصوصاً ناهبين !

أما أحمس فظل مع هذا كله يغشى كعادته المجتمعات ويختلف اليها . فزار المسجونين ، ودفن الشهداء ، واعترف وجاهر مبتهمجاً بدين المسيح . ولما شاهد أنطوان العظيم ، قبل رجوعه الى الصحراء ، هذه الحمية الصادقة ، احتضن العبد الاسود ومنحه قبلة السلام . . .

ولما باغت تاينس السابعة ، بدأ أحمس يحدّثها عن الله ، قال :

« — ان الله سبحانه وتعالى قد عاش في السماء ، كفرعون ، في خيمة حريميه ، وتحت أشجار جناته . وهو أزلي منذ الازل لا بداية له . وليس له من ولد سوى الامير يسوع الذي يحبه بكل قلبه ، والذي يفوق بجماله العذاري والملائكة جمیعاً

وقال الرب للامير يسوع :

« — اترك حريمي وقصرى ونجيلي وأهارى وانزل الى الأرض لخير البشر . ستكون فيها كطفل صغير . وتعيش فقيراً بين القراء . سيكون الألم خبزك اليومي ، وستدرُّف دموعاً غزيرة تجري أنهاراً يستحم فيها العبيد المرهقون مبهجين — اذهب يا بني ! » فأطاع الامير يسوع وهبط الى الأرض بـكان يسمى بيت لحم في أرض الموعد وسار في الرياض المنورة بشفائق النعان قائلاً لصحابه :

« — طوبي لا ولئك الجياع لأنني سأجلسهم على مائدة أبي ! طوبي لا ولئك العطاش لأنهم سيسألون من عيون السموات ! طوبي لا ولئك الذين يكون لأنني سأرقى دموعهم بتقبيل أبدع من ثقب القيان ! »

لهذا أحبه القراء وأمنوا به ، لكن الأغنياء مقتوه خشية أن

يفضل القراء عليهم

«وفي ذلك العهد كانت كيلوباترا وقيصر قوت في الأرض لا تتحدى،
وكلاهما كرها يسوع وأمرا الحكام والكهنة أن يقتلوه . فنصب أمراء
سورية ، إطاعة لملكة مصر ، صليباً فوق جبل عال وصلبوا المسيح
عليه . بيد أن النساء غسلن جثته ودفنتها . ثم قام الامير يسوع من
الاموات ، وخرج من قبره ، وصعد إلى الله أبيه .

ومنذ ذلك العهد يصعد إلى السماء كل الذين يستشهدون
في سبيله .

فيفتح الرب سبحانه ذراعيه ويقول لهم :

« — على الرحب والسعة ، لأنكم تحبون ولدي الأمير !
استحموا ثم كلوا ! »

« فيستحمون على أنقام الموسيقى الشجية : ويرون في اشاء
الطعام رقص القيان ، ويصغون لحكايات ما إن لها من ختام ! وهم
لدى الله الرءوف أعزّ عليه من نور عينيه ، لأنهم ضيوفه . وسيكون
من نصيبهم طنافس قصوره ورمان جناته !

ضرب أحس في أقواله على مثل هذه الأوتار الحساسة ،
وهكذا علم تايس الحق واستهواها ، فقالت معجبة :

— أود لو آكل من رمان الله تعالى !!

فأجابها أحمس :

«ان الذين عَمِدُوا في يسوع يذوقون وحدهم فاكهة السماء».

فطلبت تايس أن تعمد ، ولما رأى منها إيمانها ياسوع قرّ رأيه على أن يعن في تهديها ، حتى اذا عُمِدَتْ أمكن أن تنضم الى الكنيسة . واشتد حبه لها كابنته الروحية .

وكانت تايس منبودة من والديها الظالمين ، فلم يكن لها فراش تحت السقف الابوي ، فنامت في زاوية من الاسطبل بين الأنعام ، وهناك وافاها أحمس سرًا تحت جنب الدجى ، واقترب بخفة من القش الذي افترشه ، وجلس على كعبيه ، مزدوج الساقين ، معتمد القامة ، جلسة يتوارثها الخلف عن السلف من ابناء جنسه ، واحتفى وجهه وجسده المتشح بالسواد ، في الظلمات . ولمعت عيناه الكبيرتان البيضاوان وابعثت منهما نور كشعاع الفجر المنبعث من شقوق الباب ثم تكلم بصوت أجنح مؤثر ، فيه نغمة الموسيقى الحزنـة التي تسمع عند المساء في الطرقـات . . .

وفي بعض الاحيـان كان نـهـيق حـمار أو خـوار ثـور يـصـحب صـوت أحـمس وهو يـرـنـم آيـات الانـجـيل ، فيـتأـلـفـ من اـمـتـزـاجـها نـغمـةـ موـسيـقـيـ كـأنـهـ صـادـرـ عنـ جـوـقةـ مـلـحنـينـ لـلـارـواـحـ الغـيرـ المـنـظـورـةـ ! !

تدفقت كلامه بهدوء في جنح الظلام ، ممزوجة بالحماسة والرجمة
والأمل . . . فشدت المتصرّفة يديها على يد أحمس وقد اطأنت
هذه الأنعام التي تجري على وترية واحدة ، وسكتت نفسها لصور
مخيلتها المهمة ، فأخذ الكري بعacad اجفانها ، فنامت وادعة باسمة
بين ايقاع الحان الديجور والاسرار القدسية ، تحت ضوء نجم بنغ
من ثقوب في سقف الاسطبل .

* * *

استغرق تعليمه الأولى حولاً كاملاً ، حتى جاء الموسم الذي
يمحتفل فيه المسيحيون وهم فرحون بعيد الفصح . وفي ليلة من ليالي
ذلك الأسبوع المجيد ، كانت تايس نائمة على حصيرتها في القبو ،
فشعرت بأن العبد قد حملها وعيناه تستطعان بنور غريب ، ولم يكن
كعادته في سرواله المزّق ، بل كان يرتدي عباءة طويلة بيضاء
لفـ " بها تايس قائلـ " لها بصوت خافت :

— تعالى يا روحـ ! تعالى يا عينـ ! تعالى يا فؤادي ! تعالى
ارتدي ثوب التعميد !

ثم هملا ضاماً إياها إلى صدره ، وكانت خائفة لكنها توّاقة
إلى الاستطلاع ، فأخرجت رأسها من العباءة وطوقت عنق صديقها
بذراعيها ، وقد جرى بها يشق حجاب الظالمات .

سارا في دروب ضيقة واجتازا حي اليهود ومرّا أولاً بمقبرة
انبعث منها صيحة العُقاب الرهيبة ، ثم بفرق طرق علقت فوق صلبانه
أجساد المعذبين وقد حطت على أذرعهم الغربان الناعقة تنقرها .
خبات تايس رأسها في صدر العبد ، ولما فتحت عينيها رأت نفسها
في كف ضيق مضاء يشعل راتنجية ، منقوش الحيطان بصور كبيرة
تظهر في دخان المشاعل كأنها أحياً تتحرك . . . وهي صور رجال
هرتدين جلابيب طويلة يحملون السعف في وسط حملان وحمام
وغصون كرم .

وعرفت تايس من بين هذه الاشكال يسوع الناصري ^١
بشقاقي النعمان المزهرة عند قدميه . وفي وسط القاعة ، بقرب جرن
المعمودية المملوء بالماء ، وقف شيخ هرم مرتد حلقة قسيس قرمذية
مطرزة بالذهب وعلى رأسه تاج أسقف ، وقد تدللت من وجيهه
النحيف لحية طويلة ، وعلى رغم حلتة الفاخرة ، كانت تلوح عليه
سيماء التواضع ودماثة الخلق . ذلك المطران فيناتوس الذي كان
أميرًا مبعداً من كنيسة برقة واصبح الآن ينسج من شعر المعز قماشاً
صفيقاً ليقيم صلبه . وقد وقف بجانبه غلامان فقيران ، وعلى مقربة
منه حملت عجوز زنجية ثوباً صغيراً أبيض . فأنزل أحمس البنت
إلى الأرض ، وركع امام الأسقف وقال : —

— هذه هي يا أبي ، النفس الصغيرة ، ابنة روحي ، احضرتها لك حتى اذا ما راقت سيادتك أنعمت عليها حسب وعدك بالمعمودية .

فندَ المطران ذراعيه وأظهر يديه المشوتهين ، اللذين نُزعت أظافرها عقاباً على جهله بالإيمان في أيام المحن والاضطهاد . فأوجست تاييس خيفة والقت بنفسها في حضن أحمس ، لكن السكاذه لاطفها وسكنَ روعها بقوله :

— لا تخافي أيتها الطفلة المحبوبة ، فإن لك هنا أباك الروحي الذي يدعى بين المؤمنين تيودور ، ولك أم صالحة ترعاك ، وهي التي خاطت لك بيديها ثوبًا أيضًا .

ثم التفت إلى الزنجية وقال :

— إنها تدعى «نيتيدا» وهي على هذه الأرض جارية ، لكن يسوع سيرفعها في السماء إلى صف عرائسه !

ثم سأله الطفلة المتنصرة :

— أئؤمنين يا تاييس بالله الأَب القادر على كل شيء ؟ وبابنه الوحيد الذي مات في سبيل خلاصنا ؟ وبكل تعاليم الرسل ؟ فأجاب الزنجي والزنجية ، اللذان كانا قابضين على يديهما ، بالإيجاب

وطبقاً لأوامر الأسقف ركعت نيتيدا ونضت عن تاييس ثيابها
كما ، فصارت عارية إلا من رقية في عنقها ، ثم غطسها المطران
ثلاث مرات في جرن المعمودية ، ومسحها بالزيت ووضع ذرة من
الملح على شفتيها ، وبعد تنشيف جسدها الذي كان معداً بعد بلاء
شديد للحياة الخالدة ، ألبستها نيتيدا الثوب الابيض نسيج يديها .
ثم منحهم الأسقف جمِيعاً قبلة السلام ، وانتهت الحفلة فترزع
حلته الكهنوية .

ولما صاروا جميعاً خارج السردار قال أحمس :

— ينبغي أن نغبط بتقدينا اليوم نفساً لله سبحانه وتعالي ، فهم
نذهب الى منزل سيادكم وتقضى بقية الليل بالحبور
 فأحباب المطران :

— أحسنت يا تيودور

ثم قادهم الى داره القريبة منهم وكانت مؤلفة من حجرة واحدة
متاعها نولان ، ومنضدة كبيرة ، وسجادة بالية .

فصاح النبوي عند دخولهم :

هات يا نيتيدا الموقد وقليلًا من الزيت . ولنطهين أكلة هنيئة !

قال هذا وأخرج من تحت عباءته بعض السمك ، وأشعل ناراً
وأخذ يقلية . وجلس الأسقف والطفلة والغلامان والعبدان في
دائرة فوق السجادة ، واكلوا السمك المقلي " وحمدوا الله .

وتكلم فيقانتوس عما عاناه من الآلام المبرحة ، وبشر بفوز
الكنيسة القريب . وكانت لغته جافة غير أنها فائضة بالمجازات
الفصيحة والنكات البدعة . وشبّه حياة الاستقامة بنسيج ارجواني
موشى ! قال في شرح سر الع vad :

— ان الروح القدس يطفو فوق المياه ، ولهذا يتلقى المسيحيون
عماد الماء ، غير ان الشياطين يسكنون ايضاً الغدران ، كذلك
الينابيع الخصصة للحواريات خطرة مخوفة ، ومن المشاهد ان بعض
المياه يسبب اعراضًا مختلفة للنفس والجسد .

وفاه في بعض كلامه بأحاجي ومعنيات ملكت على البنت
مشاعرها تهيباً واعجاباً ! وبعد الفراغ من الطعام قدم لضيوفه شيئاً
من النبيذ فانطلقت السنتهم من عقلاها وأخذوا ينشدون ويسبحون .
ثم نهض أحمس ونيدا ورقصوا رقصة نوبية تعلمها في صباحها ،
وكانت بلا ريب شائعة في القبيلة منذ قديم الزمان . وهي رقصة
غرامية ، يكون فيها تحريك الأذرع والجسد بأكمله ، ثم الاحتيال

بالتناوب على الهرب، ثم اقتقاء الآخر. فأدارا عيونهما الكبيرة واظهرا
أسنانهما اللامعة وهما يبتسمان

كذلك تلقت تاييس التعميد القدسي

ها مت تاييس بحب الله والمرح، وتولدت في نفسها ، وهي تمو
وتكبر، رغبات مبهمة وأهواه . . . فكانت ترقص وتغنى سحابة
نهارها مع أولاد الشوارع المترددين ، وفي الليل تعود إلى بيت
أيتها وهي لا تزال تغنى . . .

ثم أخذت تفضل صحبة الصبيان والبنات على صحبة أحسن
الرقيق الرزين ، فلم تلحظ أن صديقها قد قلل اجتماعه بها . وكان
الاضطهاد قد اقطع واصبحت محافل المسيحيين أكثر انتظاماً ،
فأخذ النبي يحضرها على الدوام . وزادت حميته اشتعالاً ، وكان
في بعض الاحيين يفوّه بكلمات تنذر بالوعيد كقوله ، ان الأغنياء
سوف يفقدون أموالهم ! وذهب مرة إلى الساحات العامة حيث
اعتد فقراء المسيحيين أن يجتمعوا ، وهناك جمع البائسين الراقدين
في ظل الجدران العالية وبشرهم بتحرير الارقاء ودنو يوم
العدالة ، قال :

— سوف يشرب الأرقاء في ملوكوت السموات خمراً صافية

وَيَا كَلُونْ فَاكِهَةُ الْزِيْدَةِ ، عَلَى حِينَ أَنَّ الْأَغْنِيَاءِ يَكُونُونَ جَائِينَ عِنْدَ
أَقْدَامِهِمْ كَالْكَلَابِ يَلْتَقِطُونَ فَتَاتَاتِ مَوَانِدِهِمْ !

لَمْ تَبْقِ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِي طَيِّ الْكَتْمَانِ ، بَلْ دَاعَتْ فِي نَوَاحِي
الْمَدِينَةِ كَلَاهَا ، وَخَشِيَ السَّادَةُ أَنْ يَغْرِيَ أَحْمَسَ عَبْدِهِمْ بِالْمُتَرَدِّ ، وَهُنَّ قدْ
صَاحِبُ الْحَانَةِ عَلَيْهِ حَقْدًا بِالْغَارِ

فِي ذَاتِ يَوْمٍ اخْتَفَتْ مِنَ الْحَانَةِ مُلْحَّةٌ مِنَ الْفَضْلَةِ مُخْصَّصةٌ
لِمَلَائِدِ الْآلهَةِ .. فَأَتَهُمْ أَحْمَسَ بِسُرْقَتِهِنَّ نَكَايَةً فِي سَيِّدِهِ وَفِي آلهَةِ
الْإِمْپَراَطُورِيَّةِ . وَكَانَ الْإِتْهَامُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَأَنْكَرَ الْعَبْدُ
الْتَّهْمَةَ بِكُلِّ قَوَاهُ . عَلَى أَنَّهُ سَيِّقَ إِلَى الْحُكْمَةِ ، وَحُكِّمَ عَلَيْهِ الْقَاضِي
بِالْمُوتِ ، إِذْ كَانَ عَلَى زَعْمِهِمْ عَبْدًا رَّقِيقًا لَا قِيمَةَ لَهُ وَلَا اعْتِبَارٌ .
وَقَالَ لَهُ :

— سَتَسْمَرُ فِي صَلِيبِ يَدَكِ ، الْلَّاتَانِ لَمْ تَعْرِفْ كِيفَ تَحْسِنَ
اسْتِخْدَامَهُمَا .

فَسَمِعَ أَحْمَسُ الْحُكْمَ بِهِدْوَهُ ، وَحَيَّ الْقَاضِي بِاحْتِرَامِ فَائِقٍ ، وَقِيدَ
إِلَى السُّجُنِ الْعَامِ . وَفِي اثْنَاءِ ثَلَاثَةِ الْيَوْمَاتِ الَّتِي قَضَاهَا فِيْهِ ظَلَّ يَكْرَزُ
بِالْأَنْجِيلِ لِلْمَسْجُونِيْنَ ، وَقِيلَ أَنَّهُ فِي وَقْتِهِ تَأَثَّرَ الْمُجْرِمُونَ وَالسَّاجِنَانِ
فِيْهِ بِكَلَامِهِ وَآمَنُوا بِالْمَسِيحِ الْمَصْلُوبِ .

واخذوه الى أحد تلك المفارق التي مرّ بها فرحاً مغبطةً ذات
ليلة منذ أقل من عامين ، حاملاً تحت عباءته البيضاء تابيس الصغيرة
ابنة روحه ، وزهرته المحبوبة .

ولما صلب وسمرت يداه لم يتآوه ولم ينبس بنت شفه ، غير
انه تقم قائلًا : « ظَمَآن ! اني ظَمَآن ! »

ودام كربه ثلاثة ايام بلياليها . ولا يكاد المرء يصدق أن
الجسد البشري يستطيع أن يتحمل مثل هذا العذاب الطويل ،
حتى طُن مراراً أنه مات . وكان الذباب قد التهم بعض حفنه ، بيد
أنه ما لبث ان فتح عينيه الداميتين بعثةً . وفي صبيحة اليوم الرابع
غَنَّ بصوت جهير ، أرق من صوت الأطفال :

— خبرينا يا مريم ماذا رأيت حيث كنت ...

ثم ابتسם وقال :

— ها هم ملائكة الله مقبلون ... ! يحملون إلى " خمراً واثماراً
... الله ما أندى حفيظ أجنحتهم ...

وأسلم الروح

وظلّ وجهه وهو ميت مشرقاً بانوار السعادة الابدية ، فكان
موقع إجلال الجنود الذين كانوا يحرسون الصليب . وأتى

فيقانتوس مصحوبًا بعض الأخوان المسيحيين في طلب الجثة لدفتها
بين بقايا الشهداء في قبر القديس يوحنا المعمدان . واحتضرت
الكنيسة منذ ذلك الحين بذكر القديس « تيودور النبوي » الموقر
و بعد ثلات سنوات أصدر قسطنطين ، فاتح ماكسانس ،
رسوماً أمن فيه المسيحيين .

وكانت تاييس قد بلغت من العمر إحدى عشرة سنة حين مات
صديقها معدباً ، فشعرت بحزن عميق وجزع شديد . ولم تكن روحها
من السموّ بحيث تدرك أن العبد أحمس كان هائلاً جداً الماء بحياته
وموته . وتولد في ذهنها الضيق أن في استطاعة المرء أن يكون في
هذه الدنيا صالحاً ولكن ذلك يكلفه عناء التاريخ والآلام ، خافت
أن تكون صالحة لأن جسدها الغضّ الرقيق لا يتحمل آلام
الصلاح !

وكان لها ، قبل الأوان ، عشاق من صبيان المرافة ، وكانت تتبع
الرجال المسنين الذين يطوفون في المساء في ضواحي المدينة مفسدين ،
وتشتري بما ينفحونها به ما تشتهي من الحلوى وادوات الزينة ..

وأساءت أمها معاملتها لأنها لم تكن تأخذ إلى البيت شيئاً مما
تربيه من النقود . فكانت كثيراً ما تهرب وتجري حافية إلى
أطلال المدينة لاجتناب صفات أمها ، وتخفيء مع الهوام في شقوف

الاحجار . وهناك كان يخامرها حسد النساء اللواتي تراهن مارّات متبرّجات في أبهة وبهاء ، محمولات في محفّاتهن على أكتاف الارقاء وفي ذات يوم نالمانن الضرب فوق المعتاد ، فخرجت وانظرحت عند بوابة المدينة ، ثائرة النفس واجمة . وبينما هي على هذه الحال واذا بامرأة عجوز قد وقفت أمامها ونظرت إليها ملياً وهي ساكتة ثم قالت :

— يا لك من زهرة حسناء أيتها الطفلة الفتانة ! ما أسعد أبيك الذي أوجدك وأمك التي ولدتك !

فليثبت تاييس صامتة مطرقة وقد احمر جفناها من كثرة البكاء .

فعادت العجوز تقول :

— يا زَبْنِيَّةَ الْبَيْضَاءَ ! أَلَيْسَتْ أُمَّكَ سَعِيدَةَ الْجَدِ لَأَنَّهَا أَرْضَعَتْ مَعْبُودَةَ صَغِيرَةَ مَثَلَكَ ؟ أَوْلِيسَ أَبُوكَ مَغْتَبِطًا مِنْ صَمِيمِ فَوَادِهِ بِرَؤْيَتِكِ ؟

فأجابـتـ الطـفلـةـ كـانـهاـ تـحدـثـ نـفـسـهاـ :

— أـبـيـ قـرـبـةـ مـنـتـفـخـةـ مـنـ الصـهـباءـ ، وـأـمـيـ عـلـقـةـ شـرـهـةـ !

فنظرت العجوز ذات اليدين وذات الشمال لتسوّق أن ليس عليها رقيب ، ثم قالت متلطفة :

— أيتها السوسة النضرة ذات البهاء ! أيتها الحسناء التي
تشرب النور وتنهل الضياء ! تعالي معي ، وستكون حياتك سلسلة
متصلة الحلقات من الرقص والابتسامات ! سأطعمنك الشهد ،
وسيحبك ابني ، ابني الصميم ، حبه لعينيه ! وانه لفتي لو علمت غضْ
الاهاب في شرخ الصبا ، فاتن المخيا ، ليس له في ذقنه إلا حية خفيفة ،
وجلده ناعم بضم بـ، وانه لخنَّوص^(١) من خنائيص أشارنيه !

فأجابـت تـايـيس :

— خذـينـي ، أـنـي ذـاهـبة مـعـك !
ثم هـضـبت وـتـبـعـت العـجـوز إـلـى خـارـجـ المـدـيـنـة .

* * *

كـانـت هـذـه المـرـأـة ، وـتـدـعـى « مـروـا » ، تـأخذـ الـبـنـاتـ وـالـصـبـيـانـ
مـنـ بـلـدـ إـلـيـ بـلـدـ وـتـعـامـمـ الرـقـصـ ثـمـ تـؤـجـرـهـمـ بـعـدـها لـسـرـةـ الـقـوـمـ لـيـرـقـصـوـاـ
لـهـمـ فـيـ الـوـلـأـمـ وـالـحـفـلـاتـ

وـلـمـ رـأـتـ أـنـ تـايـيسـ سـتـغـدوـ عـماـ قـلـيلـ أـجـلـ النـسـاءـ ، عـلـمـتـهاـ
الـموـسـيـقـيـ وـالـغـنـاءـ ، مـسـتـعـيـنةـ عـلـىـ ذـلـكـ بـالـسـوـطـ . وـكـانـتـ تـجـلـدـ سـاقـيـهاـ
الـبـدـيـعـتـيـنـ بـسـيـورـ مـنـ الجـلدـ إـذـاـ لمـ تـقـفـ عـنـدـ سـيـاعـ نـغـيـاتـ الـقـيـاشـةـ .
أـمـاـ اـبـنـهـاـ فـكـانـ ثـرـةـ اـجـهـاضـ ، سـقطـاًـ لـاـ تـبـدوـ عـلـيـهـ حـقـيقـةـ سـنـهـ ،

(١) الخنَّوص : الخنزير الصغير

ولا يميز الناظر اليه كنه جنسه ! وكان ينتحر الفتاة ويصب على رأسها جام حقده على النساء جميعاً . ولما كان ينافس الراقصات متكلاً رشاقتهن ، فقد تعلمت منه تاييس فن التمثيل اليماني الصامت والتعبير عن العواطف الإنسانية بواسطة ملامح الوجه والم الهيئة والوضع . وامتازت بتمثيل أهواه الغرام . ولقد محضها ، على كره منه ، نصح استاذ ماهر . بيد انه كان يغار من تلميذته ، فيخدش خديها ويقرص ذراعيها أو ينحسها بآية في ظهرها حين كان يتضح له أنها خلقت لامتناع الرجال !

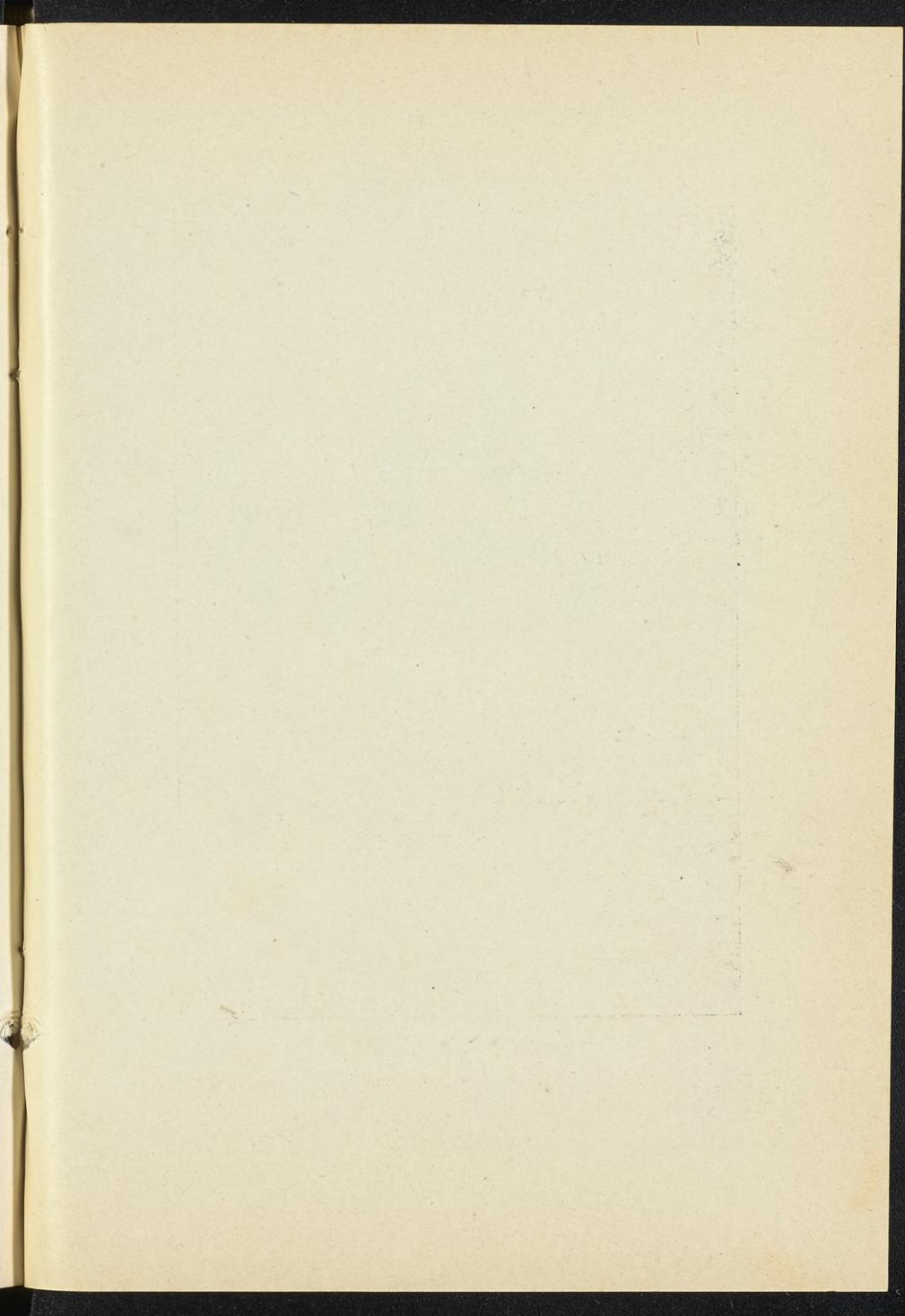
وبفضل هذه الدروس أتقنت في زمن قصير فنون الموسيقى والتمثيل الصامت والرقص . ولم تدهشها قط فظاظة معلميهما ، اذ لم تكن ترى اي غرابة في أن تهان وتتساء معاملتها ، بل شعرت بشيء من الاحترام نحو تلك الموسيقية العجوز التي تجرع النبيذ الاغريقي !

ولما جاءت « مروا » مدينة أنطاكية ، اطنبت في مدح تلميذتها ، كراقصة عازفة ، لوجوه المدينة وأعيانها الموسرين الذين كانوا يقيمون المآدب .

رقصت تاييس فنالت الاعجاب ، وأخذها السراة بعد انفصالها الولائم الى احراب نهر العاصي ، فسلمت نفسها للجميع من دون أن تعرف للحب ثناً . ولكن حدث ذات ليلة بعد ان رقصت أمام أظرف



٥٠- تايس الرقصة



شبان المدينة ، ان اقترب منها ابن الوالي يتوجب فتوة ، ويختال
عزّة ، وقال لها بصوت كأنه مرطب بالقبل :

— ألسنتُ التاج المنعقد على مفرقك يا تايس ؟ ألسنتَ القميص
المزور على جسمك البديع ؟ ألسنت نعل قدمك الجميلة ؟ اني اروم
ان تطأي بقدميك هامق ، وان يكون قميصك وتأجلك من عنافي
وبلاتي . فتعالي أيتها البنية الملحة ، تعالي الى بيتي ، ولنسن العالم !

نظرت اليه وهو يتكلم ، واستبانت محاسنه ، فشعرت على
الفور بالعرق يسلج جبينها ، واستحال لونها كالعشب اخضراراً .
ترنحت وانتشرت على عينيها غشاوة . فتوسل اليها ثانية ان تتبعه
حرفه ، ولم تغنه نظرات اللوعة وكلمات الحب فتيلاً . ولما أخذها
يدين ذراعيه ليسير بها على رغمها دفعته بخشونة ، فعاد يتلوسليها
ويتصفع وهو يذرف أمامها الدموع ويريق العبرات ، فامتنعت
عليه بسلطان قوة مجهرة لا تقاوم . فقال المدعون :

— تبّالها من زمارة حمقاء ! انها تندل لوليوس الفتى النبيل الغني
الجميل !

عاد لوليوس وقد كواه الهوى سواد ليله بناره ، وفي الصباح
ذهب متقع اللون ، أحمر العينين ، وعلق الزهر فوق باب الموسيقارة ،

وكان المهم والضجر قد اعتبريا تايس ، فأعرضت عن لوليوس . على أنها كانت تخيله دائمًا . تألمت ولم تدر سرّ ما تشکو منه . سألت نفسها لماذا تغيرت هكذا ، ومن أين دَهِمْتَها الكآبة ؟ ردت كل عشاقها لأنهم أزعجوها ، وعافت رؤية الضياء فلبيت سحابة نهارها مضطجعة في فراشها ورأسها غارق في الوسائل . ثم تهيات لوليوس وسائل اقتحام بابها ، وأتى عدة مرات يرجو ويلعن تلك البنت العنية ، فلبيت في حضرته خائفة كهدراء بتو ، وأصرّت على قوله :

— لا أريد ! لا أريد !

وبعد خمسة عشر يوماً وهبته نفسها ، إذ شغفها حبًا . فذهبت إلى بيته وعاشت معه ، وكانت ثم حياة لذينة . فكانا يقضيان النهار في خلوة يحدق كل منهما في عيني صاحبه ، ويختاطب أحدهما الآخر بكلمات لا يقولها سوى الأطفال . فإذا جاء المساء تنزها على ضفتي نهر العاصي الحاليتين ، وضلاًّ السبيل غير مرة في الأحراج . واستيقظاً أحياناً عند الفجر ليذهبا لقطف السوسن فوق منحدرات « سليسوس » . وشربا من كأس واحدة ، وكانت اذا رفعت الى فمها حبة عنبر تناولها بأسنانه من بين شفتيها !

أدت « دروا » بيت لوليوس تطلب تايس بصيحات عالية ، قائلة :-

— ابني ! ابني التي أخذت مني عنوةً ! زهرتي المعطرة !
حشاشة فؤادي وفلذة كبدى !

فصر لها لوليوس بعد أن أجزل لها العطاء . لكنها لما عادت
تلحف في طلب المزيد من قطع الذهب ، بعث بها الفتى إلى السجن ،
وحققت الحكام جرائم عديدة اتهمت باقترافها ، فسيقت إلى الموت
وطرحت طعاماً للوحوش الضاربة

* * *

أحبت تايس لوليوس بكل ما فيها من قوة الادراك وسداجة
النفس ، وقالت له من أعماق قلبها :
— لم ينل أحد مني ما نلتة !
فأجابها لوليوس :

— أنك لا تشبهين أية امرأة في الوجود !

ولبث السحر مستولياً عليها ستة أشهر ، ثم انحلت طلاسمه ،
فاحسست تايس بخجأة بنفسها خالية وحيدة . ولم يبق لوليوس في
نظرها لوليوس الذي أحبته . وفكرت :

— كيف تغيرت هكذا في طرفة عين ؟ وكيف تغير لوليوس
حتى انه صار في نظري مثل سواه من الرجال ؟

ثم هجرته ، وبفؤادها رغبة خيالية في ان تجد لوليوس في انسان آخر ما دامت لا تجده فيه نفسه . وخيل اليها أيضاً ان الحياة مع انسان لم تحبه قط ايسرا خطبًا منها مع انسان صارت لا تحبه . وصحبت المترفين من ابناء المسرات والفجور في تلك الولائم الدينية ، حيث كانت ترقص في المعابد نخبة من العذارى العاريات ، وقطع السراري نهر العاصي سباحات . واشتراك في جميع الملائكة التي أقامتها المدينة البديعة الفاسقة . واكثرت من التردد على دور الممثل حيث كان الممثلون اليمانيون يأتون من كل حدب وصوب لتمثيل أدوارهم بين تهليل الجماهير الظاهنة الى المأهو واللعب .

عنيت بدرس حركات الممثلين والراقصين ، لا سيما المثلثات الالئي كن يمثلن في الروايات الفاجعة أدوار الربات عاشقات الشبان ، أو المخلوقات المهمات بحب الأرباب . وبعد ان علمت السر الذي به خلين لب الجمهور ، توقعت ان تبزّهن لأنها كانت تفوقهن حسناً ودللاً .

فمضت الى رئيس الممثلين وسألته أن يلحقها بفرقته . وبفضل جمالها ، والدروس التي تلقتها من « مروا » العجوز ، قبلت وظهرت على المسرح في دور « ديرسيه » ، فلاقت نجاحاً ضئيلاً لأنها كانت مفتقرة الى المران ، ولأن جمهور المشاهدين لم يُشوق الى مرآها

بالاطناب في محسنهَا والثناء عليها قبل ظهورها على المسرح . ولكن لم تمضِ بضعة أشهر حتى انفجر بأَسْ جماها على مسرح التمثيل بقوّة اهتزت لها المدينة من أقصاها إلى أقصاها ، فهُرِعَ أهل انطاكية إلى الملعب حتى أكْتَظَ بهم . واضطربت قوّة الرأي العام زعماء الأُمّبِراطُوريَّة وقاضاها ورؤساء البلد إلى الظهور هناك : وحرَمَ الحمالون والكناسون وعمال الميناء أنفسهم الثومَ والخنزير ليدفعوا اجرة مقاعدهم . ومدحها الشعرا بقصائدِهم ، وخطب في تحريرها الفلاسفة الملحثون في الحمامات والمدارس ، وأشاح عنها الرهبان المسيحيون في أثناء مرورها في محققتها !

توَجَّتْ عتبة بيتها بالزهر ونُصحت بالدم . تلقت من عشاقها الذهب بغير حساب ، وزنًا وكيلًا ، لا عدًّا . وتدفقت الكنوز التي ادخرها الكبول الأشحاء عند موته قدميها كالأنهار . لذلك طابت نفسها وقررت عينًا . ابتهجت لتكريم الجمورو وعطف الآلة ، وهامت بحب نفسها ، لأن الجميع هاموا بحبها !

وبعد أن تمعنت عدة سنوات بحب الأنطاكين واعجابهم ، اشتاقت للعودة إلى الإسكندرية لظهورها عزّتها للمدينة التي ضربت في أرجائها وهي طفلة تجر ذيل الشقاء والحرمان وقد هرّها الجوع والمسغبة ، فكانت هزيلاً كالجرادة في وسط طريق مقرر

فاستقبلتها المدينة الذهبية بالفرح والترحيب ، وغمرتها بالهبات
والعطايا ، وكان ظهورها في الألعاب نصراً مبيناً . وسعى إليها جمهور
لا يحصى من العجيين والعاشقين ، فتلقمهم بفتور وقلة مبالغة ، لأنها
يائست من العثور على من يشغل مكاناً شغله لوليوس من قلبها !

* * *

تلتقت من بين الجموع الغفيرة الفيلسوف « نسياس » الذي
اشتهرها على مجاهرته بالتجدد من الشهوات ! وكان على شرائه ذكي
الفؤاد دمت الأخلاق ، غير أنه لم يفتنها بمحاصفة عقله ولا برقة
حاشيته ، فلم تحبه ، بل أغضبته أحياناً تهكماته الرائقـة ، وجرّها
 بشكوكه الدائمة . لم يكن يؤمن بشيء ، وهي قد آمنت بكل شيء .
آمنت بالعناية الإلهية ، وبقدرة أرواح الشر ، وبالرقى والتعاونـيد ،
 وبالعدل الأـزلي ، وبيسوع المسيح . كما آمنت أيضاً بأن الكلبات
 تنبح إذا مررت أهـمة جهنـم السوداء بمفارقـ الطريق !! وبأن المرأة
 تستطيع أن توحـي الحب إذا صـبت شرابـ العـشق في كـأس يـحـوي
 جـزـة شـاة مـخـضـبة بالـدـماء ، وـسـقـته لـمن تـريـده !!

ظمئت إلى المجهول ، ودعت كائنات لا أسماء لها ، وعاشت في
انتظار دائم . روأـها المستقبل وأخافـها فـقطـلـعتـ إلى مـعـرفـته . لـاذـتـ

يرهبان إيزيس وبالسحرة الكلدائين ، والعرافين الذين مكرروا بها
وخدعواها على الدوام ، ولكنهم لم يتخلوا عنها مطلقاً .

خافت الموت ، ورأته في كل مكان . وكانت كلاماً استسلامت
للذات يخيل إليها كأن أصبعاً مثلوحةً قد لمست كتفها العارية ،
فيمترع لونها وتصرخ من الهلع بين الذراعين اللتين تطوقان خصرها .

قال لها نسياس :

— وماذا يكون لو جرى القضاء بأن ننزل أبيضي الشعر ،
خامرى الخدوود ، إلى الليل الأبدى ؟ ثم ماذا يكون لو كان هذا
اليوم الذي يتسم لنا الآن في صفحة السماء المبسوطة ، هو آخر أيامنا ؟
ماذا يضيرنا يا عزيزتي تاييس ، وماذا يكون ؟ ألا فلستمرى طعم
الحياة . فسنحيا طويلاً إذا ما شغفنا كثيراً . فلا فطنة كفطنة أن
الحب هو الفطنة ، أما ما نجده له فليس لنا به شأن . وما فائدة إزعاج
أنفسنا لغير طائل ؟

فأجابته غاضبة :

— اني أمقت الذين على شاكلتك لا يرجون ولا يخافون !
اني راغبة في المعرفة ! راغبة في المعرفة !

أخذت تقرأ كتب الفلسفه لتقف على سر الحياة ، فلم

تفهمها . وكان كلاما تقدم بها الزمن وتباعد ما بينها وبين أيام طفولتها ازدادت تعلقاً بذكراها . فولعت بأن تسير تحت ستار الظلام ، وهي متسلكة ، في تلك الدروب والمعطفات والمليادين العامة حيث ترعرعت في الشقاء والبأس . وكم أسفت على فقد والديها ، وخصوصاً لأنها لم تحظ بذرة محبتها لها . وكانت عند ما تلقى الرهبان المسيحيين تفكير في عيادها وتضطرب .

وفي ذات ليلة ، بينما كانت تجوس خلال ضواحي المدينة كعادتها ، وهي مرتدية طيلساناً ، وشعرها الأشقر مخبوء تحت قلنسوة سوداء ، ألغت نفسها ، دون أن تعرف كيف كان ذلك ، أمام كنيسة القديس يوحنا المعمدان الحقيرة . فسمعت بداخلها ترثيلاً ، ورأت نوراً ساطعاً منبعثاً من شقوق الباب . ولاعجب ، فقد أخذ المسيحيون العشرين عاماً خلت يختلفون بأعيادهم علانية تحت حماية « فاتح ما كسانس » نادت تلك التسابيح روحها بنداء حاراً لا يرد ، فدفعت الممثلة الباب بيدها ودخلت كدعوة إلى المشاركة في الأسرار ، فوجدت جمعاً محشوداً من النساء والأولاد والشيوخ ، راكعين أمام قبر بجانب الجدار ، ولم يكن هذا القبر سوى خالية حجرية تقشت عليها أغصان وأعناب نقشاً خشنًا ، ومع ذلك فقد نالها من التكريم قسط وافر . فكانت مغطاة بسقف التخل واكليل الورد الأحمر . وكان المعبد مناراً بصابيح لا عداد لها ، تشق أنوارها

الظلام الذي يظهر فيه دخان الصموغ العربية كأنه ثنياً جلايب الملائكة ، وعلى الحائط رسوم كأنها رؤى الفردوس ... وثم رهاب في ثياب بيض خرُّوا سجدةً عند مؤخرة الناووس . وكانت التسابيح التي شاركهم الشعب في ترتيلها تعرب عن بهجة الآلام ، وكانت مزيجاً من الفرح والحزن بحيث أحسست تايس وهي مصغية ، بمسرات الحياة ومخاوف الموت تجري معًا في مشاعرها المستيقظة ...

ولما أتم المصلون الترتيل ، نهضوا وتوجهوا للتبرك بتقبيل القبر واحداً بعد واحدٍ . أولئك كانوا قوماً بسطاء من أهل الحرف اليدوية ؛ تقدموا ثابتي الخطى ، شاصي الابصار ، كليلي الأفواه تلوح عليهم سلامة النية وصفاء الطوية ؛ جثوا واحداً بعد واحد أمام الناووس وألصقوا به شفاههم ، ورفع النساء الأطفال الصغار على أذرعهن ووضعن أفواههم بلطف على الحجر .

فدهشت تايس وشمارت ، وسألت شمامساً عما يفعلون ، فأجابها :

— الا تعامين أيتها المرأة اننا نحتفل اليوم بالذكرى المباركة للقديس « تيودور النبوي » الذي احتمل العذاب في سبيل اليمان في عهد الامبراطور ديوقليس ؛ إنه عاش ظاهراً ، ومات شهيداً ،

وهذا هو السبب الذي من أجله قد حملنا الورد الأحمر ونحن في
ثياب بيضاء إلى ضريحه المكرّم.

فاما سمعت تايس قوله هذا رأكت واجبشت بالبكاء . عادت
إلى ذهنها ذكرى أحس التي كادت تطمسها يد النساء . وعلى
تلك الذكرى المهمة ، العذبة ، المؤلمة ، أرسلت أشعة الشموع
واعطور الورد ، وسُحب البخور ، وألحان المزامير ، ومظاهر الخشوع -
عزّة الفخر وجمال الجد .

فحدثت تايس نفسها :

— أنه كان صالحًا ، وهذا جليل القدر ، جميل الذكر !
ثم كيف رفع فوق هام البشر ؟ فما هو ذلك الشيء المجهول الذي
فاق الثراء والسراء ؟

نهضت ببطء ، واتجهت إلى قبر القديس الذي شغف بعينيها
(البنسجيتين ، العينين اللتين تلألت فيهما الدموع في نور الشموع -
ووقفت مطرقة في مؤخرة الجماعة ، خاشعة متباطئة ، ولتحت قبر العبد
بسفيتها اللتين علقت بها شهوات كثيرة ...

ولما رجعت إلى بيتها وجدت نسياس ينتظرها ، مضمخ الشعر
بالطيب ، مفكوكاً قميصه ، يقرأ رسالة في الأدب يستعين بها على

مضض الأَنْتَظَارِ . فَتَقْدِمُ لِلْقَائِمَةِ مِبْسُوطَ النَّرَاعِينَ قَائِلًاً بِصَوْتِ ضَحْوِكِ :

— أَتَعْرِفُكَنْ يَا تَايِيسَ الْحَيَّشَةِ مَاذَا وَجَدْتَ فِي اثْنَاءِ اَنْتَظَارِكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ أَرْزَنَ الرَّوَاقيِينَ ؟ أَهِي حُكْمٌ سَامِيَّةٌ وَسَنِّ عَالِيَّةٌ ؟ كَلا ! رَأَيْتَ عَلَى الْبَرْدِيِّ الْخَشْنِ الْأَلْفَ تَايِيسَ صَغِيرَةً تَرْقُصُ ، وَأَلْفَ تَايِيسَ ! وَكَانَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ طَوْلَ الْأَصْبَعِ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ ظَرْفَهُنَّ لَا يُحْدَدُ ، وَكَلِّهُنَّ تَايِيسَ الْفَرِيدَةِ ! كَانَ بَعْضُهُنَّ يَرْفَلُ فِي حَلَلٍ مِنْ أَرْجُونَ وَذَهَبٍ ، وَبَعْضُهُنَّ يَسْبِحُ كَسْحَابَةً يَيْضَاءَ فِي قُبُّ شَفَافَةٍ ، وَأَخْرِيَاتٍ يَوْحِينَ الْلَّذَّةَ بِسُكُونِهِنَّ فِي سَنَاءِ عَرَبِهِنَّ وَكَانَتْ اثْنَتَانِ مِنْهُنَّ مَتَاسِكِتَيْنِ بِالْأَيْدِيِّ ، وَهُمَا مُتَشَابِهَتَانِ شَبَهًا يُسْتَحْيِلُ مَعَهُ تَميِيزُ الْوَاحِدَةِ عَنِ الْأُخْرَى ، ابْتَسَمَتْ كُلُّهُمَا ، وَقَالَتْ الْأُولَى « اَنَا الْحَبُّ » وَقَالَتْ الْثَّانِيَةِ « اَنَا الْمَوْتُ » .

قال هذا واحتضن تاييس ، ولم يلحظ انها كانت ترمق الأرض بنظرها وحشية ، فاستمر يحدّثها بما جال في ذهنه من الخواطر والافكار . وواصل كلامه قائلاً :

— أَجل ! لَمَا وَقَعَ تَحْتَ نَاظِرِي ” هَذَا السُّطْرُ : « يَجِبُ الْأَيْمَحُولُ شَيْءٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَهْذِيبِ نَفْسِكَ » قَرَأْتَ : « قَبْلَاتٌ تَايِيسَ أَحْرَّ مِنَ الْلَّهِيْبِ وَأَحْلَى مِنَ الشَّهَدِ » وَهَذِهِ هِيَ — وَالذَّنْبُ ذَنْبُ أَيْتَهَا الفتاة اللعوب — الطَّرِيقَةُ الَّتِي أَصْبَحَ بِهَا الْفِيلِسُوفُ يَفْهَمُ كَتَبَ

الفلسفة ! ولا ريب اننا ، ما دمنا كأننا نحن ، لن نجد في خواطر غيرنا
الآ خواطرنا بعینها ، بل اذا قرأنا كتاباً فنحن نكاد نقرأه كما أقرأ
هذا الكتاب . . .

لم تكن مُصغية اليه ، لأن ذهنها كان منصرفًا الى قبر النبوي ،
فاما سمعها تنتهد اخذ يقبل منابت الشعر من عنقها ، وهو يقول :
— قرّي عيّناً ولا تحزنني يا بنبي ! لا يستطيع المرء أن يكون
سعيداً في هذه الدنيا الا اذا نسيها أو تنساها ؛ ولدينا سرّ ذلك ،
فععالي نخدع الحياة ؟ إنها أهل لأن يمكر بها لأنها تكيل لنا الضائع
صاعين . هامي تتبادل الحب !

دفعته عنها وصاحت :

— تتبادل الحب ؟ انك لم تحب قط إنساناً — أنت ؟ ولا أنا
أحبك ! كلا ! لا أحبك ! ابني أغضبك . ابني العن السعداء
الأغنياء كافةً وأحتقرهم ! إليك عني فلا فضيلة في الدنيا ولا محنة إلا
لدى المساكين . لما كنت طفلة عرفت عبداً أسود مات مصلوغاً .
كان طيباً ، كان يفيض محبة . وقد حظي بمعونة سرّ الحياة . انك
لا تستأهل أن تغسل قدميه . إذهب عنى ؟ فأني لا أريد أن أراك
بعد الآن .

ثم انبطحت على البساط وقضت ليتها في أنين ونحيب ، وصممت

من تلك اللحظة أن تتفقى خطوات القديس تيودور وتعيش عيشة
الفقر والمسكنة .

وفي اليوم التالي عادت إلى الملاهي التي كانت قد أعدّتها .
واذ عرفت أن جمالها الذي كان لا يزال ساحراً لن يبقى طويلاً ،
سارعت إلى المتمع به بكل ما يمكن من الابتهاج والاعتزاز .
وأظهرت في الملعب عناء لم تظهرها من قبل ، فأحيطت بتمثيلها تخيلات
الحفارين والمصورين والشعراء . وأخذ العلماء وال فلاسفة من شكل
المثلة وهيئتها وحركاتها وتنظرها النظام السماوي الذي يسير
الافلاك ، فادرجوها هذا السكال المطلق في عداد الفضائل ، وقالوا
« تاييس أيضاً مهندسة ! ». وباركتها الجهلاء والفقروء لقبولها الظهور
 أمامهم ، وعدده نعمة من الخالق . لكنها مع هذا الاعجاب والثناء
 كانت حزينة ، شديدة الجزع من الموت ، ولم يك ثمة ما يستطيع
 أن يدفع عنها همها وبلائها ، ولا وجدت عزاء في بيتهما وجنتهما التي
 كانت من الشهرة بحيث تُضرب الأمثال بها في المدينة .

غرسـت في حدائقها الأشجار الغالية التي جلبـتها بنفقات باهـظة
 من الهند وبـلـاد الفـرس ، يـروـيـها جـدولـ متـنـجـرـ وـسـطـ صـفـ منـ
 الأعمـدةـ المـتهـمـةـ وـالـصـخـورـ الـهـائـلـةـ المشـيـدـةـ بـيدـ بنـاءـ مـاهـرـ ،ـ تـنـعـكـسـ
 فيـ بـحـيرـةـ تـرـسـمـ عـلـىـ مـرـآـتـهاـ الـحـلوـةـ التـاـشـيلـ الـيـ حـوـلـهاـ .ـ وـفـيـ وـسـطـ

المديقة « كِفُ الْعَذَارِي » الذي يُعزى اسمه إلى تماثيل ثلاثة من النساء مصنوعة من الرخام الملوّن بمهارة وتقن ، واقتات عند مدحنه . وهؤلاء النساء كنَّ قد نضمن ثيابهن ليغسلن والتقتن قلقات خشية أن يراهن أحد ، وعليهن علامات الحياة . وكان الضوء لا ينفذ إلى هذا الخدر إلاً من خلال طبقات المياه الرائفة التي تخففه وتلونه بالوان قزحية . وعلى جوانب الحيطان علت ، كما تعلق في المغاور المقدسة ، التيجان وأكاليل الزهر والصور المنذورة التي ظهر فيها جمال تايس وذاع صيته . وكانت هناك أيضاً براقع للmAساة وأخرى للمهزلة ذات ألوان زاهية . وصور تمثل مشاهد مسرحية وأشكالاً هزلية أو حيوانات خرافية . وفي وسط الكف نصب فوق عمود قصير تمثال صغير لـ الله الحب (ايروس) مصنوع من العاج صنعاً قديماً دقيقاً عجبياً ، وكان هدية من نسياس . وثم عزّة من المرمر الأسود واقعة في حفرة ، يظهر منها بريق عينيها العقيقيتين ، وقد التفت حول ضرعها ستة حداء من المرمر الأبيض ، وقد همت العزّة باظلافالها ورفعت رأسها الف Gallagher كأنما كلّت وفرغ صبرها من رضاع صغارها ، وكأنها تود لو يتاح لها تسلق الصخور .

وكانت الأرض مفروشة ببساط ييزنطي ، ووسائل مطرزة بأيدي الصُّفَر من أهل كاتاي ، وجلود أسود صحراً ليبيا . وكان

البخور يتتصاعد من المبخر الذهبية . وهنا وهناك أصص من الجزع
فيها نبات مزهر ؟ ووراء ذلك كله ، في الظل الارجوني ، تلمع
أظافر من ذهب لسلحفاة هندية هائلة مقلوبة على ظهرها تُستخدم
كسرير للممثلة .

في هذا المكان ، في كل يوم ، بين خرير الماء ، وشذا الزهور ،
وعبير العطور ، كانت تايس تضطجع بربخواة واستسلام ، في انتظار
ساعة العشاء ، تتحدث الى اصحابها ، او تفكّر وحدها في شؤون
المسرح ، او في كرّ الغداة ومرّ العشى .

في ذلك اليوم بينما كانت جالسة بعد التمثيل في « كف العذاري » ، لاحظت في مرآتها العلامات الاولى لتضاؤل جمالها
وذهول حسنها ، فهالها التفكير في انه سيحين أخيراً حين الشعر الأبيض
والغضون والتجعدات ، وعيتاً حاولت ان تسكن روعها وتوئن
خيقها بقولها لنفسها ، قول الواثق المستيقن ، ان احراق أعشاب معينة
والنطق بتأم سحرية معلومة تكفي لاعادة نضارتها الاولى !!

واذا بصوت ، لا اثر للرحمه فيه ، يهيب بها : « ستبلغين يا تايس
من الكبر عتيماً ! ستشيخين تايس ويدركك المرم ! » فحمد العرق
البارد على جينها من الجزع ، وطالعت وجهها ثانية في المرأة برقه

باللغة ، فألفت نفسها لازالت جميلة فتّانة ، جديرة بأن تُعشق وتشتهي ،
فتمتّمت : « ليس في الاسكندرية كلاماً امرأة واحدة يضارع قوامها
قومي اللّدن ! ولا من مثالي في رشاقة الحركات ، وبهاء الأذرع ؛
والاذرع ، أيها مرآتي ، هي سلاسل الحب الحقيقة ! »

وإذ كانت تفكّر في ذلك رأت رجلاً مجاهلاً ، نحيلًا ،
مشتعل العينين ، منتفض الالحية ، مرتدّاً ثوبًا مزركشًا ثمينًا ، واقفًا
مامها ، فأفلتت مرآتها وصرخت مذعورة

وقف بافوس جامدًا ، ولما رأى مبلغ جمالها ، قدّم من أعماق
قلبه هذه الضراعة :

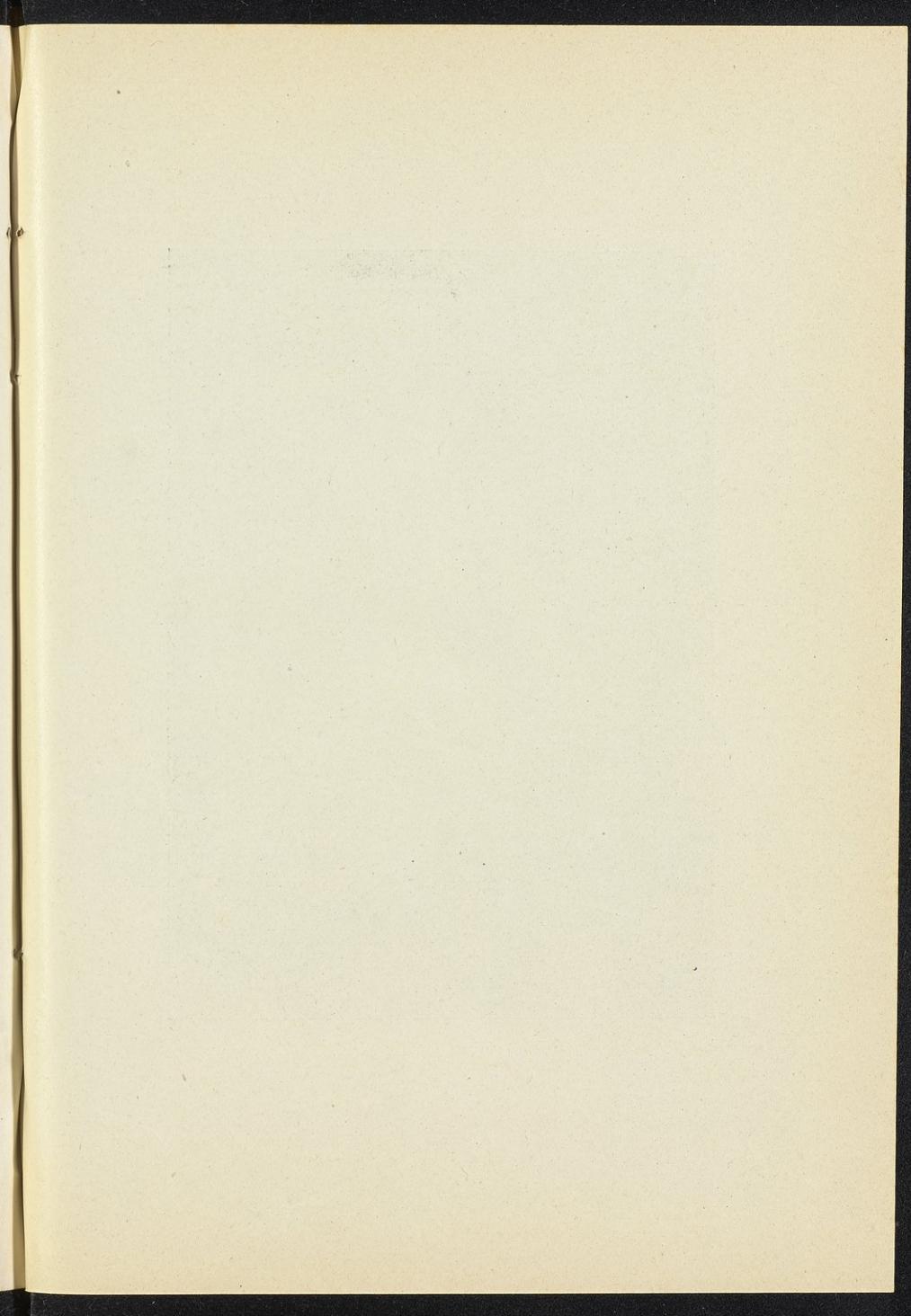
— اللهم لا تجعل وجه هذه المرأة سبباً في غوايتي ، بل سبباً
لهدائي !

ثم أرغم نفسه على الكلام ، قال :

— تاييس ! ابني من سكان أرض ساحقة نائية ، وقد قادني إليك
صيتُ جمالك . قيل إنك أربع المثلثات وأقدر النساء ، وكان
قصص ثرائك وغرامك وأهوائك من أساطير الاولين ، تعيد إلى
الذهن ذكرى « رودوبيس » القدّيعة التي يحفظ ملاحو النيل
تارينها العجيب عن ظهر قوهـم . فاستولت على الرغبة في معرفتك ،
ولعمري أني أرى الخبر يفوق الخبر ! إنك أعلم وأجمل الف مرة ممّا



(تاییس تناجی مرآت‌ها)



ذاع عن عملك وجمالك . والآن إذ أراكِ أقول لنفسي : « يستحيل على المرأة الاقتراب منها إلاً ويتزاحم ترنيخ السكارى »

كانت هذه الكلمات ملقة ، لكن الراهب فاه بها بحرارة صادقة تحمساً للدين . فنظرت تاييس بغير استياء الى هذا المخلوق الغريب الذي أخافها وأدهشها بمنظره القبيح الوحشي ، ونظراته الكئيبة النارية ؟ فوتدت معرفة شأن هذا الرجل الذي مختلف كل الاختلاف عمن عرقهم أجمعين .

فأجابت بسخرية رقيقة :

— يلوح لي أيها الغريب انك سريع الاعجاب بالناس . فخذار أن تشغفك نظراتي فتليل جسدك . وتوهن العظم منك ! حذار من حبي !
فقال لها :

— إنني أحبك يا تاييس ! أحبك أكثر من حياتي وأحبك أكثر من نفسي . لأجلك غادرت صحرائي عليّ أسف . لأجلك نطق لسانني بكلمات دنيوية ، وكان قد نذر الصمت . لأجلك رأيت مالاً يصح أن أراه ، وسمعت ما حرم عليّ سماعه . لأجلك تبللت روحي وفتح قلبي وتفجرت منه العواطف والخواطر كعيون الماء الجارية التي يشرب منها الحمام . لأجلك واصلت الليل بالنهار سارياً سائراً في مقاوز الصحاري الرمادية المكتظة بالحشرات والهوام والخفافيش .

لأجلك وطئت الأفاعي والعقارب حافياً ! أجل ، إني أحبك ! أحبك
لا كهؤلاء الرجال الذين تضرم الشهوات أبدانهم فيتساقون إليك
كالذئاب الخاطفة أو الثيران المهاجحة . لذلك أنت عزيزة عليهم معزّة
الظبية على الأسد ، فيتلف حبهم الشهوياني روحك وجسدك أيتها
المرأة . أما أنا فأحبك بالروح والحق . أحبك في الله وإلى أبد
الآبدية ، والشعور الذي يكتنن صدرني لك هو غيرة حقة وعطف
رباني . ابني أعدك ما هو أذكر من عطر الزهر ، وألذ من أحلام ليل
قصصي . أعدك المآدب المقدسة والأفراح السماوية . النعيم الذي آتيك
به مقيم لا يزول ، نادر لم يُسمع به ، رائع لا يوصف ... وإذا قدر
للسعادة في هذه الدنيا أن يروا لحظة واحدة من مثله ، فأنهم يموتون
في الحال من شدة الذهول !!

فضحكت تايسن ضحكة المتركم المرتاب ، وقالت بخبائثة :

— على يا صاحبي بهذا الحب العجيب . عجل ؟ فائي أعد
إيهابك في القول مهانة لمحاسني . فلننadir إلى اتهام الفرص ولا نضع
لحظة واحدة ! ابني لا أطيق الصبر على معرفة السعادة التي تبشرني
بها . ولكنني أصارحك القول ابني أخشى أن أظل جاهلة بها ، وإن
تنتهي وعودك كلها لي في كلمات فقط . فالوعد بالسعادة ، أسهل بكثير
من منح السعادة . كل له موهبة ، وأظن موهبتك الخطابة والكلام .
إنك تقول بحب مجاهد ، ليت شعري ، لقد مضى دهر طويلاً على

تبادل القُبُل بحيث يكون من عجائب الزَّمن بقاء أسمار حب لم يطع
عنها اللثام ، والعاشقون يعرفون أكثر من السهرة في هذا الباب ...

— تايس لا تسخري . اني أحمل اليك الحب المجهول .

— لقد أتيتني يا صاحبي متأخراً ، فانا بكل أنواع الغرام عليمة .

— الحب الذي آتيك به ملوء الجد ، وكل حب آخر عرفه

لا يتخص الأ بالعار !

فنظرت اليه تايس بعين جامدة ، وغشي جينها الصغير عبوسة

وتقطيب ، وقالت :

— انك أيها الاجنبي جريء للغاية ، لتحديك رب الدار . انظر
إليّ وقل لي بربك هل أبدو كخلوقه يغمرها الرجس ويطوقها العار ؟
كلا ! لست خجلة مستنكفة ، لا أنا ولا كل اللواتي يعشن معيشتي ،
ولو أنهن قد يكن دوني جمالاً ومالاً . لقد بذررت المسرة في كل
خطوة خطوها ، فذاع صيتي في العالم من أقصاه إلى أقصاه . فأصبحت
أقوى سادة الدنيا ، الذين رأيتهم عند موطي قد미 صاغرين . انظر
إليّ ! انظر إلى هاتين القدمين الصغيرتين ، وأعلم أنه يوجد ألف
من الرجال يشترون بأرواحهم نعمة تقبيلهما ، ويفذلون دمـاـهم
ليحظوا بهذه اللذة . نعم ، لست رفيعة العead أو أشغل حيزاً كبيراً
من فراغ هذه الدنيا ، وانني أبدو كحبة أرز لا ولئك الذين ينظرون

إِلَيْهِ مِنْ قَمَةِ السَّرَايِّوْمِ عِنْدَمَا أَمْرَرَ فِي الطَّرِيقِ . غَيْرَ أَنْ حِبَّةَ الْأَرْزِ
هَذِهِ قَدْ سَبَبَتْ لِلنَّاسِ أَحْزَانًا وَآلَامًا وَيَأسًا وَبَعْضًا وَجَرَائِمَ تُكَفِّي
لِمَلَأَ أَوْدِيَةَ التَّرَرِ . وَبَعْدَ ، أَسْتَ بَخْنُونَّا إِلَيْهَا الرَّجُلُ إِذْ تَذَكَّرُ الْعَارُ
مَعَ أَنَّ كُلَّ مَا يَحْيِطُ بِي يَنْطَقُ عَنِ الْمَحْدِ ؟

— اَنْ مَا هُوَ مُجِيدٌ فِي عِيُونِ الرَّجُالِ ، مَرْذُولٌ عِنْدَ اللَّهِ . لَقَدْ نَشَأْنَا
كَلَانًا ، أَيْتَهَا الْمَرْأَةُ ، فِي بَلَادِ مُخْتَلِفَةٍ ، فَلَا عَجَبٌ أَنْ تَبَيَّنَتْ آرَاؤُنَا
وَاحْتَلَفَتْ لَهْجَاتُنَا . وَمَعَ ذَلِكَ فَأَشَهَدُ السَّمَاءَ عَلَى أَنْ مَرَأِي الْاِتْفَاقِ
مَعَكَ ، وَقَصْدِي أَلَا أَغَادِرُكَ قَبْلَمَا تَتوَحِّدُ مَشَاعِرُنَا . مِنْ ذَا الَّذِي يُوحِي
إِلَيْيَكَ بَكَلِيَّاتٍ مُشْتَعَلَةٍ تَجْعَلُكَ تَذَوَّبِينَ أَيْتَهَا الْمَرْأَةُ كَالشَّمْعِ تَحْتَ حَرَارَةِ
أَنْفَاسِي ، وَتَجْعَلُ يَدِ إِرَادِيِّكَ تَكُونُنَكَ كَمَا شَاءَ ؟ أَيْةٌ قَوَّةٌ تَسْلِمُكَ إِلَيَّ
يَا رِيحَانَةَ النُّفُوسِ لِتَنْفَطِرَكَ ثَانِيَةَ الرُّوحِ الَّتِي تَحْيِينِي كَيْ تَسْمِكَ بِجَمَالِ
جَدِيدٍ ، فَتَصْبِحِينِ ، وَأَنْتَ مِنَ الْفَرَحِ تَبَكِّينِ ، « الْيَوْمُ وَحْدَهِ يَوْمٌ
مَوْلَدي ! » . مِنْ ذَا الَّذِي يَجْعَلُ « جَرْنٌ مَعْمُودِيَّةُ الْقَدْسِ » يَنْبُوَّا
يَتَفَجَّرُ مِنْ صَدْرِي حِيثُ تَجْدِينِ فِيهِ بَعْدَ الطَّهْرِ نَقاءَكَ الْأَوَّلِ ؟ مِنْ ذَا
الَّذِي يَحْوِلُنِي « أَرْدَنَا » تَغْمِرُكَ مِيَاهَهُ فَتَمْنَحُكَ الْحَيَاةَ الْخَالِدَهُ ؟
فَهَدَأتْ ثَأْرَةَ تَايِّسٍ وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا :

— هَذَا الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ عَنْ خَلُودِ الْحَيَاةِ ، وَكَأَنَّ كُلَّ مَا يَفْوُهُ بِهِ
مَكْتُوبٌ فَوْقَ طَلْسَمٍ ، فَلَا شَكَ أَنَّهُ سَاحِرٌ ، وَلِدِيهِ أَسْرَارٌ مَقاوِمَةٌ
الشِّيخُوخَةِ وَالْمَوْتِ

فأعتزرت أن تهرب نفسها له ، ولهذا ظهرت بالخوف منه ،
وخطت إلى الوراء مرتدة إلى آخر كهف العذاري ، وجلست فوق
حافة الفراش وقدماها الحافيتان تهتزان في رفقِ ولين ، ورفعت
قميصها ببلاقة ، ثم لبست ساكتة ، ساكتة ، لا تبدي حراكاً ..
تنظر .. بعيون سبلاء

وقد أفلت أهدابها الطويلة على الخدين ظلاً خفيفاً ، وكان مظاهرها
نائم عن حياء وخفاء ، فشابهت بنتاً تحلم وهي جالسة فوق حافة غدير
نظر إليها بافنوس ولم يتحرك ، ولم تعد ركبتهما المترجفتان تقويان
على حمله ، وجف " لسانه في فمه ، واعتري دماغه دوي هائل .
وأغشي على بصره ، فعاد لا يرى أمامه سوى سحابة كثيفة ، فظن
أن يد يسوع قد أقيمت على عينيه لتحجب منظر المرأة عنه ، فاطمأن
至此 العون وتشددت عزيمته ، وقال بوقار يليق بشيخ الصحراء :

— أفنطين أنك إذا وهبت نفسك لي تخفي على الله ؟

فهزت رأسها قائلة :

— الله ! ومن ذا الذي يُذكره دائمًا على مرأقبة كهف العذاري ؟
فلينصرف عنا إذا كنا نسوءه ! ولكن كيف نسوءه ؟ أما وقد
خلقنا ، فليس له أن يستاء أو يدهش إذا رأانا كما برأنا وصورنا ، نفعل
ونتأثر بحسب الطبيعة التي أوجدها فيينا . لقد قيل عنه الشيء الكثير ،

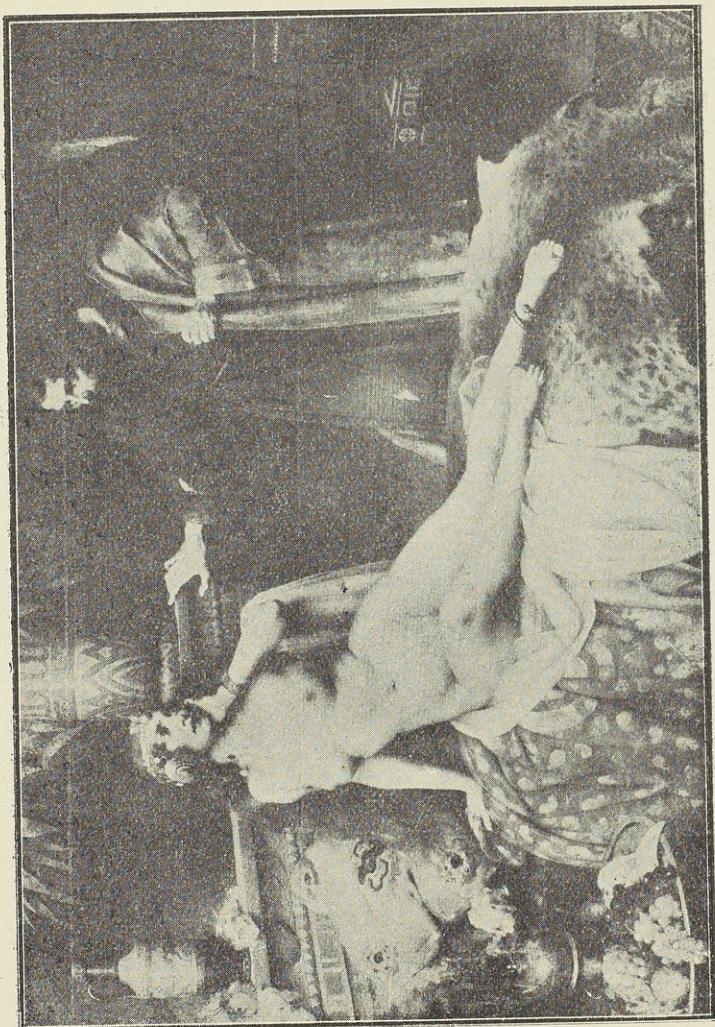
وَعُزِّي إِلَيْهِ مَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ عَلَى الْأَطْلَاقِ ، فَهُوَ مِنْهُ بِرَاءٌ . وَأَنْتَ أَيُّهَا
الْأَجْنبِي ، أَلَكَ مَعْرِفَةً أَكِيدَةً بِحَقِيقَةِ أُمُرِّهِ وَجُوهرِ يَتِهِ ؟ شَمْ مِنْ تَكُونُ
أَنْتَ حَتَّى تَخَاطِبَنِي بِاسْمِهِ ؟

وَعِنْهُ هَذَا السُّؤَالْ فَتَحَ الرَّاهِبُ قَلِيلًا حَلِيَّتَهُ الْمُسْتَعَارَةُ ، وَأَبَانَ
عَنْ ثُوبَهُ الْوَبْرِيَّ ، وَقَالَ :

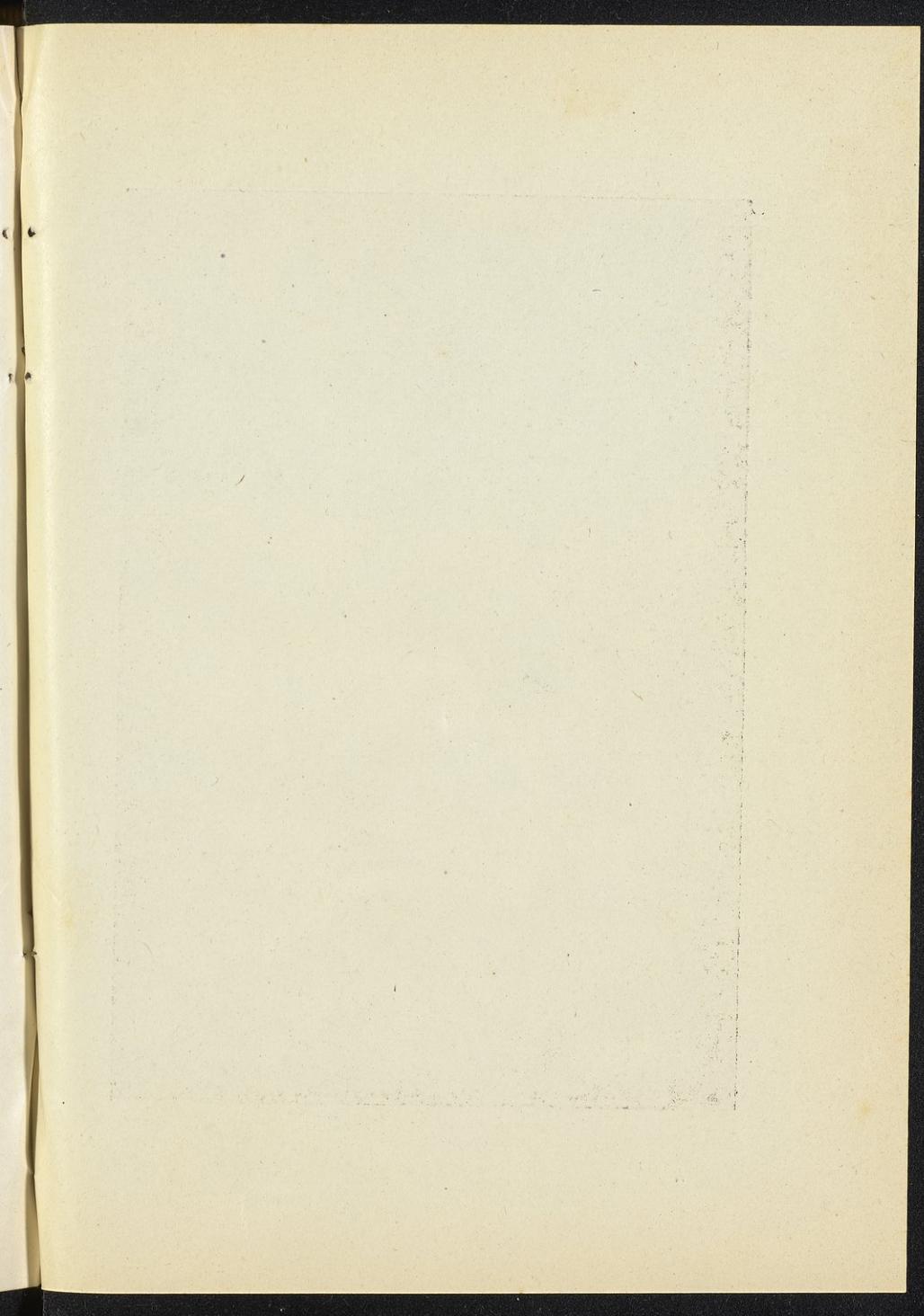
— أَنَا بِأَفْنُوسٍ ، كَاهِنُ أَنْصِيَّنَا الْأَكْبَرِ ، جَهَّتْ مِنْ الصَّحْرَاءِ
الْمَقْدَسَةِ ، وَالْيَدَالِيَّ أَبْعَدَ ابْرَاهِيمَ عَنْ بَلَادِ الْكَلَادَانِيَّنِ ، وَلَوْطَعَنِ
سَادُومَ ، هِيَ الَّتِي فَرَقَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِ . لَقَدْ احْتَجَتْ عَنِ النَّاسِ ،
لَكِنْ رَسْمِكَ ظَبْرَلِيَّ فِي مَقْدَسِيِ الرَّمْلِيِّ ، فَعَرَفْتَ أَنْ نَفْسِكَ
مَفْعُومَةً بِالْفَسَادِ ، وَانْ كَانَ فِيكَ الْمَنْوَنُ . وَهَأْنَذَا أَمَامُكَ أَيْتَمَا الْمَرْأَةِ
وَكَانَتِي أَمَامَ جَدْتِ . وَانِّي أَصْبِحُ بِكَ : « انْهَضْيِي يَا تَايِيسُ ! »

وَلَا سَمِعْتَ اسْمَ بِأَفْنُوسٍ ، وَكَتَبْتَ رَاهِبًا ، وَكَاهِنًا أَكْبَرًا ،
أَمْتَقَعْ لَوْنَهَا رَعِيًّا ، وَرَحَفْتَ مُتَشَابِكَةً الْيَدَيْنِ ، شَعْنَاءَ الشِّعْرِ ، إِلَى
قَدْمِيِ الْقَدِيسِ وَهِيَ تَسْوُحُ ، وَتَوَاؤُهُ ، قَاتِلَةً !

— لَا تَؤَذِّنِي ! مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ ؟ مَاذَا تَبْغِي مَنِي ؟ لَا تَؤَذِّنِي !
أَنَا أَعْرِفُ أَنَّ أُولَيَاءَ الصَّحْرَاءِ يَقْتُونَ النَّسَاءَ الْلَّوَائِي خَلَقْنَ عَلَى شَأْكَاتِي
مَتْعَةً لِلرِّجَالِ . انِّي أَخْسِي أَنْ تَشَنَّأِي ، وَأَنْ تَكُونَ رَاغِبًا فِي اِيْذَائِي .
فَاعْزِبْ عَنِي ! أَنَا لَا يَخَافُنِي شَكٌ فِي مَقْدِرَتِكَ . لَكِنْ أَعْلَمُ يَا بِأَفْنُوسٍ



A



انه لا يجوز لك أن تخترقني أو تمقتني . اني لم أسخر قط من فقرك الاختياري ، مثل كثيرين من الرجال الذين أعرفهم ، فعليك بدورك ألا تجعل ثرأني جرماً . اني حسنة وممثلة حاذقة . اني مُسيرة لا مُخيرة فيما أنا عليه . اني خلقت لما أنا فيه ، ووُلدت لأفتن الرجال . وأنت نفسك قلت الآن انك أحبيتني ، فلا تستخدم علمك للبطش بي ، ولا تقه بكلمات السحر التي تتلف جمالي أو تجعلني تمثالاً من الملح . لاترعبني ! فاني خائفة جداً الخوف . لا تجربّعني كأس المنون ، فلشدّ ما أخاف الموت !

فأشار إليها أن تنهض ، وقال :

— هدي روتك يا بنية ، فلن أسموك المذلة . اني أتيتكِ من قبل ذلك الذي جلس فوق حافة البئر وشرب من ابريق المرأة السامرية المقدم اليه^(١) ، وهو الذي عندما تعشى في بيت سيمون ، ضمخته عريم بالعطور . لست بلا خطيبة لأرميك بأول حجر ، فقد طلما أسللت استعمال ما لا يحصى من نعم الله التي أسبغها علىَّ . ليس ثمة غصب ، وإنما هي الرحمة بك أخذت . يدي وجاءت بي الى هنا . والحق أقول ، اني كنت قادرًا على التقرب منك بكلمات الحب والهيم ، إنما حرارة قابي هي التي قادتني إليك . اني اشتعل

(١) يقصد به السيد المسيح

بحمية الاحسان ، و إِذَا كَانَتْ عِيْنَاكَ الْلَّاتَانِ لَمْ تَنْعُودَا النَّظَرَ إِلَى إِلَى
تقائص البدن و عوراته تستطيعان أن تنظرا إلى الأشياء بحقيقةها
الروحانية ، فلأَظْهَرْنَ إِذَا لَكَ كَعْصَنَ مُنْتَزَعَ مِنْ تَلَكَ الْعَلَيْقَةَ
الْمُشْتَعَلَةَ الَّتِي أَرَاهَا اللَّهُ نَبِيُّهُ مُوسَى الْقَدِيمُ فِي الْبَرِّيَّةِ ، يَعْلَمُهُ الْحُبُّ
الصادق ، الْحُبُّ الَّذِي يَشْعَلُنَا دُونَ أَنْ يَلِمُنَا ، فَلَا يَتَرَكُ جَهَارًا
وَرَمَادًا ، افْمَا بَلَسْمًا وَعَطْرًا يَضْمَخُنَ كُلَّ مَا يَتَخلَّلُهُ إِلَى آخر الدَّهْرِ .

— اني أصدقك ، أيها الراهب ، ولست أخشى بعد خدعة
منك أو مضرة . لقد طلما سمعت أخبار نسّاك طيبة ، والحكايات
التي باعترني عن حياة أنطوان وبولس غربية ، ولم يكن اسمك خافياً
عليّ ، وقد خبروني إنك ، على حداثة سنك ، تصارع في الفضل
أكبر الزاهدين . ومع اني لا أعرف حقيقة أمرك ، أشعر بأنك لست
رجالاً عادياً . الا خبرني ، أتسنطع أن تعمل لي ما يعجز عن عمله
كبنة إزيس وهرمس ويونو والسحرة الكلدانيون جميعاً ، وما لا
يستطيعه العرافون البابليون ؟ أيها الراهب ، إِذَا كُنْتْ تَحْبِنِي ، فَهَلْ
يستطيع أن تحول بيني وبين الموت الذي أخشاه ؟

— أيتها المرأة ، ان من يرغب في الحياة يحيي . فاعرضي عن
الملازمات السافلة التي تهلكين بها هلاكاً أبداً . انتزععي جسدك
الذى فطره الله من رضابه ونفح فيه من روحه ، إِنْتَشِلِيهِ مِنْ أَيْدِي

الشياطين الذين يوشكون أن يحرقوه أحرقاً . تعالى أيتها التي أخنناها
التعب وردي موارد الزهد المباركة ، تعالى انهمي من تلك العيون
المحبوبة في الصحراء التي تتفجر من السماء ! أيتها النفس القلقة المتباينة ،
تعالي نلي ما تشهدين ! أيها القلب الشره الطامح الى الجذل ، عليك
أن تجذل حقيقة بتدوّق طعم الفقر والعزلة ، وانكار الذات وتركها
في حضن الله . يا عدوة المسيح الآن ، ويا حبيته غداً ، تعالى اليه !
تعالي يا من بحثت وفتشت وستقول : « ها أنا قد وجدت الخب ! »

وكان يلوح على تاييس أنها تتغرس في أشياء بعيدة ، فسألته :
— أصحيح أيها الراهب اني إذا نبذت المسرات وتبت ،
أولئك ثانية في السماء سليمة الجسم موفرة المجال ؟
— تاييس ، اني أحمل اليك الحياة الخالدة ، فشي بي ، لأن
ما أبشرك به هو الحق ...

— ومن يضمن لي أنه الحق ؟
— داود ، والأنبياء ، والكتب المقدسة ، والمعجزات التي
سوف تشهدين ...
— أميل إلى تصديقك ، أيها الراهب . لأنني اسلم بكوني لم

أجد في هذه الدنيا هناءً . كان نصيبي أعظم من نصيبي ملكرة ،
ومع ذلك فقد صبت الحياة على رأسى صنوف الآلام والمتابع ،
وها أناذا قد عيت كثيراً وضفت ذرعاً بوجودي . كل النساء
يمسدنى ، مع انى طالما حسدت المرأة العجوز الدرداء التي كانت ،
وأنا صغيرة ، تباعني أقراص الشهد تحت احدى بوابات المدينة . وقد
خطر لي غير مرأة أن القراء هم وحدهم الصالحون السعداء المباركون ،
وان فى هذه الحياة الوضيعة الوديعة تعزية وسلوى . فيا أيها
الراهب ، لقد هجت أمواج حياتي ، وطفوت إلى السطح بتلك التي
رسبت في القاع . . . ترى من أكون أنا لأؤمن ؟ وأأسفاه ! . . .
وما عساي أن أكون ؟ وما هي الحياة ؟

وفي أثناء كلامها تغيرت ملامح بافنوس وأضاء وجهه بفرح
سماوي ، فقال :

— اسمعي ! انى ما دخلت الى مسكنك وحدى ، بل صحبى
آخر . وهو واقف هنا بجانبى ، لا تستطيعين أنت رؤيته ، لأن
عينيك لا تستأهلان بعد مشاهدته ، ولكنك لا تلبشين أن تريه
بجلاله وجماله ، وتقولين : « هو الجدير بالحب وحده ! » ولو لم
يكن قد وضع الآن يده الناعمة فوق عيني ، يا تاييس ، فلربما كنت
افتعرفت معك خطيئة ، لأنى أنا نفسي مثال الضعف والوهن .

لكتنه أقذنا معًا . انه صالح كا هو قادر واسمه « المخلص » . وقد
بشر الدنيا به داود والأنبياء ، وسجد له الرعاة والمحوس ، وهو
لا يزال في المهد صليباً . وقد صلبه الفريسيون ، ودفنته القيست ،
وأظهره الحواريون للعالم ، وشهدت به الشهادة . وهو الذي لما علم
بأنك تخشين الردى ، أتي بي إلى بيتك ليدفع عنك غائلة الردى ؟
اليس كذلك يا يسوع ؟ أولىست تظاهر لي في هذه اللحظة كما
ظهرت لأهل الجليل في تلك الأيام العجيبة ، عند ما هوت معلمك
النجم من السموات ، وصارت قرية من الأرض بحيث تناولها
الأطفال القدисون بآيديهم وهم يلعبون في أحضان أمها them فوق
سطوح بيت لحم ؟ ألسنا يا يسوع في حضرتك ، وانك تظاهر لنا
حقيقة ناسوتك المقدس ؟ أليس ذلك وجهاً ؟ أولىست العبرة التي
تنحدر فوق خدك هي عبرة حقيقة ؟ أجل ! ان ملك العدل الأزلي
سوف يتلقاها ف تكون فدية لروح تاييس . الاست هنا يا يسوع ؟ ان
شفتيك المستحقتين العبادة مفتوحتان . انك تستطيع الكلام .
تكلم ، فكلي آذان صاغية . وأنت يا تاييس ، يا تاييس السعيدة ؟
اصغي لما يقوله لك المخلص نفسه . انه يتكلم من دوني قائلاً لك :
« بحثت عنك طويلاً يا شاتي الشاردة ، وها قد وجدتك ! فلما
ترشدي مني بعد الآن . هات يديك أيتها البنية المسكينة ،

ودعني أهملك فوق كتفي إلى حظيرة السموات . تعالى يا تايسى !
تعالى يا صفيتى ! تعالى وادر في الدموع معي ! »

وسقط بافנוס على ركبتيه وعيناه تفثان ذهول الجذب . . .
ولما رأت تايس على وجهه صورة يسوع الحي ، قالت في زفراها :

— واهَا ل أيام طفوالي الماضية ! واهَا لأبي الكريم أحمس !
أيها القديس الصالح تيودور ، لماذا لم أمت في دثارك الأبيض عندما
كنت تحملني في مطلع الفجر ، وانا مبتلة بباء المعمودية ؟

فوشب بافнос نحوها صاحباً :

— أنت عِمَّدْتِ ! . . . يا للحكمة الربانية ! يا للعنابة الاتهمية !
الآن عرفت القوة التي اجتنبتي نحوك . الآن عرفت ما صيرتك
هكذا عزيزة عليّ جميلة في عيني ! فالفضل كل الفضل لما التعميد
الذي جعلني أترك ظل الله ، حيث كنت اسكن ، لأبحث عنك في
جو العالم المسموم . لا ريب أن قطرة ، قطرة من الماء الذي غسل
جسمك ، قد سقطت على جبيني . فتعالى يا أختاه وتقبلي من أخيك
الروحي قبلة السلام !

واشم الراهب جبين البغي . . .

ثم سكت وترك حبل القول لله . . . ولم يكن يسمع في كف
العذاري سوى زفرات تايس ممزوجة بخزير المياه الجارية .

بكت ، ولم تكشف عبراتها ، ولا جبست انهمارها ، في حين
دخلت جاريتان سوداوان محملتان بالثياب والعطور وتيجان الزهور .

فقالت ، وهي تحاول أن تبتسم :

— ليس البكاء من حسن الرأي ، فالدموع تحرر منها العيون ،
ولو منها يفسد بها . واذاً اني مزمعة أن أتعشى الليلة مع بعض الأصدقاء ،
أروم أن اكون فتّانة ، لأنّه سوق يكون هناك نساء جميلات ، فلا
أريد أن يلحوظن آثار الضعف البدائية على محيافي . وهاتان الجاريتان
جاءتا لالباسى . ففتحَ قليلاً يابى واتركها يفعلان ذلك . اتهما
ماهرتان محنكتيان وقد اشتريتهما بثمن غالٍ . انظر الى أحداهما ذات
الخواص الذهبيّة الكبيرة والأسنان الجميلة ، اني أتيت بها من
بيت امرأة الحاكم .

فكّر بافנוס بادىء الرأي في اقuang تايس بالعدل عن
الذهاب الى هذا العشاء ، على أنه آخر أخيراً أن يتصرف بفطنة
فسيّلها عن من سلقاه هناك .

فأجابـت أنها ستـرى هناك صاحـب الـولـيمة ، الشـيخ كوتـا مدـيرـ العمـارة

البحرية، ونسىيس ، وكثيرين غيرها من الفلاسفة والملعين بالحوار ،
والشاعر كاليكرات ، وكاهن سيراييس الأعلى ، وبعض الشبان
الأغنياء من هواة تربية الخيل ، ونساء في ريعان الصبا وكمال المجال

فقال الراهب بإلهام غير عادي :

اذهبي اليهم يا تاييس ! اذهي ، ييد آتي لن أتركك .. سأذهب
معك الى هذه المأدبة وأبني بجانبك ملازمًا الصمت والسكون ...

فضحكت تاييس ، وصاحت ، والجاريتان تلبسانها حلبيها :

— ترى .. ماذا عسى أن يقولوا عند ما يرون لي عاشقًا من
رهبان طيبة ؟





المأدبة

لما دخلت تاييس قاعة
المأدبة ، ومعها بافنوس ،
كان أكثر المدعوين قد
اجتمعوا متكئين على
الأرائك أمام مائدة على
شكل حدوة الفرس فوقها كثير من الأواني اللامعة . وكان في وسطها
حوض من الفضة تعلوه أربعة تماثيل منحنية يقرّب يتدفق منها مرق
على سلك مسلوق يسبح فيه ..

فاما أقبلت تاييس ، علا الهاتف لها من جميع الأرجاء :

— سلام على أخت المحسن والبهاء !

— سلام على عروس التراجميديا الصامتة ، التي تعبّر نظراتها عن

جميع الأشياء !

— سلام على محبوبة الآلهة والناس بلا استثناء !

— سلام على المشتهاة غاية الاشتقاء !

— سلام على التي منها الداء وفيها الشفاء !

— سلام على لؤلؤة « راكوتيس » !

— سلام على وردة الاسكندرية !

فانتظرت تاييس بفروغ صبر همود عاصفة التهليل والثناء ،

ثم قالت لمضيفها « كوتا » :

— لقد جئتكم يا لوسيوس براهب من الصحراء ، بافنوس ، كبير

كهنة أنصينا ، وهو رجل قديس كلما ته شعلة من نار ..

فتهض « لوسيوس أوريليوس كوتا » قائد الاسطول ، قائلاً :

— مرحباً بك يا بافنوس ، يا من يؤمن بالعقيدة المسيحية ..

أني أجل بعض الاجلال دينًا أصبح الآن أمبراطوريًا . فقد أحلَّ

قسطنطين العظيم إخوانك في الدين الحل الأول بين أصدقاء الدولة.
وحقاً أنه وجب على الحكمة اللاتينية أن تسمح بدخول مسيحيكم
معبد أربابنا ^(١) . وما يؤثر عن آبائنا قوهم ، أن في كل رب شيئاً
من الألوهية . لكن لندع هذا جانباً ، ولنشرب ، ونظرب ، وزرور
القلب بالذات ، (فالوقت سمح والزمان موّات)

قال هذا وهو منشرح الصدر ، إذ كان قد فرغ من اختراع
سفينة جديدة ، وأتمَّ الجزء السادس من تاريخ كان يكتبه عن
قرطاجنه . ولو ثوّقه بأنه لم يضع يومه سدى ، كان راضياً عن نفسه
وعن الآلة .

ثم قال :

— ترى هنا يا بافنوس رجالاً كثيرين جديرين بالمحبة
والاحترام : هيرمودور كاهن سرايس الاعظم ، والفلاسفة دوريون ،
ونسياس ، وزينوبيس ، والشاعر كاليلكرات ، والفتيات شيراس
وأريستوبول ، وهما إنما رفيق من رفقاء شبابي الأعزاء . وبقربهما
فيلنا ودروسيه ومن حقيهما أن يُعجب بهما كثيراً لف्रط جمالهما ..

فعائق نسياس بافنوس وهمس في أذنه :

— لقد أندرتك يا أخي بما للزُّهرة من بأس شديد . أليس

(١) الباثيون Panthéon

سلطانها القوي هو الذي قادك قسراً الى هذا المكان ؟ اصحَّ إلَيْهِ ،
انك رجل شديد التقى ، لكنك اذا لم تسلم بأنها أمَّ الالهة فهلا كنك
محتمَّ . واعلم أنَّ الشیخ « ملانت » الرياضي كان يقول : « اني
لم أستطع اثبات خواص المثلث بغير مساعدة الزُّهرة ! »
وكان دوريون يطيل النظر الى القادر الجديد ، وما لبث ان
صفق بيديه ، وصاح صيحة الدهشة :

— انه هو يا صحب ! نظرَتُهُ ، لحيته ، طياسانه — هو بعينه !
لقيته في الملعب وكانت تايسينا تكشف عن ذراعيها البديعتين ،
فاضطررت اضطررabyاً شديداً ، وأشهد انه تكلم بحمدَّة وحمية . انه رجل
شريف ، وسيكون نصيبينا منه العنات . فصاحته رائعة ، واذا
كان ماركوس هو أفلاطون المسيحيين ، فباقفوس ديموستينهم .
ولعمري ان أقيorum ، في حدائقه الصغيرة ، لم يطرق سمعه مثل
ذلك قط .

وفي تلك الاثناء ، كانت فيلنا ودروسية تقادان تقتربان
تايسن بعينهما الخائنة ، وقد وضعت فوق شعرها الاشقر تاجاً من
البنفسج النابل ، كل زهرة منه تمثل لون حدقتها حائلاً ، حتى لاح
الزهر كأنه نظارات زائفة ، وبدت عيناهما كزهرتين متألقتين . . .

وَمَا امْتَازَتْ بِهِ تَايِيسُ أَنَّ كُلَّ مَا عَلَيْهَا كَانَ يَتَأَلَّقُ بِنُورِ الْحَيَاةِ
وَرُوحِ الْاِنْسَاجُوم .. فَكَانَ لِثَنِيَاتِ ثُوبَهَا الْأَرْجُوْنِيَّ المُطَرَّزُ بِخَيوْطِ
الْفَضْلَةِ رُونَقٌ عَلَيْهِ مَسْحَةٌ مِنَ الْكَابَةِ لَا تَمْحُوْهَا الْأَسْأَوْرُ وَالْقَلَائِدُ ..
وَكَانَ الْبَهَاءُ كَلَهُ فِي ذِرَاعِيهَا الْعَارِيَتَيْنِ

فَلَمْ يَسْعُهُمَا إِلَّا اَعْجَابٌ بِثُوبِ تَايِيسِ وَزِينَتِهَا ، وَانْ لَمْ تَشِيرَا
إِلَى ذَلِكَ بِكَلْمَةٍ .

قَالَتْ فِيلَنَّا :

— يَا لَكَ مَنْ فِتَّانَةٌ ! لَمْ تَسْتَطِعِي أَنْ تَكُونِي الْآنَ أَجْمَلُ مِنْكَ
عِنْدَمَا قَدَّمْتِ الْاسْكَنْدَرِيَّةَ ، لَأَنْ أُمِّي التِّي رَأَتِكِ حِينَذِاكَ تَقُولُ أَنَّهُ
قَلَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ كَانَتْ تَسْتَحِقُّ أَنْ تُشَبَّهَ بِكِ .

وَسَأَلَتْهَا دَرُوسِيَّهُ قَائِلَةً :

— مَنْ يَكُونُ إِذَا ذَلِكَ الْعَاشُقُ الْجَدِيدُ الَّذِي جَتَّنَا بِهِ ؟ أَنْ
هِيَئَتُهُ غَرِيَّةٌ وَحْشِيَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ لِلْفِيلَةِ رِعَاةً فَلَا رِيبٌ إِنَّهُمْ يَكُونُونَ
عَلَى صُورَتِهِ .. أَيْنَ وَجَدَتِ يَا تَايِيسُ هَذَا الصَّاحِبَ الْوَحْشِيَّ ؟ لَعَلَهُ
مِنْ سَكَانِ الْكَهْوَفِ وَالْمَغَاوِرِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ تَحْتَ الْأَرْضِ مُلْطَخِينَ
بِدَخَانِ سَقَرَ ؟

فوضعت فيلنا أصبعها على فم دروسيه ، وقالت :

— صه ! يجب أن تبقى أسرار الحب في طي الكتمان ، لأن
اذاعتتها محرمة ! أما أنا فأفضل أن يقبلني فم برkan إننا المدخن على
أن تقبلي شفتا هذا الرجل ! لكن حبيتنا تاييس الجميلة ، الجدية
بالعبادة كلهـة ، عليها أن تقبل كلـة دعاء جميع المسلمين . ولنـست
مثلـنا نـابـي الغرام الاـ على زـين الشـباب

فقالـت لها تـايـيس :

— اـحدـرا ! انه عـرـاف سـاحـر ، يـسمـع الـهمـس الـضـعـيف ، وـيـعلم
ما تـخفـي الصـدور . وـهـو قـادـر على أن يـخـطـف قـلـيـكـا أـشـاء نـوـمـكـا ،
وـيـضـع بدـلاـ منـهـما اـسـفـنـجـتـين ، حتـى اذا شـرـبـتـما مـاء تـوـتـانـاـ خـتـاقـاـ .
ثـم نـظـرـتـاـ اليـهـما وـقـد شـحـبـ لـونـهـما ، وـطـوـتـ كـشـحـاـ عـنـهـما
وـجلـستـ بـجـانـبـ باـفـنـوسـ عـلـى أـرـيـكـتهـ .

وقفـ كـوتـاـ هـدـرـ الحـدـيـثـ بـصـوـتـهـ الـذـيـ فـيـ نـبـرـاتـهـ رـنـةـ الـأـمـارـةـ

ورقةـ التـرحـيـبـ :

— إـلـزـمـوا أـمـاـ كـنـكـمـ أـيـهـاـ الـاخـوانـ ؟ صـبـوـ النـبـيـذـ الـمـعـسـولـ

أـيـهـاـ العـيـدـ !

ثـمـ رـفـعـ رـبـ الـبـيـتـ كـاسـهـ قـائـلاـ :

— لشرب أولاً نخب قسطناس سليل الآلهة ورمز عبرية
الدولة ! يجب أن يقدم الوطن على كل شيء ، حتى على الآلهة ، لأنَّه
يأويهم في أرضه ، ويضمهم تحت كنفه الجمِين

فرفع كل المدعون كؤوسهم المترعة إلى شفاهِم الآباءِ
أبي واستكبر ، لأن قسطناس كان قد اضطهد عقيدة أهل «نيسيه» ،
ولأنَّ وطن المسيحي ليس من هذا العالم .

فتمت دوريون بعد أن شرب :

— ما الوطن ؟ انه نهر جار . ضفافه تتبدل ، وأمواجه تتجدد
على الدوام

فأجاب قائد الأسطول :

— أُغْرِفُ يادوريون إنك قلما ترعى جانب القوى الوطنية ،
وانك تعتقد انه يجب على الحكيم أن يعيش بنجوة عن الشؤون
العامة . أمّا أنا فاري أن الرجل الشريف يجب الا يتمنى أكثر من
أن يشغل منصباً ساماً مسؤولاً في الدولة . فما أجمل الدولة وما أجملها !

فوصل هيرمودور ، كبير كهنة سراپيس ، حبل الحديث بقوله :

— سأَل دوريون « ما الوطن ؟ » وجوابي عن ذلك أن

الوطن عبارة عن محاريب الآلهة ومقابر الأجداد . فالإنسان مواطن
سواء بالاتحاد معه في الذكريات والاماني .

قطاعمه الشاب اريستو بول قائلًا :

— بحق التوأم الأول ^(١) ! لقد رأيت اليوم لصاحبنا ديفوفون
جواداً كريماً ، له فك ضئيل ، وقائنان بديعتان ، رافعاً رأسه
الواجف ، مزدھيًّا ازدهاء الديك !
فهرز شيراس الفتى رأسه قائلًا :

— انه ليس بالجواد الكريم كما تدعى ، فله حوافر دقيقة ،
وعراقيبه توشك ان تس الأرض ولا يلبث أن يصاب بالعرج .
وكانا سيستمران في حوارهما لولا أن صرخت دروسية صرخة
عالية :

— آي ! كدت ابتلع حسكة اطول وأحد من الخنجر . ولحسن
الحظ أخرجتها من حنجري قبل فوات الوقت . ان الآلهة تحبني !
فسألها نسياس مبتسماً :

(١) في اساطير الأولين ان كاستر Castor هو ابن جويتير وليدا .
والآخر التوأم ليولكس Pollux . وضرب المثل بعروتهما الوثني التي لا انفصام
لها . — وهذا الاسمان يذكرون عادة في معرض الوداد رمزآ للمحبه والقبول
(المترجم)

— اقولين يا عزيزتي دروسيه ان الارباب بحبك هائمون ؟
اذاً فليساهموا الناس العلل ! لأن الحب يقضي بالشقاء الابدي على
من يصاب به ، وهو دليل على الضعف . فالحب الذي تشعر به
الآلة نحو دروسيه حجة دامغة على عدم بلوغهم حد الكمال .

فاشتد غضب دروسيه لهذه الكلمات ، وقالت :

— ان ما قلته يا نسياس حماقة لا تستحق الجواب ، ومن
طبعك ألا تفهم ما يقال ، وان تقول ما لا معنى له .

فابتسم نسياس ثانية وقال :

— تكلمي ، تكلمي يا عزيزتي دروسيه ، لا بأس بكل ما
تفولين ، فعلينا أن نشكرك كلاما فتحت فالك ، فما أبهى ثناياك !

* * *

وعندئذ دخل البهو شيخ وقرر ، زريّ اللباس ، متئذ الخطى ،
عالي الرأس ، ونفض المكان بنظره محدقاً في الحاضرين بسكون .
فأشار اليه كوتا ليجلس بجانبه فوق أريكته قائلاً :

— أهلاً بك وسهلاً يا يوكريت ! هل من رسالة فلسفية
جديدة كتبتها هذا الشهر ؟ ستكون ، إذا صرحت حسابي ، الثانية
والخمسين التي خطتها قصبتك النيلية يمدك الأثنية .

فأجاب يوكريت ، وهو يبعث بلحيته الفضية :
— ان الببل خلق ليشدو ، وخلقت لأحمد الآرباب
الخالدين . ^(١)

دور بوده

فلنجي باحترام ، في شخص يوكريت ، آخر الرواقين . انه وقرر
رزين ، يقوم في وسطنا ، مكلاً بجلال المشيب ، كتمثال الأسلاف !
تراه بين الناس منفرداً ، يفوّه بعبارات لم يسمع بها

يوكريت

هذه مغاظة منك يا دوريون . ففلسفة الفضيلة لم تنعدم من هذا
العالم . وان لي أتباعاً كثيرين في الاسكندرية وروما والقسطنطينية ،

(١) هذه الجملة من أقوال الفيلسوف الرواقي (Epictète) ايسكتيتوس . اي العبد الاسير) . الذى ولد في الجيل الاول للميلاد بمدينة هيرابوليس بعصر . وأتى روما في عهد نيرون تابعاً لابفروديث Epaphrodite أحد رجال الطاغية الرومانى . فُعرف بهذا الاسم . وخلاصة آرائه احتقار المادة ونصرة الفضيلة وحب البشرية وتحميد الله . وان العلم بغیر العمل لا قيمة له . وانه لا بد مما ليس منه بد . وله في ذلك كلمة مشهورة « احتمل وامتنع » واما يروى عنه ان سيده القاسي لوی يوماً ساقه في أداة تعذيب . فقال له ايسكتيتوس بهدوء : « ستكسرها ! » فلما صدق حدسها وكسرت رجله سرّاً بأن ختم جلته بقوله : « ألم أقل لك ذلك ؟ » — (المترجم)

سواء من العبيد الأرقاء أو أعضاء الأسرة القيصرية ، يعرفون الآن
كيف يحكمون أنفسهم ويعيشون أحراجاً . وهم بعدم اكتراشم شيء
سعادة كل السعادة . كثيرون يحيى فيهم « ايكتيتوس » و « ماركوس
اوريلوس » ^(١) . لكن إذا صح أن الفضيلة قد انطلقت جذورها
من الأرض إلى الأبد ، وفي أي شيء تعني خسارتها هنائي ، ما دام
يقاؤها وعددها لا يتعلّقان بي ؟ إن الحق ، يا دوريون ، هم وحدهم
الذين تخرج سعادتهم عن طوّفهم ، وقتلت من ايديهم . اني
لا أشتّهي مالا تشاوه الآلهة ، وأشتّهي كل ما يشاوؤن . بهذا أصبحت
مثّلهم أشاركم في مسيرةهم الحقيقة . فإذا ماتت الفضيلة رضيت بموتها ،
وملأني هذا الرضا سروراً ، كالمحبود الأعلى لعقلي أو شجاعتي .
ولسوف تتشبه حكمتي في جميع الامور بالحكمة الالهية ، فتأتي الصورة
أشئن جداً من الاصل ، لأنها ستتكلّف شيئاً كثيراً من العنایة ، وكثيراً
 جداً من المحبود .

رسامي

لعلي فاهم ما ترمي اليه . انك تضع نفسك في مستوى العنایة

(١) Marc-Auréle عاهل الدولة الرومانية (١٦١ — ١٨٠ ق.م) وخير امبراطرها . ورب من أرباب السيف والقلم . عُرف بحكمته الرواقية الخالصة واعتداله المشهور وأدبه الموفور . ضمن كتابه الحال « أفكار » زبدة آراءه السامية التي تعد القواعد الادبية للفلسفة الرواقيين — (المترجم)

اللهية والقدرة المعلوية . لكن إذا كانت الفضيلة تحصر في المجهود وحده يا يوكريت ، وفي ذلك الإجهاد الذي به يزعم تلاميذ « زينون » (١) أنهم يجعلون ذواتهم أشباهًا للله ، فالضفدعه التي تتفتح لتصير ضخمة كالعجل تؤدي أكبر عمل من أعمال الرواقين

بُوكريت

أراك تخرّج يانسياس ، وقد برعت كمادتك في تهكمك . ولكن إذا كان العجل الذي ذكرته إلهًا حقيقیاً كأليس ، أو كالثور الذي تحت الأرض - الذي أرى هنا كاهنه الأكبر ؛ وإذا كانت الضفدع تُتقَّف وتُؤْنَى الحكمة فتتجه في مضارعته ، لا تكون في الحقيقة أفضل من العجل ؟ وهل يسعك إلا الإعجاب بحيوان صغير كهذا أوي مثل هذا الفضل العظيم ؟

* * *

(١) هو الفيلسوف اليوناني المشهور ولد في سيتيوم بجزيرة قبرص وأسس المذهب الرواقي Stoicisme الذي يرى في العقل الالهي المنظم الاعظم لمجتمع الكائنات . وان سعادة الانسان في العمل واجهاد النفس . وقد أسس مدريسته في أثينا برواق باسيل ، فأطلق عليه وعلى تلاميذه : « الرواقيون » وكان على مذهب أبي العلاء ، طيب الله ثراه ، يرى أنها : (تعب كلها الحياة) لذلك لما أحس بالشيخوخة تدب في جسده ، وضع حداً لحياته بالانتحار — ٢٩٣ ق . م — (المترجم)

وضع أربعة من الخدم فوق المائدة هِلْوَفًا^(١) مغطى بهلبه ،
وخنايق مصنوعة من الفطير أحاطت بالحيوان كأنها تريد أن
ترضعه ، اشارة إلى أنه انت.

فاتجه زينوقيس نحو الراهب قائلاً :

— قد جاءنا إليها الأصدقاء ضيف من تقاء نفسه ! وأعني به
بافنوس العظيم الذي يحيا في التنسك هذه الحياة الغريبة ، فهو ضيفنا
غير المتظر .

كونا

قل خيراً من هذا يا زينوقيس ، قل إن له صدر المكان لأنه
قد أتى بغير دعوة

زينوقيس

يلزمنا أيضاً يا عزيزي لوسيوس ، مبالغة في اكرامه ، أن نتوخى
ذكر ما يطيب له سماعة . وعلى ذلك ، فيقيناً ان رجلاً مثله أقل
تأثيراً بتوابل اللحوم منه بعطر الافكار الجميلة . ولا ريب في اذنا
نُدخل على نفسه السرور بتوجيه الحديث إلى عقيدة المسيح المصلوب

(١) المِلْوَف : الخنزير البرّي

التي يعتقدوا . أما أنا فأقدم نفسي للحوار عن طيب خاطر . لأن هذه العقيدة تلذّ لي كثيراً لاختلاف رموزها وتبين كنایاتها . وإذا كان ما تقرؤه عنها يدل حقيقة على روح هذا الدين ، فهو إذاً دين ملؤه الحقائق . وأرى الكتب المسيحية حافلة بآيات الوحي الالهي . على أي لا يمكنني يا بافنوس أن أسوى بينها وبين كتب اليهود التي لم تلهم ، كما يدعى ، من روح الله بل من روح خيال . فإن «يهوه»^(١) الذي أملأها هو أحد تلك الأرواح التي تعمّر الطبقات الجوية السفلی ، وتبعث بالجانب الآخر من الامراض التي تفتت بنا . غير أنه يبزّها جمِيعاً في الجهالة والقسوة ، على النقيض من ذلك الشعبان ذي الأجنحة الذهبية الذي لف طياته اللازوردية على شجرة المعرفة ، فقد كان مخلوقاً من النور والحب ؛ فلم يكن ثمة بد من المشادة بين هاتين القوتين — هذه القوة المنيرة وتلك القوة المظلمة . وقد وقع ذلك النزاع بعد خلق الدنيا . إذ دبر «يهوه» — لسوء حظ آدم وحواء ، وهما أول رجل وامرأة كانوا يعيشان عاريين سعيدين في جنة عدن — وسيلةً للسيطرة عليهم وعلى جميع ذريتهم . ولما لم يكن في حوزته فرجار أو قيثارة ، وكان كذلك جاهلاً بالعلم الذي له السلطان ، وبالفن الذي يستميل القلوب ، فقد روّع هذين الساذجين المسكينين

(١) (Jehovah) — Iaveh (الكائن الاسمي)

بأشباح مخيفة ، وتهديدات تخيلية ، ورعد وبروق وصواعق . ولما
أحس "آدم" وحواء بظله فوق رأسهما ، التصدق كل منهما بالآخر
وضاعف الخوف حبهما . فأشفق الشعبان الحكيم عليهما ، ورأى أن
يتحققهما بالعلم حتى لا تصلهما الخرافات والا كاذيب . وتطلب هذا
المسعى فطنة نادرةً وحرزاً فائضاً ، بيد أن الشيطان الكريم الصادق
النية تلافي الأمر بحكمته . فاقترب منها بغير علم يهوه - الذي أدى عن انه
يستطع رؤية كل شيء وهو في الحقيقة قصير النظر - وجذب بصرها
بأبهة درعه وبريق أحنته . ثم روّض عقلهما بأن رسم امامهما ،
بحسنه ، أشكالاً متقنة ، كالدائرة والأهليج والحلزون ، التي عرف
الاغريق خواصها العجيبة منذ ذلك الحين . فعنى آدم بالتأمل في
هذه الأشكال الهندسية أكثر من حواء . لكن لما بدأ الشعبان يتكلم
ويعلمها الحقائق السامية العليا ، تلك التي لا يمكن التدليل عليها ،
ووجد أن آدم المخلوق من طين ذا طبيعة اكتشف جداً من أن تجعله
يدرك تلك العلوم الدقيقة ، وأن حواء ، بالضد ، استطاعت فهمها
بسهولة لكونها أرق قلباً وأدق احساساً . لذلك حدّثها وهي
وحدها ، في غياب زوجها ، ليذهب أول

دورة بوئه

اغتفر مقاطعي لك يا زينو تيس . لقد تبينت أول الأمر من

الخراقة التي قصصتها علينا إحدى وقائع الصراع بين «پالاس أتينا»^(١) والجبارية . ولعمري إن يهوه ليشبه جد الشبه «تيفون» كأن پالاس يمثل الآثينيون ثعبانًا بجانبها . غير أن ما قلته الآن جعلني أشك في ذكاء الشعبان وآخلاقهم . ياليت شعري اذا صح أنه أوقى الحكمة ، أفتراه يودعها رأسه أنشي صغير الحجم لا يقدر أن يسعها ؟ أوثر أن أعتقد أنه كان مثل يهوه جاهلاً كذاباً ، واختار حواء لأنها أسهل اخداعاً ، ولأنه توسم في آدم ذكاءً وتبصرةً .

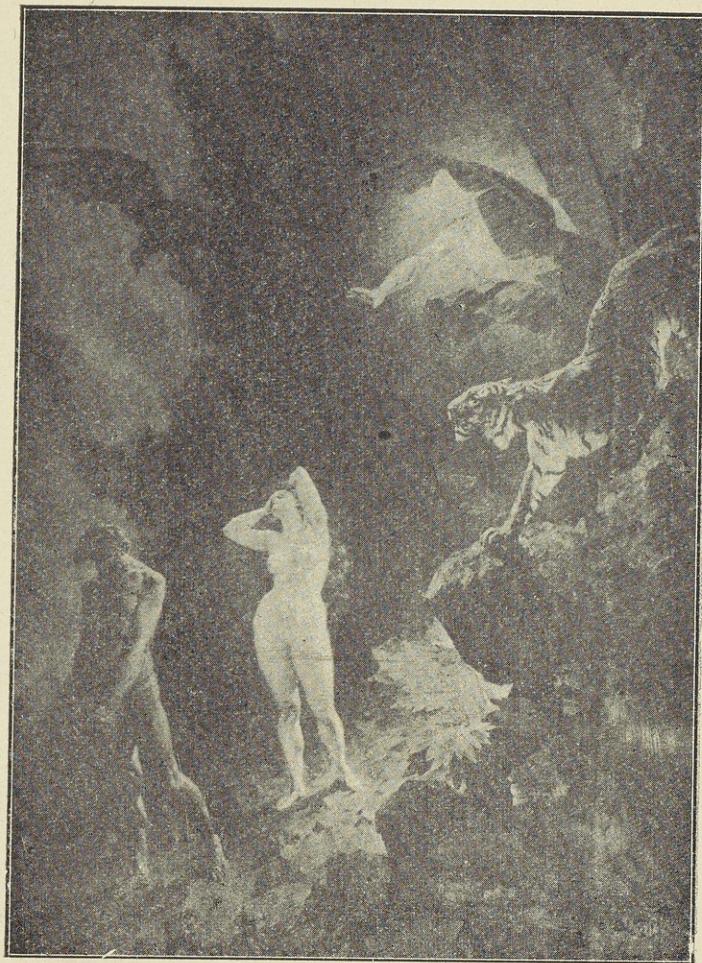
زيفونيميس

اعلم يا دوريون أن اسمي الحقائق وأفضلها لا يدرك بالبصرة والذكاء ، بل بالحس والشعور . ولهذا ترى النساء بوجه عام أقل ادراكاً من الرجال ، ولكنهنّ أدق منهم إحساساً ، فيصلن بسهولة إلى قمة المعرفة بالمسائل الألهية ، وهنّ موهبة الرجم بالغيب . واني لاستصوب تمثيل آپولو العازف بقيمارته ، ويسوع الناصري مرتديةن كالنساء ثياباً فضفاضة . ومهمما يكن رأيك يا دوريون فالشعبان الذي هدى حواء كان حكيمًا لتفضيله ، في عمله النوراني ، حواء التي هي أنصرع بياضًا من الحليب والكواكب على آدم الشليل الظل ! فقد صفت اليه طوعاً ، وانقادت إلى شجرة

(١) Pallas Athéné هي الملة الحكمة عند الاغريق (المترجم)



(آدم وحواء بعد الخطيئة)



(الفردوس المفقود)

المعرفة التي تتدبر فروعها الى السماء ، والتي باللها الروح القدس كالندى . كانت هذه الشجرة يانعة بأوراق تنطق بالسنة الشعوب المقبلة ، وتألف أصواتها المجتمعة موسيقى كاملة . وكانت أشعارها الوفرة تعذّي المهدّين وتعالّمهم الأسماء كلّها ، من معادن وأحجار ونبات ، وقوانين الطبيعة والخلق ، ولكنها كانت هيئاً لا يجرؤ الذين يخشون الألم والموت على إدانتها من شفاههم . أما حواء بعد ان صفت باتباعها الى دروس الشعبان ، تحررت ورفعت نفسها عن مستوى الخاوف الفارغة ، واحتسبت أن تذوق الثمار التي تؤدي الى معرفة الله . لكنها كانت تحب آدم فلم تشا أن يكون دونها ، فأخذت يده وقادته الى الشجرة العجيبة ، وقطفت تقاحة ملتهبة وأكلت منها ثم قدمتها الى رفيقها . ولكن ساء حظهما إذ باعثهما يهوه ، وكان يتزهّز متعسفاً في الجنة ، فلما رأى أنهما قد عالما ما كان محمولاً لديهما ، تملّكه غضب فظيع . وكانت غيرته شرّ ما يُتقى . فاستجمّع قواه وأحدث في الجو السفلي ضجة جزع من هو لها ذانك الكائنان الضعيفان ، فأفلّتت المرأة من يد الرجل ، أما المرأة فقد تعلقت بعنقه وقالت : « أريد أن أقسمك الجهل والآلام ! » فلما انتصر يهوه أبقى آدم وحواء وذرّيتهما في ذهول وفزع . وفازت صناعتـهـ التي لم تكن تتعذر خلق الشـهـبـ الغـلـيـظـةـ وفـاقـتـ عـلـمـ الشـعـبـانـ الذي كان موسيقاراً ومهندساً . فعلم الناس الظلم والجهل والقسوة ،

وَمَكَّنَ لِلشَّرِ فِي الْأَرْضِ . طَارَدَ قَبِيلَ وَنَسْلَهُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ جَدَّ
وَعَمَلٍ . وَأَخَذَ الْفَلَسْطِينِيُّونَ بِشَعْرِهِمُ الْأُورْفِيِّ وَمَوَاعِظِهِمُ الْعِيسَوِيَّةِ ،
فَأَفَاقُهُمْ عَلَى بَكْرَةِ أَيَّهُمْ . ثُمَّ صَارَ لِلْعِلْمِ وَالْجَمَالِ عَدُوًّا لَا تَبْدِ غَاثِهِ .
وَقَدْ ظَلَّ النَّوْعُ الْإِنْسَانِيُّ قَرُونًا مَتَعَاقِبًا غَارِقًا فِي بَحَارِّ مِنَ الدَّمْوَعِ
وَالدَّمَاءِ تَكْفِيرًا لَهُزْمَةِ الشَّعْبَانِ الْمُجْنَحِ . وَكَانَ بَيْنَ الْأَغْرِيقِ ، لَحْنِ
الْحَظْ ، دَهَّاً مِثْلَ فِيَثَاغُورِسْ وَأَفَلَاطُونَ ، فَادْرَكُوا بِقُوَّةِ عَبْرِيَّتِهِمْ
الْأَشْكَالُ وَالْأَفْكَارُ الَّتِي حَاوَلَ عَدُوُّهُمْ عَبْثًا تَعْلِيمَهَا لِلْمَرْأَةِ الْأُولَى .
كَانَتْ رُوحُ الشَّعْبَانِ فِيهِمْ وَلَذِكْ كَرْمُ الْأَئِثِينِيُّونَ صُورَتُهُ كَمَا قَالَ
دُورِيُّونَ . وَأَخِيرًا ، ظَهَرَتْ ثَلَاثَةُ أَرْوَاحٌ عُلُوَّيَّةٌ بِأَشْكَالٍ بَشَرِيَّةٍ :
يَسُوعُ الْجَلِيلِيُّ ، وَبَازِيلِيدُ ، وَفَالْتَّانُ . وَقَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِاجْتِنَاءِ أَفْضَلِ
الثَّمَارِ مِنْ شَجَرَةِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي غَارَتْ جَذُورُهَا فِي بَطْنِ الْأَرْضِ
وَارْتَفَعَتْ قَبْرَهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ . وَهَذَا مَا شَئْتَ أَنْ أَقُولَهُ انتقامًا
لِلْمُسِيَّحِيِّينَ الَّذِينَ كَثِيرًا مَا تَنْسَبُ إِلَيْهِمْ أَغْلَاطُ الْيَهُودِ

دُورِيُّونَ

إِذَا كُنْتَ وَعِيتُ ما قَالَهُ يَا زِينُوْتِيُّسْ مِنْ أَنَّ الرَّجَالَ الْثَّلَاثَةَ
الْحَرَيَّيِّينَ بِالْأَعْجَابِ — يَسُوعُ وَبَازِيلِيدُ وَفَالْتَّانُ — قدْ اَكْتَشَفُوا
اسْرَارًا كَانَتْ خَافِيَّةً عَلَى فِيَثَاغُورِسْ وَأَفَلَاطُونَ وَجَمِيعِ فَلَاسِفَةِ

اليونان ، حتى عن أبيقور الاهي^(١) الذي حرر الانسان من سائر المخاوف الباطلة ، فيكون لك الفضل ان أنت أبأتنا بأية وسيلة أحرز هؤلاء الثلاثة الزائفون المعارف التي غابت عن حكمة الحكاء

زينو نيميس

وهل أنا بحاجة الى أن اكرر على مسمعك يا دوريون ان العلم والتأمل ليسا سوى الدرجة الأولى من المعرفة ، وان الانجذاب وحده هو الذي يوصل الانسان الى الحقائق الازلية ؟

هيرمودور

صحيح يا زينو نيميس ان الروح تغتدي بهذا الانجذاب كما يغتدي الجندي بالندي . وزد على ذلك ان العقل وحده هو الصانع لتجلي الجذب . لأن الانسان يتالف من طبيعة ثلاثة : جسد مادي

(١) Epicure فيلسوف اليونان العظيم (٣٤٢ ق. م.) — ٢٧١ .
يُحتمل أنه ولد في ساموس . يرى في اللذة الخير كله . وأنه يجب ان تتووجه كل م محموداتنا في سبيل الحصول عليها . لكنه يفرقها عن الحواس . ويرى في لذة الجسد العذاب والالم . ويقول لذة العقل وتنقيفه ومارسة الفضيلة . ويرى في ذلك السعادة وهي غاية الحياة . لكن مذهبة تحدى وتدهور من بعد ذلك الى عكس أغراضه العالمية النبيلة ككل مذهب من المذاهب السامية التي يقضى عليها ضعف الانسان — (المترجم)

وروح أرق منه وان كانت مادية مثله ، ثم عقل غير قابل للنقاء .
وعندما يصعد العقل من الجسد ، — الذي يصبح بعده كقصر هجره
صاحب بقعة فصار نهب الصمت والوحشة — ، ويخلق في جنات
الروح ، ويندمج في ذات الله — يتذوق العقل لذات موت عتيد ،
أو بالحرى حياة آتية ، فما الموت الاَّ حياة ، وفي هذه الحالة — حالة
الاتصال بالذات العالية والاشتراك في الصفاء الإلهي — يفوز العقل
بمسرات لا نهاية لها وبمعرفة مطلقة ، فيدخل الوحدة التي هي الكل
فيكون كاملاً .

نباس

هذا حرى بالاعجاب . لكن الحق أقول يا هيرمودور اني
لا أرى فرقاً كبيراً بين « الكل » و « العدم » . حتى الكلمات
تبدو عاجزة عن التمييز بينهما . فغير المتناهي يلوح ، الى درجة رائعة ،
انه عبارة عن لا شيء — كلها بعيد عن التصور . ومن رأى أن
الكمال يكلف كثيراً جداً ، قد يكافف الانسان حياته كلها ، وعلى
المرء لكيما يحظى به أن يتغافل . وهي نسكة لم ينج منها أحد مذآلى
الفلاسفة على أنفسهم تأليه الكمال وتكميل الآلة . وبعد ، فإذا
كنا لا نعرف غير الكائن فتحن جاهلون كذلك ما يكون . إنما
لا ندري شيئاً . . تقولون ان تفاصيل الناس فيما بينهم محال ، ويبعدوا

لي ، على رغم ضوضاء التنازع بيننا ، أنه يستحيل عليهم ألا يتلقوا في نهاية الأمر ، وقد دفوا جنباً إلى جنب ، مغمورين بأكواخ من المتناقضات التي هالوها هم أنفسهم فوق أنفسهم مثل بليون فوق أوستا .^(١)

كونا

أحب الفلسفة حبّاً جماً ، وأمارسها في أوقات فراغي ، لكنني لا أفهمها جيداً ألا في كتب شيشرون .
يا أيها العبيد صبوا السلاقة المعسولة !

ذايكرات

ان هذا لشيء عجائب ! قبّلما أذوق الطعام ذكرت أيام كان الشعراء الجديون يجلسون على موائد الجبابرة الطيبين فسال لعابي .
لكنني وقد ذقت الرحيق المختوم الذي سكته لنا بسخاء يا لوسيوس الكريم ، لم أحلم بسوى الجهاد المدني ، والعراء الحماسي . واني لأستحيي أن أعيش في زمن كهذا لا مجد فيه . ابني أستوحى الحرية ،

(١) في اساطير الاولين ان بليون Ossa جبلان متبعاً جبلان متبعاً في تساليا . فلما ثار الجبابرة على الاه جويت ، وأرادوا ان يرقو أسباب السماء كوموا بليون فوق أوستا فضررت مثلاً للمشكلات اذا زادت لغير نتيجة ، والصعوبات اذا اقمت ضغطاً على اباله (المترجم)

وأسفك دمي - في الخيال - مع آخر الرومانيين في ساحات فاپي !

كوتنا

مات أجدادى عند سقوط الجمهورية مع بروتس فى سبيل الحرية . ولكن عندي أنَّ ما دعاه الشعب الروماني « حرية » لم يكن في الحقيقة سوى حق حكم نفسه . لا أنكر أن الحرية قد تكون خير النعم لأمة وأجدى ما تناهى من العطايا . لكن كلما طال عمرى زدت اقتناعاً بأن الحكومة القوية ذات الحول والطول هي وحدها التي تستطيع أن تضمها لرعاياها . لقد قضيت أربعين عاماً شاغلاً أعظم مناصب الدولة ، ودلتني تجاري بي الطويلة على أن وهن القوة الحاكمة ينتج ظلم الرعية . فكل الذين يسعون ، مثل السوداء الاعظم من الفصحاء ، في اضعاف كيان الحكومة ، يقترون جرمًا شنيعًا . قد تتخاذل ارادة الحكم المطلق حيناً مظهراً مشئوماً ، ولكن السعي إلى رضا الشعب يجعل الحزم والعزم في الحكم مستحيلاً . وقبل أن يُعمر العالم بحملة السلم الروماني ، لم تسعد الشعوب إلا بحكم مستبد مستثير

هبر سورور

أما أنا يا لوسيوس فأظن أنه لا يوجد مثال صالح للحكم ، ولن يوجد . إذ أن اليونانيين الآباء الذين وفقو إلى إدراك أشكال

صالحة لخائف الشؤون ، حاولوا عثّا ايجاد الحكومة التي ينسدونها من هذا القبيل . لذلك كان كل أمل من هذه الوجهة خائباً سلفاً . ولقد استدللنا من علامات خاصة على أن الدنيا أشرفت على الغرق في الجهلة والوحشية ، وقدر لنا يا لوسيوس ان نشهد احتضار المدينة المروع ، ولم يبق لنا من كل الترضيات التي فازت بها الزكارة والعلم والفضيلة إلّا الفرح القاسي – إلّا ارتقاء الموت مستسلمين

كونا

حقاً ان جوع البشر وعتو المتخوّشين آفان مخيمتان . غير أنه بأسطول عظيم ، وجيش عرمم ، ومال وفيه . . .

هيرمودور

ما فائدة اغترارنا بأنفسنا ؟ ان الأمبراطورية المضمحلة سوف تُقدم لقمة ساعنة للهمج . والمدن التي شاد صروحها الحدق الهيليني والأناة اللاتينية لن تثبت أن تصير نهباً للمتخوّشين السكارى . ولن يبق على وجه الأرض فن ولا حكمة . ستقلب صور الأرباب في المعابد وتتعكس في القلوب . وسيكون في هذا ظلام العقل وفباء العالم . وكيف نصدق ان « السرماتيين » سيقومون يوماً ما ب أعمال نابهة ، أو أن « الچرمان » سيزاولون الموسيقى والفلسفة ، أو أن

«الكافر» و «المركمان» سيعبدون الأرباب الخالدين؟ كلاماً!
لقد مال ميزان كل شيء و تهدم . وهذه مصر العربية في القديم التي
كانت مهد العالم ستتصير لحده ، وسيتلقى سيراً يبس - إله الموت -
أسنى تعبدات الأحياء . و سأكون أنا آخر كاهن لا آخر إله ...

* * *

في تلك اللحظة رفع السجوف الموشأة مخلوق غريب ، فرأى
الضيوف أمامهم رجلاً ضئيل الجسم ، أحدب الظاهر ، له ججمة
مفاطحة صلوعاء . وكانت يرتدي جلباباً أزرق على الربيبة الآسيوي ،
و يلبس كالهمج سراويل حمراء مرصعة بنجوم ذهبية . فلما رأاه
بافنوش عرف انه ماركوس الأريوسي ، فرفع يديه فوق رأسه
خشية اقتصاص صاعقة من السماء ، وامتنع لونه رباعياً . وفي وليمة
الشياطين هذه لم تستطع تحديفات الوثنين ولا ترهات الملاسفة
الخاطئين أن تفت في عضده أو توهن من جلده ، ولكن أصابه بذلك
 مجرد حضور هذا الكافر . خدشته نفسه بالفرار .. على أنه عندما التقى
نظره ونظر تايس ، اطمأن وسكن روعه ، إذ قرأ روح المحبة
وادرك أنها - وهي توشك أن تصبح قديسة - قد أسبلت عليه
ستر حمايتها ، فأمسك بطرف ثوبها الطويل الفضفاض ، وتأرجى
المسيح مخلص البشر

رحب المدعون بوصول من يدعى «أفلاطون المسيحيين» ،
وخطبه هيرمودور أولاً بقوله :

— أي ماركوس النابه الذكر ! إننا نتهجّ جمِيعاً بروئيتك بيننا ،
وقد وافيتنا في الوقت المناسب . نحن لا نعلم عن تعاليم المسيحيين
إلَّا ما يرضون باذاعته وحاش لفيلسوف مثلك أن يرتأي ما يرتبئه
الدهماء . لذلك ترانا متلهفين ل الوقوف على رأيك في الأسرار الكبرى
للعقيدة التي تتحلها . وقد كان عزيزنا زينوبيس ، وهو كما تعلم
شغف بتفسير الرموز ، يسأل الآن النابه بافنوس عن كتب اليهود ،
غير أن بافنوس لم يحر جواباً ، ولا غرو فقد نذر ضيقنا الصمت ،
وختم الله على فمه في الصحراء . أما أنت يا ماركوس ، يا من دن
صوته في المجامع الـ كـاـيـرـوـسـيـةـ ، واعتلى المنابر في مجلس قسطنطين
الـ إـلـهـيـ ، فـ قـتـسـطـيـعـ — اذا شئت — أن تـنـقـعـ غـلـتـنـاـ وـتـبـلـغـنـاـ أـمـنـيـتـاـ بـأـنـ
تطـلـعـنـاـ عـلـىـ الـحـقـائـقـ الـفـلـاسـفـيـةـ الـخـبـوـةـ فيـ أـسـاطـيـرـ الـمـسـيـحـيـنـ . أـوـلـيـسـ
أـوـلـىـ هـذـهـ الـحـقـائـقـ هـيـ وـجـوـدـ إـلـهـ وـاحـدـ لـاـ شـرـيكـ لـهـ ، بهـ أـوـمـنـ ؟
إـيمـانـاـ ثـابـتـاـ ؟

ماركوس

أجل أيها الاخوان المؤمنون ، إني أؤمن بوحد أحد ، لم يولد ،
فرد صمد ، مبدع لجميع الكائنات

نـيـاـسـى

نحن نعلم يا ماركوس أن ربك خلق الدنيا . وكان لهذا الخلق ،
بالتـأـ كـيدـ ، شأنـ يـذـ كـرـ في وجودـهـ . وكان موجودـاـ منـذـ الأـزلـ قبلـ
أن تـصـحـ عـزـيمـتهـ على خـلـقـهـ . لكنـ لاـ يـدـ لـيـ منـ التـسـاـيمـ — إـحـقاـفـاـ
لـلـحـقـ — بـأـنـ مـوـقـفـهـ كـانـ حـرـجـاـ جـداـ . فقدـ كانـ عـلـيـهـ أـنـ يـظـلـ بلاـ
عـلـمـ لـيـظـلـ كـامـلاـ . وكانـ عـلـيـهـ أـنـ يـعـمـلـ اذا شـاءـ أـنـ يـبرـهنـ لـنـفـسـهـ
عـلـى وجودـهـ . أـرـاكـ تـؤـكـدـ لـيـ أـنـ رـأـيـهـ كـانـ قدـ اـسـتـقـرـ عـلـىـ أـنـ يـعـمـلـ ،
وـأـنـيـ لـوـاـثـقـ بـماـ تـقـولـ ، وـأـنـ كـانـ هـذـاـ يـعـدـ مـنـ قـبـلـ إـلـهـ كـامـلـ إـغـضـاءـ
لـاـ يـغـفـرـ . وـالـآنـ خـبـرـنـاـ يـاـ مـارـكـوـسـ كـيـفـ شـرـعـ فـيـ خـلـقـ الدـنـيـاـ ؟

مارـكـوـسـ

انـ الـذـينـ أـوـتـواـ الـحـكـمـةـ وـجوـهـرـ الـعـرـفـةـ مـثـلـ هـيرـمـوـدـورـ
وـزـيـنـوـقـيـسـ ، يـعـلـمـونـ وـإـنـ لـمـ يـكـوـنـواـ مـسـيـحـيـيـنـ ، انـ اللـهـ لـمـ يـخـلـقـ الـعـالـمـ
مـبـاشـرـةـ وـبـغـيرـ وـاسـطـةـ . فـقـدـ اـتـخـذـ لـهـ وـلـدـاـ وـاحـدـاـ هـوـ الـذـيـ بـأـمـرـهـ
صـنـعـتـ جـمـيعـ الـكـائـنـاتـ

هـيرـمـوـدـورـ

صـدـقـتـ يـاـ مـارـكـوـسـ ؛ وـهـذـاـ الـوـلـدـ قـدـ عـبـدـ بـأـسـماءـ «ـ هـرـمـسـ »ـ
وـ «ـ مـيـتـرـاـ »ـ وـ «ـ اـدـوـنـيـسـ »ـ وـ «ـ أـپـولـوـ »ـ وـ «ـ يـسـوـعـ »ـ

مار كرسي

لا أكون مسيحيًا إذا أطلقت عليه اسمًا غير «يسوع»
و «المخلص» . انه حقاً ابن الله ، لكنه ليس بأذلي ،
إذ أن له بدأة . أما القول بأنه وُجد قبلما يولد فذلك سخف يجب
أن يترك لبعض «نيسيه» ، والمحار الحرون الذي حكم كنيسة
الاسكندرية زمناً طويلاً باسم اثناسيوس المغين

وكان بافنوس قد شحب لسماعه هذا القذف ، وأغرقه الألم
في لجة من عرقه ، فرسم علامه الصليب ولازم صيته السامي . ومضى
ماركوس في حديثه :

— من المعلوم ان مجمع «نيسيه» الاكتير وسي الغر ، قد تهجم
على جلاله عز شأنه ، بارغامه على تقسيم صفاته — التي لا تتجزأ —
بينه وبين الشفيع الذي بواسطته صنعت كافة الموجودات ...

يا نسياس كف عن تهمك بالله المسيحيين الحق ! واعلم انه
جل شأنه كزنايق الحقل ، لا يعمل ولا يغزل . لم يكن هو الصانع
بل كان ولده الوحيد يسوع الذي خلق الدنيا ؛ وبعد ذلك اتى
سبحانه ليصلاح عمله ، لأن الخليقة لم تكن كاملة ، وكان الشر حتى
قد امتزج فيها بالخير

نَبِاسٍ

ما الخير؟ وما الشر؟

* * *

مررت فتره سكوت، عرض فيها هيرمودور، وذراعاه مبسوطتان فوق غطاء المائدة، اتناً صغيره من معدن قوريشي تحمل سلّين، في أحدهما زيتون أبيض وفي الآخر زيتون أسود، وقال :

— انظروا الى هذا الزيتون ، فاننا نرتاح الى تناقض لونيه ، ويروقنا أن أحدهما أبيض والآخر أسود . لكن لو وُهب له الفكر والنطق والمعرفة ، لقال الا أبيض : « خير للزيتون أن يكون أبيض ، وبئس الزيتون الأسود » . وكان قوم الزيتون الاسود ينفرون من قوم الزيتون الأبيض . أما نحن فـ كـ نـ أـ عـ دـلـ منـ حـ كـ هـ مـ ، لأنـ نـ اـ فـ قـ هـ مـ ، بـ قـ دـ رـ سـ مـ الـ آـ لـ هـ فـ قـ نـاـ . فالـ اـ لـ اـ سـ اـ نـ يـ رـ يـ حـ يـ طـ بـ كـ لـ شـ يـ ءـ عـ لـ مـ ، منـ كـ لـ شـ يـ ءـ ، فـ يـ سـرـ الشـ شـ رـ شـ رـ اـ ، وـ اللـ هـ يـ حـ يـ طـ بـ كـ لـ شـ يـ ءـ عـ لـ مـ ، فـ يـ رـ يـ فيـ الشـ شـ رـ خـ يـ رـ اـ . انـ القـ بـ حـ بلاـ شـ كـ قـ بـ حـ ، لاـ جـ مـ يـ لـ . لكنـ لوـ كانـ كـ لـ شـ يـ ءـ جـ مـ يـ لـ اـ ، لـ ماـ ظـ هـ كـ لـ شـ يـ ءـ جـ مـ يـ لـ اـ ، (وـ بـ ضـ دـ هـ تـ بـ يـ ئـ انـ الشـ يـ ءـ) .

فلا بأس إذاً من أن يكون هناك شر ، كالذي أثبته أفلاطون
الثاني بما يفوق سميه الأول

بوركريت

لنقل قولًا إلى الفضيلة أقرب . الشر شر لا للعالم الذي لا يدخل
نظامه المتره عن الاضطراب ، وإنما هو شر بالنسبة للشريه الذي
يقتربه ، وكان يوسعه أن يحيط به .

كونا

وحق چو پيتير ! ان هذا عين الصواب !

بوركريت

العالم مأساة شاعر مجيد . والله الذي أفلّها قد جعل لكل منا
دوراً يئشه فيها . فإذا شاء أن تكون سائلاً أو أميراً أو أعرج —
فابذل أقصى جهدك في اجاده تمثيل دورك !

فباس

أجل ! .. ويجمل بأعرج المأساة أن يعرج مثل « هيفستوس » ؛
 وبالجنون أن يستسلم لهياج « أجاكس » ؛ وبالزانية بحرّم أن

تجدد جرائم فيدروس ؟ وبالغادر أن يخون ؟ وبالخداع أن يكذب ؟
وبالقائل أن يذبح . وعندما يتم تمثيل الرواية بكل الممثلين —
الملوك ، والدول ، والطغاة السفاكون ، والعذارى الطاهرات ،
والزوجات الفاسقات ، والقتلة الانذال ، وأهل البلاد ذوو الهم
الشماء — هؤلاء كلهم ينالون أنصبة متساوية من الثناء !

بوكريت

انك تشوه فكري يا نسياس ، وتحوّل الغادة الحسنة الى غول
 بشع ! اني ارجي لجهلك بطبيعة الآلهة والعدل السماوي والشرع
 الا زلية .

نبه ونبه

اما أنا يا صحب فأؤمن بحقيقة الخير والشر ، لكنني أيقنت
 انه ما من عمل بشري ، حتى قبلة يهوذا ، إلا وفيه جرثومة الفداء .
 الشر عون على نجاة الناس نجاة نهائية ، وفي هذا يصدر عن الخير
 وله نصيه في الجزاء المتعلق بالخير . وهو ما بينه المسيحيون تبيّنا
 شائئناً في اسطورة الرجل ذي الشعر الاحمر الذي لكي يخدع مولاه
 منحه قبلة السلام ، وأكده فعله خلاص الناس . كذلك ما من
 شيء ، في رأيي ، أشد تناهياً في الشفط من الصغينة التي بها طارد

بعض أتباع «بولس الخيّام» أتعس حواري المسيح ، وفاتهم أن قبلة «الاسخريوطى» التي تنبأ بها المسيح نفسه ، كانت ضرورية، بحسب عقیدتهم ، لفداء البشر . وانه لو لم يقبل يهوذا السفط هذا الشلاحين من الفضة ، لكانـت الحكمة الإلهية فريـة ، فـتـضـلـلـ الذـاتـ العـلـىـ ، وـتـعـكـسـ اـغـرـاضـهـ ، وـتـسلـمـ الدـنـيـاـ لـلـشـرـ والـجـهـلـ وـالـفـنـاءـ ...

مار كوس

سبق في علم الحكمة الإلهية أن يهوذا كان مخيراً في الأسلام سيده ، ومع ذلك سلمه ، وهكذا استخدمت جريدة الاسخريوطى كحجر في بناء صرح الفداء العجيب .

زيفونيسى

كلمتك الآن يا مار كوس كمن يصدق أن نجاة الناس تمت على يد المسيح المصلوب ، لعلني أن هذا هو اعتقاد المسيحيين . وقد أدركت ما يحول بخواطيرهم ليكون في تمام وسعي ان اكشف عن خطأ أولئك الذين يعتقدون هلاك يهوذا الأبدى . وأرى أن يسوع هو في الحقيقة البشير بيازيليد وفالنتان . أما من جهة سر الفداء ، فسأخبركم أيها الاصدقاء الاعزاء ، مع قلة شوقيكم الى السماع ، كيف تم – في الواقع – على الأرض .

فأشار المدعون بالقبول .

وعندئذ دخل القاعة اثنتا عشرة فتاة ، سريعتا الخطى على الحان ناي خفي ، يحملن على رؤوسهن سلال الرمان والتفاح ، مثل العذارى الآثنيات بسلام الحصيد المقدسة . فوضعن السلال فوق المائدة ، وانقطعت أنقام الناي . وقال زينوبيس :

— لما خلقت «أيونيا» أي « فكرة الله » العالم ، عهدت بمحكمة الأرض الى الملائكة . لكنهم لم يحتفظوا بالزانة الالائفة بالحكام ، فانهم لما رأوا بنات الناس فاتنات ، باغتوهن في المساء عند عيون المياه ، واجتمعوا بهن ، فتولد جنس شرس ملاً الأرض بعياً وعtooً ، حتى ارتوت أتربة الطرقات من دماء الأبريةاء . ولما رأت «أيونيا» هذا ، نالها حزن لا يوصف . فاتجهت الى الدنيا ، وتهدت قائلة :

« — هذا ما قدمت يدائي ! ان أطفالى المساكين غارقون في حياة مريدة ، والذنب ذنبي . انهم يتوجعون بجرميتى وأريد أن أكفر عنها . الله نفسه ، الذي لا يفكر الا بواسطى ، لا يستطيع أن يرد اليهم طهارتهم الاولى . سبق السيف العدل ، وسوف تبقى الخليقة ناقصة حتى الأبد . وأقل ما أستطيعه الا آخنلى عن مخلوقاتي . فإذا لم أستطع اسعادهم مثلـى ، فاني أقدر على مقاساتهم شقاءهم .

وبما اني أخطأت إذ وهبت لهم أجساداً تذهب ، فلا تخذن أنا
الأخرى جسداً ك أجسادهم ، وأذهب لأعيش بينهم »

ثم هبطت الى الارض واتصلت برحم امرأة أرجوسية حيث
 تكونت ثم ولدت صغيرة نحيلة ، وسميت « هيلانة » . وسخرت
 في اعمال الحياة ، ييد انها ما عتمت أن ترعرعت في حسن وجمال
 وصارت أعز من يُشتهى من النساء . وكانت قد اعتزت أن تمحن
 جمانتها الغافلي بأدنس الخطايا . فبذلت نفسها للزنا الشرسرين كفارة
 عن كل فسق وشراسة ومظلمة . وسببت بحملها دمار الشعوب حتى
 يغفو الله عن جرائم الكون . ولم تكن « ايونيا » قط ، أو بالحرفي
 الفكرة السماوية ، مستحقة العبادة كاً كانت في تلك الأيام التي
 أباحت ، كامرأة ، عرضها للأبطال والرعاة .

تخيل الشعراً الوهيتها حين وصفوها بالهدوء والسمو والفتث ،
 وعندما وجهوا الدعاء لها ، قائلين انها : « روح صافية صفاء
 البحار »

كذا دفعت الشفقة « ايونيا » الى الشر والعذاب . ماتت
 ولا يزال الجنس الأرجوسي ينتفع قبرها . كان عليها أن تعرف
 الموت بعد الزنا ، وأن تذوق الثمار المرّة التي بذرت بذورها . لكن
 يختلاصها من جسد هيلانة المنحل تجسمت في شكل امرة أخرى

وانتقادت ثانية الى كل فاحشة . وهكذا بانتقاها من جسد الى جسد ،
واجتيازها مراحل الشرّ بيننا ، تحمل أوزار الدنيا . ولن تذهب
تضحيتها أدراج الرياح ، فلا تصالها بنا برابطة اللحم والدم ، ومحبتها
لنا ومشاركتنا في ذرف الدموع — ستحصل على نجاتنا ونجاتها معاً ،
وسترفعنا ، معلقين بصدرها الأبيض الناصع ، الى سلام الفردوس
المردود .

هيرمودور

هذه الأسطورة ليست مجھولة مني . فاني اذكر ما قيل عن
هيلانة الشائقة انها عاشت في احدى قممها مع « سيمون »
الساحر في أيام الامبراطور « تيبروس » . على اني أظن ان
سقوطها كان على رغبها ، وان الملائكة طوّروا بها معهم

سيمونيس

كذا يظن الذين لم يقفوا على حقائق الامور يا هيرمودور ،
فعدهم ان « ايونيا » الحزينة سقطت مضطربة غير مختارة . لكن
اذا كان الأمر كما يزعمون فان « ايونيا » لن تكون السرية
المكفرة ، والنذر المغمور بكل مسبة ، والخبز المنقوع في خمر عارنا ،

والقربان الحبيب ، والضحية المثابة ، والحرقة التي يتصاعد دخانها
إلى الله .. اذا لم تكن خطاياها برضاه فلا خير فيها ولا فضل لها

طبلات

لكن ، هل يعلم أحد يا زينوقيس ، بأي أرض ، وبأي
اسم ، وفي أي شكل فَقَان ، تعيش اليوم هذه « الهيلانة » التي
تنجذب ولادتها على الدوام ؟

زينوقيسي

لكيما يستطيع المرء أن يكشف عن هذا السر ، يجب أن يكون
قد أوتي الحكمة . والحكمة ، يا كليكرات ، لم تؤت الشعراة الذين
يعيشون في عالم كثيف من الأشكال والأشباح ، والذين يتلهون
بالآصوات والصور الوهمية كالاطفال

طبلات

حدار أن تسيء إلى الآلهة يا زينوقيس الزنديق ، فالشعراء
أعزّة لديهم ، وقد سنت الشرائع الأولى نظاماً ، ومعجزات الأرباب
قصائد ، والأذان السماوية تستطيب وقع الأناشيد ؟ ومن ذا الذي
يمجهل أن الشعراء مطلعون على الغيب فلا تخفي عليهم خافية ؟ واذ

كنت شاعرًا وقد توجت بـأكليل من غار «أبولو» فساطعكم على آخر تجسد لأيونيا. ان هيلانة الأزلية على مقرية منكم . انها تنظر اليـنا ونحن ننظر اليـها ... انظروا الى تلك المرأة المتـكـثـة على مساند فراشـها ، بالـغـةـ حدـ الجـمالـ ، غـارـقـةـ فيـ بـحـرـ الـاحـلامـ ، وـقدـ اـغـورـقـتـ عـيـنـاـهـاـ بـالـدـمـوعـ ، وـتـحـركـتـ شـفـتـاـهـاـ بـالـقـبـلـ .. انـهاـ هيـ ! .. فـتـانـةـ كـاـكـانـتـ فـيـ عـهـدـ پـرـيـامـ وـأـيـامـ آـسـيـاـ الزـاهـرـةـ . انـ ايـونـياـ الـيـومـ تـُـدـعـىـ تـايـيسـ ! ..

فيـناـ

ماـذاـ تـقـولـ يـاـ كـلـيـكـراتـ ؟ـ أـتـرـئـ عـزـيزـنـاـ تـايـيسـ .ـ قـدـ عـرـفـتـ پـارـیـسـ وـمـنـالـاسـ وـاهـلـ «ـمـوـرـةـ»ـ المـشـهـورـينـ بـجـمـالـ أـرـبـطـةـ السـاقـ الـذـينـ حـارـبـواـ حـيـالـ «ـيـونـ»ـ ؟ـ وـهـلـ كـانـ حـصـانـ طـرـوـادـةـ عـالـيـاـ يـاتـايـيسـ ؟ـ

أـرـبـتوـ بـولـ

منـ يـذـ كـرـ الخـيلـ ؟ـ

فصـاحـ شـيرـاسـ :

— لـقـدـ شـرـبـتـ حـقـ اـرـتوـيـتـ !

ثم هوى ساقطاً تحت المائدة ..

فرفع كاليكرات كأسه قائلاً :

— اذا شربنا شرب اليائسين ، متنا موتورين !

ونام كوتا الشيخ ملقياً رأسه الأصلع على كتفيه العريضتين .
ومرت فترة من الزمن ، ودوريون يبدو كأنه يوج في معطفه الفلسي ،
ثم اقترب من متّكاً تاييس وقال :

— أحبك يا تاييس ، وان كان حب المرأة لا يليق بي !

تاييس

ولماذا لم تحبني منذ هنيهة ؟

دوربورون

لأني لم أكن ذقت طعاماً !

تاييس

أما أنا يا صاحبي المسكين ، وان كنت لم أشرب سوى الماء
القراب ، فلا أحبك !

فـَاكـتـقـ دورـيـونـ بـمـاـ سـعـهـ ، وـانـسـلـ إـلـىـ جـانـبـ درـوـسـيـهـ التـيـ
أـوـمـأـتـ إـلـيـهـ بـعـيـنـهـاـ لـتـسـتـأـثـرـ بـهـ دـوـنـ صـاحـبـتـهاـ . فـاـحـتـلـ زـينـوـمـيـسـ
الـمـكـانـ الـخـالـيـ وـقـبـلـ تـايـسـ فـيـ شـغـرـهـاـ

تـايـسـ

كـنـتـ أـحـسـبـكـ أـعـفـ مـنـ أـنـ تـأـنـيـ بـثـلـ هـذـاـ . . .

زـينـوـمـيـسـ

أـنـيـ كـامـلـ ، وـالـكـامـلـونـ لـاـ يـقـيـدـهـ قـانـونـ ؟

تـايـسـ

أـفـلـآـ تـخـشـيـ أـنـ تـدـنـسـ إـذـاـ أـلـقـيـتـ بـنـفـسـكـ فـيـ حـضـنـ اـمـرـأـ ؟

زـينـوـمـيـسـ

لـلـجـسـدـ أـنـ يـسـتـسـلـ لـلـشـهـوـاتـ ، وـتـبـقـيـ النـفـسـ طـاهـرـةـ غـيرـ شـاعـرـةـ ؟

تـايـسـ

بـعـدـاـ لـكـ ! أـنـيـ أـرـيدـ أـنـ أـحـبـ بـالـجـسـدـ وـالـنـفـسـ مـعـاـ . كـلـ
هـؤـلـاءـ الـفـلـاسـفـةـ تـيوـسـ !

• • • • • • • • • • • • • • • • • • •

انطفأت المصايد واحداً إثر واحدٍ . ونفت أشعة الفجر الشاحبة من خلال السجوف فأضاءت وجوه المدعويين القائمة وعيونهم المستفحة . وكان اريستوبول ، الذي سقط بجانب شيراس ، مطبق اليدين يرسل في حامه سواسه الى الغربان ! .. وقد ضم زينوميس في حضنه فيلنا المنوهكة القوى . وصبَّ دوريون فوق حلقوم دروسيه العاري قطرات خمر ترققت كال gioacit وتدرجت على صدرها الايض ، الرجاج من فرط الضحك ، وقد تعقب الفيلسوف تلك قطرات بشقته يشربها من فوق لحم الصدر الغض ..

نهض يوكريت ووضع يده على كتف نسياس واجتبه الى أقصى القاعة ، وقال له مبتسمًا :

— اذا كان لا يزال في طاقتكم يا صديقي أن تفكّر ، ففيما تفكّر ؟

— افكرة في أن عشق النساء هو حدائق أدونيس !

— ماذا تعني ؟

— أوَ لم يجر في عملك يا يوكريت ان النساء في كل عام يشيدن حدائق صغيرة في شرفات منازلهن ، فيغرسن نخيلًا في أقصى تكريماً

لعاشق الرُّهْرَة ؟ فهذه التخييل تنضر وتحضر قليلاً ثم تذوي وتذبل . . .
— وأي قيمة لهذا يا نسياس ؟ فن الحماقة أن يتعلّق المرء
بظل لا شك زائل .

— اذا كاف المجال ليس سوى ظل ، فليس الاشتفاء الاَّ
وميض برق . وياليت شعري أية حماقة في اشتهاء المجال ؟ من
رأي أن ما يزول ينبغي أن يصحب ما لا يدوم ، وان الوimp
الحائل يتطلع الظل الزائل . . .

— انك تبدو لي يا نسياس طفلاً لاعباً بالاَّكر ! ألاَّ فتحرر
تكن رجلاً !

— كيف يمكن انساناً أن يتحرر يا يوكريت وله جسد ؟
— سترى حالاً يا ولدي ، وتقول : « لقد كان يوكريت حراً »
وكان الشيخ يستند اثناء كلامه الى عمود من رخام سُمّاقي ،
وقد أضاء جبينه باشعة الفجر الاولى . فاقرب هيرمودور وماركوس
ووقفا بجانب نسياس وأخذ الأربعه يتحدثون في الاهليات غير
مكترين لضحك السكارى وصياحهم . فأعرب يوكريت عن حكمة ،
وابان عن فصاحة ، جعلت ماركوس يقول له :

— انك خلائق بأن تعرف الله الحق .

فأجاب يوكريت :

— ان الله الحق في قلب كل حكيم .

ثم تكلموا في الموت

قال يوكريت :

— اريد أن يجعلني الموت مشغولاً بتنويم اعوجاجي وتأدية واجباتي . فارفع يدي " الطاهرتين امامه نحو السماء وأقول للآلهة : « أيتها الآلهة ، لم أدنس قط صورك التي وضعتها في هيكل روحي . هناك علقت أفكاري كلاً كالليل والتيجان . لقد عشت مثلاً للذاتك العالية ، وقد عشت حتى أكتفيت »

قال هذا ورفع ذراعيه الى السماء فأضاء وجهه بنور ساطع .

ولبث هنيئة مفكراً ، ثم عاد يقول مسروراً :

— اترزع ذاتك من الحياة يا يوكريت ، كما تسقط الزيتونة الناضجة من الشجرة التي حملتها ، فتحمدها ، وتحمد الارض التي غذتها .

ثم أخرج من ثنيات ثوبه خنجراً مسلولاً وأغمده في صدره ..

ولما أمسك سامعوه بيده ، كان النصل قد اخترق صدر الرجل الحكيم . فحمل هيرمودور ونسياس الجسد المصنف الخصب بالدماء

إلى موضع بين ولوة النساء المذعورات ، وتأفف الأضياف المترتعجين
من رقادهم ، وتأوهات الشهوات المكتومة التي ركدت ريحها
وخبث نارها . أما الشيخ كوتا فقد استيقظ من نومه الخفيف
ال العسكري ودنا من الجثة ، يفحص الجرح ويصبح :

— على بطيبي اريستيه !

فهز نسياس رأسه وقال :

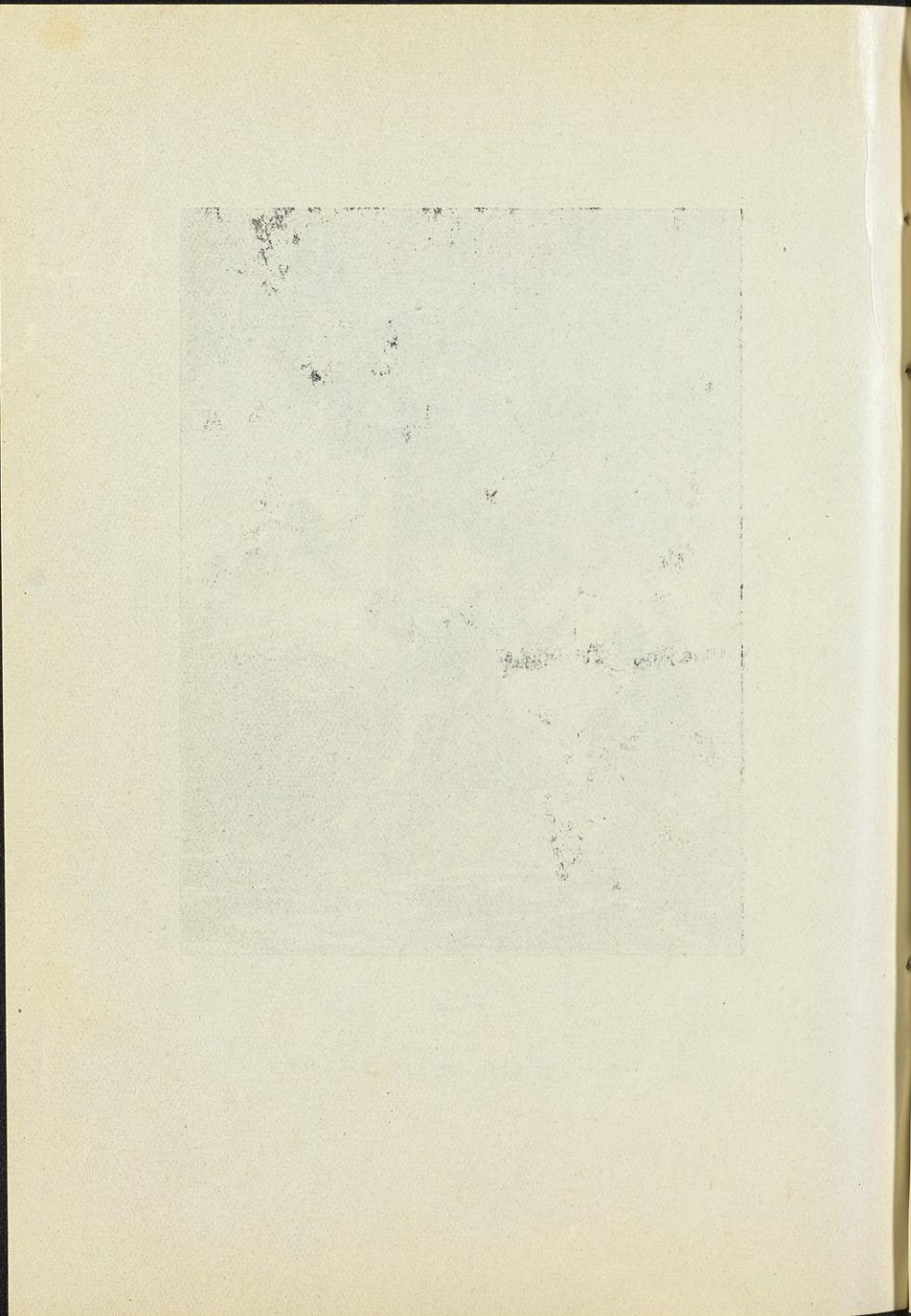
— لقد قضى يوكريت . انه اشتهى الموت كما يشتهي غيره
الحب . وقد أذعن ، مثلنا جميعاً ، لأمنية مهمة . وها هو الآن
مثل الآلهة الذين لا يتذمرون شيئاً ...

فقرع كوتا جبهته وقال :

— الموت ! يشتهي الموت وهو لا يزال قادرًا على خدمة
الدولة ؟ يا للخبار !

وكان بافنوس وتاييس قد لبشا جالسين جنباً إلى جنب بغير
حرارك ، وقد فاضت نفساهما بالاشهراز والرعب والأمل ..

ثم أمسك الراهب فجأة بيد المثلة ، وتخطى معها السكارى
المصر وعين على مقربة من المتعاقدين والمتضاجعين ، واجتبدها مجذزاً
بنها الشراب المسكوب والدم المسفوك ...





الصباح

(وقد أشرق نوره بلون الورد على المدينة)

البردى

— عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ —

طلع الصبح بلون الورد على المدينة . وامتدت صفواف الأعمدة
الطويلة على جانبي الطريق المفتر . وقد أشرف عليه من بعيد قبة
قبر الاسكندر المتلاة . وكان على جانبي الطريق أكاليل زهر
سقطت أوراقها ، ومشاعل انطفأ نورها ، مبعثرة هنا وهناك . وكان
الهواء مرتبطاً بنسمات البحر العليلة . فمزق بافوس ثوبه الفاخر
مشمسزاً ، ودارس عروضه بقدميه ، وصاح قائلاً :

— ها قد سمعتهم يا تاييس ! فقد نفثوا صنوف الحماقات
والخبايث . وقدفوا بفاطر السموات والأرض من أعلى سمائه إلى
أسفل درك الجحيم حيث الشياطين . وأنكروا بوقاحة وجود الخير
والشر ، وجدفوا على السيد المسيح وكفروا به ، وأثثوا على يهودا .
أما أشد هم طغياناً وخرجاً فهو ذئب الظلم ، والحيوان النجس ،
الأريوسي النتن المحسو بالفساد والهلاك ، فقد فتح فاه كأنه
القبور ... أي تاييس ! لقد رأيت تلك التوقعات النجسة تزحف
إليكِ وتدنشك بعرقها المزوج ، وأبصرت أولئك الوحش نائمين تحت

أقدام العبيد ؛ وشاهدت أولئك البهائم متضاجعين فوق الطنافس
المدنسة بقיהם ؛ لقد رأيت ذلك الشيخ المجنون يهرق دمًا مُنحمس
من الحمر المسكونة في مجلس دعائهم ، ويلقي بنفسه بعد الفراغ من
التهتك والخلاعة في وجه المسيح غير المنتظر ! .. الحمد لله ! .. لقد
رأيت الخطيئة وعرفت أنها مرمدة وساقت سبيلاً . تايس !
تايس ! إذ كري جهالة أولئك الفلاسفة ، وقولي ، هل ترغبين
في المذيان مثلهم ؟ إذ كري النظارات والحركات والقهقات التي
عاينتها من رفيقיהם الخلقين بهم — تانك العاهرات الخليعتان
القردتان ، وقولي ، أتدرين أن تكوني مثلها ؟

أما تايس التي أحفظت قلبه مكاره تلك الليلة ، وشعرت بتغافه
الرجال وبهمتهم ، وخباة النساء ، وشقق وطأة الأيام .. فانها
قالت متنهدة :

— نفسي متعبة حتى الموت يا أبي ، فأين الراحة ؟ أحس
بمجيني ملتهباً ، ورأسني خاويًا ، وذراعي مرتعشين حتى لا أملك من
القوة ما يكفي لإمساك السعادة لو انتها وُضعت في راحتي
فنظر إليها بافنوس بجنو وقال

— تشجعي يا أختاه ! . فقد اقتربت الساعة التي ترتاحين إليها ،
أنت التي ستصير بيضاء نقية مثل هذه الأخرجة التي ترينه صاعدة
من الحدائق والبحيرات

* * *

اقتر با من بيت تايس . وشاهد فوق الجدران رؤوس أشجار
المجيز والجلزار ، الخليفة بكهف العذارى ، تهتز تحت طلّ نسات
الصباح . وكانت أمامهما رحبة خالية محاطة بالعمد والتماثيل المنذورة ،
وفي أطرافها مقاعد مستديرة من الرخام عليها أنصاب مختلفة الأشكال .
فسقطت تايس على أحد هذه المقاعد ، ثم رشقت الراهب بنظرة
تلوف ، وتساءلت :

— ماذا ينبغي أن أعمل ؟

فأجاب الراهب :

— ينبغي أن تبعي ذاك الذي أتي للبحث عنك . انه سيفصلك
عن هذه الحياة كما يفصل القاطف عنقود العنب الذي يتغصن في
الكرم ويأخذه الى معصرة الحمر ليحوله إلى صهباء طيبة النكهة
معطرة . اسمعي ! ان على مسيرة اثنتي عشرة ساعة من الاسكندرية ،
إلى الجهة الغربية ، بقرب البحر ، ديرًا للراهبات تعاليه آيات حكمة
بيّنات جديرة بأن تكتسب شعراً غنائياً وتوقع على ألحان الدف
والطنبور . والحق ان النساء اللواتي فيه باتباعهن تلك التعاليم ،
وأقدامهن على الأرض ، أصبحت جيادهن في السماء ! وهن يحيين في
هذا العالم حياة الملائكة . يردن أن يكنّ فقيرات ليحبهن يسوع ،

خفرات كي ينظر اليهنَّ ، قانتات ليتزوجهنَّ . . . يزورهن يومياً في ثوب بستاني حافي القدمين ، ويداه الجميلتان مفتوحتان مثلاً أظهرت نفسه لمريم في طريق الفرج . وعلى ذلك ، سأخذك اليوم الى هذا الدير يا تايس ، ولا تلبثين بعد انضمامك الى أولاء الراهبات القدسات أن تشركي في سهرهنَّ السماوي . انهن ينتظرنك كاخت لهن ، وعند عتبة الدير أمهن « ألين » التقية تمنحك قبلة السلام ، وتقول لك : « أهلاً وسهلاً بك يا ابنتي ! »

فصاحت الغانية صيحة الدهشة وقالت :

— ألين ! إبنة القياصرة ! ابنة اخت الامبراطور كارلو !

— هي بعينها ! ألين الشريفة المحتد قد ارتدت بعد الأرجوان الروماني أطماراً بالية وسمت بنت سادة الدنيا الى منزلة خادم يسوع المسيح . ستكون أمك

فتهضت تايس وقالت :

— خذني الى بيت ألين

فقال بافغوس متمماً نصره المبين :

— سأسيرك لك حتى إليه . وسأقفل عليك في صومعة حيث تبكين على آثامك وما قدمت يداك . إذ ليس من الرأي الصواب

أن تختلط بيّنات ألبين قبلما تغتسلى من جميع خطاياك . وسأضع على
الباب ختماً ، وستمكثين سجينة سعيدة حتى يأتي يسوع بنفسه
ويكسر الخاتم علامه الغفران . بالله لا يدخلنك ريب يا تايس في
مجيئه ، فسيأتي ، ويالراغبة التي سوف تسرى في جسمك حين
تشعرين بأصابع نوره فوق عينيك ترقأ دموعك !

قالت تايس ثانية :

— خذني يا أبي الى بيت ألبين

امتلأ قلب بانفوس فرحاً . فنظر حوله وذاق — غالباً بغير
خوف — لذة التأمل في المخلوقات ، ونهلت عيناه من نور الله باتهاج ،
ومرت فوق جيئه نسمات مجهلة . ثم أبصر فجأة في إحدى زوايا
الميدان الباب الصغير المؤدي الى بيت تايس ، وتذكر ان تلك
الأشجار البديعة التي كان يعجب بآمالها قد ظللت حدائق
العاهرة ، ورأى بعين الفكر الأرجاس التي لوثت الهواء الذي كان
في ذلك اليوم منعشًا وتقىً ، فامضه ذلك وأشجاره ، وعالَ من صبره
وشجاه ، فأجهش بالبكاء وقال :

— سنولي الأدبار يا تايس لا نلوي على شيء . لكن لن
ترى وراءنا الأدوات ، الشهود ، الشركاء في جرائمك الماضية .
تلك السجوف والأسرة والبسط وقوارير الطيب والمصابيح

التي تعان عن بخورك . أتريددين متاع الجريمة هذا المسكن بالشياطين والذى يحمله الروح اللعين المستقر فيه — أنت يتبعك أيضاً الى البدية ؟ . والحق الذى لا ريب فيه ان موائد العار ومقاعد الشنار تستخدم كاعوان لالشياطين فهى تعمل وتتكلم وتخبط في الأرض وتحترق الجو ؟ فليكن العدم والفناء نصيب شمود عارك ؟ الآفارس رعى يا تايس ومرى ، والمدينة هاجعة ، عيدهك أن يقيموا في وسط هذا الميدان كومة من الخشب تحرق فوقها الثروة المدنسة التي يحتوي عليها مسكنك

فارتضضت تايس ذلك ، وقالت :

— افعل يا أبي ما ت يريد . لست أجهل أن المتاع اللاروح فيه يصلح مساكن للارواح ! . في الليل ، يتكلم بعض الايثاث سواه بضربات يحدثها في فترات معينة ، أو باظهار أصواتاً ضئيلة كاشارات ، ولكن هذا كله ليس بذري بال ، فشمة ما هو أدهى وأمر . ألم تلحظ يا أبي إلى يمين مدخل « كف العذاري » تمثال امرأة عارية كأنها تتأهب للاستحمام ؟ رأيت بعیني رأسي هذا التمثال وقد التفت ذات يوم كأنه إنسان حي ، ثم استعاد مظهره العادي ، فشلت أطراضي رعباً ، وضحكت مني نسياس لما أخبرته بهذه الأعجوبة . فلا بد وأن يكون في هذا التمثال بعض السحر ، فقد حدث انه نفث مارب مضنيه في رجل دلماسي كان كافراً بجمالي . حقاً لقد كنت

في وسط أشياء ساحرة وكنت معرضة لأشد الأخطار بروية الرجال
وقد خنقهم عنق تمثال البرنز هذا !! ومع ذلك فمن دواعي الاسف أن
تعدم النفائس المصنوعة بهارة نادرة ، واذا جعلت بسطي وسجوفي
طعمه للنيران كانت الحسارة لا تهوض . وان جمال لون بعضها
لباهر حقيقة ، وقد أفقع عليها الذين وهبوا لها أموالاً لا يستهان بها .
كذلك أملك أقداحاً وتماثيل وصوراً ثمينة ، ولا أظن أن اتلاتها
ضروري ، لكنك يا أبي تعلم ما يجب عمله ، فاعمل ما تريده .

ثم تبع الراهب الى الباب الصغير حيث عُلقت اكاليل الزهر
والتيجان الكثيرة ، ولما فتح أمرت البواب أن يدعو عبيد البيت
جميعاً . فظهر أولاً أربعة هنود طهاء ، وكانوا عوراً صفر البشرة ،
وقد كايدت تاييس مشقة عظيمة ووجدت لذة كبيرة في جمعهم من
جنس واحد ، ومصابين بعاهة واحدة . وكانوا عند ما يخدمون على
المائدة يشرون فضول المدعويين فتأمرهم تاييس بقص تاريخ حياتهم .
اقترب هؤلاء وظلوا صامتين . ثم تبعهم مساعدوهم . ثم أقبل السواس
والصائدون وحملة المحفة والسعادة الذين لا يضئهم التعب ، وبستانيان
غزيرا الشعر ، وستة زوج ذوو هيئة وحشية ، وثلاثة مماليك يونانيين
أحدهم نحوى والثانى شاعر والثالث مغنٌ . اصطفوا جميعاً بانتظام في
الروحبة . وأقبلت الزنجيات الفضوليّات ، منزعجات ، يدرن عيونهن
الكبيرة ، واسداقهن منشقة حتى أقراطهن . ثم ظهر ست جوار يض

جميلات ، عابسات ، متنقبات ، يحررن ببطء أقدامهن المكبلة
بسلاسل ذهبية دقيقة

ولما تكامل عددهم ، قالت تايس لهم ، وهي تشير إلى بافوس :
— افعلوا ما يأمركم به هذا الرجل ، فقد حلّت به روح الرب ،
فإذا خالفتموه أدرركم الموت

ذلك إنها كانت قد سمعت أن لا أولياء الصحراء من البأس
ما يغرق الخاطئين الذين يضربونهم بعصيهم في جوف الأرض
المنشق المتهب .. فآمنت بما سمعت !

صرف بافوس النساء ، والماليلك اليونانيين الذين كانوا كالنساء ،
وقال للباقيين :

— ايتوا بخشب في وسط الربجة ، وأوقدوا ناراً ، والقوا فيها
ما دار عليه البيت والكهف .

فوقفوا بلا حراك مشدوهين ، وسألوا مولاتهم بأعينهم ، فلما
رأوها لا تأتي بحركة ، ولا تنفس بينت شفة ، تزاحوا بالمناكب ،
وقد دخلتهم الشكوك فيما يراد بذلك ، وحسبوه دعابة ..

قال الراهب :

— أطعوا !

كان منهم مسيحيون عديدون فتمهوا ما طلب إليهم ، وراحوا
يبحثون في البيت عن خشب ومشاعل ، وتبعدم الباقيون بغیر استثناء

لأنهم لفقرهم يبغضون الثراء ، وفي غريزتهم حب التدمير . وبعدها
كانوا يكذبون الخشب ، قال بافنوس مخاطباً تايسس :

— قد خطر لي أن أستدعي خازن إحدى كنائس الاسكتدرية
(اذا كان فيها ما يصح أن يسمى كنيسة ولم يدعنه الأريوسيون
الوحوش) لاعطيه متاعك أيتها المرأة ليوزعه على الأرامل
والمساكين ، وبذلك يستحيل رمح الجريمة إلى كنز العدالة .
لكن هذا الحاطر لم يأت من عند الله ، لذلك نبذته نبذ النواة .
فلا شك ان اعطاء أسلاب الترف والرفاهية الى أحباء المسيح
يكون إساءة بالغة .

أي تايسس !

ان كل ما لمسه يداك يجب أن يذهب طعمه للنيران حتى
يصير هشياً تذروه الرياح . حمداً لك يا سيد ، فان هذه الشفوف
وهذه النُّقُب التي تلتقت من القِبْلِ ما لا عدد له ، كأمواج البحر
الآخر ، لن تحس الآن إلا شفاه المبيب وألسنته ! عجلوا إليها
الأرقاء ! هاتوا أيضاً خشباً ومشاعل ! وأنت يا امرأة ، ادخلي البيت
وانزععي حلتك الفاضحة ، والمتسبي من أحقر جواريك أن تمنَّ عليهك
بأثر قيص لها تلبسه وهي تمسح البلاط ..

فأطاعت تايس .

وينما كان الهند راكعين ينفحون في الجذوة المقدة ،
قذف الزوج على النار صناديق العاج والأبنوس والأرز وهي
مفتوحة فسقطت منها التيجان وأكاليل الزهر والقلائد . وارتفع
عمود أسود من الدخان مثلاً في محرقات الشرائع القدية . ثم ان
النار التي خضرت في صعيد واحد ، اندلعت بحاجةً وزارت كحيوان
مفترس ، وأخذ لهيئها الذي يكاد لا يرى من شدة تكافف الدخان ،
يلتهم وقودها الثمين . فازدادت حمية العبيد في عالمهم ، ونشطوا
لجر البسط الغالية ، والبراقع المطرزة بالفضة ، والديباج المزخرف .
وقد أثقل كواهلهم حمل المناضد والأرائك والوسائل السميكة
والأسرة ذات العمُد الذهبية . وجرى ثلاثة أحباش أقوياء حاملين
في أحضانهم تماثيل الكهف الملوّنة التي كان أحداً منها محبوّاً كأنه من
الأخياء . فما كان أشبههم بقردة كبيرة تسير حاملة نساء ! ولما سقطت
هذه الدمى الجميلة المتجردة من أذرع حاملتها وتكسرت فوق
الأحجار ، سمع لها صدى زفير وتهجد يتعدد . . .

وحينئذ ظهرت تايس ، وشعرها مرسل على كتفيها ، حافية ،
ترندي قيصاً خشناً لا هندام له ، ولعله صار بمسه بدنها مشرباً
بنعمة الله . . .

وجاء وراءها بستاني يحمل تمثال «أيروس»^(١) صغير الحجم، مصنوعاً من العاج، مخبئاً في لحيته المتدرية. فأشارت تاييس إلى الرجل بالوقوف، واقتربت من بافونوس وأرته التمثال الصغير، وسألته :

— ألمحتم يا أبي القاء هذا أيضًا في النار؟ انه من الآثار القدمة العجيبة، وهو يساوي مائة مرة وزنه ذهبياً، ولن يعوض فقده. لأنه لن يوجد في العالم فنان قادر على صنع مثله. ولا تننس يا أبيت ان هذا الطفل الصغير هو رمز «الحب». ومن الواجب أن لا يعامل بقسوة. صدقني يا أبيت ان الحب فضيلة، واذا كنت أنا قد أذنبت، فليس منه، وإنما إليه. لن أندم أبداً على ما جعلني الحب أعمله، وإنني لآسفه جد الأسف على ما اقترفته برمغ منه. أما تراه وهو يأبى على النساء أن يهين أنفسهن للذين لا يتقدمون باسمه، انه خلائق بكل إجلال وإكبار؟ انظر يا بافونوس الى هذا «أيروس» الصغير ما أبدعه! لقد بلأ برقة وخقر الى لحية البستاني مختبئاً. أهداه إلى نسياس يوماً، وهو يحبني، قائلًا: «سوف يحمدك عني». لكن إله الحب الماكر حدثني عن شاب كنت قد عرفته في انطاكية، ولم يذكر لي نسياس. تُرى ...

(١) Eros هو اسم يوناني لآلهة الحب عند الاغريق — (المترجم)

أوَ لَمْ يَكُفِّ يَا أَيُّ مَا هَلَكَ فِي هَذِهِ الْحَرْقَةِ؟ .. ابْقَى عَلَى هَذَا
«الْأَيْرُوس»، وَضَعُهُ فِي مَعْبُودٍ، فَيَتَوَجَّهُ الَّذِينَ يَرَوْنَهُ إِلَى اللَّهِ
بِقُلُوبِهِمْ، لَأَنَّ «الْحَبْ» طَبِيعًا يَعْرِفُ كَيْفَ يَسْمُو بِتَلْكَ القُلُوبِ
إِلَى الْأَفْكَارِ الْعُلُوِّيَّةِ ..

وَكَانَ الْبَسْتَانِيُّ، وَقَدْ جَرَى فِي ظَنِّهِ أَنَّ الْأَيْرُوسَ نَجَّا،
يُسَمِّ لَهُ كَائِنَهُ الطَّفَلُ الرَّضِيمُ، فَاخْتَطَفَهُ بِأَفْنُوسٍ مِنَ النَّدَاعِينَ الَّتِينَ
تَحْمِلُنَا، وَرَمَى بِهِ إِلَى الْأَلَهَبِ صَارَخًا :

— يَكْفِي أَنْ يَكُونَ نَسِيَّاً سَادَ قَدْلَسَهُ، لِيَفِيَضَ بِكُلِّ أَنْوَاعِ
السَّمْوَمِ !

شِمَّ أَمْسَكَ بِهِ رَاحْتِيهِ الشِّيَابِ الْمَتَّالِقَةِ، وَالْأَرْجُوَانِيَّةِ،
وَالنَّعَالِ الْذَّهَبِيَّةِ، وَالْأَمْشَاطِ، وَمُحَكَّاتِ الْجَلْدِ، وَالْمَرَايَا، وَالْمَصَابِيحِ،
وَالظَّنَابِيرِ، وَالْقِيَاثَاتِ، وَرَمَى بِهَا فِي الْأَئُونِ الَّذِي كَانَ أَيْمَنِي مِنْ
مَحْرَقَةِ «سَرْدَانَا پَال» .. فِي حِينَ سَكَرَ العَبِيدِ بِنَشْوَةِ التَّدَمِيرِ،
فَرَقَصُوا وَهَلَلُوا تَهْلِيلًا وَحْشِيًّا تَحْتَ وَابْلِ منَ الشَّرَرِ وَالْيَمَادِ



اسْتِيقَاظُ الْجِيَانِ عَلَى هَذِهِ الْجَلْيَةِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَفَتَحُوا
نُوَافِذَهُمْ، وَفَرَكُوا عَيْنَهُمْ لِيَتَبَيَّنَوْا مَصْدَرُ الدَّخَانِ، وَخَرَجُوا مِنْ تَدِينِ
بَعْضِ الشِّيَابِ، وَاقْتَرَبُوا مِنْ مَكَانِ الْحَرْقَةِ مُتَسَاءِلِينَ :

— ما الخبر ؟

وكان بينهم التجار الذين اعتادت تاييس ان تشتري منهم العطور والملابس ، فانزعجوا وأتعلموا أعناقهم محاولين ادرالك كنه الأمر ومرّ بالمكان بعض الشبان الفاسقين الذين كانوا من صرفيين من ولية ، يتقدمهم عبيدتهم ، فوقفوا ورءوسهم متوجة بالزهر ، وأرديتهم محلولة العرى ، وصاحوا صياحًا عاليًا وأخذ هذا الجمود الفضولي يزداد بغير اقطاع . وعرف أن تاييس أغراها كاهن أنصينا بحرق متعاعها قبلاً تعزل في أحد الأديرة .

ففكر التجار في أمرهم ، قائلين لأنفسهم :

— تاييس تاركة المدينة تبني من بنها ، فلن نبيعها بعد شيئاً ، مما أقطع التأمل في هذا ؟ يا ولنا ، ماذا يكون مصيرنا إذا زايلتنا ؟ إن هذا الراهب أفقدها رشدتها . إنه يحقنا . لماذا ترك حبله على غاربه ليأتي بثل هذا ؟ وما نفع الشرائع والقوانين ؟ ألم يبق في الاسكندرية قضاة ؟ إن تاييس لا تفكير فيها أو في زوجاتنا وأطفالنا المساكين . إن مسلكها فضيحة عامة . ينبغي أن تُكره على البقاء في المدينة إكراراً . . .

وَفَكْرُ الشَّبَانِ مِنْ جَهَتِهِمْ :

— إِذَا كَانَتْ تَايِيسْ تَكْفُ عنِ الْمُتَهَلِّلِ وَتَطْلُقِ الْحَبِّ ، فَانْأَعَزَّ الْمَلَاهِي يَنْفَضُّ وَيَقْفَرُ . انْهَا كَانَتْ بِهِجَةِ الْمَسْرَحِ ، وَمَجْدَهُ الطَّارِفُ ، وَعَزَّهُ التَّلِيدُ . انْهَا كَانَتْ مَتْعَةً وَمَسْرَةً حَتَّى لِلَّذِينَ لَمْ يَحْظُواْ بِهَا . فِيهَا أَحَبُّ الْمَرْءَةِ مِنْ أَحَبَّ مِنَ النِّسَاءِ . وَمَا مِنْ قَبْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، تَبُولُتْ مَعَ امْرَأَةً ، لَمْ يَكُنْ لِتَايِيسْ فِيهَا أَثْرٌ . . . لَأَنْهَا كَانَتْ لَذَّةُ الْلَّذَّاتِ ، وَمُجْرِدُ الشَّعُورِ بِأَنَّهَا تَنْفَسَ بَيْنَنَا ، يَبْعَثُ فِيْنَا اللَّذَّةَ ! . . .

كَذَلِكَ فَكْرُ الشَّبَانِ ، وَمِنْهُمْ فَقِيْ يَدْعُ « شِيرُونْ » كَانَ قَدْ حَظِيَّ بِهَا يَوْمًا ، فَأَخْذَ يَصْرَخُ نَاعِيًّا هَذَا السَّابِ وَالنَّهِيُّ ، سَابِيًّا مِسْيَحَ الْمُغْتَصِبِ .

وَجَيْعَهُمْ ذَمَّوْا تَصْرِفَ تَايِيسْ وَعَابُوهُ :

— إِنَّهُ فَرَارٌ مُخْزَنٌ !

— إِنَّهُ رَحِيلٌ بِجَانَةٍ !

— إِنَّهَا آخِذَةُ الْحَبْزِ مِنْ آفَوَاهَنَا !

— إِنَّهَا ذَاهِبَةٌ بِصَدَاقِ بَنَاتِنَا !

— عليها ، على الاقل ، أن تدفع ثمن التبغان التي بعثها إياها !

— وثمن الستين حلة التي أوصتني بصنعها !

— إنها مدينة لكل انسان !

— من التي تمثل بعدها أدوار « افيچينا » و « الكترا »

و « بوليسنا » ؟ ان « بوليب » الجميلة لن تبلغ شاؤها !

— ستكتئب الحياة إذا أغلق باب تاييس

— كانت الكوكب المتألق الساطع ، كانت في سماء الاسكندرية

البدر المنير الطالع !

وفي تلك الفترة من الزمن ، اجتمع في الساحة أشهر السؤال
والمستعطين ، من العميان والمقدعين والمشلولين ، وزحفوا في ظل
الأغنية متأوهين :

— كيف نعيش لما لا تكون تاييس هنا لتطعننا ؟ ان فتات
مائتها كان يُشبع كل يوم مائتين من المساكين ، واعتداد عشاها
عندما يغادرنها ، وقد طابت نفوسهم ، أن يرمونا بـ « أيديهم
فضة ...



رقص تايس
(في رواية «الكترا» لسويفوكليس)

واندس أيضاً وسط الزحام بعض المصوّص وأخذوا يصرخون
صراخًا يضم الآذان ، وزاحموا القريبين منهم ليزيدوا احتلال
النظام ، ويغنموا الفرصة لنرشل ما خفّ حمله وغلّته !

أما الشيخ « تادّيه » ، بائع الصوف والكتان ، الذي كانت
تاييس مدينة له يبلغ كبير من المال ، فقد لبث وحده ساكنًا في
وسط الضريح . أصلح بأذنه ، ودار بنظره ، وداعب لحية التيس
لحيته ، ولاحت عليه سيماء التكير . وأخيراً ، اقترب من الشاب
« شiron » وشدّه من كمه ، وقال له بصوت خافت :

— أنت ، يا أيها المولى الجميل ، ذا الحظوة عند تاييس ، تدخل
ولا تدع هذا الراهب يذهب بها !

فصاح شiron :

— قسماً بولكس وكاستر ، لن أدعه يفعل ذلك ! سأخاطب
تاييس وأحسّبها ، ولا فخر ، ستصبح إلى أكثر مما إلى هذا الملوث
بار GAM ! — افسحوا الطريق ! طريقة يا راع !

وبعد أن أمعن في الرجال ضرباً بجمع يده ، صارعاً العجائز ،
وواطئاً بقدميه الأطفال ، وصل إلى تاييس ، وأخذها جانبًا قائلًا لها :

— يا بنّيتي الحسنة ! انظري إلى واد كري نفسك ، وخبريني
أصحيح أنك زهدت في الحب ؟

لَكْنْ بِأَفْوَسْ حَالٍ يَنْهَا مَا صَاحَّاً :

— أَيْهَا الْفَاجِرُ ! إِخْشِ رُوَعَةَ الْمَوْتِ إِنْ لَمْسْتَهَا ! إِنْهَا
مَقْدَسَةٌ ! إِنَّهَا مَلِكُ اللَّهِ ! ..

فَأَجَابَهُ الْفَتى سَاخْطَّاً :

— سَحْقًا لَكَ يَا أَيْهَا النَّسْنَاسُ ! دُعْنِي وَحِبِّي أَخْاطِبُهَا ، وَالْأَنْجَارُ
جَرَرْتُكَ بِلِحِيَتِكَ إِلَى النَّارِ حِيثُ أَشْوَى هِيكَلَكَ الْقَبِيْحِ شَيْئًا !
وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ تَايِيسَ ، لَكِنَ الرَّاهِبُ دَفَعَهُ بَعِيدًا ، بِقُوَّةِ غَيْرِ
مَنْظُورَةٍ ، فَتَرَنَّحَ الْفَتى وَسَقَطَ عَلَى بَعْدِ أَرْبَعِ خَطُواتٍ مِنْ مَوْضِعِ الْمُحْرَقةِ
وَسَطَ الشَّعْلَ الْمَهَالَةَ .

وَكَانَ الشَّيْخُ تَادِيهُ يَذْهَبُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مِنْ رَجُلٍ إِلَى آخَرَ ،
شَادَّاً آذَانَ الْعَبِيدِ ، مُقْبِلاً أَيْدِي السَّادَةِ ، يَحْرِضُهُمْ جَمِيعًا عَلَى بِأَفْوَسِ ،
وَيَغْرِيُهُمْ بِهِ . وَمَا لَبَثَ أَنْ أَلَّفَ عَصْبَةً صَغِيرَةً سَارَتْ رَأْسًا إِلَى
الْرَاهِبِ الْخَاطِفِ

وَنَهَضَ شِيرُونَ بِوْجَهِ أَسْنَادِ ، وَشَعْرِ شَائِطِ ، وَقَدْ كَادَ يَختَنقُ
مِنَ الدُّخَانِ ، وَانْدَفَعَ مُتَمَيِّزًا مِنَ الغَيْظِ ، مُجَدِّفًا بِالْآلَمَةِ ، وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ
فِي وَسْطِ الْمَهَاجِنِ الَّذِينَ كَانُوا السَّائِلُونَ يَزْحِفُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ ،

ملوّحين بعكا كيزهم . فخرر بافنوس ، في الحال ، وسط دثرة من
قبضات أيدٍ ممدودة ، وعصي مرفوعة ، وصيحات مروعة :

— الى الغربان ! القوا بالراهب الى الغربان !

— كلا ! اقذفوا به في النيران ! إشوهه حيّا !

فأمّسّك بقنيصته الجميلة ، وضمّها الى صدره ضمةً طويلاً ،
وصاح بصوت كالرعد القاصف :

— أيها الفجّار ! لا تحاولوا أن تخطفوا الحمامات من نسر الرب !
أولى بكم ثم أولى أن تقتدوا بهذه المرأة وتتأسوا ، وأن تبدلوا مثلها
بتربكم تبرأ ! احتذوا مثاها ، وانبذوا المال الزائل الذي تظنون انكم
تلكلونه ، وهو الذي يلكلكم ويستعبدكم . عجلوا ! فقريراً ما توعدون
وأوشك الصبر الاهي أن ينفد . توبوا واعترفوا بذنبكم ، وابكوا
وصلوا واقتفوا أثر تايس . إِكْرُهُو خطاياكم التي لا تقل عن
خطاياها . ليت شعري من منكم غنياً كان أم فقيراً ، تاجرأ أم
جندياً ، عبداً رقيقاً أم عيناً وجيهها — يجرؤ على أن يقول بين يدي
الله أنه كان خيراً من بغيٍ فاجرة ؟ ما أنت إلا ادران متجمسة ، وانها
لآية من لطف الله بكم أن لا تحولوا فجأة الى مجاز طافحة
بالوحول !

وكان ينبعث من حدقتيه ، وهو يتكلم ، شرّ مُستعر . وكأنما
تساقط من شفتيه جمر متوجج ، فأصفع اليه الذين من حوله صاغرين .

لكن « تاديه » المهرم لم يكُف عن المقاومة ، بل كان يجمع
الحجارة وأصداف المحار ويخفيها في طيات ثوبه ، ولم يجرؤ على أن
يرميها بنفسه ، فدسها في أيدي السائلين . وما لبث الراهب أن انهالت
عليه الحجارة ، وأصابت جبينه صدفة محارة أحكم تسييدها ، وسال
الدم الذي انحدر من وجه الشهيد الكسيب على رأس التائبة كتعميد
جديد . وشعرت تاييس ، وقد ضغطتها عناق الراهب وخدش ثوبه
الخشن جلدًا الغض ، بالرعب والجزع يسريان فيها .

واذ ذاك أقبل رجل أنيق اللباس ، متوج الجبين بالكرفس ،
وشق لنفسه طريقاً وسط الجمهور المائع ، وصلاح :

— قفو ! كفوا ! ان هذا الراهب أخي !

وكان الرجل نسياس . وقد مر بالرحمة عائدًا إلى داره بعد أن
أغمض عيني الفيلسوف يوكريت . ورأى بغير كبير دهشة (لأنه لم
يدهشه شيءٌ قط) الحرقة المدحنة ، وتاييس مرتدية حرقة خشنة ،
وابنفسه يُرجم ..

فكّر قوله :

— قلتُ لكم قموا ! أبقوا على رفيقي في المدرسة ! احترموا رأس
بافنوس العزيز !

لَكَنْهُ كَانَ مَتَعُودًا مِبَاحَثَ الْحَكَمَاءِ الْعُوِيْصَةِ ، يَعْوِزُهُ ذَلِكَ
الْحَزْمُ وَالْتَّأْثِيرُ الَّذِي يَسِيْطِرُ عَلَى نَفْوَسِ الْجَاهِيْرِ وَيَتَمَلَّكُ مَشَاْعِرَهُمْ ،
فَأَعْارُوهُ أَذْنَانَهُمْ . وَسَقْطُ وَابْلِ منَ الْحَصْنِ وَالْحَمَارِ عَلَى الرَّاهِبِ
الَّذِي غَطَى تَائِيسَ بَحْسِمَهُ ، حَامِدًا اللَّهَ الَّذِي أَعْصَتَهُ رَأْفَتَهُ مِنْ جَرَاحِهِ
تَرْبِيَتًا . . .

فَلَمَّا يَئِسَ نَسِيَّاسُ مِنْ حَلْمِهِ عَلَى الْإِسْتِمَاعِ لَهُ ، وَالْإِتْقَادِ إِلَيْهِ ،
وَأَيْقَنَ عَجَزَهُ عَنْ إِنْقَادِ صَدِيقِهِ سَوَاءً بِالْقُوَّةِ أَوْ بِالْحُجَّةِ ، وَسَلَمَ أُمْرَهُ
لِلْأَلْهَمَةِ — وَكَانَ شَفَتُهُ بَهْمٌ ضَعِيفَةٌ — خَطَرَ لَهُ أَنْ يَجْرِبَ حِيلَةً
أَرْشَدَهُ إِلَيْهَا فَجَأَةً احْتِقارَهُ لِلْبَشَرِ . فَأَخْرَجَ مِنْ مَنْطَقَتِهِ كَيْسَ تَقْوَدَهُ ،
وَكَانَ مِتَلَّاً بِالْذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ ، لَأَنَّ صَاحِبَهُ مِنْ عَشَاقِ الْمَسَرَاتِ
وَالْمَبَرَّاتِ . ثُمَّ حَاوَلَ أَنْ يَغْرِيَ الَّذِينَ كَانُوا يَرْمُونُ الْحِجَارَةَ بِرَبِّينِ
النَّقْوَدِ ، فَلَمْ يَعِرُوهُ بِدَاءَ التَّفَاقَّ ، إِذْ كَانَ حَنْقُومُ عَظِيمًا ، لَكِنَّ
أَنْظَارَهُمْ مَا عَنِتَمْ إِنْ التَّجْهِيْتُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى الْذَّهَبِ الرَّنَانِ ، ثُمَّ كَفَّتْ
أَذْرِعُهُمُ الْوَاهِنَةُ عَنْ إِيْذَاءِ فَرِيسَتِهِمْ

وَلَمَّا رَأَى نَسِيَّاسُ أَنَّهُ جَذْبُ أَبْصَارِهِمْ ، وَاجْتَذَبَ نَفْوَسِهِمْ ، فَتَحَّـ
هِمْيَانَهُ وَبَدَأَ يَرْمِي فِي وَسْطِ الْحَمْشَدِ قَطْعَ الْذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ . فَانْخَنَـ
الْمَتَاهُونُ فِي الشَّرَاهَةِ لِالْتَّقَاطِهَا ، فَابْتَهَجَ الْفِيلِيْسُوفُ بِنَجَاحِهِ الْمَبْدِيِّ ،

وجعل يرمي هنا وهناك الدراما والمذابير ، وعلا رنين القطع المعدنية فوق الرصيف ، خرّ ازاجون الى الأرض متزاحمين ، وتسابق السائلون والعبيد والتجار . والتفّ الاشراف حول شيرون ينظرون الى المشهد ويقمعون ، فensi شيرون غضبه ، وشجع أصحابه المتناضلين الراكمين ، واختاروا منهم سباقين وتراهنوا عليهم . وكانوا يزيدون الشحنة بتحريضهم أولئك البائسين كأنهم كلاب متقاتلة . وفاز مقعد ، مقطوع الساقين ، بالاستلاء على درهم فعلا له الهاfax الى عنان السماء . وبدأ الشبان أيضاً يرمون قطع النقود . ولم يبق ثمة شيء يُرى في الميدان سوى ظهور بشريّة لانهـاية لها تعلو وتختفي ، كما واج البحر الراخـر ، تحت وابل مدرار من المعدن الرنان
وغدا بافنوس نسيـاً منسيـاً

فجرى اليه نسيـاس ، وغطاه بمعطفه ، وجـره مع تـايـيس في الأـرقـة ، الى حيث بـاتـوا بـأـمانـ منـ المـطارـدة . رـكـضـواـ حينـاـ صـامـتـينـ ، الىـ انـ رـأـواـ انـهـمـ صـارـواـ فيـ أـمـانـ ، فـتـرـيـثـواـ ، وـقـالـ نـسـيـاسـ بـنـغـمةـ التـهـكمـ المـزوـجةـ بشـيـءـ منـ الحـزـنـ :

— اذاً قـضـيـ الـأـمـرـ ! وـأـنـتـصـبـ «ـفـلـوـطـونـ» «ـپـروـزـرـپـينـ» (١)

(١) في الميثولوجيا ان فلوطون Pluton هو ملك الجحيم واله الموتى ، وابن زحل Saturne الله الزمان وسيط Cybèle ربـةـ الـأـرـضـ ، واخـوـ جـوـيـتـيرـ وـبـاتـونـ Neptune وزوج بـروـزـرـپـينـ Jupiter Proserpine ربـةـ الجـحـيمـ التي اختطفـهاـ ! — (ـالمـتـرـجـمـ)

وترى تايس أن تتبع صديقي الوحشى المنظر أينما يذهب بها !

فأجابه تايس :

— حقاً يا نسياس ، لقد سئمت عشرة أمثالك البسامين ،
المتعطرين ، الكيسين ، الآنانين . وملأت كل ما أعرفه ، لذلك أنا
ذاهبة لباحث عن المجهول . ولقد علمت بالاختبار ان الفرح لم يكن
فرحاً حقيقياً ، وهذا رجل يرشدني الى أن الحزن هو الفرح الحقيقي .
واني أؤمن بما يقول ، لأنه يعرف الحقيقة

فأجابها نسياس مبتسمًا :

— وأنا يا حبيبي ، أعرف الحقائق ! هو لا يعرف سوى
واحدة ، وأنا قد أحطت علماً بها جمِيعاً . أنا أغنى منه ، ولكنني في
الحقيقة ، لا أقوى في كبر ياء النفس ، او سعادة الجد !

ولما رأى الراهب يرشقه بنظارات نارية ، قال :

— لا تحسبن يا عزيزني بآفونوس أني أعدك بالغاً غاية
السخرية ، او نهاية الشطط . فلو قابلتُ حياتي بحياتك لما استطعت
ان اقول ايهما اجدى وافع . ها أنا الان ذاذهب لأنغسل في الحمام
الذى اعدته لي كرويل ومرتال ، وسأكل جناح دراج ،

وسأعيد — لمرة المئة — تلاوة بعض القصص «لأپوليوس» او بعض مباحث «پورفيريوس» وانت ستعود الى صومعتك حيث ترکم كحمل وديع ، مچترًا التسایح والتعاونیذ التي لا كها فما مراراً وتکراراً ، فاذا جاء المساء ، تناولت الفجل بلا زيت . لكن لا بأس ! في قياما ، يا صاحبي الحبيب ، بهذه الأعمال المختلفة في الظاهر كل الاختلاف — نخضع كلانا لعاطفة واحدة هي العامل الوحيد في جميع فعال البشر ؛ كلانا يبحث عن لذاته ويسعى في نيل القصد المشتركة — السعادة ، السعادة المستحيلة ! وهبني ارى نفسي مصيّباً ، فلا يليق بي ان ا تعرض لتخطئتك يا حبيبي !

اما انت يا تايسى ، فاذبهي وافرحي وكوني اسعد حظاً — اذا كان ذلك في الامكان — في زهد التعفف وطهارة الخشونة ، مما كنت في الغنى والمسرات . فمن كل وجه اراك جديرة بأن تكوني محسودة من الجميع لأننا إذا كنا انا وباونوس في حياتنا بكمالها ، قد قعنا — امثالاً لطبيعتنا — بضرب واحد من ضروب المعيشة الراسية ، فانك يا عزيزتي تايسى قد ذقت في حياتك هذه المسرات المختلفة التي قلما يتاح لشخص واحد ان يتمتع بها . وحقاً كلامي ان اكون ساعة واحدة قديساً او وليناً مثل عزيزنا باونوس ، غير ان هذا محظور عليّ . فالوداع اذاً يا تايسى ! اذهبني الى حيث تقودك

قوء طبعتك ونصبك وقسمتك الخفية ! اذهبي مصحوبة اينما
تذهبين بخير تمنيات نسياس ! لست أجمل انها فارغة ، ولكن هل
في استطاعتي أن أمنحك خيراً من تحسرات عقيمه وتمنيات باطلة
جزاء التصورات السارّة الممتعة التي ظللتني في حضنك فيما مضى ،
والتي يقى لي منها خيالها ؟ الوداع أيتها الحسنة إلى ! الوداع ايتها الطيبة
التي تحمل نفسها ، أيتها الفضيلة الغامضة ، يا لذة الرجال ! وداعاً
يا أحق صورة بالعبادة بين الصور الجميلة التي تنشرها الطبيعة دواماً ،
لغاية مجهلة ، على وجه أرضنا الغرور !

وفي أثناء كلامه ، كان قلب بافنوس يغلي من الحنق ، فتفجر
بهذه الشتائم :

— إحسأ يا لعین ! إني أحقرك وأمقتك ! ابتعد يا وليد جهنم
الذي هو شر الف مرّة من أولئك الأشقياء الضاللين الذين كانوا الآن
يرمونني بالحجارة وهم يسبون ! انهم فعلوا ذلك عن جهل ، وغفران
الله الذي رجوته لهم قد يهبط يوماً على أفندتهم .. أما أنت يانسياس
المذول فلست سوى حمّة غادرة وسم زعاف . انفاس فمك تنفس
اليأس والموت . بسمة واحدة من بسماتك تحوي تجديفات أكثر
ما تقدفعه شفتا ابليس الملوثتان في قرن من الزمان ... تبا لك أيها
الكنود . الى الوراء ! ...

فنظر اليه نسياس بانعطاف ، وقال :
— الوداع يا أخي ، ليتك تصون الى نهاية أجلك كنوز إيمانك
ومقتك وحبك ! . . . الوداع يا تايس ! عيشاً تنسيني وأنا على
ذكرك جد حريص !

* * *

تركها وسار مفكراً في الطرق المترجة بجوار مقبرة الاسكندرية الكبيرة التي يسكنها صناع أواني الدفن الفخارية . وكانت حواناتهم ملائكة المعروفة المصنوعة من الصالصال تمثل آلهة وألهات ، ومقاتيل صامدة ونسوة وجنيات صغيرات مجذحة جرت العادة بدقها مع الموتى . فخطر لنيساجان بعض الصور التي يراها قد تصبحه في نومه الأبدى . وخيل إليه أن « أيروسا » صغيراً ، مشمر الثوب ، يضحك ساخراً . فلما استحضر صورة جنائزه التي صورها خياله قبل أوانها تألم ، فحاول تبديد حزنه بالفلسفة ، واقام لهذا الدليل :

— حقاً ان الزمان وهم لا حقيقة له . فما هو إلا ضلاله من تصوّرنا .
وإذا لم يكن له وجود ، فكيف يستطيع ان يجلب الموت اليه ؟ فهل معنى هذا اني أحيا الى الابد ؟ كلا – ولكنني استنتاج من هذا أن موتي كائن ، وقد كان دائماً ، كما انه سيكون أبداً . لم أشعر به بعد ،

ولكنه موجود ، وينبغي ألاً أخشاه . ومن الحق ان أخاف بمحبيه
ما قد أتى . إنه موجود ، فكأنه آخر صفحة من كتاب أقرأه ، ولما
أتم قراءته .

شغله هذا التعليل في مسيره ، دون أن يبهجه ، وكان مكتئب
النفس حين وصوله الى عتبة داره ، وسماعه ضحك جاريته كروبيل
ومرتال الريان ، وكانتا تلهوان في انتظاره بلعب الكرة . . .



غادر بافنوس وتايس المدينة من باب القمر ، وسارا على شاطئ
البحر ، فقال الراهب :

— أيتها المرأة ! هذا البحر الأزرق الكبير كله لا يستطيع
غسل نجاستك . . .

ثم خاطبها بغضب واحتقار :

— يا أنجس من كلبة ، وأشد رجساً من خنزيرة ، لقد أبحثت
للفحشاء مع الوثنين والكافرين جسداً خلقه الصمد ليكون محراً . . .
وإن أدناسك لعديدة حتى إنك الآن ، وأنت تعرفين الحق ،
لا تستطعين أن تصمي شفتيك ، أو تجمعي يديك ، بغير ما يتولد
في قلبك تفزع من نفسك . . .

تبعه ، خافضة له جناح الذل والطاعة ، في المسالك الوعرة تحت
أشعة الشمس المحرقة ، فأضعف التعب ساقيها ، وأحرق الفيا
أنفاسها ، وألهب حلقها . أمّا بفنوس ، فبدلًا من أن يشعر بذلك
الشقة الكاذبة التي تلين قلوب الملحدين ، فقد فرح بالعذابات
التكفيرية التي تnal هذا الجسد الآثم .. ولشدة تأثير الحمية
القدسية فيه ودًّا لومزق ضربًا بالعصي هذا الجسم الذي احتفظ
بجماله ، كبرهان ساطع على بخوره . ولما ذكر أن تاييس ضاجعت
نسفان ، واستحضر تلك الصورة البشعة في مخيلته ، جرى دمه كله
مرتدًا إلى قلبه ، وكاد صدره ينشق . ففصَّ حنجرته بالاعنات ،
خرقَ الأرم ، ووشَّب منتصبًا إزاءها ، شاحبًا ، رهيبًا ، وقد ملأته
قوةُ الله ، ونظر إليها حتى اخترق نظراته أعمق نفسمها ، ثم بصق
في وجهها ..

فساحت مخيّها بهدوء وانكسار ، دون أن تقف في سيرها ،
فتبعها محملاً فيها كائناً هي هاوية . ومشى مغتاظًا مفكراً في أن يثار
للمسيح حتى لا يثار المسيح نفسه ، وإذا به يرى قطرةً من الدم
سالت من قدم تاييس فوق الرمال . هنا أحسْ بطراءة أنفاسه
مجهولة تدخل قلبه المفتوح .. فتعالت النهدات الوفيرة إلى شفتيه .
فبكى ، ثم جرى وخرَّ أمامها ، ودعها أخته ، وقبل قدميها الداميتين ،
وتمم مائة مرة :

— أختاه ! أختاه ! أماه ! يا أقدس قديسة !

ثم قدّم هذا الدعاء :

— يا ملائكة السماء ! خذوا هذه قطرة الدم باعتنا ، وضموها
 أمام عرش الله ... ليت الرمل الذي يلته دم تايسين ينبت شقائق نعمان
 ليسترد الذين يرون هذا الزهر تقاؤه القلب وطهارة الشعور ! أي
 تايسين أيتها القدسية البالغة غاية القدسية !

واذ كان يصلّي ويتنبأ ، مرّ به غلام على أتان ، فأمره بافتوس
 أن يتراجّل ، ثم اركب تايسين الأتان وامسك باللحام ، واستائف

مسيره ..

* * *

أمسيًا عند قناعة مظللة بأشجار أنيقة ، فربط الأتان بجذع نخلة ،
 واقتربوا للأحجار ، وتقاسماً رغيفًاً أكلاه متلأً بالملح والشمام ،
 وشربوا براحتيهما ماءً سائغاً ، وتحدثا في الأبيات .

قالت تايسين :

— ما شربت قط مثل هذا الماء المنير ، ولا استنشقت مثل
 هذا الهواء العليل ، واني لأحسن بأن الله سبحانه وتعالي يسمح في
 النسمات التي تهب ...

فأجابها بافنسوس :

— انظري ! انه المساء يا أختاه ! هودا ظلال الليل الزرقاء
تفطلي التلال .. لكنك لن تلبثي أن ترى «مظلات الحياة» مشرقة
في الفجر ، وتشاهدي إشراق ورد الصباح السرمدي !

سريرا سواد الليل ، وأنشدا المزامير والتسابيح حينما كان نور
الهلال يقبل وجنات الأمواج الفضية . وعندما أشرقت الشمس ،
امتدت امامهما الصحراء الليبية كجلد أسد واسع الأطراف . وفي
آخر الرمال لاحت لأعينهما ، في ضوء الفجر ، خصاص بيض
بقرب بعض النخيل . فسألت تاييس :

— هل هذه هي مظلات الحياة يا أبي ؟

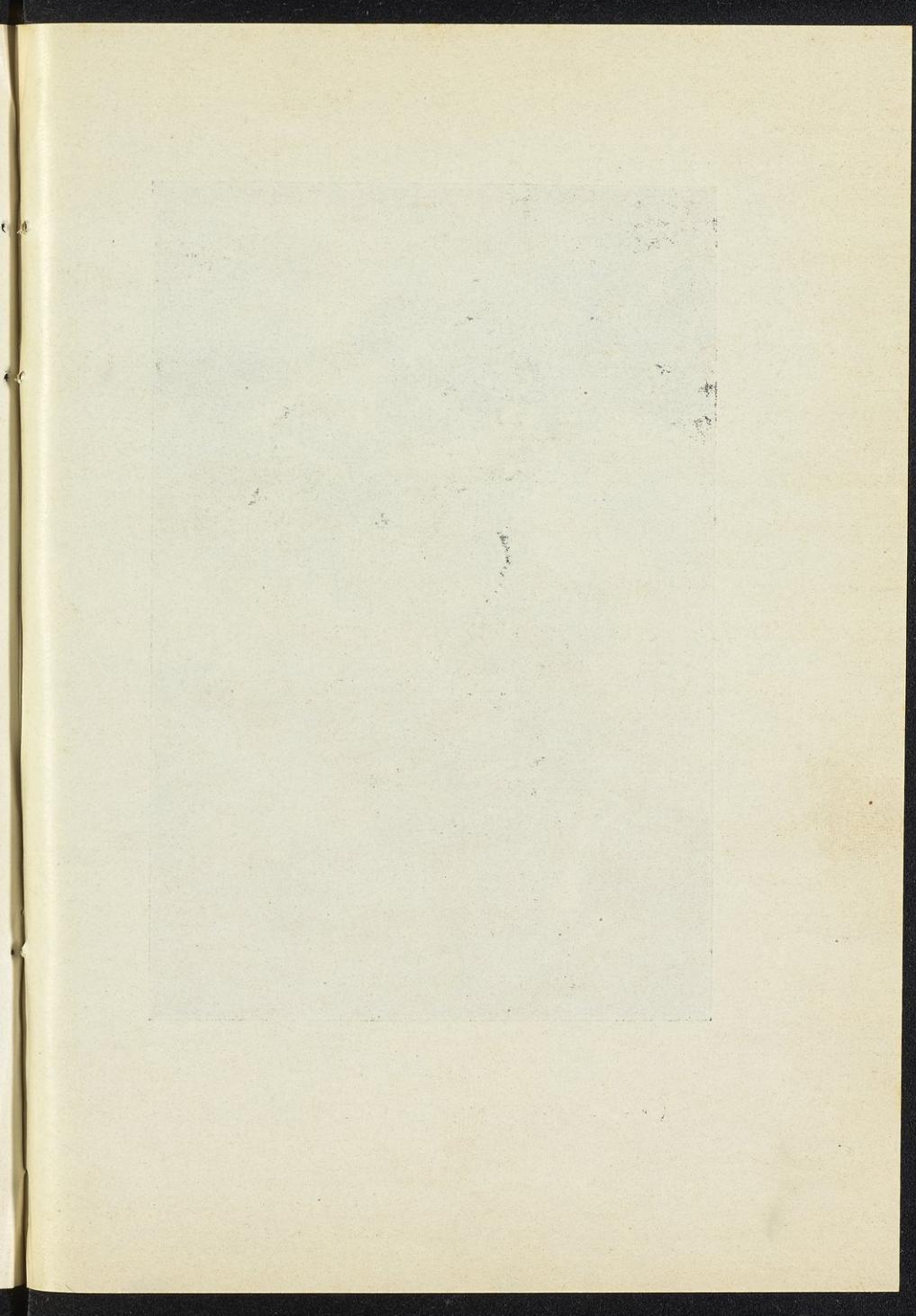
— لقد حزرت يا ابني واختي . هذا هو الملاجأ الذي أضعك
فيه ييدي .

وما لبثا أن شاهدا نساء يجذلن من كل صوب حول مساكن
التنسك ، كالنحل حول خلبياه . وكان بعضهن يخربن ، والبعض
يمهزن البقول ، والبعض يغزلن الصوف ، وعليهن نور السماء ينسكب
كابتسامة من ثغر الله ... وآخريات كُنْ جالسات في ظل اشجار
الإيل ، ومنصرفات للتأمل والتفكير ، وأيديهن البيض بحوانبهن ،



المساء

(عاتق الليل ، النهار ، ونشر عليه جناحيه ، فشكان المساء)



لأنهن اذ شغفن حباً ، اخترن نصيب الجدلية ، فلم يعملن شيئاً
سوى الصلاة والتأمل . لذلك سمين «المريات» ، وكن يرتدين ثياباً
بيضاء . أما اللواطي كن يشتملن بأيديهم فقد أطلق عليهم اسم
«المريات» ، وكن يلبسن ملابس زرقاء . وكن جميعهم متنعّلات ،
لكن اللواطي كن في نضارة الشباب أرسلن خصل الشعر تتدلى فوق
الجبين ، ولعل ذلك كان ، كما يغلب على الظن ، عفواً بغير قصد ،
لأن نظام الدير يحظره ...

وكان هناك عجوز بلغت من الكبر عتيقاً ، طويلاً القامة ،
بيضاء اللون ، تسير من خص إلى آخر متكئة على عكازة من خشب
متين . فاقترب منها بافغوس بااحترام ، وثم طرف خمارها ، وقال :
— سلام لله يا ألين الموقرة ! لقد أتيت إلى الخلية التي أنت
ملكتها بنحلة وجدتها ضالة في طريق مجده لا زهر فيه ، فأخذتها
في راحتي ، وأدفأتها بأنفاسي . إني اعطيك إياها ...

وأشار بأصبعه إلى الممثلة التي كانت راكعة امام بنت
القياصرة .

فالقت ألين على تاييس نظرة حادة ، وأمرتها بالنهوض ،
وقبلت جبينها ، ثم تحولت نحو الراهب قائلة :
— سنضعها بين «المريات»

فأخبرها بافنوس عندئذ بالوسائل التي أحضرت تايس بهَا إلى
« بيت الخلاص ». وسألها أن تعزل ، بدأة بدء ، في صومعة .
فقبلت رئيسة الدير ، وقادت التائبة إلى خص خلابوت العذراء
« ليتا » ، ولم يكن في هذه الصومعة الضيقه سوى فراش ومائدة
وابريق . ولما وضعت تايس قدمها على العتبة امتلأت بهجة لا حد لها .
قال بافنوس :

— أريد أن أقفل الباب بنفسِي ، وأن أضع عليه ختماً يأتني
المسيح ويكسره بيديه .

وذهب إلى حافة النبع ، وأخذ قبضة من الصصال ، ومزجه
 بشيء من ريقه ، ووضع فيه شعرة من شعره ، وسدّ به شق الباب .
ثم اقترب من النافذة ، حيث كانت تايس واقفة ، وادعة راضية ،
وسقط على ركبتيه ، وحمد الله ثلاثاً ، وصاح :
— ما أجمل التي تسير في طريق الحياة ! ... ما أبدع قدميها ،
وما أبهى حمّاها ! ...

ثم نهض ، وأرخي برنسه على عينيه ، وسار الهوينا مبتعداً . . .

فناولت ألين إحدى العذارى ، قائلة :

— احملني يا ابني إلى تايس كل ما هي في حاجة إليه ، من
خبز ، وما ، ونادي ذي ثلاثة ثقوب . . .

الفربيون



قفل بافنوس راجعاً إلى الصحراء المقدسة ، واستقلّ بقرب « تل إثريب Athribis » مركباً صاعداً في النيل يحمل المؤون لدير السرايوم . ولما خرج من السفينة تقدم تلاميذه لملاقاته بظاهرات الفرح العظيمة . لأنهم عرفوا ما تم بمدينة الاسكندرية على يديه وكانت الكهنة يتلقون عادة ، بوسائل سرية مجهولة ، الاخبار المتعلقة بأمن الكنيسة وبمدها . وكانت الآباء تذاع في الصحراء بسرعة ريح السموم ..

و بينما كان بافنوس يذرع الرمال ، تبعه تلاميذه مسبحين بحمد الله ، واعتري « فلابيان » أكبر أخوته ، هذيان ديني فجأى فأخذ يترنم بأنشودة مائية ..

(الفريون — L'Euphorbe) اسم مشتق من « اوفريوس » اسم طبيب أحد ملوك الغرب . وهو ابن نباني أبيض . (المترجم)

ولما وصلوا الى صومعة الرئيس ، ركعوا جميعاً وقالوا :
— يا ليت أبنا يياركنا ويعطى كلاماً من مقداراً من الزيت
لنحتفل بعودته !

أما بواس الساذج ، فقد لبث وحده واقتصر يتسائل : « من
هو هذا الرجل ؟ » . . . ولم يعرف بافنيوس . على أنه لم يعر أحد قوله
التفاتاً لما عُرف عنه من قلة الذكاء والفتنة ، مع كونه موافر
الصلاح ..

خلا كاهن « أنسينا Antinoë » في صومعته ، فقال في نفسه :

— أرأني قد استعدت أخيراً ملائِدَ راحتي وهنائي ، وعدت
إلى معلم قناعي وأكتفائي . لكن ماذا حدث حتى ان هذا السقف
العزيز المصنوع من الغاب ، لم يستقمباني كصديق ، ولا قالت
المدران أهلاً وسهلاً ! . ما تغير من رحيلي شيء في هذا المقام
المحظى . هذا خواني ، وهذا فراشي ، وهذا رأس المومياء الذي طالما
أوحى إليّ الأفكار النافعة ، وهذا هو الكتاب الذي كثيراً ما بحثت
فيه عن صور الله . . . ومع ذلك لا أجده شيئاً مما تركته . كأنما قد
عُرِّيت الأشياء من رونقها المعهود ، وينحيل إلى أن أراها اليوم أول

مرة . عند ما أنظر إلى هذه المائدة ، وهذه الأُريكة ، اللتين صنعتهما
يداي في الأيام الخالية . والى هذا الرأس الأسود اليابس ، والى
أدرج البردي الملوء بآيات الله — يلوح لي أنها آثار رجل ميت .
وأراني ، بعد أن تعرقها كلها ، لا أكاد أعرفها ! .. وأسفاه ! ..
انه ما من شيء في الحقيقة قد تغير حولي ، ولكنني أنا الذي لم أبقَ
الشخص الذي كنته . أنا رجل آخر . فالرجل الميت هو أنا ! يا إلهي !
ما الذي صار إليه سلفي ؟ ما الذي أخذه مني ؟ وما الذي تركه لي ؟
ومن أكون أنا ؟ ؟

وقد انزعج ، على الخصوص ، لما وجد أن صومعته صغيرة ،
مع انه كان يجب — اذا نظر إليها بعين الإيمان — أن يراها كبيرة
ولا يرى نهايتها ، لأن سعة الله غير المحدودة تبتدئ منها . . .

بدأ يصلي ، ملتصقاً جبهته بالر GAM ، فتعزّى ، واستردَ شيئاً من
الفرح . وما كادت تضفي عليه الساعة في التضرع والابتهاج ، حتى
مرت امام عينيه صورة تايس ، فردد الشكر لله

— يا يسوع ! انك أنت الذي بعشت بها إلى . فاعترف بفضلك
العظيم على . أردت أن تسرّ خاطري ، وتهدمي ثأري ، بروية
التي أعطيتك إليها . أراك تمثل امام ناظري بسمتها التي زال الخوف
من أذها ، ورقها الرائقة التي لم يعد منها ضير ولا خرار ، وجمها

الذى نَرَعْتُ منه شوكته الناخصة ! انك لكي ترضيني يا إلهي تظهرها
لي كما زينتها وزكيتها ابتعاء رضاك ، مثلاً يذكّر الصديق صديقه
بالهدية التي تلقاها منه . لذلك أرى هذه المرأة مبهجًا ، ثقتي بأن
طيفها آتٍ من لدنك . انك لا تنسى اني وهبها لك يا يسوع !
فاحفظ بها ، مادامت سرّك ، ولا تدع محاسنها تسيء أحداً
سواء ...

قضى الليل كله ساهراً ، ما اكتحل بنوم ولا أخذته سِنة ، ورأى
تايس بجلاء أظهر مما رأها في « كهف العذارى » ، فزكي نفسه بقوله :

— ان ما فعلته ، قد فعلته لحمد الله ...

ومع ذلك بلغ منه الدهش مبلغه ، لأن قلبه لم يطمئن ،
فتشهد قائلاً :

— لم أنت حزينة يا نفسي ، ولماذا أنت تقلقيني ؟

وبقيت نفسه في ازعاج . ولبث ثلاثين يوماً على هذه الحال
من الكآبة التي تُعدّ نذيرًا للناسك بمحن هائلة ، وشر مستطير . لم
تفارقه صورة تايس ليلاً ولا نهاراً . ولم يبعدها عنه لأنّه كان
لا يزال يظن أنها أنت من عند الله ، وإنها صورة قدسية ..

لَكُنْهَا فِي صِبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ ، تَرَاءَتْ لَهُ فِي حَلْمٍ ، وَكَانَ شَعْرُهَا
مَتَوْجَّاً بِزَهْرِ الْبَنْفَسِيجِ ، وَكَانَتْ رَائِعَةً فِي حَلَاقَتِهَا حَتَّى إِنَّهُ
شَدَّةُ الْخَوْفِ .. فَاسْتِيقْظَ وَقَدْ بَالَّاهُ الْعَرْقُ الْبَارِدُ . وَكَانَتْ عَيْنَاهُ
لَا تَرِالَانِ مُثْقَلَتِينِ بِالنَّعَاسِ ، فَشَعَرَ بِأَنْفَاسِ رَطْبَةٍ دَافِئَةٍ تَمُرُّ عَلَى
وَجْهِهِ ، أَنْفَاسُ ابْنِ آوَى صَغِيرٌ ، وَضَعُّ مُخْلِيَّهِ عَنْدَ رَأْسِهِ وَأَخْذَ يَلْهَثُ
هُلَاثَةُ النَّنْ في وَجْهِهِ ، وَيَضْحَكُ مِنْ أَقْصَى بَلْعَوْمِهِ .. .

فَشُدُّهُ بِأَنْفُوسِهِ وَأَخْذَ مِنْهُ الْعَجْبَ كُلَّ مُأْخِذٍ ، وَشَعْرُ كَأْغَا قد
انْهَارَ تَحْتَ قَدْمَيْهِ صَرْحٌ شَامِخٌ .. .

أَجَلُ ! .. فِي الْوَاقِعِ إِنَّهُ سَقْطٌ مِنْ ذَرْوَةِ اِيمَانِهِ الْمُتَقْوَضِ .. .
قَضَى بَعْضُ الزَّمْنِ مُضْطَرِبُ الْفَكْرِ ، وَلَا ثَابَ إِلَيْهِ رَشْدُهُ ،
أَفْضَلَتْ نَأْمَلَاتِهِ إِلَى زِيَادَةِ قَلْقَهُ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

— إِمَّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنْ اللَّهِ مُثْلَ سَابِقَتِهَا ، فَهِيَ
صَالِحةٌ ، وَفَسَادِيُ الطَّبِيعِيُّ قَدْ أَفْسَدَهَا ، كَمَا يَتَحَوَّلُ النَّبِيُّ خَلَّاً فِي
الْكَأْسِ الْقَدْرَةِ ، وَقَدْ أَبْدَلَتْ ، لِعدَمِ جَدَارِيَّ ، مِنَ النَّعْمَةِ تَقْمَةً ،
وَاغْتَسَمَ ابْنَ آوَى الشَّيْطَانِيَّ فَرَصَّتْهَا وَاسْتَفَادَ مِنْهَا . وَإِمَّا أَنْ لَا تَكُونَ
مِنْ عَنْدِ اللَّهِ بَلْ مِنَ الْوَسَوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوْسُسُ فِي صَدْورِ
الْأَنْسَ ، فَهِيَ شَرِيرَةٌ وَسَاءَتْ سَبِيلًا . وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَشَكَ فِيمَا
إِذَا كَانَ الرُّؤْيَيِّ السَّابِقَةِ مِنْ مَصْدَرِ سَمَاوَيِّ كَمَا حَسِبَتْهَا . فَأَنَا وَالْحَالَةِ

هذه قاصرٌ حتى عن التمييز الذي لا بدَّ منه لزاهدٍ . وأرى الله
ييدي في كلتا الحالتين نفوره مني ، واعراضه عني ، وهو ما أشعر
بتأثيره ، وأعجز عن تعليله . . .

وعلى هذا النمط برهن ، ثم تضرع بكرْبَ :

— يا أيها الإله العادل ! . . . بأية تجاريـب تبلو عبادك ، إـذا
كانت أشباح قدسيـك خـطـراً عـلـيـهـم ؟ دعـني أمـيـز بـعلاـمة وـاضـحة
ما يـاتـي مـنـك وـمـا يـاتـي مـنـ غـيرـك .

* * *

صحت عزيـة بافـتوس بعد ذـلـك عـلـى أـنـ يـكـفـ عنـ التـفـكـيرـ فيـ
تـايـيسـ ، إـذـ تـجـاذـبـتـ الشـكـوكـ وـلـمـ يـتـحـ لـهـ اللـهـ جـلـتـ مـقـاصـدـهـ أـنـ يـهـدـيهـ
الـسـبـيلـ . لـكـنـ تـصـمـيمـهـ ظـلـ عـقـيـماـ . فـانـ الغـائـبةـ عـنـهـ ، كـانـ حـاضـرـةـ
مـعـهـ . وـكـانـهـ تـنـظـرـ إـلـيـهـ وـهـوـ يـقـرـأـ ، وـيـكـرـرـ ، وـيـصـليـ ، وـيـتـأـملـ . . .
وـكـانـ اـقـتـارـابـاـ التـصـوـرـيـ يـسـبـقـهـ صـوتـ كـحـفـيفـ ثـوـبـ اـمـرـأـةـ فـيـ اـثـنـاءـ
مـسـيرـهـ . وـكـانـ هـذـهـ الـحـيـالـاتـ أـدـقـ منـ الـحـقـائقـ الـتـيـ تـتـزـعـزـعـ
وـيـعـتـرـيـهـ الـارـتـبـاكـ ، بـيـنـا الـأـشـبـاحـ النـاشـئـةـ مـنـ الـعـزـلـةـ ، تـمـازـ بـأـهـمـ
مـيـزـاتـهـ مـنـ حـيـثـ شـدـةـ الثـباتـ وـالـرسـوخـ .

أَنْتَهَا تَايِسْ بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ ، تَارَةً مُفْكَرَةٌ وَقَدْ تَوَجَّ جَمِينَهَا
بَآخِرِ تِيجَانِهَا الَّتِي أَحْرَقَتْ ، وَمُرْتَدِيَةً كَمَا كَانَتْ فِي مَادَبَةِ الْإِسْكِنْدَرِيَّةِ
ثُوبًا أَرْجُوَانِيًّا مَرْصَعًا بِأَزْهَارِ مِنْ فَضَّةٍ وَاسْتَبْرَقٍ . وَطَوْرًا خَلِيلَةً فِي
سَحَابَةٍ مِنْ نَقْبَهَا الشَّفَافَةِ ، مَسْتَحْمَمَةٌ فِي أَظَالِلِ «كَهْفِ الْعَذَارِيِّ» .
وَحِينًا مَتَالِقَةً فِي أَطْمَارِ الْفَرَحِ السَّمَاوِيِّ . وَحِينًا آخَرَ مَفْجُوعَةً تَدُورُ
عِينَاهَا فِي مَفَازِعِ الْمَوْتِ ، وَقَدْ أَبَانَتْ عَنْ صُدُرِهَا الْعَارِيِّ الْمُخْضَبِ
بِدِمْ قَلْبِهَا الْكَلِيمِ

وَكَانَ أَشَدُ مَا أَرْعَجَهُ مِنْ هَذِهِ الْخَيَالَاتِ ، رَجُوعُ الْأَكَالِيلِ
وَالْأَثْوَابِ وَالْأَقْبُبِ الَّتِي أَحْرَقَهَا بِيَدِيهِ ، إِذَا تَضَعَّ لَهُ أَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ
رُوحًا لَا تَفْنِي وَنَفْسًا لَا تَبْيَدُ ، فَصَاحَ :

— هَا هِيَ أَرْوَاحُ خَطَايَا تَايِسْ الَّتِي لَا تُحْصَى تَائِي إِلَيْهِ !
وَلَا تَفْتَ شِعْرَ تَايِسْ وَرَاهِهِ ، فَلَمْ يَزِدْ إِلَّا اِنْزَعَاجًا . وَكَانَ
شَقاوَهُ بِالْغَالِبِ أَشَدَهُ . وَلَكِنَّ أَذَنَ نَفْسَهُ وَجَسَدَهُ بِقِيَمِنَ فِي وَسْطِ
هَذِهِ التَّجَرُبَةِ ، لَمْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَتَقْرُبَ مِنْهُ رَافِعًا هَذِهِ
الشَّكْوَى بِرْفَقِ وَخْشَوَعِ :

— إِلَهِي ! إِذَا كُنْتَ قَدْ ذَهَبْتُ إِلَى هَذَا الْبَعْدِ السَّمْحِيقِ
أَتَقْدَدُهَا بَيْنَ الْكَافِرِينَ ، فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ لِأَجْلِكَ ، لَا لِأَجْلِ نَفْسِيِّ .
فَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ أُعَذَّبَ لِمَا فَعَلْتُهُ فِي طَاعَتِكَ وَنَفْعَكَ . أَسْبَلْ عَلَيَّ

ست رحماتك يا يسوع الملائكة ! يا مخلصي خاصتي ! لا تبح للشبح ان
يقضى ما عجز الجسد عن فعله . أما وقد انتصرت على الجهنمان فلا
تدع الخيال يصرعني . لا أجهل اني معرض لخاطر اعظم جدًا مما
تعرّضت له قبلًا ، ولا يخفى عليّ أنّ الحلم أقوى من الحقيقة ، وكيف
لا يكون كذلك وهو ذاته حقيقة سامة ؟ هو النفس ، وأفلاطون
ذاته مع كونه وثنياً ، سلّم بصحبة وجود المهاجم . وفي مأدبة
الشياطين التي صحبتني اليها يارب ، سمعت أحاديث رجال مع كونهم
أشراراً ، لم يكونوا خالين من الذكاء ، وقد اتفقت كلّتهم على ان
ما نبصره في العزلة والتفكير والذهول هو حقيق . وكتابك المقدسة
يا إلهي ثبت في مواضع عديدة صحة الأحلام وتأثير الحالات
الصادرة إما منك يا إلهي جل شانك ، وإما من عدوك . . .

كان فيه رجل جديد . فناقش الله ، ولكن سبحانه لم يبادر
إلى هدایته وارشاده . كانت لياليه حالمًا واحدًا طويلاً ، ولم تكن
أيامه تختلف عن لياليه

استيقظ ذات صباح وهو يصعد زفرات كالتي تصدر في ضياء
القمر عن قبور ضحايا الجرائم . لأن تايس كانت قد أتته تريه قدميهما
الخضبيتين بالدماء ، فلما اغزورقت عيناه بالدموع ، اندست في فراشه .
فلم يبق عنده أقل شك في أن صورة تايس كانت صورة أثم
ودعارة ..

فثار قلبه تفزاً وفاض اشجاراً . وانتزع نفسه من فراشه النجس
انتزاعاً ، وخبا وجهه في يديه كي لا يرى نور النهار . ومرّت الساعات
بغير أن تمحو عاره ، وخيم السكوت على الصومعة . وأخيراً غادره
الشبح ، على أن غيابه كان كذلك مزعجاً . وما من شيء على
الاطلاق ألهاه عن تذكر الحلم الفاضح . ففكّر هالعاً مرتاباً :

— لماذا لم أدفعها عني ؟ لماذا لم أنتزع نفسي من ذراعيها
الباردتين ، وركبتيها الملتقيتين ؟ ..

* * *

لم يعد يجرؤ على النطق باسم الجلالة بقرب ذلك الفراش الكريه
وأشفق أن تكون صومعته قد تنجست فيستبيح الشياطين دخوها في
كل آن . ولم تكن به مخاوفه ، فبنات آوى السبع التي كانت ملازمة
بابه ولم تخط قط عتبته ، قد دخلت على العاقب وكانت تحت
المضجع . وعند صلاة المغرب ، أقبل الشامن وكانت راحته ثلة وبيئة
لا تطاق . وفي اليوم التالي انضم التاسع إليها . وما لبثت أن صارت
ثلاثين ثم ستين ثم ثمانين . وكانت كلها تكاثرت تصاغرت . ولما لم
ترزد على حجم الفارغت الأرض والفراش والمعد ، ووشب أحدها
على الرف الصغير عند رأس المضجع ووضع محلية الإمامين فوق
جمجمة المومياء . ثم نظر إلى الراهب بعينين ثاريتين ..

وفي كل يوم كانت بنا آوى جديدة تجئه يزحم بعضها بعضًا

* * *

فلكي يكفر بافנוס عن رجس حلمه ، ويختلاص من الأفكار المدنسة قرر رأيه على أن يغادر صومعته التي نجست ، ويضرب في فيافي الصحراء يمارس تقشفاً وترهداً لم يسمع أحد بهلهما . ويقوم بأعمال فريدة تسير بذكرها الركبان ويقدم كفارة ما لها من نظير . لكنه رأى أن يذهب إلى الشيخ بالمون لاستشارته قبل تنفيذ خطته .

فوجده في بيته يروي خسنه ، وقد مال ميزان النهار ، وجرى النيل الأزرق في سفح التلال البنفسجية . وكان الشيخ الصالح التقى يمشي الهوينا لكيلا يزعج حمامه حطّت على كتفه . قال :

— الرب معك يا أخي بافнос ! أَعْجَب برحمة سُبْحَانَه ! يبعث إلى بالحيوانات التي خلقها لاحدثها عن أعماله ، وأمجده في طير السماء ! انظر إلى هذه الحمامات ولاحظ ألوان عنقها المتغيرة ، وقل لي أليست من أعمال الله الجليلة ؟ ثم قل لي أو لم تأتِ يا أخي لتحدثنى عن بعض شؤون الدين ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فسانزل رشاشتي ، وألقي بسمعي إليك

فشكى له بافнос حكاية رحلته ، وعودته ، ورؤاه في النهار ،

وأحلامه بالليل . ولم يغفل ذكر الحم الائم ، وجماعة بنات آوى ،
ثم قال :

— ألا ترى يا أبا أنه يجب علىَّ أنْ أتوارى في الصحراء ،
لأقوم فيها بأعمال خارقة ، وأدهش ابليس بزهدى واسرتى ؟

فأجابه بالمون :

— لستُ سوى خاطيء مسكون ، وخبرتى بالناس قليلة ، إذ
قضيت طول حياتي في هذا البستان مع الغزلان والأرانب الصغيرة
والحمام . لكن يلوح لي يا أخي أن مرضك ناشيء على الخصوص من
انتقالك بعثةً غير حيطة من جلبة المعمورة الى سكينة الفقر . هذه
الانتقالات الفجائية لا بدَّ أن توهن صحة النفس . ومثلك يا أخي
مثل رجل يعرض نفسه ، في وقت واحد تقريباً ، للقيظ والقرّ ،
فيرجح السعال وتبرح به الجي . ولو كنت في موضعك يا أخي
بافوس ، لكنت بدلاً من الاعتزاز في الحال في صحراء مرعبة ،
أخذ بالتسلييات الصالحة لناسك تقيٍّ وكاهن ورع . كنت أزور
الأديرة المجاورة ، وبعضاها كما يقال عجيب . فدير السراي يوم يحوي
على ما بلغني اثنين وثلاثين وأربعمائة وألف صومعة . والرهبان فيه
منقسمون الى شعب عديدة بقدر حروف الهجاء اليونانية . ويؤكّد
الثقة أيضاً أنه قد لوحظت مشابهات صادقة بين خصال الرهبان

وأشكال الحروف التي تبدل عليهم . فالذين هم ، على سبيل المثال ، موضوعون تحت حرف (ى) ذو خصال معاوجة ، على حين أن المرتبين تحت حرف (ا) ذو عقول مخصبة ، ونفوس مسقية . ولو كنت مكانك يا أخي لذهبت وتحقققت هذا الأمر بمنفي ، وكنت لا يقرُّ لي قرار حتى أبصر هذا الشيء العجيب . وكنت لا أغفل دراسة سنن الطوائف المختلفة المنتشرة على ضفاف النيل ، لأنتمكن من المقايسة بينها . هذه واجبات تصلاح لرجل ديني مثلك . ولقد طرق سمعك دون ريب أن « افرايم » رئيس الدير وضع قوانين روحانية على جانب كبير من الجمال فاستطاع وأنت الكاتب النحرير ، أن تنسخها باذن منه ، أما أنا فما كنت لاستطيع ذلك لأن يدي ، وقد اعتادتا استخدام المعلول ، تعوزهما المرونة اللازمة لتسخير قصبة الكاتب الرشيقه فوق صحائف البردي . لكنك يا أخي تعرف قواعد الخط ، فلتحمد الله على ذلك ! . إن عمل الناسك والقاريء هو أعظم واق من الخواطر الخبيثة ، فلماذا لا تدون يا أخي بافنوس تعاليم أبوينا بولس وأنطوان ؟ بهذه الاعمال الدينية ، تسترد شيئاً فشيئاً سكينة النفس وصفاء الذهن ، وستطير لك الوحدة مرة أخرى فلا تلبث أن تصير في حالة فكرية تمكنك من العودة إلى أعمال الزهد التي كنت تؤديها قبلما تعطلها رحلتك . ولقد اعتاد أبوانا أنطوان ، لما كان بيتنا ، أن يقول : « الإفراط في الصوم يولد الضعف ،

والضعف يسبب الجمود والترانبي . فبعض الرهبان يتلقون أجسادهم
بصيام مطوقّل بغير تبصر ، فهو لا يصح أن يقال فيهم إنهم يغمدون
خنجرًا في صدورهم ويسامون أنفسهم كالمجادات إلى الشيطان » .
كذلك قال القديس انطوان . نعم ، لست سوى جاحد ، لكنني
بنعمة الله قد وعيت قول أبينا . . .

فشكّر بافنوس للشيخ باللون نصيحته ، ووعد بالتفكير فيها .
ولما تخطى السياج الذي يحيط بالبستان الصغير ، التفت وراءه فرأى
البستاني الصالح يروي حسنه ، بينما كانت حمامات ترجمج فوق ظهره
المحني . وعندما استوّعْب بافنوس هذا المشهد ، كاد يجهش بالبكاء
وراود الدمع جفونه ! . . .



عاد إلى صومعته ، فوجد هناك حشدًا غريباً كأنه حبات رمل
سفاه ريح عاصف . ثم ميزه ، فإذا هو عشرات الآلوف من بنات
آوى . . .

وفي تلك الليلة ، رأى في حلم عموداً حجرياً مرتفعاً يعلوه وجه
بشري ، وسمع صوتاً يقول :
— اصعد هذا العمود !

فَلَمَّا اسْتِيقْظَ مُقْتَنِعًا بِأَنَّ الْحَلْمَ أَتَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، دَعَا تَلَامِيذَهُ
وَخَاطَبَهُمْ بِهَذِهِ الْكَلَامَاتِ :

— أَوْلَادِي الْمَحْبُوبِينَ ، أَنِّي تَارِكُكُمُ إِلَى حِيثُ يُرْسِلَنِي اللَّهُ .
فَأَطْبِعُوا فِي غَيَابِي فَلَأْفِيَانَ كَمَا تَطْبِعُونِي ، وَاعْتَنُوا بِأَخِينَا بُولُسَ . بَارِكُ
اللَّهُ فِيهِمْ . اسْتَوْدِعُكُمُ اللَّهُ ..

ظَلَّوْهُ رَاكِعِينَ وَهُوَ يَعْنِي فِي سَيِّدِهِ ، وَلَمَّا رَفَعُوهُ رُؤُوسَهُمْ رَأَوُا
شَبِيهَ الطَّوَيْلِ الْقَاتِمِ عَلَى أَفْقِ الرَّمَالِ ..



سَارَ نَهَارًاً وَلِيلًاً حَتَّى وَصَلَ إِلَى خَرَائِبِ ذَلِكَ الْمَعْبُدِ الَّذِي بَنَاهُ
الْوَثَنِيُّونَ قَدِيمًاً ، وَبَاتَ فِيهِ بَيْنَ الْعَقَارِبِ وَالْجِنِّ "أَثْنَاءَ رَحْلَتِهِ الْعَجِيْبَةِ .
كَانَتِ الْجَدْرَانِ الْمُغَطَّاةِ بِالرَّمُوزِ السُّحْرِيَّةِ لَا تَزَالُ قَائِمَةً . ثَلَاثُونَ
عَمُودًاً هَائِلًاً عَلَيْهَا رُؤُوسُ بَشَرِيَّةٍ ، أَوْ أَزْهَارٌ لَوْتُسٌ لَا تَزَالُ تَسْنِدُ
الْمَجَارَةَ الْفَخْمَةَ . لَكِنَّ فِي أَحَدِ أَطْرَافِ الْمَعْبُدِ طَرَحَ أَحَدُ هَذِهِ
الْأَعْمَدَةِ حَمْلَهُ الْقَدِيمِ مُتَخَلِّصًا مِنْهُ ، وَكَانَ لَهُ تَاجٌ عَلَى شَكْلِ رَأْسِ
إِمْرَأَةِ بَاسِيَّةٍ ، بَعْيَنِينِ نَجْلَاءِينِ وَخَدِينِ مُسْتَدِيرِينِ ، وَعَلَى جَيْنِهَا
قَرَناً بَقِرَةً .

فَلَمَّا رَأَاهُ بَاقِفُوسٌ عَرَفَ أَنَّهُ الْعَمُودَ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ فِي حَلْمِهِ . وَقَدْرَ

ارتفاعه باثنين وثلاثين ذراعاً . فذهب الى البلدة المجاورة ، وأوصى
بصنع سلمًّا بهذا الارتفاع . ولما أُسند السلم الى العمود ، صعد وركع
على القمة وخاطب الرب سبحانه :

— هنا إذًا يا إلهي المقام الذي اخترته لي . ليتني أبقى هنا في
هذا ، حتى يحين حيني ، وتوافيني المنون .

لم يكن معه شيء من الطعام ، اذ كأْنَ متوكلًا على العناية
الإلهية ، متوقعاً أن يمده الفلاحون الكرام بما يقوته . وحدث في
عصر اليوم التالي ان بعض النساء والأولاد أتوا بهم وراء أصعدوها
اليه الصبيان حتى قمة العمود

ولم تكن قمة العمود من الآتساع بحيث تتمكن الراهب من التمدد
بطوله كله ، فنام متربعاً ورأسه ملقى على صدره . وكانت متاعب النوم
لديه أشد من عذابات اليقظة . وعند الفجر ، كانت البواشق تصفعه
بأجنحتها فيستيقظ متلماً مرتاعاً

واتفق أن النجار الذي صنع السلم كان رجلاً صالحًا ، ففتق
من جراء تعرض القديس للشمس والمطر ، وأشفق عليه من خطير
السقوط وهو مستعرق في نومه . فأقام فوق العمود سقفاً ، وركب
حوله سياجاً

وما لبث صيت هذا المقام العجيب أن ذاع في البلاد . وأقبل عمال الوادي في أيام الآحاد مع نسائهم وأولادهم ليشاهدو « صاحب العمود » .^(١) ولما سمع تلاميذ بافتوس بيكار عزلته المرتفع ، احتشدوا بقربه ، واستأذنوه في بناء أكواخ لهم حول العمود . وكانوا في كل صباح يقفون في دائرة حول الرئيس يستمعون لتعاليمه ، وهو يقول لهم :

— أولادي ! ابقوا كالأطفال الذين أحبتهم المسيح . إن إثم الجسد مصدر كل الخطايا ورأسها . إنها تتوالد منه كأنه أب لها . فالكبير والشح والكسل والغضب والحسد ذريته المحبوبة . واليكم مارأيته في الإسكندرية : رأيت الأغنياء مسوقين بنقية الترف ، وقد جرقهم مثل نهر عكر ، إلى دوامة بحر أجاج . . .

ولما بلغت الرئيسين افرايم وسرايوف حكاية هذه البدعة المستحدثة ، راما رؤيتها بأعينهما . فلما شاهد بافتوس على بعد شراع المركب القادم بهما ، فكر في كون الله تعالى قد جعله مثالاً لجميع الزاهدين . ولما رأاه كيرا الدير لم يخفيا دهشتهما ، قشاورا ، ثم بدأ

(١) توجد حكاية تاريخية من هذا النوع . قيل أن أحد المتنسكين القدمين عاش فوق قمة عمود حيث قضى نحو ملايين عاماً ، ولقب بسمعان العمودي . . . والله في خلقه شؤون ! — (المترجم)

كَلَامُهُمَا يَلْوِمُهُنَّا عَلَى قِيَامِهِ بِعَذَابِ هَذِهِ الْكَفَّارَةِ الْخَارِقَةِ الْعَادَةِ، وَحَثَّاهُ
عَلَى النَّزْولِ قَائِلِينَ لَهُ :

— اَنْ مُثُلُ هَذَا الضَّرُبِ مِنَ الْحَيَاةِ مَضَادُ الْعُرُوفِ، وَهُوَ شَاذٌ
وَمُخَالِفٌ لِلْقَوْانِينِ .

فَأَجَابُهُمَا بِآفَنُوسٍ :

— وَهُلْ حَيَاةُ التَّنْسِكِ إِلَّا حَيَاةُ الشَّذْوَدِ؟ أَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ
أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُ النَّاسِكِ فَذَّةً مِثْلَهُ؟ اَنِّي بِوَحِيِ الْهَيِّ صَعِدْتُ إِلَى
هَذَا، وَبِوَحِيِّ مَنْهُ تَعَالَى أَنْزَلَ ..

وَكَانَ النَّاسُكُ يَأْتُونَ كُلَّ يَوْمٍ فَرْقًا لِيُنْضِمُوا إِلَى تَلَامِيذِ آفَنُوسِ .
وَبَنُوا لِأَنفُسِهِمْ مَأْوَيَ حَوْلَ الْمَنْسَكِ الْجَوِيِّ . وَصَعَدَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ ،
تَشَبَّهُ بِالْقَدِيسِ ، فَوَقَ أَطْلَالَ الْمَعْبُدِ ، لَكِنَّهُمْ مَا لَبَثُوا إِنْ زَلُوا إِذَ
عَنَّهُمْ إِخْوَانَهُمْ ، وَنَهَكُمْ التَّعبُ فَأَقْلَعُوا عَنْ تَلَكَ الْمَحاوِلَاتِ ..

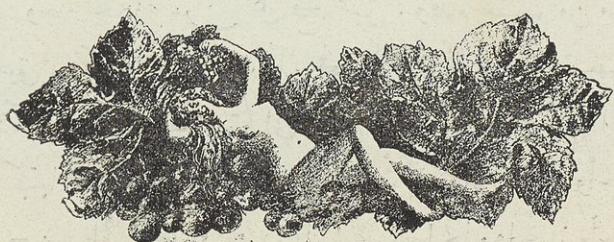


وَجَاءَ الْحَجَاجُ مِنْ كُلِّ فَجَّ عَمِيقٍ . وَقَدِمَ بِعِضِهِمْ مِنْ مَكَانٍ
سَاحِقٍ ، فَكَانُوا جِياعًا عَطَاشًا . فَخَطَرَ لِأَرْمَلَةِ فَقِيرَةٍ أَنْ تَبِعَهُمْ مَاءَ
بَارِدًا وَبَطِيحَةً ، فَاسْتَنَدَتِ إِلَى الْعُمُودِ وَوَقَفَتْ وَرَاءَ قَلَائِلِ الْحَمَاءِ
وَفَاكِهَتْهَا تَحْتَ خِيمَةٍ مُخْطَطَةٍ بِاللَّوْنَيْنِ الْأَزْرَقِ وَالْأَيْضِ ، وَأَخْذَتْ
تَصْبِحَ : « يَا أَيُّهَا الظِّمَاءُ ! هُوَ ذَا الْمَاءُ ! ». خَذَوْهَا خَبَازٌ وَأَحْضَرَ

آجُرًا وبنى بجوارها مخبزًا ، مؤملاً أن يبيع الغرباء الخبز والكمك .
ولما كان جمهور الزائرين في ازدياد مستمر ، وأخذ سكان مدن
مصر الكبرى يغدون تباعًا ، شيد رجل آخر فندقًا لنزول السادة
وخدمهم وجمالهم وبغاتهم .. وسرعان ما قامت أمام العمود سوق
أحضر إليها الصيادون أسماء كهم ، والبستانيون بقوتهم وثمارهم .. وئمَّ
مزين يقص للناس شعرهم في الهواء الطلاق ، ويسلِّي الجمّهور بأقواله
الراشقة ، وزنْكاته الشائقة

وما لبث المعبد العتيق الذي شملته السكينة والسلام دهرًا
طويلاً ، ان امتلأ بجميع لغات الدنيا ومشاهدها غير المعدودة . وحوَّل
الفندقيون المعاور إلى قاعات تحت الأرض سرروا بدعائهما المتهداة
اعلانات تعلوها صورة القديس بافنيوس ، وعاليها باليونانية والبصرية
هذه الكلمات :

هنا يباع نبيذ التين والرماد وجمنة « ادنة » الا صالية



وعلى الحيطان المزدادة بنقوش متقدة جلية — علق الباعة
البصل والسمك المشوي والأرانب المذبوحة والأغنام المسلوقة .
وفي المساء ، انسَلَت الجرذان — ضيوف الخرائب القديمة — هاربة
إلى النهر . واتلعت الكراكي أعناقها وهي تتنقل بحذر وتردد فوق
الطنوف العالية التي تصاعد إليها دخان المطابخ وعربدة السكارى
وصياح السقاة . وخطَّطَ المساحون الشوارع ، وشيد البناءون الأديرة
والمعابد والكنائس . وما اقضت ستة أشهر ، حتى أنشئت بلدة
بحفر ومحكمة وسجين ، ومدرسة يعلم فيها شيخ فقيه أعمى ...

وكان الحجاج لا عدد لهم . وبينهم كثيرون من المطارنة
وكمار رجال الدين ، أقبلوا وهم في غاية الاعجاب . وأتى بطريق
انطاكيه الذي كان وقتئذٍ في مصر ، مصححاً بجميع حاشيته .
فاستصوب كثيراً تصرف « صاحب العمود » الخارق العادة .
ووافقه على استصوابه رؤساء كنائس ليبية ، في غياب اثنان سماوس .
ولما علم بذلك افرايم وسرابيون أتيا يعتذران عمّا فرط منهما ،
فأجابهما باقنوس :

— اعلما يا أخيّ أن الكفارّة التي أكابدها بالجهد تساوي
التجارب التي تعرّضت لها ، وقد هالني ما رأيت من كثرة عددها
وشدة وطأتها . ان الانسان يُرى حسب الظاهر صغير الحجم . ومن

فة العمود حيث وضعني الله أرى بني البشر يروحون ويندون
كالنمل . لكننا اذا انعمنا النظر في الانسان من الباطن نجد عظيماً
جداً ، عظيماً كالدنيا لأنه يسعها . هذه المشاهد البسطة امامي —
هذه الأديار والمنازل والسفن والقرى ، وما أراه على بعد من حقول
وتروع ورمال وجبال — ليست شيئاً بالنسبة الى ما هو في . وفي
قلبي أحوي مدنًا لا تُعد ، وصحاري لا تُحد . والشر ، الشر والموت ،
يتدان فوق هذا المتسع غير المحدود ، يُدبرانه كا يدبر الليل الارض .
وفي أنا وحدي علم أفكار شريرة ..

قال هذا القول ، لأن اشتئاء المرأة كان مسلطًا عليه ، متزجاً

بلحمة ودمه .



وفي الشهر السابع آتى اليه من الاسكندرية وتلّ بسطه
وسائس نساء عاقرات ، يرجون أن يُرزقنَ أولاً بشفاعة وبركة
العمود . فلما حملن خواصهن بالحجر . ثم أقبلت مواكب لا يبلغ
الطرف آخرها من المركبات والمحفّات والنقالات ، وازدحمت حول
العمود القائم عليه رجل الله . وخرج منها مرضى في حالة مخيفة .
وعرضت الأمهات على بافونوس أولادهن المصابين بالكسح والمعنى

والسعال الديكي والحتّاق وغيرها من الأدواء ، فوضع يديه عليهم . واقترب منه العميان متلمسين . وأظهر له المفلوجون ما هم عليه من الشلل التامّ والسمّ الميت واقتلاض عضلاتهم البشع . وأراه المقدعون أرجلهم المعوجة . وأمسك النساء المصابات بالسرطان نهودهن ، وكشفن عن صدورهن التي افترسها الرَّحْمُ الخفيّ . وجثمت أمامه النساء المصابات بالاستسقاء ، وكن منتفضات كزقَّ الخمر . فباركهنَّ كلهنَّ . وتقدم النوبيون المصابون بالبرص الفيلي بخطوات متشائلة ونظروا اليه بعيون مخضلة بالدموع . فرسم علامه الصليب فوقهم . وأحضروا اليه على نعش من بلدة « افروديتو بوليس » بنتاً صغيرة نفت دمًا ونامت ثلاثة أيام كاملة فكانت كأنها صورة من الشمع . وظنَّ أبوها أنها قضت نحبها فوضعها سعفة على صدرها . فابتهل بافنوس الى الله فرفعت البنت رأسها وفتحت عينيها ...

فما شاع بين الناس أمر المعجزات التي عملها القديس ، أقبل الجمَّ الغفير من المصابين بالداء الذي أطلق عليه الاغريق اسم « المرض الإلهي » من جميع أنحاء مصر . فما شاهدوا العمود حتى تشنجوا وقرّغوا على الأرض واختبوا وتکوّروا . وما يكاد لا يصدق أن الحاضرين أصيبوا بدورهم بهذيان شديد والتلووا

كلمصور عين . وترنّغ السكينة والحجاج والجال و النساء مختلطين
بعضهم بعض . والتوت أطرافهم وفاض الزبد من أشداقهم وهم
يلتهمون التراب بالحنفات ويتباون .

فشعر بافنوس ، من قمة عموده ، برعدة تتمشى في أعضائه ،
وصاح متوجهاً إلى الله :

— أنا التي يس المغضوب عليه ، حَمَال الدنوب ، أحمل في عنقي
أدران هؤلاء الناس ، وهذا يا رب هو سبب امتلاء جسدي بالأرواح
الشريرة .

وكان كلاماً مضى مرِيض وقد شُفي مما أصابه ، يحمله الحاضرون
هاففين هتاف الانتصار .

ولقد علقت مئات العكازات حول العمود المعْجِز . وعلقت
عليه النساء الشاكرات أكاليل الزهر والصور المنذورة . ودون فيه
بعض الأغريق قطعًا من الشعر البلغ . ونقش عليه كل حاج اسمه
حتى أصبح كله مغشى بما لا يحصى من الحروف اللاتينية واليونانية
والقبطية والقرطاجينية والعبرانية والسورية والمسحورية .

* * *

وجاء عيد الفصح . فتدفق على مدينة العجائب هذه سيلٌ
جارف من البشر حتى ان الطاعنين في السن حسبوا انهم عادوا

الى أيام الاسرار القديمة . فكانت ترى فوق السهل الفسيح حلال
المصريين المخططة وقد اختلطت ببرانس العرب ، وثياب النوبين
القطنية ، ومعاطف اليونانيين القصيرة ، وأردية الرومان الطويلة ،
وسراويل البرابرة القرمزية ، وأثواب السراري الذهبية . وكانت
النساء المحجبات يجترن راكمات الحمير يتقدمهن خصيان سود
يفسحون لهن الطريق بالعصي . وفرض البهلوانون على الارض
سجادهم ولعبوا العاباً مدهشة امام جمهور من المشاهدين الذين
عاينوها وكانَ على رؤوسهم الطير . وعرض الحواة مشاهد غريبة
من التمايز والأفاعي ومدّوا أذرعهم ونشروا مناطقهم الحية ..

وهكذا كان حشد عظيم يضيء ، ويتألق ، ويعقر ، ويطنطن ،
ويهدر ، ويجمع . فمن شتائم الجمالة وهم يجلدون جمالهم ، الى صياح
التجار الذين كانوا يبيعون تعاوين اللوقاية من الجذام والاصابة بالعين ،
الى تراثيم الرهبان whom ينشدون آيات من الكتاب المقدس ، الى
عواء المسؤولين whom يرددون أغاني الحرير القديمة ، الى ثغاء الغنم ،
ونهيق الحمير ، ونداء البحارة للمسافرين المتابطين — هذه الاوصوات
كلها امتزجت بعضها بعض فألفلت ضميجاً يضم الآذان ، وزاد
عليها زئاط أولاد الزنوج العرّاة الذين كانوا يجررون من مكان الى
آخر يعرضون للبيع البليح الرطب

وكانت جميع هذه المخلوقات المختلفة قد حشرت تحت السماء
الصافية الأديم في جو كثيف محمل بعطور النساء وطيب الزنوج
ودخان الطهي وأبخرة الصموغ التي اشتراها من الرعاة ، الأتقياء
ليحرقوها بخوراً أمام القديس .

ولما جن الليل ، كانت النيران والشعل والمصابيح تضيء في
كل مكان . فما كان ثمة شيء يُرى سوى أظلال حمراء وأشكال
سوداء . وقام في وسط دائرة من المتصدين الجالسين القرفصاء شيخ
هرم يمثل « خيال الظل » . فقص حكاية أحد القدماء الذي انتزع
قلبه من صدره ودفنه في جوف شجرة سنط ، ثم حول نفسه إلى
شجرة ! . وعمل الرجل حركات كرّرها ظله ببالغة مضحكـة ، فهتف
الحضور معجبين . واضطجع السـكـارـى في الحالات على الأرائك
وطلبوا الجمعة والنبيذ . ومثلت أمامهم راقصات مكتحـلات العيون
عاريات الصدور بعض المشاهـدـ الـديـنـيةـ والـمنـاظـرـ الـمحـرـكةـ لـلـشهـوـاتـ .
وفي جانب آخر ، كان الشبان يلعبون الترد . والرجال المسنون
يتبعون البغـاياـ فيـ الـظـلـامـ .

وفوق هذه الصور المتحركة كان العمود وحده ثابتاً ، وعليه
رافعوس مراقيباً بين السماء والأرض . وارتفع القمر فجأة فوق النيل
كذراع إلهة عاري ، فأضاءت التلال بأشعة زرقاء ، وخـيلـ إلى

جا فنوس أنه يرى جسد تايس مشرقاً في تألق المياه في كبد الليل
الأزرق الياقوتي ...

* * *

مرت الأيام وظلّ القديس فوق عموده فلما آتى فصل الأمطار
اخترقت مياه السماء شقوق السقف وغمرت جسده فعجزت أعضاؤه
الخدّرة عن الحركة . وأحرقت الشمس جلده وحمره الندى فشقق .
والتهمت القروح الكبيرة ذراعية وساقيه . بيد أن شهوة تايس
ظللت تجيش في داخله وترعى في باطنها ، فصاح :

— يا إله القدرة، هذا لا يكفي ! زدني من التجارب والوساوس !
زدني من الأفكار الشريرة والشهوات الخبيثة ! آتني يا رب
شهوات الناس كلها كي أكفر عنها جمِيعاً ! لست أصدق ما سمعته من
بعض الدجالين عن كلبة أرجوس أنها حملت خطايا العالم ، ولكنَّ
هذه الأسطورة معنى خفيأً أدركه الآن . لأنَّ آثام البشر تدخل
حقيقةً أرواح الأولياء لتغرق فيها كما في هاوية . وعلى هذا فنفوس
الأبرار مدنّسة بأدران أرجوس جدًّا من التي في نفوس الأشرار ،
هذا أحمدك يا إلهي وأشكر فضلك لجعلك إياي بالوعة أقدار
الكون !

* * *

وحدث يوماً أن انتشرت في المدينة المقدسة إشاعة ذات شأن،
وبفت الناسك ، وهي ان قائد اسطول الاسكندرية لوسيوس
أوريروس كوتاً - قادم .. وعما قليل يصل . . .

كانت الأنباء صادقة . وكان كوتاً الشيخ ، الذي خرج يتفقد
الترع والملاحة في نهر النيل ، قد أبدى غير مرغبة في مشاهدة
« صاحب العمود » والمدينة الجديدة التي أطلق عليها اسم
« ستيلوبوليس » Styropolis .

وفي صباح أحد الأيام رأى سكان « مدينة العمود » التهر
مغطى بالأشرعة ، وظهر كوتاً على ظهر سفين مطلية بالذهب مشدودة
بالأرجوان ، يتبعها اسطوله الصغير ، فخرج يصحبه كاتم سره حاملاً
الواح كتاباته ، واريساته طبيبه الذي كان يشجوه حدشه .

سار وراءه خدم وحشم كثيرون ، وغطى الشاطئ ، بالأردية
الرومانية وبذلات الجندي الرسمية . فوقف على بعض خطوات من
العمود وبدأ يفحص صاحبه ماسحاً جبهته خلال ذلك بطرف
وشاحه . ولما كان فضوليًّا بطبعه فقد لاحظ أشياء كثيرة في رحلاته
الطوبلة حن لذكرها ، وعقد العزم على أن يكتب ، بعد أن أتم
التاريخ القرطاجي ، كتاباً عن الأشياء العديدة التي رأها ، وبدا
عليه أنه سرًّا كثيراً بالمشهد الذي أمامه . قال ، وقد عرق ولهث :

— إنه لشيء غريب ! وانها حادثة تستحق أن تسجل .
فالرجل كان ضيفاً على يوماً من الأيام . أجل ! هذا الكاهن
تعشى معي في العام المنصرم ، وبعدها خطف إحدى المثلاط . . .

ثم التفت إلى كاتم سره ، وقال :

— سطّر هذا يا بني في الواحي . كذلك ودون قياس العمود ،
ولا تغفل الاشارة إلى شكل القمة .

ثم مسح جبينه ثانية . وقال :

— لقد أكّد لي الثقات ان كاهتنا صعد فوق هذا العمود
منذ سنة خلت ، ولم يغادره قطّ . فهل هذا في الامكان يا أريستيه ؟

فأجاب أريستيه :

— إنه في إمكان رجل معتوه أو مريض . لكنه مستحيل
على انسان متمنع بقواه العقلية والبدنية . أو لا تعلم يا لوسيوس أن
أمراض العقل والجسد تمنح أحياناً المصابين بها قوة لا يتمتع بها
الأشخاص ؟ الحق أقول أنه لا وجود حقيقي للصحة الجيدة ولا
للحالة الرديئة . نعم ، توجد حالات متباعدة لأعضاء البدن . وقد
اتضح لي من دراسة الأمراض أنها أشكال ضرورية للحياة . وقد
وجدت في دراستها لذة أكبر مما في محارتها .

ومنها ما لا يمكن إغفال الاعجاب به ، وهو ما ينفي تحت اختلاله الظاهري ، أعمق النظمات وأدقها ، كالمحى الرباعية مثلاً^(١) وفي بعض الأوقات تكون أمراض الجسد وسيلة لترقية خواص العقل . واني لأضرب لك مثل « كريون » الذي كان في صغره الكن غبياً فصار بعد أن هشم جسمته بسقوطه من سلم ، ذلك القانوني الصليع الذي تعرفه . ولا بد أن يكون هذا الكاهن مصاباً في بعض أعضائه الباطنية . ومع ذلك فهو غير متفرد في نوع معيشته كما يلوح لك يا لوسيوس . تذكر متريضي الهند الذين يستطيعون البقاء بغير حراك أربعة لا عاماً واحداً وإنما عشرين وثلاثين ، بل أربعين عاماً ! ..

فأجاب كوتا :

— قسماً بچو پير أن هذا ضلال مبين . لأن الإنسان خلق ليعمل ، والجود جريمة ، لأنه مضر بالدولة . وإنني لا أدرى لأية ملة أعزوه هذه العادة المنحوسة . ويحتمل أن بعض المذاهب الآسيوية مسؤولة عنها . لما كنت حاكماً على سوريا ، شاهدت نصباً في أروقة مدينة الحيرة . وكان يعلوه رجل مرتبين في كل عام ، ويبقى فوقه سبعة أيام . وكان الناس مقتنعين بأن هذا الرجل

(١) التي تأتي كل أربعة أيام

يتوصل للآلة بحديثه معها فتنزل على سوريَّة المُنَّ والسلوقي . وقد استهجنت هذه العادة ، لكنني لم أعمل على ابطالها . لأنَّي أرى انه لا يجوز للحاكم أن يستأصل عادات أهل البلاد ، بل عليه أنْ يرعاها . وليس للحكومة نَّ تلزم الناس عقيدة ، فإن واجبها المحافظة على ما هو موجود منها ، سواءً أغناً كان أم سميناً ، فقد سنته روح الزمان والمكان والجماهير . فإذا سعت الحكومة في محاربة دين من الأديان ، ظهرت مظاهر التأثير العاتي ، وكانت حرية بالغضباء . هذا فضلاً عن انَّ السبيل الوحيد للترفع عن خزعبلات العامة هو فهمها وإياحتها . وأرى يا أريستيه أن أترك ساكن مدينة السحب هذا في الجو بسلام ، معرضاً لشتم الطير وغزوتها وحدها . وفائدتي ليست في البطش به ، وإنما في استطلاع أفكاره ، وما ملكت أيامه وعقائده .

ثم نفح ، وسعل ، ووضع يده على كتف كاتم سرمه ، وقال :
— دون يابنيَّ أن خطف العاهرات والجلوس على العمود
يُعدَّان عند بعض طوائف المسيحيين أمراً محموداً ! ويمكنك أن
ترزيد أن هذه العادات دليل على عبادة آلة الشهوات ! لكن
علينا أن نسأل الرجل نفسه في هذا الموضوع .

ثم رفع رأسه ، وأظل عينيه بيده من الشمس ، وصاح :

— يا هو ! يا بافوس ! إذا كنت تتذكرة أنك كنت ضيفي ،
 فأجبني . ماذا تصنع في هذا المكان ؟ لماذا صعدت حيث أنت
 ولماذا تقىم ؟ وأية دلالة لهذا العمود في فكرك ؟

فلم ينزل بافوس لاجابة كوتا ، لأنّه كان يعده وثنياً . لكن
تلميذه فلاقيان تقدم وقال :

— يا مولاي العلي الشأن ! إن هذا القديس يحمل خطايا
العالم ويبرئ الأمراض .

فصاح كوتا :

— يميناً بچو بيتر ! أسمعت يا أريستيه ؟ أن « ساكن مدينة
السحب Le néphélococcygien » يزاول الطلب مثلك ؟ فإذا
تقول في هذا الزميل المعظم ؟

فيهزّ أريستيه رأسه وقال :

— يجوز أنه يفوقني في شفاء بعض الامراض ، مثل الصرع
المسمى بين العامة بالمرض الإلهي ، وان تكون الامراض جميعها إلهية
على السواء ، لأنها كلها تأتي من الآلهة . ولوهم تأثير في هذا
المرض . وأنت ترى يا لوسيوس أن هذا الكاهن ، الجائم هكذا
فوق رأس معبدة ، يؤثّر في أذهان المرضى تأثيراً أقوى من

تأثيري أنا الحني في معنى عقاقيري فوق هوايني وقاريري .
توجد يا لوسيوس قوى أشد بأساً من العقل والمعرفة .

فسأل كوتا :

— وما هي ؟

فأجاب أريستيه :

— الجهل والحمامة .

فقال كوتا :

— ان ما أراه امامي الآن من الأشياء التي يندر أنني رأيت
أشد منها شذوذًا . وأمل أن يروي يوماً كاتب قدير قصة تثبيط
« مدينة العمود » . ولكن لا يجوز للرجل الرزين العامل أن يعاق
حتى يأندر المشاهد عن تأدية واجباته ، هنا بنا نتفقد الترع . الوداع
يا بافنوس الصالح ! أو بالحرى إلى الملتقى ! اذا حدث يوماً أن نزلت
إلى الأرض وعدت إلى الإسكندرية ، فأرجو ألا تتسى الحضور
لتناول العشاء معى .

سمع الحاضرون هذه الكلمات ، فتلتفت بها فم بعد فم ، وأذاعها
المسيحيون ورددوها فأضافت إلى مدح بافنوس مجدًا جديداً . وقد
زيت المخلّفات الورعة هذه الكلمات وعظمتها . وأشيع أن

القديس قد هدى ، من فقة عموده ، قائد الاسطول الى اليمان
بالرسل وآباء « نيسيه ». وضمنَ المسيحيون كلات أوريليوس كوتا
الأخيرة معنًى مجازيًّا . فعدُوا العشاء الذي دعا كوتا الناسك اليه
عشاءً ربانياً ، ولية روحية ، مائدة سماوية ! وألبت قصة هذا
اللقاء زخارف تفاصيل عجيبة ، كان الذين ابتدعواها أول من صدقها !!
فقالوا انه لما اعتنق كوتا اليمان بعد جدل طويل ، هبط ملك من
السماء يمسح العرق عن جبينه ! وزعموا أن طبيبه وكتام سرره
اهتدياً مثله .

ولما اشتهرت المعجزة ، دوّنها شمامسة كنائس ليبية الكبرى
ضمن الواقع المؤوثق بصحتها !!

ومن ذلك الحين يكن القول بلا تردد ان الدنيا من أقصاها
إلى أقصاها قد تملكتها الرغبة في زيارة بافنوس . وان كل المسيحيين
في الغرب ، كما في الشرق ، ولووا أبصارهم الخاشعة شطره . وأوفدت
أشهر مدن ايطاليا السفراء اليه . وكتب اليه قيصر روما قسطناس
التي ، الذي ظاهر الاثروذكسيه المسيحية ، كتاباً قدمه القاصدون
الرسوليون باحتفال مهيب ..



ففي إحدى الليالي والمدينة راقدة في الطلّ عند قدميه ، سمع
بافنوس قائلاً يقول :

— لقد صرت يا بافنوس شهيرًا بأعمالك ، قويًا بأقوالك .
لقد رفعك الله لرفعته ، واختارك لعمل العجزات ، لتبرئ المرضى ،
وتهدي الوثنيين ، وتثير الخاطئين ، وتزعج الماحدين الأريوسيين ،
وتعيد إلى الكنيسة السلام ..

فأجاب بافنوس :

— فلتكن مشيئة الله !

فعاد الصوت يقول :

— قم يا بافنوس وادهب لقاء قسطنطوس الطاغية في قصره ،
لأنه بدل أن يختذلي أخاه قسطناس في حكمته ، مال إلى ضلاله ،
أريوس وماركوس . اذهب ! سوف تفتح أمامك الابواب التحاسية ،
وسوف ترن نعلك فوق المشى الذهبي أمام عرش القياصرة ،
وسوف يغير صوتك الرهيب قلب ابن قسطنطين ، ويمتد سلطانك
على الكنيسة . وكما تقود الروح الجسد ، كذلك تسود الكنيسة
على الامبراطورية . سوف تعلو يا بافنوس على الوجهاء والامراء
والشرفاء . سوف تضع حدًا لجوع الناس وشراهم ، وتعتو

البربرة وفظاعتهم . وعند ما يرى الشيخ كوتا أنك على رأس
الحكومة ، يبذل جهده ليحظى بشرف غسل قدميك . وعند موتك
يؤخذ ثوبك الوردي الى بطريق الاسكندرية أثنا سیوس الكبير
الذى شاب في المجد ، فيلائمه ويعده ذخراً من ولی حميد —
اذهب ، على الطائر الميمون !

فأجاب بافنس :

— فلتكن إرادة الله !

ثم اجتهد في الوقوف ، واستعد للنزول ، لكن صاحب الصوت
ناجاه قائلاً :

— اياك والنزول على السلام ! فهذا ما يفعله الرجل العادي ولا
يليق بواهبك . قدّر سلطانك بأحسن من هذا يا بافنس الملكي !
ومن كان ولينا قدیساً مثلك يجب عليه أن يطير محلقاً في الجو —
اقفز ! ان الملائكة بانتظارك لتلقاك فاقفز !

فأجاب بافنس :

— لتكن مشيئة الله كما في السماء كذلك على الارض !
ثم وازن ذراعيه المتقدّتين ، فكانا كجناحي طائر مريض

عاريين من الريش ، وأوشك أن يقذف بنفسه ، فرنت في أذنيه
قهقهة استهزاء مرعبة ، فسأل وقد أرهقه الجزع :

— من ذا الذي يضحك هكذا ؟ ..

فعمى الصوت ، يقول :

— آه ! آه ! إنّا لا نزال في بدء صداقتنا وسوف تتقوى يوماً آخرة
الحبة بينما قطعني جيداً . هو أنا يا عزيزي الذي جعلك تتصعد إلى
هذا ، ويحق لي أن أبدي سروري باذعنك الذي أتمت به جميع
رغباتي . فأنا مسرور منك يا بافنوس !

فتمتم بافنوس بصوت يتهجد من الخوف :

— إلى الوراء ! إلى الوراء ! لقد عرفتك ، إنك أنت الذي
رفعت المسيح على ذروة الهيكل وأريته جميع ممالك الدنيا (١)
وسقط على الحجر فزعاً ، وفكّر :

— لماذا لم أعرفه من قبل ؟ اني أشقي من أولئك العمي
والصم والمفلوجين الذين وثقو بي . لقد فقدت كل دراية بالأشياء
غير العادية . وصرت شرّاً من المتعوهين الذين يأكلون التراب

(١) يريد به الشيطان

و يقربون حيث الموتى . وعدت لا أمير ضجة جهنم من صوت السماء .
لقد عدلت كل فطنة ، حتى فطنة الطفل الرضيع الذي يبكي عند ما
يؤخذ عن ثدي أمه ؛ وفطنة الكلب الذي يقيني أثر صاحبه بواسطة
الشمّ ؛ والنبات الذي يتوجه صوب الشمس ؛ فكانت العوبة
الشياطين . وكذلك كان ابليس هو الذي آتى بي إلى هنا . لما رفعني
فوق هذا العمود ، صعدت معي الأهواء والكثيراء . فليست
تجاري هي التي تهولني ، فقد كابد مثلها انطوان فوق جبله ، وأودّ
أن ترقق سيوفها بدني أمام أعين الملائكة . نعم ! لقد توصلت إلى
إعزاز آلامي ، غير أن الله صامت لا يبدي ولا يعید ، وسماته يحيرني
ويدهشني . انه يتخلّى عنّي وليس لي سواه . إنه يدعني وحيداً في
مخاوف إعراضه . إنه يفرّ مني واني أروم الجري خلفه . هذا الحجر
يأب قدمي بشواطئ من نار ، فلا نطلق سريعاً ، فلا ترکنه ..
وأرقَّ أسباب السموات لعلي أدرك الله ! ..

وللحال أمسك بالسلم الذي كان قد يقي مستندًا إلى جانب
العمود ، ووضع قدمه عليه وهبط درجة فألقى نفسه مواجهًا لرأس
الوحش الذي ابتسامة غريبة . فتحققَ أن المكان الذي
اخذه لسلامه ورفعته لم يكن سوى أداة جهنمية لرزئه المبرم . فسارع
في النزول إلى الأرض وزلت قدماه وافتقت ساقاه وتمايلتا ، ولكنـه

وقد أحسَّ بظل العمود فوقه أَكَرَه نفسه على الجري . وكان
الكري قد أخذ بمقد كل جفن ، فاجتاز الساحة الكبيرة المحوطة
بالحانات والنزل والفنادق ولم يرَه أحد . واندفع إلى درب مؤدي
إلى تلال ليديه . وتبعه كلب ناج لكتنه وقف في منتهى رمال
الصحراء فلم يعدها . وأمعن بافנוס السير في بلاد مساكنها مفاوز
للوحوش الضارية . وخلف وراءه الاكواخ التي هجرها مزيفو
النقود . وقضى في فراره الموحش ذلك الليل والنهر الذي تلاه .

أخيراً ، وقد بلغ به الجوع والظماء والإعياء حدَ النزع ، وهو
لا يزال يجهل مبلغ بعد الله منه ، عثر على مدينة خيم عليها السكوت ،
وقد انبسطت عن يمينه ويساره ممتدةً أمامه إلى ما وراء الأفق .
وكانت مساكنها منفصلة بعضها عن بعض ومتباينة كأنها أهرام
قطعت إلى منتصف ارتفاعها . تلك كانت أحداثاً محظمة الأبواب .
ومن خلال قاعاتها شخصت عيون الضياع والذئاب التي تطعم
جراءها . وعلى مدخلها جث الموتى ممدة وقد عرّاها اللصوص
ونهشتها الحيوانات المفترسة . ولما اجتاز بافнос هذه المدينة
— مدينة الموتى — سقط منها القوى أمام قبر منفرد بقرب
ينبوع يظله النخيل . وكان القبر كثير الزخرفة ولكنه بلا باب
وفي داخله حجرة مملوءة بالأفاعي . فتنهد قائلاً :

— هبنا مترلي المختار ، هيكل توبى وندامى ، وخباء حسرتى

وانابى

ثم دلف اليه ، وطرد الصلال بقدميه ، ولبى ملقى على
الحجارة ثانى عشرة ساعه ، ثم ذهب الى الينبوع وشرب منه براحة
يده ، وجمع قليلاً من التمر وبعض الحبوب من أغصان الواتس
فتقواها . واستتصوب هذه العيشة فجرى عليها . فما كان يرفع جبهته
عن حجارة القبر من الصبح حتى المساء

* * *

ففي ذات يوم إذ كان مطروحاً على هذا الوجه سمع صوتاً
يقول له :

— تأمل في هذه الصور لستعماً !

فلما رفع رأسه رأى فوق جدران الحجرة تصاوير تمثيل مشاهد
مضحكة ومألهفة . وكانت قدية العهد وغاية في الاتقان . بعضها
يمثل طهاءً ينفحون في النيران بحدود منتفخة ، وبعضاها يمثل انساناً
ينتفون ريش الأوز أو يطبخون في الآنية شرائح الصدان ، وبقر بهم
صياد يحمل على كتفيه غزاله مزقتها السهام ، ومن زارعين منهمكين
بالزرع والمحصاد ، ونساءً يرقصن على نغمات الرباب والناي والعود .
وفتاة تضرب بالطنبور وزهرة الواتس تتألق على شعرها الاسود

فدقَّ بافنوس جبنته بالحجارة ، وصرخ من شدة الفزع .
 وكانت الضاربة على الطنبور تترك الحائط في كل ليلة ، وتتقدّم
 وتكلّم بصوت جلي ، ممزوج بأفاسسها الباردة . ولما قاوم القديس
 هذه التجارب كلها ، قالت له :

— ملّك هواي فؤادك وأذعن لي ! ما دمت تقامي
 فسأذبك وانكّل بك . إنك لا تعرف مبلغ صبر امرأة ميّة .
 سوف أتُنْظِرُ إذا لزم الأمر حتّى تموت ، وبوعي ، لكوني ساحرة ،
 أن أضع في جثتك الهاشمة روحًا تعيد إليها الحياة فلا تأتي إجابة ما
 رفضته الآن . فــ كــرــ يــ باــ فــنــوســ فــيــ غــرــابــةــ موــقــفــكــ عــنــدــ ماــ تــنــظــرــ روــكــ
 السعيدة من علياء السماء فترى جهنّمما يستسلم للخطيئة ! والله الذي
 وعد أن يرد إليك هذا البدن بعد يوم الحساب ونهاية الدهور سوف
 تتعريه هو أيضًا دهشة شديدة ! كيف يقدر أن يُحْلَّ في محمد ساوي
 جسماً بشرياً يسكنه شيطان وترعاه ساحرة ؟ إنك لم تحسب حساب
 هذه المشكلة ، وربما لم يحسب الله لها أيضًا حساباً . إنه - والكلام
 بيّني وبينك - ليس على شيء من الحدق والدهاء . وإن أبسط ساحرة
 لتخذله بمهمولة . ولو لم يكن لديه رعده وجنادل سمائه ، لأنّذه
 أطفال القرية بلحيته . الحق أنه ليس من الفطنة بين زلة خصمه الشعبان
 المسن . وهذا الأخير فنان عجيب . ولستُ على هذا الحسن والجمال
 إلا لأنّه أتقن زينتي ، وعلّمني كيف أضفر شعري ، وأجعل أضبابي

كالورد ، وأظفارى كالعقيق . وأراك قد استخففت به لما أتيت لتعيش
في هذا القبر ، إذ أقصيت بقدميك الأفاعي التي كانت هنا وسحقت
بيضها ، ولم تبحث عنها لتعلم هل كانت من أسرته . فأشخى يا صاحبى
المسكنين ان تكون قد سعيت إلى حتفك بظافرك ، وعلى نفسها
جنت براش ! ومع ذلك فقد أندرت من قبل وجرى في عالمك أنه
موسقار عاشق . فماذا فعلت ؟ انك تحدّيت العلم والجمال . فما
أشق حظك وأعثر جدك ، أما « يهوه » فلن يجيء ليشد أزرك ،
 فهو ضخم بحجم الكائنات كلها ، فلا يستطيع التحرك حاجته الى
فضاء . وإذا آتى بأقل حركة ، وهذا مستحيل ، اقلب الكون
كله ... يا ناسكي الجيل ، هات قبلة !

لم يكن بافнос يجهل ماتأى به فنون السحر من غريب الفعال ،
فحدث نفسه ، وقد أحْ عليه الوهم والقلق :

— ربما كان الرجل المدفون هنا تحت قدمي عارفاً بسر
الكلمات المسطورة في ذلك الكتاب الملوء بالإلغاز ، في ضريح
ملكي قريب من هنا . وبفضل هذه الكلمات يتخد الموتى الاشكال
التي كانت لهم على ظهر الأرض ، فيرون نور الشمس وبسمة المرأة
وكان أشد ما يخشأه أن تتعانق فتاة الطنبور والرجل الميت ،
كما في الحياة ، فيراها متلاصقين . وخيل إليه أحياناً انه سمع صوت
قبلات خفيفة ...

ملك الاضطراب زمام أمره . والآن ، وقد تخلى عنه الله ، خاف
الفكر كما خاف الشعور . وفي أحد الامسأء ، بينما كان ساجداً
كعادته ، قال له صوت مجهول :

— بافتوك ! ان على سطح الارض من الناس اكثراً مما تظن .
ولو أظهرت لك ما رأيت لمن الحبل . فنهم رجال لهم عين
واحدة في وسط جيابهم . ورجال لهم ساق واحدة يحملون بدل
الشي . ورجال من شجر تنمو جذورها في الارض . ورجال يغيرون
أجناسهم ، وأناث يصرن ذكوراً . ورجال بغیر رؤوس ولهم أيضاً
عينان وأنف وفم في صدورهم — فهل تصدق ، بذمتك ، ان المسيح
قد مات لاجل خلاص هؤلاء الناس ؟

ورأى مرة أخرى رؤيا . رأى في نور ساطع جسراً وجداول
وحدائق . وكان على الجسر أريستوبول وشيراز يركضان جواديهما
السوريين ، وقد صبغ حب السباق وجناههما بالاحمرار . وكان
الشاعر كاليلكتات ينشد أشعاره تحت إيوان ، والكبير ياء الراضية
تهددج في صوته وتشرق من عينيه . وكان زينونيس في بستان
يجمع تقاحاً ذهبياً ، ويلاطف ثعباناً ذا جناحين لازورديين .
وهيرمودور يفكّر تحت شجرة لبخ مقدسة تحمل بدل الأزهار رؤوساً
بشرية صغيرة ، أشرقت وجوهها وازينةت كمعبدات المصريين ،

ونسوراً وصقوراً ، وقرص قمر متالق ، بينما كان نسياس على حافة
ينبوع يدرس ، فوق فلك حلقي ، حركات الكواكب المنتظمة ..

وعندئذ اقتربت من الراهب امرأة مقنعة تحمل في يدها غصنًا
من الريحان ، وقالت له :

— انظر ! البعض ينشد الجمال الخالد ويطلب تأييد حياته الفانية ،
وآخرون قليلاً أكثراً ، ولكنهم باستسلامهم لهذا وحده
للطبيعة الجميلة تراهم سعداء ذوي جمال وفي رغد من العيش يجدون
مبدع جميع الكائنات ، فالإنسان هو أنسودة مطربة من أناشيد الله .
وتراهم جمِيعاً يعودون السعادة جائزة والهناة مباحة ، فإذا كانوا على
حق صادقين ، فأشد ما تكون يا بافوس غرّاً غافلاً

ثم زالت الرؤيا

* * *

وهكذا حارت بافوس التجارب والغوايات في جسده وعقله
حرّاً لا هدنة فيها . لم يدعه إيليس طرفة عين مستريحاً . وكانت
وحدة ذلك القبر أعمى بالناس من مفارق الطرق في مدينة كبيرة .
وضجّ الشياطين من حوله بالقبحهات المرتفعة . وقامت هناك ملايين
من أشباح الموتى بأعمال الحياة العادية . ولما مضى في المساء إلى الينبوع ،
رقصت حوله المسخوطات مختلطات بإلهامات الحقول . وقد نه في

دورانهن الفاسق . وعادت الشياطين لا تخشاه ، وأتقتلت عليه
بالمداعبات وغمرته بالشتائم البذيئة والاعنات واللطمات . وسرق منه
يوماً شيطاناً، لا يزيد طوله عن طول ذراعه ، الحبل الذي يتنطلق به .
فناجي نفسه بقوله :

— أيها الفكر ، الى أين اقتدتنِي ؟ ..

فصمم على أن يستغل بيديه ، كي يمكن عقله من الراحة التي
كانت تعوزه . وكان بقرب اليسبوع أشجار موز كبيرة الورق نامية
في ظل النخيل . فقطع جذوعها وحملها إلى القبر حيث سحقها بحجر
وحوّلها إلى ألياف أو خيوط دقيقة مثلما شاهد صانعي الحال يعملون .
لأنه ارتأى صنع حبل بدل الذي سرقه الشيطان منه . فأحس
الشياطين ببعض الانزعاج وكفوا عن ضميجهم . وأقلعت فتاة الطنبور
عن السحر ، واستكثرت على الجدار الملوّن . وشدّد بافנוס شجاعته
وأيمانه وهو يدق سيقان الموز ، وحدث نفسه بما يأتى :

— سأقلب بعون الله على الجسد ، أما الروح فقد احتفظت
بالرجاء . وعبيداً تحاول الشياطين وهذه المرأة الجهنمية ان تدخل على
نفسى الشكوك في طبيعة الله . سأجيئها بلسان يوحنا الرسول : « في
البدء كان الكلمة ، وكان الكلمة الله » . إن إيماني بهذا لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وإن كان هذا الذي أومن به لغوًّا

باطلاً زدت إيماني به رسوحاً وثباتاً . بل انه يجب أن يكون لغواً
باطلاً ولو لم يكن كذلك لما كنتُ أؤمن به بل كنت أعرفه .
فالآن لا تفتح المعرفةُ الحياةَ ولكنَّ الإيمانُ وحده هو الذي ينقذ

عرضَ الأليافِ المنسولةِ للشمسِ والندى . وعُني في كل صباح
بتقليلها لئلا تعفن . وسرّ باحساسه بأن سذاجة الطفولة قد انبعثت
في نفسه . ولما جدل الحبل قطع الخوص ليصنع منها حسراً وسلاماً .
فأشبهت حجرة الضريح مشغل صانع السلال . واستطاع بافנוס
أن ينقل فيها بسهولة من العمل إلى الصلاة . ييد أن الله تعالى كان
لا يزال معرضًا عنه ، لأنَّه استيقظ في إحدى الليالي على صوت ثلجت
بسماعه أطراوه ربعاً ، إذ عرف فيه صوت الرجل الميت

دعا الصوت مستعجلًا بهمس خفيف :

— هيلين ! يا هيلين ! تعالى استحمي معي ، تعالى سريعاً !

فأجابته امرأة لامسَ فمها اذن الراهن :

— لا أستطيع النهوض يا حبيبي ، انت رجلاً راقداً فوق

صدرِي .

فأحسَّ بافנוס فجأةً بخده وقد استقرَّ على صدر امرأة ، عرف
انها الضاربة بالطنبور ، ولكنها تخلصت قليلاً ورفعت صدرها ،

فتعلق بافنوس تعلق اليائس بالجسد الناعم ، الدافع ، العطر ، وصالح
وقد اضنته مُنْيَةُ القضاء المبرم والرغبة في الموت الزؤام
— إلبي ، إلبي يا سمائي !

لكنها كانت إذ ذاك واقفة بالباب ، فضحتك ، وفضحت
أشعة القمر ابتسامتها ، وقالت :

— وماذا يفيدك بقائي ؟ انت ظل الظل يكفي عاشقاً مثلك
وُهِب له مثل هذا الحدُّس النير ، فضلاً عن إنك قد أثمت ، فقيم
ترغب بعد ذلك ؟ وداعاً ! ان عشيقك يناديني ..

قضى بافنوس الليل في بكاء ونحيب ، ولما لاح الفجر ، فاه
بضراعة أرق من شكاية ، قال :

— يا يسوع ! يا سيد يسوع ! لماذا تخلي عنِي ؟ إنك ترى
الخطر المحدق بي . فتعال شد أزري أيها المخلص الحائم . هؤلاً أبوك
أصبح لا يحبني ولا يسمعني ، فاذكر انه لم يعد لي سواك . إنه
لا يرجي منه شيء لي . إنني لا أستطيع إدرارك كنهه ، وهو لا يرق
لحالي . لكنك ولدت من امرأة ، وهذا ما يجعلني أطمئن إليك ، وارجو
الخير على يديك . تذكرة إنك إنسان . ابني اضع إليك لأنك
نور من نور ، وإله حق من إله حق ، بل لأنك عشت معدماً
وضعيفاً على هذه الأرض حيث أشق واعاني . ولأن الشيطان جرب

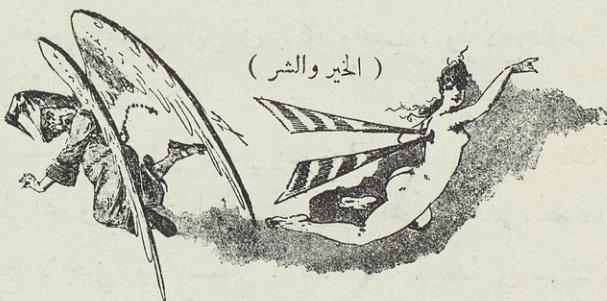
جسدي ، ولأن عرق النزع ثلج جيئنك . لانسانينك يا معلم الانسانية
اصلی واتوسل ، يا سیدي يسوع ، يا أخي يسوع !
ولما فرغ من ابتهاله ، وقلب كفيفه ، اهتزت جدران القبر
بقهقهات هيبة متابعة . وقال له الصوت الذي سمعه فوق قمة العمود ،
أستهزاء :

— إن هذا الدعاء جدير بصلوات ماركوس الضال . ان بافنوس

اريسي^(١) ! بافنوس اريسي !

فكأنما انقضت صاعقة على الراهب ، ففرّ مغشياً عليه

.....



* * *

لما افاق بافنوس وفتح عينيه ، رأى حوله رهباناً في حال سوداء ،
وكانوا يصبون الماء على صدغيه ويتلون التعاوين ، وقد وقف
كثيرون منهم خارج القبر حامين سعف النخل

(١) الاريسي هو من ينكر لاهوت السيد المسيح عليه السلام . — (المترجم)

قال له أحدهم :

— سمعنا ، ونحن نجتاز الصحراء ، صيحات مرتفعة من هذا القبر ، فدخلنا ، فألفيناك طريحاً فوق الحجارة مغمى عليك . ولاريب ان الشياطين صرعواك ، ولما شعروا بدنونا ولوا هاربين

فرفع بافوس رأسه ، وسأل بصوت خافت :

— من أتم يا إخواني ؟ ولماذا تحملون سعف النخل ؟ أليس هذا لأجل دفي ؟

فأجاب أحدهم :

— لا أعلم يا أخي أن أبانا أنطوان ، وقد بلغ من العمر خمساً بعد المائة ، قد أتاه نذير بأن نهايةه دنت ، فنزل من جبل كلزان ، حيث كان معتزلاً ، ليبارك ابناءه الروحيين الكثيرين . . . فها نحن أولاء ذاهبون حاملين السعف لننق أبانا الروحي . فكيف بقيت جاهلاً مثل هذا الحادث الجلل ؟ ألم يأتِ إلى هذا القبر ملك لينبعك ؟

فأجاب بافوس :

— وأسفاه ! لست جديراً بمثل هذا الفضل العظيم . وليس

سكنى هذا الربع سوى عفاريت ووطاويط . صلوا من أجلي ، أنا
بافنوس ، كبير رهبان أنصينا ، أشقي عباد الله ...

فاما سمعوا اسم « بافنوس » هزوا سعفهم ، ورددوا التسائح ،
وصاح الذي تكلم من قبل ، متوججاً :

— أفيمكن أن تكون أنت بافنوس ذلك القديس الذاعن الصيت
بأعماله ، حتى أن الناس يعدونه بالغاً يوماً في الفضل مبلغ انطوان
العظيم ؟ يا أقدس قديس إنك أنت الذي هدى العاهر تايس
الصراط المستقيم ، وأنت الذي إذ صعد على عمود عال حملته
الملائكة ، فرأى الذين يخرون العمود ليلاً انتقالك الميمون إلى
السماء . وقد أحاطت بك أجنحة الملائكة في سحابة بيضاء ، وامتدت
يدك اليمنى وباركت مسامك البشر . وفي صباح اليوم التالي إذ لم
يرك الناس ، ارتفع أنين طويل إلى العمود غير المتوج . على أن
تلميذك فلافيان أذاع المعجزة وقام مقامك في تولي شؤون الرهبان .
لكنَّ رجلاً واحداً ساذجاً يدعى بولس ، حاول أن ينقض ما أجمعـت
عليه الآراء ، فقد أكـد أنه رأـك في حـلم محمـولاً بالـشـياـطـين .. فـأـرـادـ
الـنـاسـ أنـ يـرـجـوهـ ، وـقـدـ نـجـاـ منـ الـمـوـتـ بـأـعـجـوبـةـ . وـأـنـاـ « زـوزـيمـسـ »
رـئـيـسـ هـوـلـاءـ الـمـنـسـكـيـنـ السـاجـدـيـنـ عـنـ قـدـمـيـكـ ، أـرـكـ اـمـاـمـكـ مـثـلـهـمـ ،

كي تبارك الأب مع الابناء ، ثم تخبرنا بالعجبات التي أنعم الله عليك
بأن أجرها على يديك

فأجاب بافнос :

— لست أستحق شيئاً مما وصفتي به . فان الرب قد بلاني
باهول التجارب . ولم تحملني الملائكة ، بل ان حائطاً من الظل قام
 أمام ناظري وقدّمني .. لقد عشت في حلم ، وكل شيء من دون
 الله حلم . لما شيخستُ الى الاسكندرية سمعت في بضع ساعات
 خطباً كثيرة ، وعرفت أن جيش الضلال لا عدد له ، وقد طاردني ،
 وأحاطت بي سيوفه ..

فأجاب زوزيمس :

— علينا أن نذكر يا أبي الموقر ، أن الأولياء ، لاسيما
المتنسكون منهم ، يعرضون لتجارب مخيفة ، وإذا لم تكن أذرع
الملائكة قد حملتك الى السماء ، فمن الحق أن الرب قد أنعم بهذه
الفضل على صورتك ، إذ كان فلافيان والرهبان والناس شهوداً
على صعودك الى السماء

فعزم بافнос على الذهاب لتلقى بركة انطوان ، وقال :

— اعطني يا أخي زوزيمس سعفة ، ولنتوجه لقاء أبينا .

فأجاب روزيمس :

— هيا بنا ! ان الأوامر العسكرية تلأم الرهبان ، الذين هم جنود قبل كل شيء . ولأننا كلينا كلينا رئيسان فرسان سير في المقدمة ، وأولاء يتبعوننا وهم يرتدون المزامير

بدأوا المسير ، وقال بافنوس :

— الله أحد ، لأن الحق الذي هو واحد . والدنيا شئ ، لأنها غيّر وضلال . على المرء أن يُعرض عن مشاهد الطبيعة كله حتى التي تظهر أنها غاية في الطهارة والبراءة . فتتوّعها الذي يزيّنها لنا إنما هو دليل على شرّها المستطير . أنا لا أقدر على رؤية حزمة من البردى فوق المياه الراكدة بغير أن تتشعب نفسي الهموم وتساورني السكابة . كل شيء تحس به المشاعر وتدركه قبيح كريه . أصغر حبة من الرمل ذات خطر شديد . كل شيء يفتتنا ويصيّبنا بالإحن والنكبات . وما المرأة إلا مزيج من كل هذه الغوايات السالحة في النسمات الرائقة ، وعلى الأرض المزهرة ، وفي المياه الصافية . فطوبى لمن تكون روحه وعاء مختوماً ! طوبى لمن يعرف كيف يكون أصم وأبكم وأعمى ، ولا يدرك كنه شيء في الدنيا ، ليدرك كنه الله !

ففکر زوزیمیں فی هذا الكلام ، واجابه بقوله :

— ينبغي لي يا أبي المحترم أن أقرّ لك بآثامي مادمت قد كشفت لي عن ذات نفسك . وهكذا يعترف كل منا للآخر طبقاً للعادة الرسولية . لقد حييت قبلاً أترهـ حـيـاة الرـذـيلـة . خـربـتـ فيـ أـرجـاءـ «ـ مـادـورـاـ »ـ وهيـ مدـيـنـةـ مشـهـورـةـ بـغـواـنـيهـاـ .ـ وـ بـحـثـتـ عـنـ صـنـوفـ الـمـتـعـ وـ ضـرـوبـ التـلـذـذـ .ـ وـ كـنـتـ فيـ كـلـ لـيـلـةـ أـتـعـشـىـ مـعـ بـنـاتـ الـهـوـىـ وـ الـفـتـيـاتـ الـعـازـفـاتـ بـالـبـانـايـ .ـ وـ أـخـذـ إـلـىـ يـيـتـيـ مـنـ تـسـهـوـيـنـيـ مـنـهـنـ .ـ وـ لـيـسـ فـيـ وـسـعـ قـدـيسـ مـثـلـكـ أـنـ يـتـصـوـرـ مـطـلـقاًـ إـلـىـ أـيـ دـرـكـ هـوـتـ بـيـ شـهـوـاتـيـ .ـ يـكـفـيـنـيـ أـنـ أـقـولـ لـكـ أـنـيـ لـمـ أـغـادـرـ كـهـلةـ صـالـحةـ أـوـ رـاهـبـةـ ،ـ فـأـتـيـتـ المـنـكـرـ ،ـ وـ اـرـتـكـبـتـ كـلـ مـحـظـورـ وـ مـحـرـومـ .ـ وـ قـدـ هـيـجـتـ حـرـارـةـ مـشـاعـرـيـ بـالـحـمـرـ ،ـ حـتـىـ شـهـدـ لـيـ أـهـلـ مـادـورـاـ بـأـنـيـ أـشـدـ السـكـيرـينـ إـغـرـاقـاًـ فـيـ رـشـفـ بـنـتـ الـحـانـ ،ـ وـ أـقـدـرـهـمـ عـلـىـ اـسـقـرـاغـ الدـنـانـ .ـ وـ مـعـ ذـلـكـ كـنـتـ مـسـيـحـيـاًـ ،ـ وـ اـحـفـظـتـ مـعـ كـلـ حـمـاقـاتـيـ وـ ضـلـالـاتـيـ بـاـيـانـيـ بـالـمـسـيـحـ الـمـصـلـوبـ .ـ وـ أـخـيـرـاًـ ،ـ اـسـتـغـرـقـتـ عـيـشـةـ الـخـلـاعـةـ وـ الـاسـرـافـ كـلـ مـاـيـ .ـ وـ بـدـأـتـ أـشـعـرـ بـغـصـصـ الـفـاقـةـ ،ـ وـ اـذـاـ بـيـ أـرـىـ أـحـدـ رـفـقـاءـ مـسـرـاتـيـ قـدـ أـصـبـ بـجـأـةـ بـدـاءـ عـضـالـ فـظـيعـ .ـ فـلـمـ تـعـدـ رـكـبـتـاـهـ تـقـوـيـانـ عـلـىـ حـمـلـهـ ،ـ وـ عـصـصـهـ يـدـاهـ الـمـرـتـعـشـتـانـ ،ـ وـ أـغـمـضـتـ عـيـنـاهـ الـخـابـيـتـانـ ،ـ فـاـكـانـتـ تـصـدـرـ مـنـ حـلـقـهـ الـأـأـتـأـوـهـاتـ مـرـوـعـةـ .ـ وـ كـلـ

ذهنه ، فهجمع ، إذ مسخه الله حيواناً تكلاً به لأنه عاش كالحيوان . ولقد كان لي في ضياع ملي تبصرة نافعة ، لكن مثل صديقي كان أبلغ وأفعع . وأثر في نفسي بحيث جعلني أترك الدنيا على الفور وأنزوي في الصحراء . وفيها تمنتت عشرين حولاً بسلام لم يكدر رصموه شيء فقط . فكنت أعمل مع رهباني حائكاً ، وبناءً ، ونجاراً ، وكاتباً مع انه والحق يقال لم يكن لي نحو الكتابة إلا ميل ضئيل ، إذ آثرت دائمًا العمل على القول ، وفضلت الفعل على الفكر . وهذا هي أيامي ملوها الفرح ، وليلي بيغير أحلام ، واني لأعدّ نعم الله تعالى على فلا أحضيها ، لأنني احتفظت بالأمل حتى في إثبات أشد المعاصي هولاً ...

فلما سمع بافتوص هذا القول ، رفع بصره إلى السماء ، وتم :
— أترحم يارب هذا الرجل المدنس بهذه الخطايا كلها ، أترحم
هذا الزاني ، أتكلأ بعين رعايتك هذا المتهك للحرمات ، ثم تعرض
عني أنا الذي كنت آخر بأمرك ، وأنتهي بنهايك ! ؟ ما أشد غموض
عدالتك يا إلهي ! وما أبعد طرفك عن الإدراك !

فند زوزيمس ذراعيه قائلًا :

— انظر يا أبي الموقر ، ترى على جنبي الأفق صفوقةً طويلة

سوداء كأنها نمل راحل . اوشك اخوتنا ذاهبون مثانا لقاء انطوان
ولما وصلوا الى الملتقي ، رأوا مشهدًا بديعاً . كان جيش النساء
يتدفق ثلاثة صفوف في نصف دائرة كبيرة . فالنصف الاول يتالف
من سكان الصحراء الاقدمين ، بأيديهم الصليبان وقد تدلّت لحاظهم
الى الأرض . والنصف الثاني من الرهبان الذين تحت امرة « افرايم »
و « سرایيون » ومعهم نساك النيل . ووقف وراءهم الزاهدون الذين
توافدوا من معاقلهم النائية . وارتدى بعضهم أحطاراً لا تكاد تستر
 أجسادهم السوداء الذابلة . وكان كثيرون منهم عراةً غير أن الله
قد كسامهم شرعاً كشيقاً بجزة الغنم . وكانوا جميعاً يحملون السعوف
الخُضرفي أيديهم . فأشبهوا قوس قزح من زمرد . ويصبح تشبيههم
بفرقة المرتلين المحتبين ، أو بجدران حية من مدينة الله ..

وكان المحفل منظماً تنظيماً تاماً ، حتى ان بافנוס لم يجد أفالاً
صعبوبة في العثور على مرءوسيه من الرهبان . فاتخذ مكاناً بقربهم
بعد ما احتاط في اخفاء وجهه بمحاجاته ليقي مجھولاً عندهم ولا يقدر
عليهم ترقبهم الديني . وبغتةً ، تعالى هتاف الجميع حتى بلغ عنان السماء :
— القديس ! القديس ! هوذا الولي العظيم ! هوذا حبيب الله
الذى لم تتغلب عليه جهنم ! أبونا أنطوان !

ثم ساد السكوت ، والتصقت كل الجبهات بالرمال . فتقدّم انطوان من قمة اكمة في الصحراء ، يسنده تلميذه المحبوبات ماكاريوس وأماتاس ، وسار الهوينا متّقّبلاً القامة ، يشعر الناظر إليه بأنَّ فيه بقية من قوة فائقة . وقد سرت لحيته البيضاء صدرَه العريض . وانعكس عن ججمته المصقوله اللامعة شعاع النور كما عن جبين موسى . وكان لعينيه نظر النسر ، وعلى فمه بسمة الطفل . فبارك قومه بأن رفع ذراعيه اللتين أوهنهما عمل شاق مدة قرن كامل . وجهر صوته ، الآخر مرة ، بكلمات الحبة الآتية :

— ما أجمل خيامك يا يعقوب ! وأخيتك يا إسرائيل !

فارتفعت في الحال من أقصى الحائط الحي إلى أقصاه ، مثل قصف الرعد المتوازن ، أنسودة : طوبى للذى يحافى رب

ثم تقدّم انطوان مع ماكاريوس وأماتاس صفوف الشيوخ والرهبان والنساك . هذا الرجل الذي رأى السماء وجهنم ، هذا الزاهد الذي حكم الكنيسة المسيحية من قلب معقله ، هذا القديس الذي ثبت يقين الشهداء في أيام المحن والاضطهاد ، هذا اللاهوتي الذي صعقت فصاحته أهل الضلال — أخذ يخاطب ابناءه واحداً بعد واحد ، برقة وحنان ، ويودعهم وداعاً جميلاً في عشية ميتته السعيدة التي وعده بها الله الذي أحبَّه

قال للرئيسين افرايم وسرابيون :

— انكما تقدان الجيوش الجرّارة ، وكلّا كاما ماهر ومتدرّب
في فنون الحرب ، لذلك سوف تتقدّدان في السماء سلاحًا ذهبيًا ،
ويتحمّلا ميخائيل رئيس الملائكة لقب قائد قواته .

ولما رأى الشيخ بالمون عاقله وقال :

— هذا أعزّ أولادي وأفضّلهم جميعاً . لروحه شذا عطري
كأرجح زهر الفول الذي يزرعه في كل عام .

ووجه إلى الرئيس زوزيس هذه الكلمات :

— انك لم تقتط من رحمة الله ، لذلك فسلام الله فيك
وعليك ، وقد أزهرت زنبقة فضائلك على سباخ فسقك .

وكان كلامه مع كلّ منهم مملوءاً حكمة وارشاداً .

قال للشيخ :

— رأى الرسول حول عرش الله أربعة وعشرين شيخاً في
ثياب بيضاء ، وعلى رؤوسهم التيجان .

وقال للشبان :

— افرحوا وابتهجوا ، ودعوا الحزن للسعداء في هذه الحياة الدنيا .

وهكذا طاف مقدمة جيشه البنوي ، يمحض النصح ، ويذير العظات . فلما رأه بافнос يقترب منه ، خرَّ ساجداً ، يتنازعه الخوف والأمل ، وصاح غاصاً بآلامه المبرحة :

— أبناه ! أبناه ! أغثني فاني من الهاكين . لقد وهبت روح تاييس الله ، وعشت فوق قمة عمود ، وفي قاع قبر . فتصلبت جبهي من طول التصاقها بالرغام حتى صارت مثل ركبة الجمل ، ومع ذلك لا يزال الله معرضًا عنى . باركني يا أبتي فأنجو . هزَّ الشمام فأطهر وأعود تقىاً أثلاً كالثلج .

فلم يحبه أنطوان . بل رشق رهبان انصينا بتلك النظرة التي ما كان يسع أحد الشبات امامها . ثم استقر ناظراه على بولس ، الملقب بالساذج ، فخذق اليه طويلاً ، ثم أشار اليه بالدنونه . ولما أبدى الجميع دهشتهم لخاطبة القديس رجلاً مختل الشعور ، قال أنطوان :

— ان الله قد أنعم على هذا الرجل بما لم ينعم به على أحد منكم . ارفع بصرك يا ولدي بولس ، واخبرنا بما تراه في السماء . فرفع بولس الساذج عينيه ، وأشرق وجهه ، وانطلق لسانه ،

قال :

— أرى في السماء سريراً مزداناً بسجوف من أرجوان وذهب،
تحيط به ثلات عذارى ساهرات على حفظه، كي لا تقرب منه روح
غير الروح المحبة التي أعيدَ لها السرير ..

فبادر بافوس يردد الشكر لله حاسباً أن هذا السرير رمز إلى
تعجبه . لكن انطوان أشار إليه بالصمت والاصغاء لالساذج الذي
تمم في ذهول الجذب ، قائلاً :

— العذارى الثلاث يخاطبني قائلات : « إن قديسة على
أهبة مفارقة الأرض ، تايس الاسكندرية على وشك الموت ، وقد
أعدنا لها مضجع مجدها ، لأننا نحن فضائلها :

« الإيمان . والخوف . والحب »

فسأل أنطوان :

— وماذا ترى أيضاً يا بنى الحبيب؟

فنظر بولس بيله ، من سمت الرأس الى سمت القدم ، ومن
المغرب الى المشرق ، ثم وقع ناظراه فجأة على كاهن انصينا ، فشحّب
وجهه من جزع قدسي ، وعكست حدقاته لهبًا خفيًا ، وقال :

— أرى ثلاثة زبانية قد امتلأوا فرحًا ، واستعدوا لقبض
هذا الرجل ، وهم يشبهون برجًا وامرأة وساحراً . والثلاثة يحملون

أسماءهم موسومة بيسم من حديد حامٍ ، الأول على جبينه ، والثاني
على بطنه ، والثالث على صدره ، وأسماؤهم هي :

« الكبرياء . واللذة . والشك »

لقد رأيت هذا كله .

ثم عاد بولاس إلى حالته الأولى من البساطة ، بعينيه الغائرتين ،
وحنكه المعلق

ولما نظر رهبان أنصينا إلى أنطوان بقلق ، فاه القديس بهذه
الكلمات :

— قد أعلن الله حكمه العادل ، فنعبده ونخن سكت .

ثم سار وهو يبارك الجموع . وكانت الشمس قد بلغت الأفق ،
فزمّلت بال睫 ، وامتد ظله خلفه — بمنة من السماء — امتداداً عظيماً
كبساط لا آخر له ، رعنًا إلى التذكرة الطويل الأمد الذي سيخلفه
هذا الولي العظيم بين البشر ..

* * *

أما بافوس فقد وقف مصعوقًا ، ولم ير ولم يسمع شيئاً غير
الكلمات التي ملأت وحدها أذنيه ، وكانت : « تايس على وشك

الموت ! » . لم يخطر بباله قط مثل هذا الفكر . قضى عشرين سنة يتأمل في رأس موبياء ، ومع ذلك أدهشه تصور أن الموت يغمض عيني تاييس !

« تاييس على وشك الموت ! » قول غير معقول ! « تاييس على وشك الموت ! » يا لشدة المهوو المروع في هذه الكلمات الأربع ! . « تاييس على وشك الموت ! » إذًأ فما الحاجة لاشمس والأزهار والغدران والبرايا جميعاً ؟ « تاييس على وشك الموت ! » فما فائدة الكون ؟

ثم وشب خجأة صارخًا : « اذهب لترابها ، لترابها مرأة أخرى ! » وأخذ يعدو . ولم يدر أين هو ، ولا إلى أين يذهب . لكن الوجдан قاده وسدَّد خطاه . فسار رأساً إلى النيل . وكان سطحه مغشياً بشُرُع المراكب فقفز إلى ظهر سفينة لبعض النويين . وهناك انبطح في مقدمتها ، تلتهم عيناه الفضاء ، وصرخ بحزن وغضب :

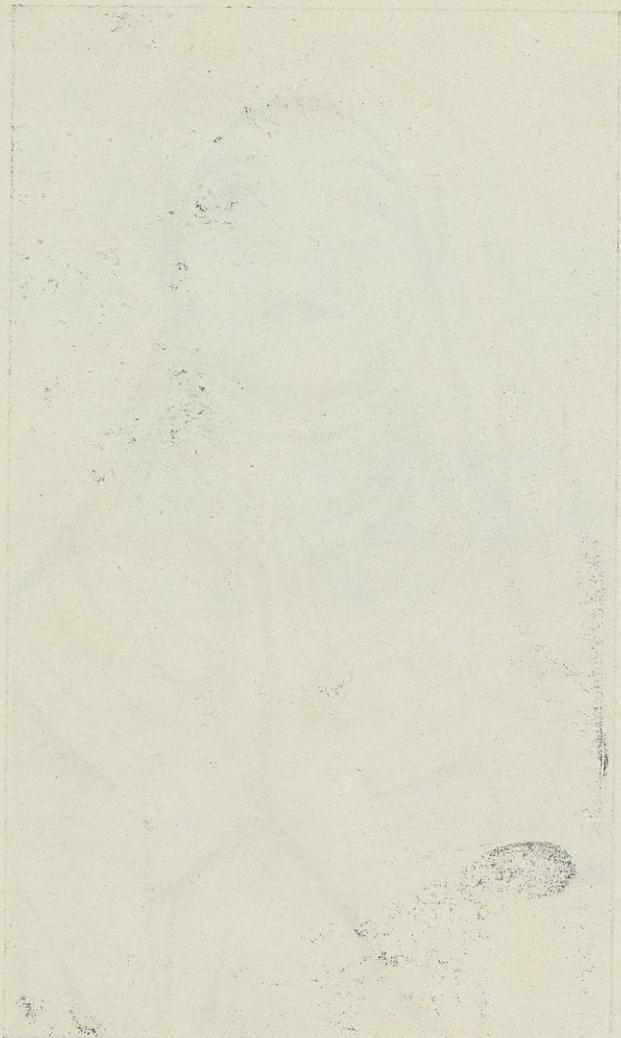
— تَبَّأْ لي من مجانون معتوه ، لأنني لم أحظ بتاييس لما سمع الزمان ! ياماً أشد حماقتي لأنني اعتقدت أن في الدنيا شيئاً سواها ! يا ويح الجنون ! لقد فكرت في الله ، وفي خلاص نفسي ، وفي الحياة الأبدية ، كأنما كل هذه تعد شيئاً مذكوراً جنب رؤية تاييس . كيف لم أدرك أن السعادة الأبدية إنما هي في قبلة واحدة

من قبلاتها ، وان الحياة بدونها لا معنى لها وليست سوى حلم مزعج ؟
يالك من غبي أخرق ، تراها ثم لا تقتنأ ترغل في طيات عالم ثان ؟
يالك من نزل جبان ، تراها وتخشى الله ؛ الله ! السماء ! ما ها وما
نصب بي منها ؟ وهل يساوي ما ينحانه لي أقل جزء مما كانت
ستمنحك لي تاييس ؟ أفي لك من معتوه سخيف بحث عن رأفة
الله وطلبهما في كل مكان إلا على شفتي تاييس ! أية يد غطت عينيك ؟
ألا فليكن ماعوناً ذاك الذي أعماك حينذاك ! كنت تستطيع أن
تشتري بثمن قصاص الآخرة دقيقة من حبها والتمتع بها فلم تفعل !
لقد فتحت لك ذراعيها ، المفطورين من لحم متزوج بعطر الزهر ،
ولم تتملّ لذة الغرق في حضنها ، والاستناد الى صدرها العاري
الذي لا يوصف !

لقد أصبحت الى الصوت الحسود الذي قال لك : « أعرض
عن هذا » .. فيالك من مغفل ، مغفل شقي ! آه يا للحسرات !
يا للندامات ، أوّاه يا لليلأس ، يا لخيبة الأمل ! لحرمانني أن أحمل
إلى الجحيم ذكرى تلك الساعة التي لا تنسى ولا تمحى ، صارخًا إلى
الله : « احرق لحمي ، جفف الدماء التي في عروقي ، اسحق عظامي ،
غير انك لن تستطيع أن تتزعزعني التذكرة الذي يعطرني وينعشني
للأبد ، والى الأبد ! .. تاييس على وشك الموت ! ليتك يا الله



(تابیس القدیسه)



تعلم كم أسرخ من جهنمك ! تايس على وشك الموت فلن تكون
لي أبداً ، أبداً ، أبداً ! »

وبينا السفينة تتبع التيار السريع ، لبث طوال أيامه منكباً على
وجهه ، يكرر :
— أبداً ! أبداً ! أبداً !

ولما ذكر أنها وهبت نفسها للجميع إلا له ، وأنها سكتت على
العالم مياه الغرام وهو وحده لم يليل منها شفتيه ، وقف في حالة عتوّ
ونفور ، وولول حزناً ، ونشج توجعاً ، ومزق صدره بأظفاره ،
وعض زندية ، وحدث نفسه :

— ليتني أجد سبيلاً إلى قتل من أحبتهم أجمعين
فلا ته فكرة هذا التقتيل بحمىًّا لذينة وحنق عنذب ، ففكّر في
ذبح نسياس ، على مهل رويداً رويداً ، بينما هو يحدق في قراره
ناظريه . ثم ما لبثت حميته أن خدت لفأة ، فبكى وتأوه ، ووهن
العظم منه فارتدى ضعيفاً وديعاً ، وسكن اضطراب نفسه حنوّ مجهول .
تكلكته رغبة الارقاء على عنق رفيق صباح ، يقول له :

« نسياس اني أحبك لأنك أحبتها . حدثني عنها ! اخبرني
بما قالته لك . »

وَكَانَتْ مَرَأَةً تِلْكَ الْجَمْلَةُ : « تَايِّسٌ عَلَى وَشَكِ الْمَوْتِ ! »
لَا تَزَالْ عَالَةً بِأَلِيلِ قَلْبِهِ :

— يَا أَنوارَ النَّهَارِ السَّاجِدِيَّةِ ! يَا أَظَالَالَ اللَّيلِ الْفَضِيَّةِ ! أَيْتَهَا
النَّجُومُ ! أَيْتَهَا السَّمَوَاتُ ! أَيْتَهَا الْأَشْجَارُ الْمَرْتَعِشَةُ قُمُّهَا ! أَيْتَهَا
الْوَحُوشُ الْضَّارِيَّةُ ! أَيْتَهَا الْحَيَوانَاتُ الْأَلْيَفَةُ ! يَا فَنُوسَ الرَّجَالِ الْمَلَاهِفَةُ !
أَلَا تَسْمَعُونَ : « تَايِّسٌ عَلَى وَشَكِ الْمَوْتِ ! » . أَيْتَهَا الْأَنوارُ
السَّاطِعَةُ وَالْأَنْفَاسُ الصَّاعِدَةُ ، وَالْمَطْوُرُ الطَّيِّبَةُ — امْجِي وَافِي !
يَا بَهَاءَ الْكَوْنِ وَرَوَاهَ ، وَأَشْكَالُهُ وَأَفْكَارُهُ — اخْتَفِي وَاخْتَبِئِي !

« تَايِّسٌ عَلَى وَشَكِ الْمَوْتِ ! » تَايِّسٌ كَانَ جَمَالُ الْعَالَمِ
يَنْعَكِسُ حَسْنَهَا عَلَى كُلِّ مَا يَقْرَبُهَا فَيُصْبِحُ زِينَةً لِلنَّاظِرِينَ . . . مَا كَانَ
الْأَطْفَلُ ذَلِكَ الشَّيْخُ الْهَرَمُ ، وَأَوْلَئِكَ الْحَكَمَاءُ الَّذِينَ جَلَسُوا يَقْرَبُهَا فِي
مَادِيَّةِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ! مَا كَانَ أَمْتَعُ حَدِيثَهُمْ وَأَرْقَهُ ! إِنْ سَرْبًا مِنْ
الضَّحَّاكَاتِ الْرَّائِقَةِ حَامٍ حَوْلَ شَفَاهِهِمْ ، وَضَمَّنَ السَّرُورُ خَوَاطِرِهِمْ .
وَلَا نَفَاسٌ تَايِّسٌ هَبَّ عَلَيْهِمْ ، فَكُلُّ مَا قَالُوهُ فَاحِ حَبَّاً ، وَجَمَالًا،
وَحَقَّاً . وَلَقَدْ خَلَعَ الْأَخَادِيجِيلُ عَلَى أَقْوَاهُمْ ثُوبَ مَلَاهِتِهِ .
فَأَفْصَحُوا بِبِلَاغَةٍ عَنِ الْجَلَالِ الْبَشَرِيِّ . . . وَأَسْفَاهُ ! لَيْسَ كُلُّ ذَلِكَ
الآنَ إِلَّا حَلَمًا . تَايِّسٌ عَلَى وَشَكِ الْمَوْتِ ! أَوْاهَ ! مَا أَشَدَّ بَدَاهَة
أَنِّي مَائِتُ لَوْتَهَا ! وَلَكِنْ . . . أَنِّي لَكَ الْمَوْتُ أَيْمَانُهَا النَّطْفَةُ الْقَدْرَةُ

الجافة ، أَنِّي لَكَ الْمَوْتُ أَيْهَا الْجَنِينُ الْمَقْوُعُ فِي مَرَأَةِ الضَّرِّ وَحِزَازَةِ
الدَّمْعِ ؟ أَيْهَا السَّقْطُ الشَّقِيقِ هَلْ يَعْلَقُ بِوَهْمِكَ أَنِّكَ سَتَذُوقُ طَعْمَ
الْمَوْتِ ، أَنْتَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ الْحَيَاةَ ؟ . لَكِنْ لَعْلَهُ يَكُونُ مُوجُودًا
فِي قُضَىٰ عَلَيِّ "بَعْذَابَ الْآخِرَةِ" ! هَذَا رَجَائِي وَمُشَتَّهِي . أَيْهَا إِلَاهَ الَّذِي
أَمْقَتَهُ ، اسْتَجِبْ لِي ! اقْذِفْ بِي إِلَى جَهَنَّمَكَ وَبَئْسُ الْمَصْرِ . وَإِنِّي
لَكَ أَكْرَهُكَ عَلَى فَعْلَ ذَلِكَ ، أَبْصِقْ فِي وَجْهِكَ .. يَحْبَبُ أَنْ
أَجْدِ جَهَنَّمَ أَبْدِيَّةً لَا يَنْطُفِئُ سَعِيرَهَا ، وَلَا تَخْبُو نَيَارَهَا ، كَيْمًا أَسْتَطِعُ
أَنْ اجْخُرَ فِيهَا أَبْدِيَّةً السُّخْطَ الَّتِي احْتَوَتْ عَلَيْهَا نَفْسِي

· ·

· ·

وَعِنْدَ طَلَوْعِ الْفَجْرِ ، تَلَقَتْ «أَلْبَيْنُ» كَاهِنَ أَنْصِنَا فِي مَدْخَلِ
الصَّوَامِعِ . فَقَالَتْ لَهُ :

— مَرْحَبًا بِكَ أَيْهَا الْأَبُ الْمُوْرِقُ فِي أَخْبِيَّةِ السَّلَامِ . أَنِّكَ آتَيْتَ
بِلَا شَكَ تَبَارِكَ الْقَدِيسَةَ الَّتِي أَعْطَيْتَنَا إِيَّاهَا . أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
دَعَاهَا إِلَيْهِ . وَكَيْفَ لَا تَعْلَمُ الْبَشَارَتِ الَّتِي يَحْمِلُهَا الْمَلَائِكَةُ مِنْ بَادِيَّةِ الْأَيَّامِ
بِإِدِيَّةٍ ؟ حَتَّىٰ لَقَدْ دَنَتْ تَايِيسُ مِنْ نَهَايَتِهَا السَّعِيدَةَ ، فَقَدْ تَمَّتْ أَعْمَالُهَا .
وَعَلَيَّ أَنْ أُخْبِرَكَ بِكَلَامَاتٍ وَجِيَزةً عَنْ سَيِّرَهَا فِي الزَّمَنِ الَّذِي قَضَيْتَهُ
بِيَنْتَنَا بَعْدَ رَحِيلِكَ ، وَكَانَتْ حِيَسَةُ الصَّوَمَعَةِ الَّتِي أَقْفَلَتْهَا بِمَحَاجَمَكَ ،

أرسلت إليها مع طعامها ناياً كالذى تضرب به الفتيات اللوائى
يمحترفون حرقها في الولائم والخلفات . فعات ذلك لكيلا تشع بها
المهوم وتكثب . وكي تظهر امام الله سبحانه من البراعة والمواهب
ما لا يقل عما أظهرته امام الناس . وقد أحست صنعاً وكنت
صادقة الفراسة . لأن تايس أخذت توقيع يومياً على الناي مداعحة
« مخلص البشر » . وقالت العذارى اللائي شاقنن أنغام الناي الخفي :
« أنا نسمع عندليب المهاں السماوية ، نسمع أوزة يسوع المصلوب
التي تحضر ». كذلك قضت تايس توبتها . وبعد ستين يوماً فتح
الباب الذي ختمته من تلقاء نفسه ، وانكسر الحتم الصلصالي من غير
أن تمسه يد بشرية . فأدركت من هذه العلامة ان الله تعالى قد
غفر للضاربة بالناي خططيها . ومن ذلك الحين شاركت بناتي في
عيشهن فكانت تعمل وتصلي معهن . وصارت هن قدوة صالحة بما
في حركاتها وكلماتها من حشمة ووفار . وكانت بينهن مثل الحفر
والعفاف . وفي بعض الأوقات ، كان يتقدّمها الهم والشجن ،
ويتناولها الغم والحزن ، غير ان هذه السحب ما بثت أن تقشعّت .
ولما رأيت أنها شديدة التعلق بالله ، منقادة اليه بالإيمان والأمل
والحب . لم أخف أن أستخدم فنها ، بله جمالها ، في تهذيب
أخواتها . فدعوتها لمثل أمامنا أعمال النساء الشهيرات ، والعذارى
العاقلات اللوائى ذكرهن الكتاب المقدس . فثبتت استير ودبورة

وبيهوديت ومريم اخت لعاذر ومريم ام يسوع . اني علما علم اليقين
 يا أبي الموقر بما ينال قداستك وورعك من جزع لذكرى تلك
 المشاهد التمثيلية . بيد أنك لو كنت رأيتها في تلك المشاهد الصالحة
 تتفجر في عبراتها الصادقة ، وتمد ذراعيها كالسعف نحو السماء ، إذَا
 لتأثرت أشدّ تأثر . سست النساء ورعايهن زماناً طويلاً ، ومن
 مبدئي أن لا أقاوم طبيعتهن ، فليست كل البذور تتبت أزهاراً
 متشابهة ، وليس كل النفوس تطهر بوسيلة واحدة . ويجب أن
 نذكر أيضاً أن تاييس قد وهبت نفسها لله وهي لا تزال شائقة فاتنة
 في ريعان صباها . وأن تقدر مثل هذه التضحية ، التي ان لم تكن
 منقطعة النظير ، فهي بلا مراء نادرة الحصول . هذه الملاحة ، ثوبها
 الطبيعي ، لم تفارقها بعد ثلاثة أشهر من اصابتها بالحمى التي تكاد
 تودي بها . وكانت اثناء مرضها تطلب بالحاج أن ترى السماء ،
 فأمرت بأن تنقل في كل صباح الى صحن الدير قرب البئر تحت
 شجرةتين القديمة ، التي في ظلها كانت رئسات الدير يقمن
 محافلهم . ستجدها هناك أيها الأب المحترم ، لكن خفَّ واسرع ،
 ان الله يدعوها اليه ، ولا تلبث أن تلبي الدعوة . وفي هذا المساء
 يغطي الكفن ذلك الحيّ الذي فطره الله لافساد العالم واصلاحه ..

* * * *

تبع بافنوس ألبين الى الساحة المغمورة بنور الصباح . وكانت

تاييس راقدة على الفراش في ظل شجرة التين ، يغشاها ياض
ناصع ، وقد تعارضت ذراعاهما على صدرها ، ووقفت بجانبها امرأة
مقنعة ، تردد صلاة النزع :

— ارحمني يا الله كمظيم رحمتك عيب كثرة رأفك
اصح معاصي !

ف Nadaha :

— تاييس !

فرفعت جفنيها ، وولت مقلتيها البيضاوين صوب الصوت .
فأشارت ألين الى النساء المحجبات أن يتراجعن بعض خطوات
وكرر الراهب نداءه :

— تاييس !

رفعت رأسها ، وخرج من بين شفتتها الباهتين همس خافت :
— هذا أنت يا أبي ؟ .. أتذكر ماء اليابس ، والتمر الذي لما
هززنا اليانا الجزع تساقط رطباً جنباً ؟ .. في ذلك اليوم يا أبي ،
ولدت للحب .. للحياة ..

ثم انقطعت عن الكلام ، وعاد رأسها فسقط .

دَهِمَهَا الموت ، وَكَلَّ العرق البارد جبينها . وَمُزْقَ جلال السكوت صوت ياما نائحة . . ثم امتزجت تنهات الراهب وزفاته بـ زامير العذارى :

— أغسلنى كثيراً من أنمى وـ من فطبيئى طهرنى . لـ لـ لـ عارف يعاصى وـ فطبيئى اماصى دائماً .

ثم جلست تايس فباء في فراشها ، وانفتحت عيناهـا البنفسجيتان ، وقالـت وهي تـحدـقـ إلىـ الأـفقـ ، وـقدـ مـدتـ ذـراعـيهـا نحوـ التـلالـ البعـيدةـ :

— هـوـذـا وـرـدـ فـجـرـ الصـبـاحـ الـأـبـدـيـ !

لمـعـتـ عـيـنـاهـاـ ، وـصـبـغـتـ حـمـرةـ خـفـيفـةـ وجـتـيـهـاـ . وـبـدـتـ أحـلـىـ وأـجـلـ مـاـ كـانـتـ فـيـ أـيـ وقتـ مـنـ الـأـوقـاتـ . فـرـكـعـ بـأـفـنـوسـ أـمـامـهـاـ ، وـاحـتـضـنـهـاـ بـيـنـ ذـرـاعـيـهـ الأـسـمـرـيـنـ ، وـصـرـخـ بـصـوـتـ بـلـغـ مـنـ الغـرـابـةـ مـبـلـغاًـ أـنـكـرـهـ هوـ نـفـسـهـ :

— لاـ تـمـوـيـ ! أـنـيـ أـحـبـكـ فـلاـ تـمـوـيـ ! اـصـغـيـ لـيـ يـاـ حـبـيـتـيـ . تـاـيـاسـ . لـقـدـ خـدـعـتـكـ وـمـكـرـتـ بـكـ . وـماـ كـنـتـ الـأـمـعـتوـهـاـ شـفـيـاًـ . اـنـ اللـهـ وـالـسـمـوـاتـ لـيـسـ شـيـئـاًـ مـذـكـورـاًـ . مـاـ مـنـ شـيـءـ لـهـ وـزـنـ وـهـوـ حـقـ الـأـحـيـاءـ الـدـنـيـاـ مـنـاعـ السـرـورـ ، وـالـأـحـبـ الـجـسـديـ . أـنـيـ

احبك ! فلا تموتي لا تدعني للمنون ! ذلك يكون محالاً واماً باطلاً .
انك جميلة فتّانة آية الآيات . تعالى تبادل الحب ونرشف كؤوسه .
اصفي لي يا حبيبي واسمعني وقولي : « سأعيش لأنني راغبة في
العيش سوف أحياناً أريد الحياة » . تاييس ، تاييس ، انضي !
لم تسمعه . كانت عيناه تحدقان الى اللامهاية ..

تمتمت :

— السماء تُفتح . اني أرى الملائكة والأنبياء والقديسين . . . في
وسطهم تيودور الصالح مملوء اليدين بالازهار . انه يرسم لي ويدعوني
إليه . . . ي يأتي اليه ملكان . ها هما يقتربان . . . ما أحظمهما ! . . .
إني أرى الله .

نهدت ابتهاجاً واقترب رأسها على الوسادة بغير حراك .

ماتت تاييس .

فعانةها بافنوس عنق اليأس والقنوط الأخير . وقد التهمتها
عيناه باشتماء . . . وغل . . . وحب . . .

فزجرته ألبين قائلة :

— إحساً يا لعین !

ووضعت أصابعها برفق على جفني المائنة . فتراجع بافنوس
وهو يرتجف ، وعيناه تشتعلان باللهم ، وأحس بالارض تسيخ
ونتشق تحت قدميه ..

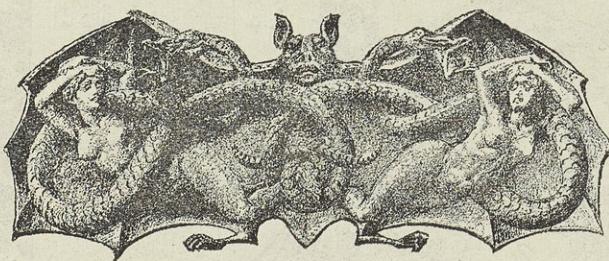
ثم رتل العذاري لشيد ذكريا :

— نبارك رب الله اسرائيل

وما لبست أصواتهن أن انقطعت في حلوهن ، إذ رأين وجه
الراهب ، فولين ، مدعورات ، صارخات :

— وطواط ! وطواط !

فقد حللت ياافنوس تقدمة ربه ، فسخطه ، فاستحال الى شخص
قيبح مروع ، حتى اذا ما مر بيده على وجهه ، أحس بنشاعة خلقته



فَهْرُسٌ



كتاب
السودان المصري
ومطامع السياسة البريطانية

بقلم

السنوار داود برط

عميد جريدة الاهرام

هذا الكتاب العلمي الحديث الشائق ، هو ثمرة ذهن قوي مخصوص ، وعقل راجح مستنير ، وسعة اطلاع لا حدّ لها . وهو يبحث في هذا الموضوع الخطير بخشىًّا ممتنعاً مفيضًا ناضجاً جامعاً من وجهاته الادارية والاقتصادية والتاريخية والاجتماعية والسياسية الخ . مع ذكر آراء كبار رجال السياسية الغربيين والمصريين وهو أول كتاب من نوعه لا يستغني عنه مصرى أو مشتعل بالمسألة المصرية خاصة والشرقية عامة .

ثمنه ٢٠ قرشاً

ويطلب من جميع المكاتب المشهورة

الحضارة المصرية

عازر مصطفى

تأليف

غونتاف لو بوره

و تعریف

الراستاف محمد صادق رسم

اذا كنت من المهتمين بالتاريخ ، خصوصاً تاريخ « الحضارة المصرية القديمة » فاشتر هذا الكتاب الآن ، وثق انك ستجده من اثنين ما كتب في موضوعه . وقد حليناه بكثير من الرسوم الالازمة لفهمه ، مأخوذه عن الاصل الفرنسي .

ثمنه عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة . ويطلب من جميع المكاتب في مصر وسوريا وفلسطين والعراق او من متلزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية ببصر - وبريدياً بعنوان صندوق البريد رقم ٩٥٤ بصر

كتاب

الاَمْرَاءُ اَخْرَى النَّاسِ سَلِيلَةٌ
عَنْ جَهَنَّمَ

وَعَدَ حِرَادُ طَرِفَةَ الْوَفَاءَ مِنْهَا

تأليف

الدكتور فخرى

طبيب الجلد والامراض التناصالية

في سنة واحدة أو شكلت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أن
تنفذ. أحسن كتاب ظهر باللغة العربية حاوياً كل المعلومات اللازمة
للطبيب ولأفراد الشعب عامة عن هذه الأمراض وكيفية التعرض
للعدوى بها وطرق معالجتها وأحسن ما يتبع عملياً لمنع العدوى بها.
كتاب حيوي للشبان والشابات يفهمهم الأخطار التي يتعرضون لها
من أول التقبيل إلى ويفهمهم واجبهم الأدبي والصحي
لتتحاشي هذه الأخطار

يقع هذا الكتاب في ٣٣٣ صفحة بالقطع الكبير وبه أكثر من
٦٠ صورة تثلل المرض في الأعضاء التناسلية عند الذكور والإناث
(وتحتها ثلاثة فرشاً)

(يطلب من المطبعة العصرية ، بشارع علوى بصرى ، او من
حضرت مؤلفه بعيادته بشارع عباس ثور ٨١ بصرى)

كتاب

السائل العرائض جديدة

بقلم

سليمان عبد الأحلان

مزيّن بصورة عديدة

ثمنه عشرة قروش صاغ وبالبريد ثلاثة قروش

كتاب

المرأة وفلسفتها التناصية

تأليف

الدكتور فتحى

طبيب الجلد والامراض التناسلية

اذا أردت أن تفهم «من هي المرأة؟» وتاريخ معاملتها عند الشعوب القديمة . وكيف تعيش المرأة ، وكيف تفكـر ، وما تأثير طبيعة جسمها وعقليتها ونفسيتها على حياتها التناسلية وعلى حياتها الأدبية والاجتماعية . وإذا أردت أن تعرف معنى جمال المرأة وكيف يتأثر بالعنایة الصحيحة أو بالزينة الصناعية . وإذا أردت أن تفهم حقيقة موقفها كفتاة ، وكأم ، وكواحدة حررة طليرة لا تخضع لأنظمة الزوج اذا أردت أن تعرف كل شيء عن المرأة بصرامة فنية ودقة عالمية

فأعليك إلا أن تقرأ كتاب « المرأة وفلسفة التنازلات »
يقع هذا الكتاب في نحو ٦٥٠ صفحة ، ومحلى بأكثر من ٥٠
صورة تمثل حياة المرأة في مختلف الأقطار والعصور (ومتنه عشرون
قرشاً فقط)

ويطلب من جميع المكاتب او من ملتزم طبعه ونشره
اللياس انطون الياس

صاحب المطبعة العصرية
شارع علوى ، رقم ٥ بصر
(صندوق البريد رقم ٩٥٤ مصر)

الإنْقِلَادُونَ

ترجمة

اسْخَنَ لِبَلَدَانَغَزَ

القصص العصرية

مجموعة ممتعة تشمل ثمانين قصة أدبية غرامية مختلفة المغزى
والأسلوب ومحلاة بكثير من الصور الرمزية ومتربحة بعبارة فصيحة
قريبة المتناول لطيفة الأسلوب على طريقة أهل الغرب في كتابة هذه
القصص المستطرفة التي يتودى بها امتع الذهن بلذة السيرة الحكمة
وایصال الفائدة المقصودة الى العقل من طريق تلك اللذة بأسلوب
انشائي خاص تجتمع فيه السهولة والسلسة الحاذقة الوصف الى رشاقة
المخادعة وظرفها ، الى حكمة سامية او عظة كافية عن الشر داعية الى
الخير ، كما قال نابغة الشعر والنثر خليل بك مطران في المقدمة
التي كتبها لها

وتقع هذه المجموعة في ما يقارب الخمس مئة صفحة وتنبأ النسخة
عشرة قروش صاغ فقط . وتطبع من جميع المكاتب أو من ملتزم
نشرها - الياس انطون الياس - صاحب المطبعة العصرية - ببصر
(صندوق البريد ٩٥٤ بـ بـ)

الغَرَبَانُ

مُكْتَبَه

مجموعة مقالات نقدية ، بقلم حضرة الكاتب العصري
الكبير ، الاستاذ

محامي شلّعيَّة

مستشار جمعية الرابطة القلمية بالولايات المتحدة الامريكانية
وهو كتاب قيم حلل فيه كاتبه مذهب رجال الادب العصري ،
والاساليب التي يجب ان يسير عليها الكتاب والشعراء ليجذروا
روح التطور الحديث ، فيجب على كل اديب مطالعته .
﴿ منه عشرة قروش مصرية واجرة البريد مسجلاً لداخل
القطر ثلاثة قروش صاغ وللخارج خمسة ﴾

القاموس العصري

انكليزي وعربي - مصور

تأليف

الياس انطونه الياس

ان جميع المعاجم الانكليزية عربية التي تقدمت «القاموس العصري» لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من الشرقيين بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين ، ولذلك تجدهم يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا امامها من البيانات ما يفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في حالاتها المتعددة ، وجمعها ومفردها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منه مطلقاً لطلاب الشرقي . واول معجم وضع خصيصاً للشرقين هو القاموس العصري

ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هذا المعجم . واننا ننصح لكل من لم يطبع عليه للآن ، مكتفيًا بما عنده من القواميس

العقيقة ، أن ينادى أقرب مكتبة ويفحصه فيرى بنفسه الفائدة
العظيمة التي ينالها من اقتناه

وقد قررت وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة
الإنكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في
القطر المصري ، وذلك بخطاب تاريهه ١٣ مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧٧
والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الأولى . ثمنه سبعون
قرشاً والبريد خمسة بداخل القطر المصري وعشرة للخارج .

القاموس العصري إنجليزي - إنكليزي مصور

تأليف

إيمان نظون إيمان

هو معجم لم يُنسج على منواله حتى الآن ، ويتميز بأسلوبه
البسيط الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح
عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبوع في كل

القواميس الافرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربية أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمييداً لذكر الترجمة الانجليزية . إذ بدون ذلك لا يتسعى للطالب أن يتحقق من صحة المقابل الانكليزى لمعنى الخاص الذى يطلبه

إطلع عليه فتعلم أن اقتناءه ألم لك من أي كتاب آخر مادمت من المشتغلين باللغة الانكليزية —

عدد صفحاته ٧٠٠ من القطع الكبير ويحوي نحو ٥٢,٠٠٠ الكلمة عربية وما يقابلها من الترجمة الانكليزية . وقد قررت وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في جميع فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري . وثمنه مائة قرش والبريد خمسة قروش لداخل القطر المصري وعشرة للخارج

قاموس عربي وإنكليزي للغة المصرية الدارجة

تأليف

سفراط سيروبك

قد جمع هذا القاموس كل شاردة وواردة من مفردات وجمل
واصطلاحات اللغة المصرية الدارجة في الكلام والكتابه .

ولا نغالي اذا قلنا انه لازم لكل مشتعل باللغة الانكليزية من أبناء مصر خاصة والشرق عامه لما يحويه من الكلمات التي لا يمكن وجودها في غيره من المعاجم العربية انكليزية - منه ماية قرش صاغ والبريد خمسة قروش صاغ لداخل القطر وعشرة للخارج ويطلب في جميع المكاتب ومن ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية ببصر

نرجو أن تكون كل الخطابات المرسلة

الينا ، بعنوان

صندوق البريد ٩٥٤

قاموس الحب

الإنكليزي و العربى

Accessorial

— 3 —

Acetify

اشتراكـ اضافـ ملحقـ	Accessory	Call to ---.
اضافـ ملحقـ مساعدـ	Accessory	Off no ---.
عابرـ عرضـ شفـ	Accident	Take into ---.
عاصـي خـ	Accidental	Accountability
اصحـ الاعـشـانـ حـ	Acclaim	Accountable
اصـ الاعـشـانـ حـ	Acclamation	Accountant [حسابـ حـ]
سلـخـ دـجـ بالـسـلاحـ	Acclamatory	Accounting
اسـاحـ عـدةـ الـحـربـ	Acclimatize	Accountremens
فقـ عـالـ مـضـنـ المـنـطـقـ	Accrivity	Fouـتنـ الـ . عـ
المـهـ مـضـنـ فـرـقـ عـبةـ	Accommodate	Accredit
امـهـ اـرـجـ عـوقـ بـينـ	Accommodation	Accretion
ملـةـ تـسـوـيـةـ	Accompaniment	Accrual
مراـقةـ مـصـاحـةـ	Accompany	Accrue
رافـ سـارـ مـعـ جـارـيـ	Accompany	Accusation
شركـ فيـ الدـنـاـ اوـ الـجـرـيـةـ	Accomplice	Accumulate
اهـبـ اـكـلـ اـنـجـ اـنـجـ	Accomplish	Accumulation
كـيلـ نـامـ مـهـنـبـ	Accomplished	Accumulator
Accordـ اـتـاقـ مـطاـقـةـ	Accord	Accurately
وقـ سـوـيـ طـابـ	Accord	Accurate
دـقـ موـافـةـ مـطاـقـةـ	Accordance	Accurse
يجـبـ طـبقـاـ يـمـلـيـ اـلـ	According	Accursed
آلهـ موـسـيـةـ كـلـارـشـ	Accordion	Accusant
دـنـ اـقـبـ مـنـ بـادـ الـكـلامـ	Accost	Accusation
سبـ اـلوـسـلـ الـاقـرـابـ	Accostable	Accuse
يـقـاسـ وـلـادـ	Accouchement	Accused
طـبـ مـوـلـ قـاـبلـ	Accoucheur	Accustom
مـوـلـةـ [داـيـةـ ، فـائـةـ]	Accoucheuse	Accustomed
حوـضـ مـفـرـنـ مـفـرـوبـ	Account	Acerbity
حـاسـيـهـ يـانـ تـقـرـ أـهـيـهـ	Account	Acetify
حـبـ عـلـ يـةـ السـبـ	Account	Acetify

ثـنـهـ عـشـرـونـ قـرـشـاـ وـالـبـرـيدـ ثـلـاثـةـ قـرـوشـ لـدـاخـلـ القـطـرـ وـخـمـسـةـ
لـلـخـارـجـ . وـفـيـ شـهـرـ آغـسـطـسـ سـنـةـ ١٩٢٤ـ سـيـظـهـ صـنـوـهـ العـرـبـيـ
الـإـنـكـلـيزـيـ وـسـيـكـونـ ثـنـهـ خـمـسـةـ وـعـشـرـونـ قـرـشـاـ قـطـ

الْهَدَا لِلْسَّنَدِيَّةِ
لِطَلَابِ

الْعَلَمُ بِكَلِيَّةِ

تألِيفُ الْبَاسِ انطَوْهُ الْبَاسِ

يكفي للتتويي بفائدة هذا الكتاب أن نذكر انه طبع للمرة الخامسة في بحر عشر سنوات . وكل من بدأ دراسة اللغة الانكليزية بواسطته استفاد جداً من سهولة اسلوبه ، خصوصاً لأن الطريقة الحديثة التي ابتكرناها للفظ الكلمات الانكليزية بأحرف عربية هي الطريقة التي لا يمكن ايجاد أسهل وأصح منها

اشترى نسخة منه ، وجرب أن تتعلم اللغة الانكليزية من دون احتياج الى الاستعانة بعلم . منه خمسة عشر قرشاً والبريد (مسجل) ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج

التحفه المختصرة
لطلاب
اللغة الانكليزية

تأليف الياسى انطوان الياسى

أعيد طبع هذا الكتاب للمرة الرابعة في مدة وجيبة ، وهو
مجموعة كبيرة جداً من المفردات والجمل والخطابات الاكثر استعمالاً ،
خصوصاً المفردات والجمل المختصة بالمعاملات التجارية والادارية
والقضائية ، وبالاختصار كل ما يكثر استعماله في الاعمال العمومية .
لا يستغنى عنه أي طالب لغة الانكليزية ، فأسأل من تقدمك في
درس اللغة الانكليزية عن هذا الكتاب فيخبرك بعظيم فائدته .
ثمنه ١٢ قرشاً والبريد ثلاثة

كتاب منتخبات الترجمة

لطلبة التعليم الثانوي

عمل (محمد رفعت) مساعد امين المكتبة بديوان جلالة الملك
يتميز هذا الكتاب على كل ما سبقه من نوعه ، لاجل تعليم
الترجمة ، باشيهاء كثيرة اهمها طريقة المبتكرة في شرح عبارات
القطع المختارة ومفرداتها الصعبة أمام كل صفحة باسلوب
اصطلاحي يفيد الطالب في الترجمة واللغة الانجليزية معاً . ثم
تنوع قطعه من حيث الصعوبة بحيث يلائم مقدرة كل تلميذ في
القسم الثانوي وغيره

منه عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة قروش ،

وبياع في جميع المكاتب

الْهِرْبَةُ الْجَمَاعِيَّةُ

تألیف

علی فکری

أمين دار الكتب المصرية

ظهر هذا الكتاب حديثاً وقد جمع من الحقوق
والواجبات والأداب الجماعية ما يعرف به المرء ماله وما
عليه ليعيش في راحة بال واسعد حال محبوباً من أخوانه منظوراً
إليه بعين الاحترام : وهو أول كتاب في موضوعه

يقع في ٢١٢ صفحة وتحته عشرة قروش مصرية ، واجرة
البريد (مسجل) ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج

يطلب من جميع المكاتب او من ملتزم طبعه ونشره
(الياس انطون الياس) صاحب المطبعة العصرية

بشارع علوی رقم ٥ - بصر

علم الاجتماع

حياته الهيئة الاجتماعية وتطورها

هلّمّا ندخل في بوابة علم الاجتماع ونكشف اسرار الهيئة
الاجتماعية ، الاسرار العجيبة الغريبة

ترى امّا عظيمة راقية متمدّنة حيوية ، تضرب في طول
الكرة الارضية وعرضها ، وترى شعوباً متأخرة خاملة خامدة
الحركة ، وترى جماعات همجية متوضحة منحطّة جداً — اذا كانت
هذه الجماعات كلها ابناء آدم وحواء ، فما سر تفاوتها في الرقي؟ في
«علم الاجتماع» تعلم كيف تكونت الجماعات والشعوب والأمم ،
وكيف تنوّعت وتفاوتت في رقيها

ترى جهوراً متهيّجاً متحمساً متهوّساً ، ثم ترى جماعات هادئة
عاملة ، ثم ترى ناساً في مجالسهم يتناقشون ويقترون ويقررون

اموراً . ثم ترى هيئات نظامية من جماعات وشركات وحكومات الخ ،
فما هو سر التهوس والتناقش والنظام ؟ . ثم ترى ازياء تتعاقب ،
وعادات تتوالى ، وتقالييد تتوارث ، ورأياً عاماً يسود ، وقوانين
تتقرر . فكيف تنشأ الازياء والعادات والتقاليد والقوانين ؟

في « علم الاجتماع » ترى العواطف والعقول تصادم فتشير
الجماعات ثم تسكنها ، وتمخض الثورات الفكرية عن الانظمة والهيئات
ترى اماماً ترقى واخرى تنحط ، واماً تمو وتعظم واماً تتلاشى
وتتقرض ، واماً تستعمر وتستعبد واماً تسترق وتعمل لغيرها . ثم
ترى عقولاً تخترع وعقولاً توسم العرفان والعلم وعقولاً تصنع
وتعمل . ثم ترى قوات الطبيعة تتسلط تحت قدمي الانسان الواحدة
تحت الاخرى وهو يسخرها لخدمته ، فيستطيع بها أن ينشر أفكاره
في لحظات حول الكورة الأرضية ، وينتقل من مكان الى مكان
بأسرع ما يمكن ويفير طبيعة الاقليم بحيث تسهل المعيشة له في كل
إقليم بين هجين خط الاستواء وزهرير القطب . فما هي القوات
الاجتماعية التي تقلب سطح الكورة الأرضية رأساً على عقب ؟

« علم الاجتماع » يبين لك ان الشهوة الجسدية ، والحب ،
والنونق الجميل ، والعواطف ، فعلت كل ذلك وفي وسعها أن تقول
للمجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل

« فعلم الاجتماع » هو علم التكهن والنشوء ، وعلم العواطف
المسيطرة على الهيئة الاجتماعية ، وعلم العقل المدرّب للعواطف ، وعلم
الحب والجمال المذين يرتفعان بالمدنية إلى فوق

« علم الاجتماع » هو البوابة التي تدخل منها إلى عالم أسرار
الهيئة الاجتماعية حيث تنكشف لك وترى العجب العجاب . هذا
هو العلم الذي سطه الاستاذ نقولا الحداد الكاتب الاجتماعي المعروف
في هذا الكتاب الذي نحن في صدده بسطاً يدع كل قارئ يفهمه
بكل سهولة

فهذا الكتاب الذي يصدر في آخر صيف سنة ١٩٢٤ هو
الكتاب الوحيد في موضوعه باللغة العربية والمستوفي كل ما يخطر
لك ببال من هذا القبيل . أفلأ تشعر أنه يجب أن تطالعه وأن
يكون في مكتبتك لكي تعود إليه كلما رمت أن تعرف منزلتك
في الجماعة ومنزلة قومك في الامة ومنزلة أمتك في المجتمع الانساني ؟
وما هي وسائل الارقاء لك ولقومك ولا متك ؟

ثمنه ٣٠ قرشاً ، ويُباع في جميع المكاتب
أو يطلب من ملتزم طبعه ونشره
الياس انطون الياس ، صاحب المطبعة العصرية
شارع علوی — بصر

كتاب

مختارات سلامه موسى

ليس بين كتاب مصر الان من هو اصرح برأيه وأجهز
به من الاستاذ سلامه موسى الذي يعرفه جميع قراء الصحف
والمحلات ، فهو كثيراً ما يقتحم الميادين التي تخشى اقتحامها الملائكة ،
لا يبالي ان يصرح برأيه في الدين وفي الاشتراكية وفي المرأة ، وفي
مثل هذه الشئون الاجتماعية ، غير متعمد في كل ما كتبه اظهار
براعة او التبراهي بعبارة وانما غايتها التي لا يحيد عنها هي فائدة القاريء .
وليست هذه بالميزة القليلة القيمة في وقت نرى فيه عدداً غير قليل
من كتابنا لا يبعي من وراء كتابته الا ان يقول عنه الناس كما
يقولون عن البهلوان « ما ابرعه ! » في حين كان يجب ان يقولوا
« ما أفيده »

ولسنا نشك في اننا نخدم جميع قراء العربية بجمع هذه المقالات
النفسية حتى يتيسر للجيل الجديد قرائتها والاقناع بها دون ان
يحتاج الى السكرد في البحث عنها في متفرق المجالات والصحف

يظهر في شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤

ويطلب من جميع المكاتب او من ناشره

الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية - بمصر

(صندوق البريد ٩٥٤)

ومنه عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة قروش



حضراء الامم

روايه الخير والشر

تظهر في شهر يناير سنة ١٩٢٥ - فاطلبهما عند ظهورها

مسارح الأذهان

مجموعة أدبية فنية رواية في حقيقة الحياة ، تأليف الاستاذ المتقن البارع

هادل بيرس (صاحب مجلة النفائس)

هي قصص صغيرة لذبحة مصورة ، جمعت من كل فن وضررت بكل سهم ، في الادب والمجتمع ، والحب والفلسفة ، في لغة سلسة هي السحر الحلال ، واسلوب رائق هو الشعر المشور

ولاريب أن الاستاذ بيرس ، صاحب النفائس والممؤلفات العديدة ، قد أثبت بكتابه الجديد « مسارح الأذهان » قدرة فائقة في فن الرواية ، وكعباً عالياً في عالم القصص مما يجعله يحق في الصاف الأول من كتاب العربية والمتصدين لخدمة الناطقين بالضاد (يظهر في شهر اغسطس سنة ١٩٢٤)

يطلب من ملتزم طبعه ونشره (الياس انطون الياس)

صاحب المطبعة العصرية

بشارع علوى رقم ٥ - بصر

ومنه عشرة قروش والبريد ثلاثة قروش

خواطر حمار

وهي

مذكرات فلسفية وأخلاقية

على لسانه حمار

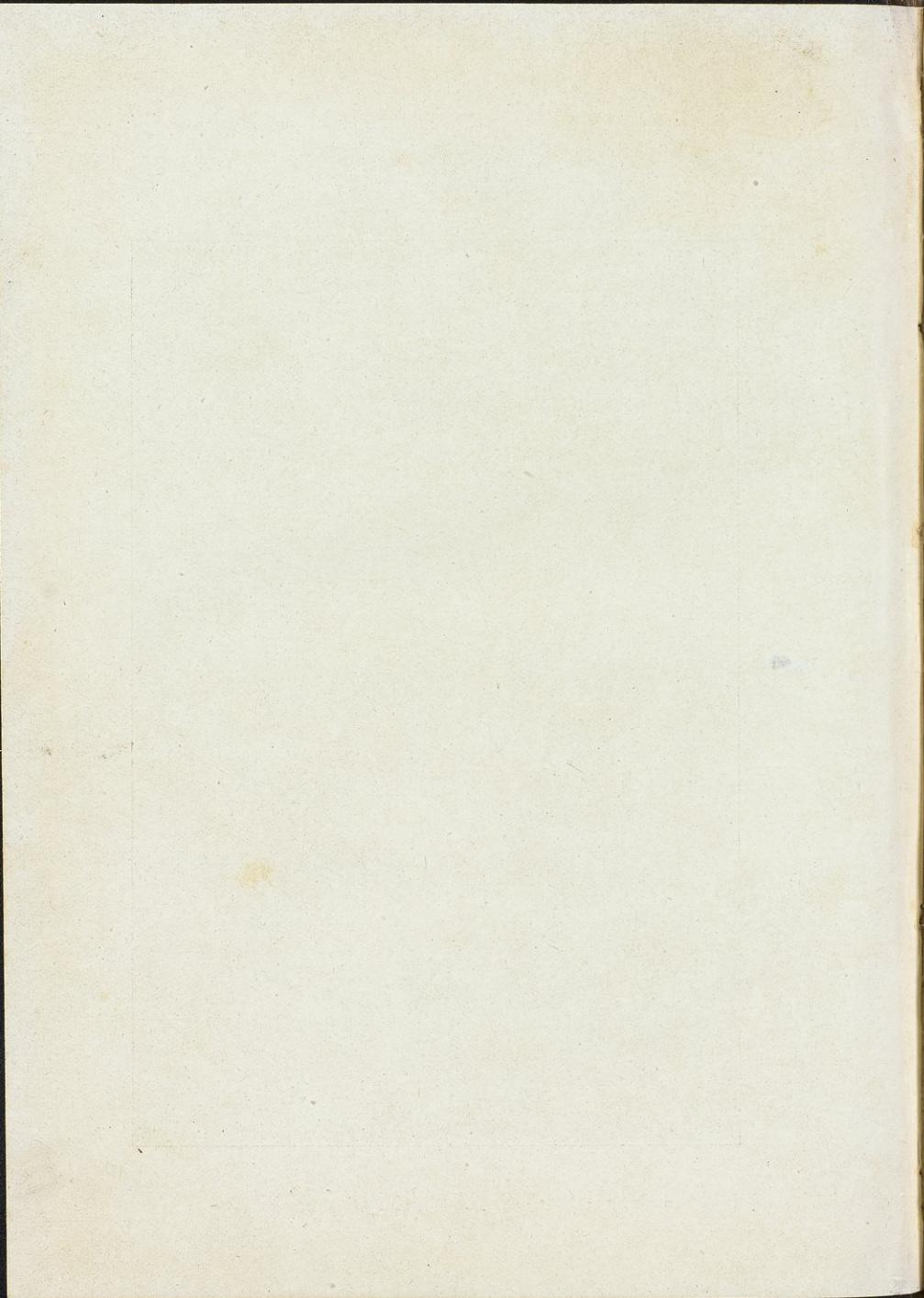
كتاب نفيس وضعته باللغة الفرنسية الكاتبة الشهيرة الكونتس دي سيجور وترجمه الى اللغة العربية الكاتب العصري حسين افندي الجمل (بمصر الجديدة) وهو من احسن ما اختاره الادباء لمطالعة ناشئة الفتيان والفتیات ومحبي الفكاهة ولذة المسامرات لما احتواه من الحكمة البالغة ، في الفكاهة السائفة ، والنقد الرائق ، في الاسلوب الشائق .

اذا قرأت هذا الكتاب وآمنت على رأي الناس في قوله :
جاهل كالحمار ، عنيد كالحمار ، بليد كالحمار ، انتهيت منه وآمنت على
رأي المؤلفة تقول : ذكي كالحمار ، وديع كالحمار ، عالم كالحمار .
وهو يُطلب من جميع المكاتب في مصر وسوريا وفلسطين
والعراق ، أو من ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس
صاحب المطبعة العصرية - بصر (صندوق البريد رقم ٩٥٤)

مطبوعات المطبعة العصرية بمصر

- ٢
- ١٠٠ القاموس العصري عربي وانكليزي تأليف الياس انطون الياس
 - ٧٠ « « انكليزي وعربي « « .
 - ٢٥ قاموس الجيب عربي وانكليزي « « .
 - ٢٠ « « انكليزي وعربي « « .
 - ٣٥ « « « وبالعكس « « .
 - ٥٠ القاموس المدرسي « « « « .
 - ١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية « « .
 - ١٢ الهدية السنوية « « « والعربية « « .
 - ١٠٠ قاموس عربي وانكليزي (بالفظ) تأليف سقراط سبIRO
 - ١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة مصورة) ترجمة توفيق عبد الله
 - ١٠ رواية تاييس مصورة (لأناتول فرانس) ترجمة احمد الصاوي محمد
 - ١٥ « الزنبق الحمراء (« « (« .
 - ١٠ التربية الاجتماعية تأليف علي فكري
 - ٥ خواطر حمار (مصور للأولاد والرجال) ترجمة حسين الجمل
 - ١٠ مسارح الأذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة) تأليف خليل يدس
 - ١٠ الحضارة المصرية القديمة (لغوستاف لو بون) ترجمة صادق رستم
 - ٨ مقدمة الحضارات الاولى « « « « .
 - ٢٠ المرأة وفلسفه التناسليات (مصور) ، تألف الدكتور فري
 - ٣٠ الأمراض التناследية وعلاجها وطرق الوقاية منها « .

- ٢
- ١٠ رسائل غرام جديدة (مزين بصور) تأليف سليم عبد الواحد
 ١٠ الغربال ، بقلم مخائيل نعيمة عضو الرابطة القافية بأميركا
 ٢٥ علم الاجتماع (الجزء الأول في حياة الهيئة الاجتماعية) تأليف
 ٢٥ « (الجزء الثاني في تطور الهيئة الاجتماعية) تقولا حداد
 ١٥ اسرار الحياة الزوجية ترجمة نقولا حداد
 ٣٠ ملقي السبيل (في مذهب النشوء والارتفاع) اسماعيل مظہر
 ١٠ حصاد المھیم (مصور) للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
 ١٠ مختارات سلامه موسى (تأليف الكاتب الاجتماعي الشهير)
 ١٥ في أوقات الفراغ ، تأليف الدكتور محمد بك حسين هيكل
 ١٢ مراجعات ، في الأدب والفنون - للأستاذ عباس محمود العقاد
 ١٥ الدنيا في اميركا للأستاذ امير قطر
 ٢٠ أناول فرنس في مبادله - لصاحب العطوفة الامير
 ٢٥ « « (ورق مخصوص) شکیب ارسلان
 ٣ كتاب الحقوق الوطنية كتاب مدرسي لفرنسيس مخائيل
 ٢٥ روح الاشتراكية تأليف غوستاف لو بون وترجمة محمد عادل زعير
 ١٠ فاتنة المهدي ، أو استعادة السودان (نشرت تباعاً في الاهرام)
 ٨ رواية الانتقام العذب ترجمة اسعد خليل داغر
 ٢٠ رواية باردييان (٣ اجزاء متوسطة الحجم) ترجمة طانيوس عبد
 ٢٠ « الاميرة فوستا (جزآن كبيران) « «
 « « كابيتان ١٦
 « « الساحر العظيم ١٦
 « « فارس الملك ١٠





حضره الاستاذ عباس محمود العقاد

A. al-Aggād



مِلْجَعُ الْمُجَاهِدِ فِي الْأَدَابِ وَالْفَنُونِ

بِقلمِ هَصْرَةِ الطَّالِبِ الْكَبِيرِ الْأَنَادِ

عَبَاشِ مُحَمَّدِ الْعَقَادِ

عني بنشره

المِيَاسُ انْطَوَنَ الْيَاسِنُ

صَاحِبُ

الْمِطبَعُ : الْعَصْرَةُ

بِالْفُجَّالَةِ ، بِشارِعِ الْخَلِيجِ النَّاصِريِّ رَقْمٌ ٦

(صندوق البريد رقم ٩٥٤ — مصر)

(Arab)
PQ2254
.T4 A9

حقوق اعادة طبع هذا الكتاب
محفوظة للناشر

Published by

E. A. Elias

P. O. Box 954

Cairo, (Egypt)

كلمة

في اسم الكتاب

في هذه المجموعة مقالات شتى نشرت، أكثراها في
البلاغ أيام الإثنين التي وقفتها على الكتابة الأدبية بعنوان
«في عالم الآداب والفنون» ونشرت، القليل منها في بعض
الصحف الأخرى والمحلات . وتفضل الاستاذ صاحب
المطبعة العصرية فرأى أن يحفظها في كتاب يضمها إلى السبط
الأنيق الذي يتولاه بعنايته وتنضيده ، فسمّيته «مراجعةات
في الآداب والفنون» لانه بحث مستطرد في موضوعات
مختلفة في الآداب والفنون وما إليها ، لأن المراجعة هي
طريقية فيما أكتب من هذه المباحث على الإجمال
فال فكرة التي أكتب فيها ندر أن تكون بنت يومها
وقل ان تخلو من تاريخ سالف تنتقل فيه كما ينتقل السكان
الحي في أدوار حياته ، ولكل فكرة أثبتتها ميلادها ونشأتها
وحوادث سيرتها وحظوظ أيامها، فلا تزال تنمو وتكبر وتترقى

في تكوينها وترتيبها حتى تبلغ تمامها وتوفي على غايتها . ثم
تجيء المناسبة لاثباتها فأرجع ماضيها وانظر اليها في هيئتها
الأخيرة كأنني اب ينظر الى ولديه الذي يراه الناس فرداً
واحداً او يراه هو ابناء عدة تقلبت بهم الطفولة والشباب وتعاونهم
النقص والكمال وتمثلوا له في صور متتابعة لكل منها مكانها
في قلبه وخارطه وذكر ياراتها من ماضيه وحاضرها ، ولعل النقص
منها غير مقصري عن الكمال في موقع الحبة ومكان الاعزاز !
وسواء كانت المناسبة التي تدعوني الى الكتابة كلة
استوقفتني في كتاب او رأيا سمعته من قائل او مشاهدة
حركة الى البحث فليس شيء من ذلك بفاصل الفكرة
عن جذوعها التي نبتت عليها ولا هو مخرجها عن الاصل الذي
امتزجت فيه أيامها بأيامي واتصلت سيرتها بسيرة حياتي .
فلو أن للخواطر يوم بعث ترد فيه الى مناشئها خلتُ أن
ستبعث معي في جسد واحد يوم ينفح في الصور الموعود او
عادت معي الى حيث كنا في الحياة ولو كان لها ألف شبه
يربطها بآراء المرتئين وكتابات الكتابين . فاما انا قد

عشتها وغذوتها فلا تخيلني قلماً بغيرها كما لا يستطيع أحد
أن يتخيل جسده قلماً بغير اعضائه أو يتخيل رأسه ويديه
وقدميه وسائر جوارحه راجعة — يوم القيمة — إلى جهنمان
غير جهنمان !

ولقد يرى بعض الناقدين أنني أتأثر بما أقرأ فيما أكتب
وانني أنحو هذا النحو او ذاك مما اعجب به من آراء المفكرين
وأنماط التفكير . فليس لي أن أقول في هذا الرأي إلا أنني
اعلم غير ذلك من شأنني وانني لا أحسب تفكير الإنسان الا
جزءاً من الحياة ونوعاً من الأبوة . فليس يسرني أن تبني إلى
أفكار كل من أفلتهم هذه الأرض من الأدباء والحكماء
والعلماء اذا كانت غريبة . يعني بعيدة النسب من نفسي ، كما
ليس يسرني ان ينزل لي كل من في الأرض عن أبنائهم
وبنائهم ولو كانوا أبناء سادة وذرية ملوك ! أقول ذلك لا
أجد فيه ادعاء ولا عجباً ولكنني أقرر به حقيقة وأبين مذهبـاً .
فنشاء ان يعده من الادعاء والعجب فله مشيـته وليس
عليه أنا أن انزعـه فهمـه وتقـسيـره

ان المراجعة اذن هي طريقي في البحث ولا سيما في
مقالات هذا الكتاب . أراجع سيرة كل فكرة وأثوب
بالنظر الى مصدر كل مشاهدة . وقد يحسن هنا أن ألم
بأسلوب النظر الذي أميل اليه بالفطرة وأثره على سواد
بعد التجربة ، فأقول في ايجاز اني انظر الى الدنيا نظرة فيها
من الشمول اكثر مما فيها من التفصيل ، وان الحياة والزمان
والعالم من الاوائل التي لا أول لها الى الاواخر التي خاتمة لها
كلها عندي جملة واحدة متماسكة ليست المظاهر الفردية فيها
الا أجزاء عارضة تنال قيمتها بقدر ما تحتويه من ذلك
« الكل » العظيم . وكأن الاشياء والشخصيات الفردية في
هذه الصفة عمله الورق التي لا قيمة لها بذاتها ولا بالذهب
الذي تمثله ولكنها قيمتها الصحيحة بالجهد الحي الذي تساويه
والثروة العينية التي تدل عليها . ومن شأن هذا الأسلوب ان
يتخطى بعض الشيء مقاييس العرف وحدود الاصطلاح
وتفاصيل الظواهر ، وفي ذلك تأويل كثير من الآراء التي

بسطتها في هذه المقالات ومنها تعليق الجمال بالفكرة الباطنة
قبل الاجسام والأشكال

قد يقال : ولكن اليس في هذا النظر مجافاة ل الواقع الذي
ينبئ عليه كل علم صحيح ؟ فأقول لا ! إنما هذا النظر يوسع
الواقع ويمتد بحدوده إلى آفاق أبعد من هذه الآفاق التي
تحصر فيها قيم الأشياء وأقدار الأحياء . ومثال ذلك إننا إذا
حكمنا على قدر الرجل بنصيبه في المعرف الدارج – أي بما
يسموه « الواقع » – فقد يرجع المجرمون المداورون على
أعظم العظاء وأصلاح المصلحين ، وقد يكون أفشل الناس
قدراً أوئلهم الحترعون والدعاة الذين يقضون حياتهم في هذه
الدنيا ولا يعترف لهم بنصيب من النجاح والجزاء . فالواقع أن
« رجال الاعمال » ومن يسمون أقسامهم ب رجال الحقائق
المحسوسة لا ينظرون إلى « الواقع » المقرر ولكنهم ينظرون إلى
جزء منه محصور في حيز الحاضر لراهنه ، إذ ان الانسان الفرد لم
يحسب في خلقته حساب مكان معين أو قترة محدودة بل حساب

صلات كثيرة بالكون كلها وأجيال الحياة كافة ، وهذا هو الواقع الصحيح ولو عده اصحاب « الواقع المموه » ضربا من ضروب الخيال وطلسمها من طلاسم الاوهام

بهذه المراجعة كتبت المراجعات ، وعلى هذا النظر اعتمدت وأعتمد فيها أرى وأكتب ، وعلى هذا العهد اتقدم بهذه المجموعة بين أيدي القراء

عباس محمود العقاد

فِهْرَسٌ

صَحْفَة

- | | |
|-------------------------------------|--|
| ١٩٢٥ ١٤ ابريل البلاع | ١٧ بين السياسة والادب |
| ١٩٢٥ » ٢١ » | ٢٦ الصيام (بين انكار الذات وتقديرها) |
| ١٩٢٥ » ٢٨ » | ٣٦ الزهر والحب |
| ١٩٢٥ مايو ٥ » | ٤٨ الاشكال والمعانى |
| ١٩٢٥ » ١٢ » | ٦٠ معنى الجمال |
| ١٩٢٥ » ١٩ » | ٧٠ رأى شوبنور في معنى الجمال |
| ١٩٢٥ » ٢٦ » | ٨٠ أصل الجمال في نظر العلم |
| ١٩٢٥ يونيو ٩ » | ٩٠ في الاساليب |
| ١٩٢٥ » ١٦ » | ١٠٠ في الاساليب (٢) |
| ١٩٢٥ » ٢٣ » | ١٠٨ علم الاخلاق |
| | بشار : — |
| ١٩٢٥ » ٣٠ » | ١١٩ شخصيته |
| ١٩٢٥ يوليول ٧ » | ١٣٤ غزله |
| ١٩٢٥ » ١٤ » | ١٤٥ بشار والهجاء |
| ١٩٢٥ » ٢١ » | ١٥٩ مثل من التصوير في شعر ابن الروى
المفلوطي : — |
| ١٩٢٥ » ٢٨ » | ١٧٠ أدب المفلوطي |
| ١٩٢٥ اغسطس ٤ » | ١٧٨ المفلوطي والنفس الانسانية |
| ١٩٢٥ سبتمبر ٢٩ » | ١٨٥ سيد درويش |
| ١٩٢٥ أكتوبر ١٣ » | ١٩٦ خواطر في الاخلاق |
| ١٩٢٥ » ٢٠ » | ٢٠٥ الاعتراف بالعيوب |

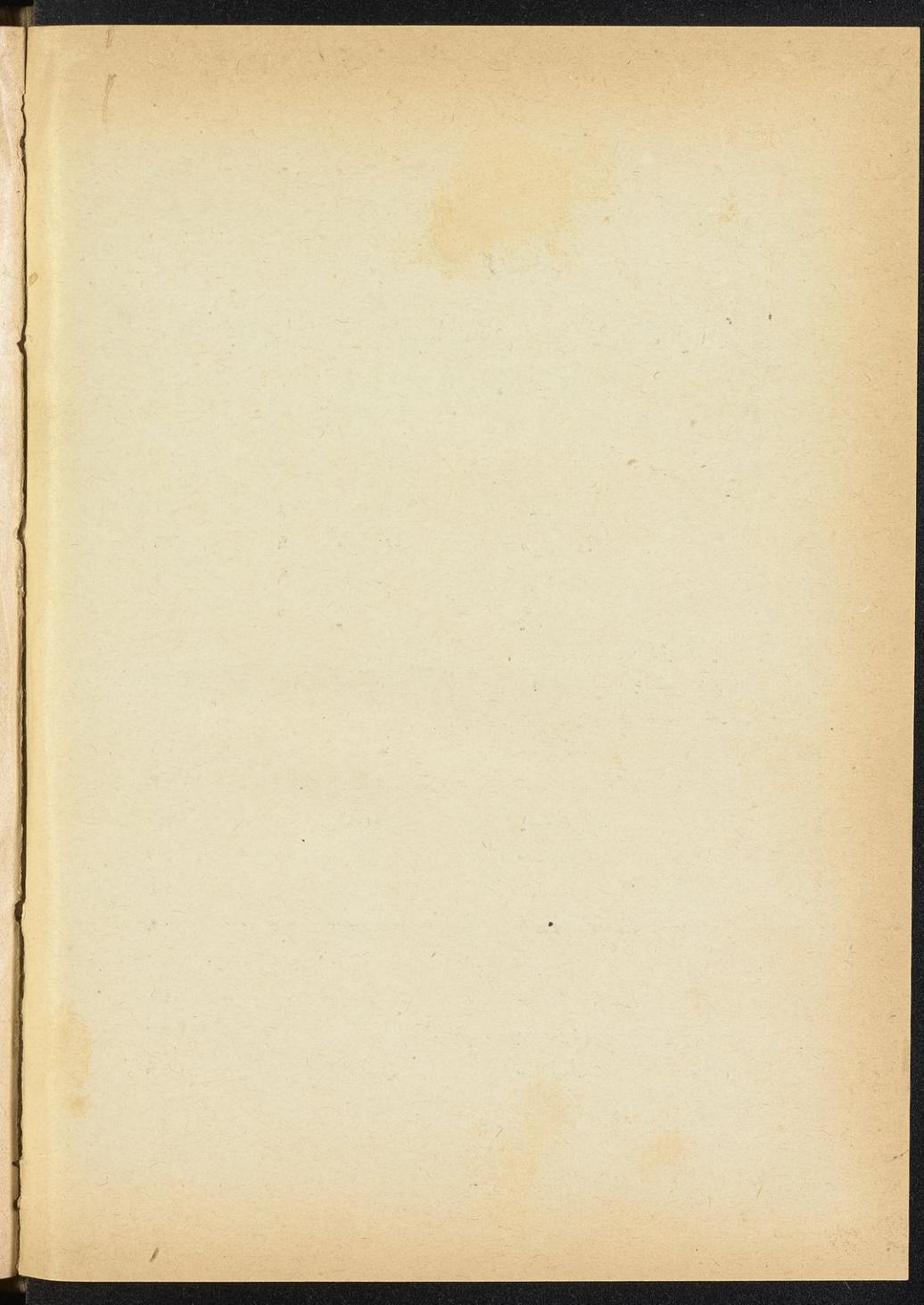
صفحة

- | | | | | |
|------|-----------------|----|---|----------------------|
| ١٩٢٥ | » | ٦ | البلاغ | ٢١٤ عند الصحراء |
| ١٩٢٥ | نوفمبر | ٣ | » | ٢٢٠ باشع القلوب |
| ١٩٢٥ | » | ١٠ | » | ٢٣٢ صورة السعادة |
| ١٩٢٥ | » | ١٧ | » | ٢٣٩ المعرفة |
| ١٩٢٥ | أكتوبر | ٢٧ | » | ٢٤٥ أثر الحدث العربي |
| ١٩١٣ | بيان في سنة | | | ٢٥٣ مذكرات ايليس |
| ١٩٢٥ | مجلة الهلال سنة | | | ٢٦٩ المرأة الشرقية |
| ١٩٢٥ | الاصلاح الادبي | | مجلة الساخن الامريكية في العدد الممتاز لسنة | ٢٧٣ |

نَبْتُ الْخَطَا وَالصَّوَابُ

أَدْبَقْنَا فِيهَا يَلِي بَعْضَ الْغَلَطَاتِ الَّتِي يَحْسَنُ الْإِلْفَافَاتِ إِلَيْهَا
فِي مَوَاضِعِهَا قَبْلَ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ

صَوَاب	خَطَا	سَطْر	صَفْحَة
الْفَقْمَةُ الْخَفِيَّةُ	الْفَقْمَةُ الْخَفِيَّةُ	١٤	٤١
مَرْسُومَةٌ	مَوْسُومَةٌ	٩	٦٦
كَلَا يَدُو	كَلَا يَمِدُ	٦	٧٥
يَجِيَّنُ	يَجِيَّنُ	٥	١١٢
يَفْعُلُ الْأَنْسَانُ أَكْثَرُ مَا يَجِبُ ؟ وَمَا هُوَ الْخَطَا بِالنَّقْصِ عَنِ الْأَخْدِ غَيْرُ أَنْ يَفْعُلَ الْأَنْسَانُ أَقْلَ مَا يَجِبُ ؟	يَفْعُلُ الْأَنْسَانُ أَقْلَ مَا يَجِبُ	١١	١١٧
جَسْمًا نَاحِلًا	جَسْمًا نَاحِلًا	٨	١١٩
أَنْ أَصَابَ اعْتَزَمْ	أَنْ صَابَ اعْتَزَمْ	٦	١٢٣
يَشَدُّ عَنْ	يَشَدُّ عَلَى	١١	١٤٦
مَصْحَفَةٍ	مَصْحَفَةٍ	٧	١٤٨
أَخَادُهُ	أَخَادُهُ	١٤	١٥٤
كَأَحَادِيثِ هَذِهِ الْفَقْمَةِ	كَأَحَادِيثِ الْفَقْمَةِ	٧	١٨٩
الْفَرِيَّةُ	الْرَّفِيَّةُ	٢	١٩٧
عَلَى طَرِيقَتِهِ	عَنْ طَرِيقَتِهِ	١٧	٢٤١
بِسْنَةٍ وَارْبَعَةٍ شَهُورٍ	بِسْنَةٍ وَارْبَعَةٍ شَهُورٍ	١٦	٢٥٣
عَلَى لِسَانٍ	عَنْ لِسَانٍ	١٣	٢٥٦





بین السياسة والادب

كان من أسباب انتصاري عن الكتابة في الأدب هذه الفترة أزمات السياسة التي شغلت الناس في هذا البلد عما سواها ، وشيء من الشك تسرب الى عقidi في اصلاح الآداب العربية ألقى في نفسي أن الفروق في فهم الأدب وتقديره بين قوم وقوم وبين مثال ومثال إنما هي فروق في العنصر والطبيعة قل أن يصلح منها الاطلاع أو يجدي فيها الارشاد والانتقاد . وكنت أرى المقياس الذي تقيس به الشعر والفن مختلفاً اختلافاً بعيداً عن مقاييسهما في عرف أكثر الخاصة وال العامة وذوي الثقافة من القوم والجهلاء الآخرين بالسماع والتقليد ، فلعل أرق ما يرقى اليه الأدب في رأيهم أنه زخرف هندي أو حلية تناظر بجسم من الأجسام المشتملة ... تتفصل عنه قدمون وتبدو عليه فإذا هي أجمل منها في علبة الصانع أو عيبة الجوهرى . ول ليست

هي جمالاً من مجال الحياة ينبض فيه الدم وتسري فيه العروق وينمو
نحو الطبيعة الحية أو يسبقها في وثبات المنو ويفصلها في غاذج الجمال !
والأدب أن لم يكن كذلك فقد بطلت قداسته وتهدم هيكله وهزلت
قرابينه وأصبح صناعة من صناعات السوق أرخص من سائر الصناعات
شئناً وليس بأشرف منها في المقاصد والأصول

وسأقول لك ماذا أعني بالزخرف الهندسي الذي أومأت إليه ،
فاماً أعني به ذلك التزويق الذي لا يمتد إلى الحياة بسبب ولا يعمل
فيه غير المسطرة والبركار وذهن هو في الأذهان ضرب من المسطرة
والبركار — أرأيت العمارة العربية في بناء من بناياتها القديمة أو
الحديثة ؟ هي جميلة في بابها ولا ريب . وهذا من الرونق ما يجب تذبذب
العيون ويستدعي التأمل ويقع في الأبصار موقع السجع والجناح في
الأسماع ، ولكن هل رأيت فيها قط صورة من صور الحياة النامية
من زهر أو ثمر أو قسيمات وجه أو مشابه عضو من الأعضاء ؟ كلا !
أنك لا تجد فيها أثراً لهذه الصور ولا تقع فيها موقعاً لها رأيتها

وكذلك نجد الأدب في رأي المتأدبين على هذا الطراز الهندسي
الذي تحل فيه الألسنة والأقلام محل المساطر والبراكير : خلا من
روح الحياة وغابت عنه دلائلها حتى لو أمكن أن تخلو ألفاظ الكتابة
من أثر الحياة خلو حجارة البناء منها لما أطل عليك وجه ناطق أو سمة
متحركة من ذلك الأدب المزخرف الموزون ، وكأنما الفرق بين العمارة

والشعر في هذه المقابلة هو فرق ما بين طبيعة الحجارة وطبيعة الكلام
المملوكة . لا فرق ما بين الحياة في بناء الجدران والحياة في بناء الكلام
وقد تلقى الرجل توسّم فيه العلم بالأدب الصحيح والبصر
بأقدار الكلام والتّيّز بين صادقة ومكذوبة ونفيسه وزهيدة ثم تصعيدي
إلى حديثه في هذه المعارض فتسمع عجباً . سمع رجلاً يحدّثك عن
آثار الفحول من شعراً الغرب وكتابه ويهمش لما فيها من الحاسن
والآيات ويروي لك عن آراء النقاد في النظم والنشر والقصص والأخبار
ما يبني عرفاً فهم مستقيم وحكم مصليّ وتيّز مسدّد ، ثم تكاد
تنسى أنه ينقل إليك ما سمع وماقرأ حتى تخوض معه في حديث الأدب
العربي ويأخذ في مطارحاته ومساجلاته فإذا بك قد حككت جلد
الروسي ظهر لك التّيري القديم على قاب شعرة أو شعرتين
وإذا بك تسمع الألعنى المعجب بجوليير ودي موسى وسان بيف . .
لابل المعجب بشّاكسبير وملتون وبيرون وهازليت ولستنغ وهيني يترنم
بيت أو آيات من أسفف ما نظم ابن المعزّ أو صفي الدين الحلي في
تلك المعاني الهندسية والتشبيهات الشكلية والتعبيرات التي تقاس
بالمسطّرة والبركار أو تخبرك في اسمي ما تسمو إليه عن أحياه كأنها
«تحت التّرين» لم تتأصل فيها الحياة ولم يوسع لها من الأفق الذي
تعيش فيه إلى أن تقضى مدة التجربة «على ما يرام
أو ربما تلقى الرجل يحدّثك في الأدب العربي فيهزأ بذلك

التشيهات ويزدرىها ويتفكه بالضحك من زورقها الذي أشلته حمولة
العنبر ودمها الذي يجري بلون البنفسج وهلاها الذي جعلوه في السماء
سواراً واحتاجوا الى النقد فرهنوه بدرهم .. ! ويوافقك على هذه
المآخذ التي اشتهر أمرها وكثير عدد المتكلمين لها فتقول نعم ! هذه
ضالة سبقتلينا .. . وما نخال صاحبنا إلا صيرفيأ حسن النقد عارفاً
بالجيد والردي : من آدابنا العربية مميزاً بين الطلاوة البراقة والمعدن
القيمة . فقبل عليه وتأنس الى رأيه . لكنه لا يلبث أن ينشدك أبياتاً
من نظمه أو نظم غيره يستحسن فيها ما يستحبنه هناك ويحمل فيها ما
كان يزدرى به أمامك قبل دققتين ! وقد يكون الشبه خفياً في بعض
الاحيان بين الأبيات المدوحة والأبيات المزدرة ، ولكن الذي
يدهشك ويختلف ظنك أحياناً أن ترى الأبيات في الحالتين على نمط
واحد من المعنى والصياغة والذوق والاحساس — إن اشتمنت على
ذوق وإحساس . ! فما باله يثنى عليها هناك وينحي عليها هنا ؟ الأمر
واضح . إنه مقلد في استهجانه للتقليد كما إنه مقلد في الأمجاب
والاستحسان ، فهو مقلد مركب لعله شر من المقلد البسيط
وأناس آخرون نشأوا بين مقاييسن للأدب لا أدري أيهما أحقر
بالمقت والأعراض : الأول مقاييس الأديب المصري في الجيل الماضي
يعشى المجالس بالنكبات المبتلة والنواذر المفقة والمحجون الذي يتلمس
به الحظوة ويتقرب به من ذوي الجاه والثروة . والثاني مقاييس الأديب

الأوربي في العهد الأخير يزجي ملاحة القراء من حين إلى حين بثرة
خاوية ونمية عامة لا تختلف في شيء عن النمية الخاصة وكلمات يسمى بها
أدبًا وقدًا وما هي إلا هجسات لحظة وخطرات نعاس في اليقظة .
والأول آفة الأدب في عهد الاستبداد والثاني آفة الأدب في عهد
«الديموقراطية»

لقد كان للإنسانية أسرة جامعة وكانت لها أبوة وأخوة ونسب
وقرابة في اللحم والمدم تبليغ الأمر والارشاد وتؤذن بالغيرة والنصيحة،
فلما فشت آداب «العصر الحديث» ذهبت تلك الأسرة وقامت
في مقامها «شركة مساهمة» تستأجر سادتها وحكامها وأنبياءها وكتابها
وتحاسبهم على أعمالهم وعدد كلامهم كما تحاسب الشركة المديرين
والمساورة والجباة والعمال ! فلا حق اليوم لصاحب فكرة في أن
يرشد الناس ويجهدهم ولا شأن له بصلاحهم وفسادهم أو بصوابهم
وخطئهم ، وإنما كل واجبه أن يسري عنهم ويخدمهم ويلعب أمامهم
كما دعوه للعب على هوائهم . فإذا فعل ما يأمرونه به تقدوه وإن هو
ترفع عن هذه الصناعة طردوه ! وقل في أبناء هذا الجيل — بعد أن
سرت فيهم عقيدة المساواة التامة بين جميع الناس — من يظن أن
للأديب حقًا مقدسًا في أن يرشد ويجهد وفي أن يجد ويبرم ، وقل
فيهم من يظن أنه يبذل دررمه ليشتري به ما قد يستعصى عليه أو
يسمو به فوق مكانه الذي أطئأن إليه ، ولم السمو وفي المحاولة ؟

أليس الناس سواء؟ أليس لكل حرية في أن يظهر للهلاك بعيوبه وقصاصه وأن يبرز للقريب والبعيد «بشخصيته» ومقوماته؟ بل..! فما حاجة الإنسان إذن إلى المزيد المجهد من صفات الكمال ودعائي الاحترام؟

فليست الأدب الآن رسالة الحياة التي توحى بها شعراً أو ثرثراً على ألسنة المختارين من أصحابها، وليس الأدب الآن صلاة الروح التي لا تنبس بها حتى تتظاهر من صغائرها وأدواتها، وليس الأدب الآن مناجاة الأسرة الواحدة يتلقاها أخوانها من أخوانها وابناؤها من آباءها. وليس الأدب الآن نداء الرائد السابق يشير للأمم إلى البعيد المنظور من آفاقها وأجواءها، لا ليس الأدب شيئاً من ذلك ولا شبيها بشيء من ذلك، وإنما هو عالة السامة وتزجية الفراغ وبضاعة لا شك أن باعها هو الغابن وشاريها هو المعنون!

وليس من الصعب على النفس أن تهجر الكتابة في الأدب الذي يفهمه إلا كثرون هذا الفهم ويقيسونه بهذا المقياس. وكاتب هذه السطور يقول ولا يجمجم في مقاله أنني لو علمت أن قصاري ما أسمو إليه بالأدب أن أروح بأوراقي على وجه القارئ كاريروح الخادم بالمرودة على وجه سيده المنصرف عنه بنعاسه وشجونه لما كتبت حرفًا ولا فتحت كتابًا ولا خترت — ان خيرت بين الاثنين — أن يروح الناس على وجهي بدرهم أبدله على ان اروح

على وجوه الناس بما أبدل فيه كنانة نفسي وذخيرة عقلي وخلاصة ما
انفقت من افاس حياني ، ولكنني أكتب وأعلم أن ليس كل
الواجبات على وحدي وأن ليس كل الحقوق للقارئ وحده ، وأعلم
أنني أكتب فلتتحدث بخير ما تحدث به لسامعي فمن حقي عليهم أن
يتيقظوا لما أحدهم به ولا يكلفوني المضي في الكلام وهم بين
الأصغاء والتهاجم ! ..

* * *

وأني أحمد الله أن ليس من قراء الأدب الذي أحبه وأدعوه
إليه من يسومني أن أحمل الروحة في ساعة النعاس ، وأن ليس هؤلاء
القراء من القلة بحيث يبدو لنا لأول وهلة ، فقد عرفتني رسائلهم
المترفرفة وتحياتهم الطيبة والتقاهم إلى ما قدمت إليهم من كتب
ورسائلني أني لم أكن أقتل عليهم حين كنت أخوض معهم في أحاديث
غير أحاديث البطالة والفراغ ، وحين كنت أتعمد أن أقابلهم في غير
موعد اللهو والتسلية ، وأنهم فئة يحسب حسابها ويؤبه لشأنها بجانب
الفئة الكبرى من طلاب المراوح والمرطبات وهوادة اقتداء الأدباء
على طريقة اقتداء البيغوات والمعاين ! ، وما أراني أسر بنباً من انباء
مصر سروري بالنبا الذي بلغني عنها من قبل هذه الفئة الصالحة
والآن وقد هدأت العاصفة السياسية بعض المهدوء وغلب
الأمل على وساوس الشك والفتور نعود إلى الأدب فنعطيه حقه

علينا يوماً في الأسبوع ونعتذر اليه بعض الاعتذار — لا كله —
من تركه في الأشهر الماضية أو مشاركته فيما له من حقوق الاقبال
والعناية، فأني لا أحسبني قد تركته كل الترك أو اشتغلت عنه بالسياسة
كل الاشتغال

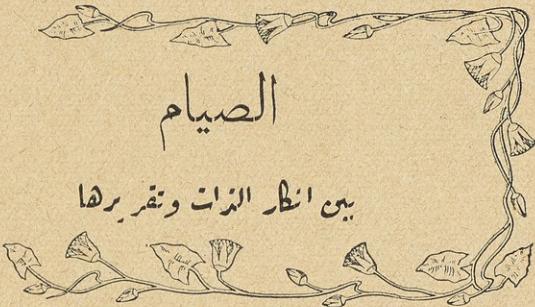
نعم لا أحسبني اشتغلت بالسياسة عن الأدب كل الاشتغال ولا نسيت
عودي في هذا الغار كل النسيان . فإن النفس التي تفرغت للأدب
تقصر عليه سرائرها وتحضنه زبدة وداعها وتختذل منه محراً توجه
إليه ومعقلها تلوذ به لن يسعها أن تصدف عنه إلى غيره أو تسلاه جد
السلو في ساعة البعد عنه ، وقد يشتعل الإنسان بالسياسة لسياسة
ويعمل فيها عمل من يتدهله بطلعتها ويهم بشمائها ومن يخيل اليه أن
العالم كله أصوات وأحزاب وقوانين وشرائع ومعارضة وتأييد وأن
الامور التي تطرح في معرك الأحزاب هي الامور التي تدور عليها حقائق
الحياة وأسرار الوجود وأحكام القضاء . . . ! ولكن للعمل في السياسة
على هذا المنوال اناساً خلقوا له لست أظنني منهم ، بل أنا لا أرى
الذين ينكبون هذا الانكباب على السياسة إلا ممن يطعن في الهواء
أو يقبض على الماء أو يجري في دائرة مسدودة بلا انتهاء

أما السياسة كما أعرفها وأميل إليها فهي على صلة بالأدب كما
أعرفه وأميل إليه ، لأنها تستهوي بالمبادئ الإنسانية المطلقة لا بمبادئ

العصبية الضيقة ، وتصباني بالنظرة الجمالية الفنية لا بالنظرة التي تحصر
الحياة في الأنظمة والقوانين

أيها القارئ ! أتذكّر ما يخامر نفسك في ميدان الصراع أو
مضمار السباق ؟ أتذكّر كيف يتسيّع قلبك لأحد الموقفين في حادثة
من حوادث التاريخ أو قصة من قصص الخيال حين ترى
أحدها في جانب الضعف والمرؤة وتري الآخر في جانب القوة
والحسنة ؟ كيف تسمى تشيعك اللدني لذلك الموقف ؟ ؟ أتسميه
تشيّعاً فنياً أو تشيعاً سياسياً ان كان لا بد من قسمة أنواع الشعور
إلى هذين القسمين ؟؟ أما أنا فأقول إن ما يخامرك بين الموقفين
هو على الأقل من قبيل السياسة الأدبية أو من قبيل الأدب السياسي ،
وأن العدة التي ينزل بها الأديب إلى ميدانه لا تختلف عن عدة السياسي
حين ينظر بتلك العين إلى ذينك الموقفين . وكذلك كنت وأكون
في سياسي التي اشتغل بها . وكأن الأدب عندي شجرة طعمت
بعض من السياسة فتغير طعم الثمرة بعض الشيء ولم تتغير التربة
ولا الجذور





الصيام

يعن انطر النزات وتفريحها

يقول قائل : وهل هذا من الآداب والفنون أيضًا ؟ وتقول
نعم ، ولم لا يكون كذلك ؟ فاما إن كان الصيام ليس شيئاً غير جوع
المعدة وفتور الأعضاء فالحق أنه شأن غريب عن الأدب غرابةه عن
الدين ، وأولى به أن يكون من شؤون الأطباء والطهارة الذين يعالجون
الجوع بالدواء أو بالطعام ! أما إن كان رياضة من رياضات النفوس
وباباً من أبواب التهذيب فلا أدب فيه حصة كحصته في جميع ما يعرض
للنفس من الحالات والأطوار

والصيام عند رجال الدين حكم مختلفون فيها ويستكثرون منها
تكبيراً لحظة وتعظيمها لأجره . فيقولون إنه مران على الجوع ليشعر
الأغنياء المكتفيون بما يشعرون به القراء المعوزون ، أو أنه تكفير عن
الذنب بتعديل الجسد الذي اجترح تلك الذنب ، أو أنه تطهير
للجسم واستجمام له من آفات الطعام والشراب ، أو أنه رياضة للنفس

على احتمال ما تكره والصبر عما تحب ، وهذه — فيما نرى — هي الحكمة الجديرة بهذه الفريضة التي لو لم يفرضها الدين لوجب على كل انسان أن يفرض على نفسه لوناً من ألوانها ويأخذ بطريقة من طرائقها لرياضة النفس و التربية الارادة

وتقول «ألوانها وطرائقها» لأننا لا نقصر الصيام الذي تُقصد به رياضة النفس وتهذيبها على ترك الطعام والشراب وما اليهما من مطالب الجسم الكثيفة و حاجاته الشائعة بين الانسان والحيوان ، فان النفس لا تكبر ترك الطعام وما اليه إلا اذا كان الطعام حظاً كبيراً لليها . وأي حاجة الى رياضة النفسية يشعر بها من يتحن قدرة نفسه على مغایبة الهوى بقدرة معدته على مغایبة الجوع؟؛ فاما تبين قيمة النفوس بقيمة ما تقوى على تركه والصبر عنه ، واما يعظم الترك والصبر بقدر نفاسة الشيء المتروك او المصبور عنه على نفسه ، ومن ثم يكون الصيام درجات ترقى في الحقيقة حسب الترقى في الحاجات والأسواق ، وربما كان أسهلها وأهونها الامساك عن الطعام والشراب . فهو لهذا فريضة شائعة مكتوبة على عامة الناس وخاصتهم بلا اختلاف ، ولو كانت أمثل هذه الفرائض تخص بفريق دون فريق لقد كان الاخرى أن يخصل صيام الطعام والشراب بين يحبسون الامساك عنهمما عظيمة مأثورة وتصحية شاقة وامتحاناً عسيراً للارادة ورياضة النفس على مغایبة الاهواء ، وليس الاهواء كلها من شهوة الطعام والشراب

ولكنها كثيرة مستدقة قد يعجز عن مكافحة اضعافها من يقوى على الصوم شهوراً وأعواماً ولاء بلا انقطاع

ولم يكن أصل الصوم في نشأته الأولى رياضة للجسم أو للنفس على شيء من هذه الأشياء ، ولكنها على الارجح بقية من « عبادة الموتى » نشأ أولاً من استشعار الحزن لفراقهم وترك الطعام والشراب بعدهم ساعات أو أياماً إلى أن تهدأ سورة الحزن وتبرد لذعة الألم ، ثم صارت للحداد أيام معدودة وشعائر معروفة وأصبح الصوم الطبيعي الذي لا كلفة فيه ولا مشقة صوماً مقرراً في العرف والعادة ، ثم اصطبغ بصبغة الدين حين عبد الناس آباءهم الغابرین وأقاموا لهم القبور والهياكل والكمانات ، فانفصل شيئاً فشيئاً عن منشأة الأول واستقل على توابي العصور عن شعائر الحداد ، وإن كنا نرى إلى اليوم أن الحداد يتبعه الصوم عن كل الطعام أو عن بعضه أحياناً إلى أمد يختلف بين الناس حسب اختلاف العادات

ولما ثبتت الكمانات وتفرغ النساء للعبادة كان الصوم أحد رياضتهم الأولى التي راضوا بها نفوسهم على التقشف والزهد في الحياة وممارسة المكروه . ارضاe للآلة التي كانوا يعبدونها ويقتربون إليها بالتوبيه وهي لا تقبل في حكم الأديان كلها إلا مقرونة بما يعلم النفس ويقلل عليها احتماله ، ثم تجرد الصوم من هذه الأغراض وتهذب من ضلالاته الأولى حتى امتزج بالتصوف الفلسفي والتأدب الروحي

وفرضه بعض الفلاسفة الحكماء على اقسامهم لقمع هواها أو تهيئة ملائكتها الباطنة لما يسمونه حالة «الاشراق والصفاء»، التي تعينهم على الوصول الى الحقائق واستكناه خفايا الوجود، وقد يقتدي بعضهم بالنساك والزهد فيستعين بالصوم على «انكار الذات» ونسيان النفس تقربا الى الله وعزوفا عن ملابسات الحياة

ولكن هل الصوم من دواعي انكار «الذات» المتباهة او هو من دواعي اثباتها وتأكيدتها؟ وهل هو من أسباب نسيان النفس الشاعرة وسحق كبريائها او هو من أسباب تذكرها وتقريرها وجودها؟ أكاد أقول أن الصوم بجميع درجاته وأنواعه حيلة نفسية خفية لتقرير وجودها وتأكيد عزتها ورفض كل ما يسيء الظن بها في نظر أصحابها. وما أيسر أن نعرف ذلك؟ حسبنا أن نراقب الحالة التي تناقض الصوم لتهتدي الى الحقيقة من المقابلة بين القبيضين. فأنظر على سبيل المثال الى أي رجل تعرفه منمن أرخوا العنان لشهواتهم وأجابوا نفوسهم الى أهواءها واسترسلوا في الغواية بلا رادع ولا مقاومة فهل ترى هذا الرجل «واحداً» نفسه مكرماً لها أو تراه مبتذلاً نفسه فاقداً لها في غمار شهواتها وتيار أهواءها؟ إنك لا ترى رجلاً كهذا إلا قد ارتسمت على وجهه علامات احتقار هي قبل كل شيء موجهة الى نفسه لا إلى سواه من علمه يحترمهم لأنهم يشتهونه في معيشته ولا يهتمون في الحياة بغير ما

يهم به ، وكأنه بما يبذلو على وجهه من تلك العلامة يقول : أنني أعرف من أتمن أيمها الناس لأنني أعرف من أنا وأعرف ما أهتم به فلا أحد هناك ما أجله وأوقره . وتلك شهادة على نفسه لا يقصدها ولكنها تتنطق بدلاتها أرادها أم لم يردها وأظهرها في ثوبها الصحيح أم أظهرها في ثوب الانفة والكبير ياء

ولست أعرف معنى «النفس» في حالة الاستسلام والاسترسال التي نشاهدها فيمن يلبون حاجات نفوسهم ولا يقرون لها في شهوة من شهواتها ، فإن حكم هؤلاء في هذه الحالة حكم الخشبة المنساقة في تيار الماء أو الحجر الهابط إلى الأرض أو الريشة المتطايرة في الهواء ، أي أنه هو حكم الجماد المفقود في تيه النوميس الكونية بلا ادراك ولا شعور ولا ارادة ، ولا يزال الإنسان شيئاً لا نفس له ولا استقلال لكيانه حتى «يتسع» عن شيء يدفع إليه ويقف في وسط التيار الذي يحيط به . فهناك «يجد» نفسه بعد اذ قدمها بالطاوعة ونسيان «الذات» ويشعر بمعنى رفيع هو اسبي معاني الحياة لم يسم إليه إلا الإنسان بين سائر الأحياء

فالأقرب إلى الصواب أن نقول أن الصيام بجميع درجاته وأنواعه هو أحدى وسائل النفس العديدة التي تشوب بها إلى وجودها وتستقل بها عما حولها ، وأنه اذا ظهر في بعض جوانبه بمظاهر «انكار الذات»

فهو في أعمق أعماقه تقرير للذات واثبات لقياها بنفسها واستغنائها عما هو خارج عنها

ومن التجارب المكررة عندي أنني كلامت بي نوبة ضعف وهانت على نفسي لا استرد الرضي عنها ولا أفلح في تسرية غتها حتى أوفق إلى عمل معنت أجرب به قوتها أو رغبة شديدة أروضها على التغلب عليها . فإذا أفلحت التجربة اطمأنت إلى نفسي ورضيت عنها كما يطمئن المرتاب في قوة جسده حين يروض عصاته بحمل الأثقال ومقاومة الشد والجذب ، وكما كانت الرغبة أشد كان التغلب عليها أفعل في طرد الشكوك وأدعى إلى الغبطة وأؤمن أن أبيح لنفسي بعدها ما كنت أخشاه عليها في حالة الضعف والارتياج

ولى صديق كثير الاطلاع على كتب الفلسفة العربية صريح الفكر سيد المنطق يناقش كل شيء ولا يصدق بشيء قط على السامع، وأعرف أنه لا يؤمن بالأديان ايمان اتباعها بها ولا تقاد تقفي ليلة عليه حتى يلهم بتحطيم برهان أو براهين من التي يبنوها المناطقة المتدينون ويتحصّنون فيها على المنكرين ، ويظل لا سلطان عليه لغير عقله المستقل وطبيعته المتينة حتى يجيء شهر رمضان فيصومه صيام الاعياء ويحرم على نفسه الشراب ويخلاص في الصوم اخلاص من يبتغي به الجزاء ويعتقد فيه النجاة . و كنت أعجب لهذه الظاهرة النفسية الغريبة وأسائله عن تعذيب نفسه في غير نية الدين أو الرياضة وأستطلع منه

العلة التي يعلل بها ذلك لعقله فيقول لي : أني أستحي أن أرى في
النهار مدخناً أو آكلاً أو شارباً ولا أحب أن أضعف عن الصيام
وحولي من يقدرون عليه
وأسأله : فإذا خلوت بنفسك ألا تشرب الماء اذا عطشت أو
تأكل الطعام اذا وجدته على مقربة منك ؟
فيقول لا ! وهو صادق فيما يقول

وأسأله كيف يستقيم هذا في قياسك ؟ فيذكرلي أنه كان في شرخ
شبابه لا يبالي أن يجمر بالأفطار حيث كان ولكن جنح إلى المجاملة
مع السن والخبرة فأصبح يصوم أمام الناس ويأبى أن يعترض لنفسه
براءاتهم ، فيصوم في الخلوة ويؤدي للصيام كل حقه مخافة الرياء ..

وهذه ظاهرة من ظواهر الصراحة التي تفر من الرياء فتقطع فيه ،
وهي ظاهرة تبدو غريبة لأول وهلة ولكنها في الحقيقة لا تعد غريبة
في النفوس المتيقظة التي تراقب خواطرها وتعتمد في تقديرها لذاتها
على مقاييسها هي لا على قياس الناس لها . فإن هذه النفوس تفرق
أن يظهر ضعفها لها اشد من فرقها من ظهور ضعفها لغيرها ، وتستخف
كل ألم يزيل شكوكها ويعيد اليقين - بأي شكل من الأشكال - إلى
سريرتها ، اذ كان أكبر ما يهمها أن ترضى هي ضمیرها الا أن يرضي
الناس عنها ، فهي لذلك تداري ضمیرها أكثر من مداراتها للناس وتأبى
أن تسلم بأنها ضعفت أمامهم فتحمل الشدة بينها وبين ضمیرها لتدفع

عنها مظنة الضعف أو تقدم له كفارة عما بدر له منه ، ولا يداري
الانسان نفسه إلا إذا كانت لها مقاييس للأخلاق والحياة غير المقاييس
التي يتواضع عليها الناس ، وهذا - أي استقلال الانسان بمقاييسه -
هو الصراحة بعينها وهو كما رأيت سبيل في بعض الأحيان من سبل
الرياء . ! ما أعجب سرائر النفس وما أكثر ما فيها من البراقع
والسراديب والدروب

ويحيل الى أن النساك الحقيقيين أصدق الناس شعوراً بذواتهم
وأعظمهم رغبة في الاستقلال عما حولهم والمرد على ضروراتهم ، وقد
يبدأ الناسك منهم في الزهد والقناعة وشعاره في الحياة

اذا لم تملك الدنيا جميماً كما تهواه فاتركها جميعاً
ولسكنه قد يعلو في افقه حتى يرى في الزهد لذة الجماليه ويطلبه
لذاته لا لآنه وسليته الباقية لارضاء نفسه بعد ان اعياه ارضاؤها بأن
« يملك الدنيا جميعاً كما يهواه » ... بل اقول ان الزهد الحقيقيين
لا يرضيهم من « تقرير الذات » ما يرضي الملوك وذوي السلطة
واصحاب المطامع الكبيرة الذين يسحقون بأنانيتهم كل انانية تهض
في طريقهم . فأن هؤلاء يرضيهم ان يتغلبوا على الناس ويتحكموا
في ظواهرهم ويفيسيوا انفسهم بمقاييسهم ، اما الزهد فلا يرضيهم هذا
وانما يطلبون ما هو أكبر منه في السيطرة والتحكم : يطلبون ان يتحكموا

في ضرورات الحياة ومطالب الفطرة ونوميس التكوين ، يطلبون ان
يذعن لهم كل شيء وان لا يذعنوا لهم لشيء من قوانين هذا الوجود ،
وان احبيت ان تستيقن من ذلك فمثل لذكرك زاهداً شرعاً في الزهد
ثم نظر فألفي نفسه بجأة قادرًا على كل ما يريد مستعيناً عن كل ضرورة
متحکماً في كل ناموس من نوميس الكون افتراه إذن يصمد على نية
الزهد ام يرى انه اصاب السكفاية مما اراد وان الزهد لا معنى له مع
القدرة التي اوتتها في تسخير المقادير ؟

ومانا ولفرض والتسليل . حسبك ان تلقي بالك الى المعجزات
والكرامات التي يرويها الناس عن الاخبار والنساك وما ينسبونه اليهم
من خرق الطبيعة وتحريك الجبال وتجفيف البحار وارسال الرياح
والأمطار والاستغناة عن الطعام والشراب واللباس والغطاء فتعلم طبيعة
الزهد وانها طبيعة الهمة لأنها تطلب ما ليس يقدر عليه الا « الا » !
فلا خطأ في قول القائلين ان نفس الزاهد توق الى مصدرها الأول
او تسمى الى « واجب الوجود » ولكن الخطأ كل الخطأ ان يقال
انها تنكر بالزهد ذاتها وتنتفي عنها وجودها ، فما يكون لذى وجود ان
يدحض وجوده بحال من الأحوال حتى الاعراض الزائلة والصور
السطحية ناهيك بالنفس الآدمية وضيعة كانت او رفيعة . غير ان
الفضائل تتفاوت في السعة والضيق وفي القرب من عنصرها الأصيل
وبالبعد عنه . فما يسمى « انانية » عند قوم قد يكون التضحية التي

ما بعدها تصحية عند آخرين وما يبدو كالقناعة لأول نظرة قد يكون
الطبع الذي ما بعده طمع عند البحث في اصوله وغياته . ثم إننا لا نقول
ان الزهاد يفعلون ما ينسب اليهم من المعجزات والكرامات او انهم
يبدون فعله وإنما نقول ان الزاهد الصادق يائف ان يخضع لما يخضع
له الناس جميعاً عن طوعية ورضي ، وانه ليس ذاك الذي يقنع بأقل
اما يقنع به الناس وإنما هو ذاك الذي يطمح الى اعلى وادوم ما
يطمحون اليه

ومغزى ما تقدم ان الصيام — بكل نوع من انواعه وفي كل
درجة من درجاته — وسيلة من وسائل تقرير الذات لا يستغني عنه
 احد في مزاولات الحياة ولا بد لنا منه في كثير من الأحيان ، للشعور
 بما فينا من علو على الجماد المسخر واستقلال عن تيار الضرورات



الزهـر والـحب

كان للطبيعة في الأسبوع
الماضي يومها المشهود عندنا في
«شم النسيم»، وكان ذلك
اليوم عيداً من اعيادها في هيكلها
القديم الذي لا تصل له صبغة
ولا يخفى له معلم ولا يزال مأموراً
مطروقاً على عاقب الآلة
وتناصح الأديان وتبدل المصلين،
وكان خليقاً من الناس بعبادة
اجمل واطهر من عبادتهم التي
يحيونه بها، ولكنهم اذلوه كما يذلرون كل قداسة واضافوا اليه كما
يضيفون الى كل دين وخلطوا السوق فيه بالهيكل كما يخلطون
اسواقهم بهياكلهم في كل زمان، وجعلوه مائدة بطون منهومة وكان
اولى ان يستقبلوا منه نزهة ارواح وافكار وفرحة قلوب وابصار



وكان في الأسبوع الماضي معرض لأزهار الربيع جمع فيهعارضون
ثروة من الألوان والعطور وذخرًا من البشاشة والرواء ومحفلًا من
الأرواح الباسمة والخواطر الناعمة التي ترف حول الرياحين ريف
الفراش حول المصايف، والتي تعجب وانت تناجيها وتحس قربها وتستروح
منها انس محضرها هي تحية تبئها انت في الزهر ام هي تحية يلئها الزهر
فيك ؟ وكنت اشهدها وأتقل فيها من خميلة الى خميلة او من طائفة
الى طائفة فيخيل الى انتا في موعد حسان قبل اليه كل حسناء بزيتها
وقتنٌ فيه بفتتها وتبرز للعيون بجمالي من الوشي والصباحة وسكنرين
من النشر والهوبي ! ويلج بي هذا الشعور ويتسرب في مناحي النفس
وجوانب الخيال حتى لا يستغرب من الأزهار سكوتها وسكونها وأحسبيه
وجوما منها واطراقا ... فيبعد الشبه بينها وبين الحسان اللاعبات
الضاحكات المبديات للزينة إداء النعمة والسرور المتبرجات بالجمال
تبرج المرح والمدلل الطائعات فيما ييهجن به العيون من شارات
الحسن وسمات السعادة ودلائل العطف والاقبال ، واري كأنما تلك
الأزهار المخلوبة من كل روضة معرض من معارض الجواري الأسيرات
اللواتي يجلبن باعة الجمال والشباب من كل رجاء من الارجاء
ويتنزعنهن من احضان الأمهات والآباء ويفرون — بما يسيغون
عليهن من الخلي النفيسة والمطارف الغالية — انتظار المساومين الغافلين
عما وراء هذه المحسن من الحسرات واللام ! وain الزهرة في الآية

من الزهرة في روضتها الأريضة على غصتها النضير ؟ تلك حبيسة
مخلوبة مكفوفة الأمل محدودة الحياة تذكرها فتذكرة ثم ثمنها وتأجرها
وتفرج عليها كما تفرج على السلعة التي تقدرها بمقدار سعرها ،
وهذه طلقة عزيرة تعازل الشمس وتلاعب الهواء وتدين بدين الحب
والأمل وتقدرها انت بمقدار ما منحتك من السرور والاعجاب ، وتنشد لها
في روضتها كما تنجد الملائكة الجالسة على عرشها ! فهي الزهرة كما خلقها
الطبيعة وهي البشرى التي تنطق بها الحياة في صوت من الاوراق
والألوان ومعنى من النضارة والنماء ، وكذلك يعشق الزهر وكذلك
يعبد المجال !

أما الزهرة في الآية فتلك مخلوق مسكن في الطريق الوسط
بين الزهرة المصنوعة من الورق والزهرة المؤثلة في الرياض ، وهي بأن
تثير الشفاق والرثاء أخرى منها بأن تثير الاعجاب والرجاء ، وكما ان
الرق يسلب الانسانية معناها ويحيل الانسان الكريم الرشيد آلة
للشك والسخرة كذلك رق الآئمة يسلب الزهرة معنى التطلع
والاستبشار ويحيلها آلة للزينة والتعلل لا تقاد توحى الى النفس من
فرح الحياة إلا بقدر ما يلتصق بها من ذكريات الرياض والفضاء

والربع ربيع في النفوس لافيا تراه من زخرف والارض والسماء
— يحيينا بازهار خفية تفتح في ضمائراً أجمل وأبهج وأحب اليها من

هذه الازهار التي تفتح في الرياض ، ويحبونا بخصب في القلوب أعني
وأوفر من ذلك الخصب الذي ينبت منه الشجر ويزكي فيه الثمر ،
ويصب في جوانحنا من حميات كؤساً دهافاً كالتي يسخر بها الطير
فيصلح ويلحتسي منها النسم فيخفق ويعب فيها الفضاء فيصفو ويتائق ،
ولولا الربيع الذي يشرق في النفوس لما أشروع الربيع في أرض
ولا سماء ، ولولا الطيور التي تهتف لنا في الحواطير وترفرف في فسحة
الامل لما أطربتنا الطيور التي تهتف على الأغصان وترفرف في
الاجواء ، ولولا الرياحين التي تتفتق عنها أكام القلوب وترويها أفاويق
الحياة لما أتقنا لريحانة تنجم بها ناجمة على الارض وتسقيها غادية في
الفضاء . فما يعجبنا ربيع الارض ولا يسرع عيوننا ويحرك أشجاننا
اللانه صدي الربيع الذي في النفس ونعمة من نعماته ونفعه من
نفحاته ، أو لأن الربيعين معاً — ربيع النفوس وربيع الرياض —
صديق قدره عظيمة مكنته في كل شيء متغلبة في كل مكان ونفعه
من نفحات ربيع سرمدى حافل بالنور والخير والجمال

وكثيراً ما يسأل السائلون : لماذا يعجبنا من الازهار والرياحين ؟
وكأنهم اذ يسألون ذلك السؤال يحسبون أنها خلقت لتعجبهم وتسرّهم
فيحررهم ويضيّ عقولهم أنهم لا يعرفون كيف يكون ذلك الاعجاب
والسرور !!! وما خلقت زهرة واحدة من هذه الازهار لنا
ولكنها خلقت لنفسها ، وما لبست تلك الألوان والمحاسن لتrocنا

ولكنها لبستها لأنها لا محيس لها عن لبسها ، وإنما السر في كل ما يخامرنا من السرور بها أن للزهرة في الطبيعة معنى يوافق معنى في نفوسنا و يكون ظهوره دليلاً على السرور الذي شاع في الأكون قاطبة — و شاع في نفوسنا أيضاً — لا خالقاً لذلك السرور ولا سابقاً له في الوضع والترتيب ، فتحن لهذا نتهج حين يلتهج الزهر ونشرع بنمو الحياة فيما حين تمهي الحياة ونتوافي على موعد واحد من مواعيد الطبيعة التي تعدها لامتناع أبنائنا جمِيعاً بخير ما عندها من المدايا والالطاف ، ونحن حين يشيع في نفوسنا الفرح بالحياة ويستخفنا الطرف بالوجود نستجمل كل شيء نراه — ولا نستجمل الزهر وحده — وننظر إلى الموجودات كافة نظرة الحالدين الذين لا يرون فيها قبحاً ولا يحسون فيها نقصاً ، لأنهم ينظرون إليها بعين تزهت عن الاحتياج الفاني والاعتبار الموقوت ، فلا يلمحون فيها إلا كياناً كاماً مطلقاً سكران ملء السكر بنعمة الوجود !

لماذا نطرب للزهر ؟ ؟ عجباً ! ألا تقول لماذا نطرب وكفى . . . !
فإننا لا نطرب للزهر ولا الزهر يطرب لنا ، وإنما نحن جمِيعاً نكرع من معين متقارب ونشرب الطرف بأقداح متشابهة . وهل تظن أن الزهر أولى بأن يكون جميلاً بهيجاً محباً محبوباً حياً نامياً منا نحن الأحياء الشاعرين في أوان الربيع ؟ ؟ أيضوع الزهر ولا تصوّع أرواحنا ؟ ؟
أيتفتح الزهر ولا تنفتح قلوبنا ؟ ؟ أينما الزهر ولا تنمو شواعرنا ؟ ؟ أينجمل

الزهر ولا تجمل حياتنا ؟ أسيطر كل شيء تحت السماء ولا نظر
نحن حتى يجيء الزهر فيطرينا بألوانه وأعطاره وما يتطرق فيه من
ماء النضارة والشباب ؟ ذلك ما ليس يخطر ببال .. ، وأحسب لو أن
الربيع يجيء لنا وخلا وجه الأرض من كل ناجحة ونابتة لما نقصت نشوتنا
بجمال الحياة شيئاً ولا افتقدنا في خارج نفوسنا دليلاً من دلائل الغبطة
والشوق ولاغاب شيء من تلك الدنيا التي تشتمل عليهما الضمائر والقلوب

ييدأنا إذا نظرنا إلى الأسباب القريبة نجد للزهر جمالاً يلقاني به من
عنه قد يضاعف شعورنا بالجمال أو يواظب علينا شعورنا الساهي في غمضة
الاغفاء ، وليس يلحظ هذا الجمال إلا نفوس يسري الشعور إلى عروقها
الحقيقة وينبض في أوتارها البعيدة ويُكَبِّر المهمس الضعيف فيها كما
يُكَبِّر الصدى في بعض القباب المتجاوزة - هذه النفوس قد مرت على
الاحساس ودرست على الجليل والمدقائق منه واتصلت مسالكها من
أظهر منافذ الاحساس إلى أخفها ومن أخفها إلى أظهرها ، قهرها
النفحة الحقيقة حين ينام غيرها على قرع الطبول وتجوبيها الاشارة
الطفيفة حين تتمتع منافذ غيرها على غير الدفع والاقتحام . وكأن
لبعض هذه النفوس مجاهر وأبواباً تجسم بها الصغير وتقرب بها
البعيد فتبصر حين يغمض غيرها عينيه وتسمع حين يوصد غيرها

أذنِيهِ، أو كأن لها أثيراً روحيّاً يجتذب الأصوات من أبعد الابعاد
كما يجتذب الأثير كلام المتكلمين من وراء البحار الساحقة والسامعون
لها في مواضعها يحسبونها قد ضاعت مع الريح

فالزهور رسالة الى هذه النفوس تنقلها من قريب وهي في الوقت
نفسه توميء الى أبعد آماد الطبيعة وأعمق قراراتها ، وهي تصعي الى
تلك الرسالة فتسمعها على درجات متفاوتة من الوضوح والفهم ، فان
سمعت أصواتها فتشلها في ذلك مثل الذي يسمع نبضات البرق بعلامات
الحروف دون أن يهتدى الى فك رموزها وتركيب الفاظها ، وان
زادت على ذلك فقد سمعت العلامات وفكَّت الرموز وركبت الالفاظ
وخلصت منها الى المعاني والاسرار ، وهي في الحالتين تتلقى من الزهرة
حياة قد يحتاج غيرها الى كل عدد الريع وجندوه ليتلقي بعضها أو
يمحس قربها ، ثم هو لا يتلقى ذلك البعض ولا يحس ذلك القرب إلا
على صورة غليظة شوهاء محرومة من دقة التفصيل ووضاحة التمييز

وربما تسنى لنا أن نحصر بعض صفات الجمال في الزهرة اذا
حضرنا عناصرها التي تبدو لنا من قريب ، فالزهرة لون وشكل وعطر
ولا تعلو صفات الجمال التي تشوقنا منها ان تكون في عنصر من هذه
العناصر أو في مدلوله الذي يدل عليه . فأي تلك العناصر أغلب في
جمال الزهرة ؟ وما المعنى الجميل من الألوان والأشكال والعطور التي
تروقنا في الازهار ؟

فاما اللون فهو النور في اصياغه المختلفة وهو أول ما يلقتنا الى
الزهرة ويهرأ أنظارنا منها ، والنور إن رجعنا به إلى أصوله الأولى مادة
كل شيء ومنبع كل حياة . أو لم يظهر للباحثين ان جميع ما في هذا
الكون من الاجسام يتربك من خلايا وأن جميع الخلايا تتربك من
ذرات وأن جميع الذرات تتربك من كهارب وأن الكهارب إنما
تستمد وجودها من الاشعاع والانارة أو إنما هي النور الذي صح فيه
على هذا الوصف قول الصوفية انه هو المرئي والرأي وأنه هو الوجود
والهادى الى الوجود ؟ وان رجعنا بالنور الى مظاهره السطحية فهو جلاء
الابصار وغذاء الارواح يربو به الجسم وتترعرع فيه الحياة ويداوي
به ما ليس يداوي بغيره من الادواء

فهو في أصوله البعيدة ومظاهره القريبة لا يحجب أن يهراً أبصارنا
ويسحر نفوسنا ويشرح صدورنا ولا بدع أن يكون مصدر كل جمال
ومبعث كل روعة ولباب كل سرور ، ولست أشك لحظة في ان شعورنا
بالنور — أو قل بالحركة الأولى والحرية الأولى — هو أصل كل شعور
 بالجمال في نفوسنا ، وان فرح العين بطاولة النور الرفيق عليها لا يختلف أبداً
 اختلاف عن فرحة بطاولة الزهر المتبرج في اصياغه وقوشه ، وأن من
 شواهد ذلك ان جمال الزهر يكاد يتمشى على ترتيب الطيف الشمسي
 في أذواق المعجبين بالازهار . فتروقهم الالوان على حسب ما عندهم
 من السرعة والبطء في الاتبااه ونري الذين يكفيهم القليل من التنبيه

يميلون الى الالوان القريبة الى الظلام ويترجون في ذلك على حسب اختلافهم في دقة الاحساس وسرعة الالتفات ، والمتخاطبون بغية الازهار يرمزون الى قوة الاحساس الجميل الذي تثله الزهرة وفaca لترتيب لونها في الوان الطيف الشمسي ، فمن الوردة الحمراء المتوجهة التي يمثلون بها اتقاد الحب واختضار آلامه الى البنفسجة الحزينة الساكنة التي يمثلون بها الوداعة والسوداء — مجال واسع لتفاوت الاحساس بالزهر على درجات التفاوت في الوان النور وامتناع الاصبغ والنقوش

اما شكل الزهرة فقد يعجبنا منه التنسيق البديع أحياناً كما يعجبنا التنسيق في كل شيء ولكن الذي يعجبنا منه حقاً - فيما يعتقد هو الدلالة التي يرمز اليها لا التنسيق الظاهر الذي قد يتافق لبعض الازهار وقد لا يتافق . وأول ما تدل عليه الزهرة الغضارة ثم الميغة التي ترافق في الذهن ذكرى زواها السريع . فكلاها هي بشكلها الغضير الرقيق رمز الى فرصة العيش التي تنادي الناس باعتمادها وتذكرهم بسرعة فراقها . ومن هنا كانت في شعر الأمم كلها رمزاً الى الشباب والى كل أمل جميل تلهف عليه

واما الرائحة فقد يخلو منها بعض الازهار فلا يفوته شيء من الرواء والبهجة ، وقد تعجبنا الرائحة في الزهرة كما تعجبنا في سواها ، وهي بعد لغز يقول النباتيون والمشرحون أنه محمول الغرض في الزهرة كما

أنه مجهمول الغرض في جسم الانسان ! فان صبح ما يقولون فقد يكون الشك محظياً بغرضها ولكن أي شك ياترى يمكن ان يخالجنا في أثرها الذي تحدثه في نفوسنا ؟ فان اقل ما يقال فيها انها منه لطيف للذهن يحرك القرحة ويسلس الاحلام ويرسل اعنة الخواطر ، وهي كالمنبهات في جميع خصائصها تلطف قسر وتشتد فتؤلم ، وهي اذا اقترنـت بالذكرـيات المحبـبة واجتمـعت الى ما فيـيـ الرـياـضـ من صـفـاءـ

واشـراقـ وـنـضـرةـ فيـ الـاـلوـانـ وـالـاـشـكـالـ تمـ بهاـ جـمـالـ الـرـيـعـ
ثمـ انـ الزـهـرـةـ بـلـونـهاـ وـشـكـلـهاـ وـرـائـحـتهاـ رـمزـ الىـ هـوـيـ فيـ النـبـاتـ
يتـلاقـيـ فيـ اـغـوارـهـ العـمـيقـةـ بـهـوـيـ مـثـلـهـ فيـ اـلـاـسـنـانـ ،ـ هيـ رـمزـ الحـبـ !ـ هيـ
وـسـيـلـةـ التـزاـوجـ بـيـنـ الـقـرـيبـ وـالـبـعـيدـ مـنـ النـجـومـ وـالـاعـشـابـ وـالـاشـجـارـ
وـالـادـوـاـحـ ،ـ وهـيـ هـذـاـ حـبـيـةـ اـلـىـ العـشـاقـ تـوحـيـ اليـهـمـ اـسـرـارـاـلـاـ تـوحـيـ
بـهـاـ لـكـلـ نـاظـرـ

ولـكـنـيـ لاـ أـرـيدـ هـنـاـ انـ اـزـعـمـ كـاـ يـزـعـمـ النـشـوـئـونـ وـغـيـرـهـمـ منـ
الـبـاحـثـينـ اـنـ نـرـىـ اـلـشـيـاءـ جـمـيلـةـ لـاـنـاـ نـنـظـرـ اـلـيـهـاـ بـعـينـ الحـبـ اوـ بـعـينـ
الـعـاطـفـةـ الـجـنـسـيـةـ كـاـ يـقـولـونـ .ـ فـقـدـ يـكـونـ الـعـكـسـ أـقـرـبـ اـلـصـوـابـ
وـقـدـ تـكـوـنـ الـعـاطـفـةـ الـجـنـسـيـةـ نـفـسـهـاـ اـداـةـ مـنـ اـدـوـاتـ التـكـوـينـ تـهـضـ بـنـاـ
فيـ طـلـبـ اـجـمـالـ وـالـكـمالـ

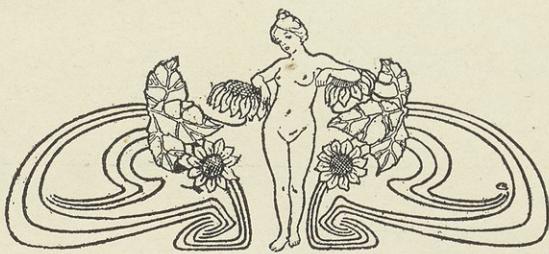
وـالـاـفـاـ هيـ تـلـكـ الـعـاطـفـةـ الـجـنـسـيـةـ ؟ـ اـهـيـ شـيـءـ مـقـصـورـ عـلـىـ
الـاـسـنـانـ ؟ـ اـهـيـ شـيـءـ مـقـصـورـ عـلـىـ الـحـيـوـانـ ؟ـ اـهـيـ شـيـءـ مـقـصـورـ عـلـىـ

النبات ؟ أهي شيء مقصور على الجماد ؟ كلا ! بل هي شيء شائع في جميع هذه الكائنات وفيما هو أخفى منها عن العيان والتقدير : شائع حتى في الكهارب التي تتعانق سالبة وموجية لتساوي بها النزرة الدقيقة التي لا تدرك الا بالحساب ، وهي حيما وجدت مظهر للرغبة في التام والدوام وهو أعلى ما يتصوره العقل من صفات المجال في الكائنات . فما من كائن في هذا العالم الا وهو يسعى سعيه الخايث الى ان يتم بصنوه التمام له ويلتمس الدوام بواسطة الاتصال به ، وما من صفة مشوّهة في الكائنات هي الصق بطبيعة التكوين من صفة الرغبة في المجال والدوام

فليس العاطفة الجنسية هي التي تخلق الرغبة في المجال وإنما الرغبة في المجال هي التي خلقت العاطفة الجنسية بظاهرها المختلفة في الكائنات ، ولقد تعودنا أن نحسب العلاقة بين الذكر والإناثي أصلًا للحب بجميع صنوفه وألوانه . ولكننا اذا واجهنا الحقيقة من وجهة أعم وأعمق تبين لنا ان هذا الحب بين الذكر والإناثي هو فرع طارئ من أصل المي قديم شامل للموجودات مستقر في طبيعة الوجود هو حب الكمال والدوام ، وليس الحب بين الذكر والإناثي غاية في ذاته وإنما هو واسطة من وسائل ذلك الحب الأصيل

والزهرة ياصاح ! الزهرة النحيفة التي تطويها في يدك قد تروي تلك من فخامة هذه الاسرار ما تمتليء به آفاق الارض وأبراج الشموس

والاقمار . فاذا أخذتها بين أصبعيك فاذكر أنها رمز الحب ! واذا ذكرت الحب فاذكر أنه - في كل ما يحيط بنا من الظواهر والخلفيات - هو رمز الجمال الآلهي والخلود السرمدي .



الأشكال والمعاني

قلت في مقال « الزهر والحب »
ان شكل الزهر « قد يعجبنا
منه التنسيق البديع أحياناً
كما يعجبنا التنسيق في كل
شيء ، ولكن الذي يعجبنا
منه حتماً فيما اعتقد هو الدلالة
التي يرمز إليها لا التنسيق
الظاهر الذي قد يتافق بعض
الأزهار وقد لا يتافق . وأول



ما تدل عليه الزهرة الغضارة ثم الاهفة التي ترافق في الذهن ذكرى
زواها السريع . فكأنما هي بشكلها الغضير الرقيق رمز إلى فرصة
العيش التي تنادي الناس باغتنامها وتذكرهم بسرعة فراها

وقد لقيني أديب من المشغوفين بالتصوير فناقشتني فيما أردت بهذه
العبارة . وكان منحني فكره ان الجمال كله « شكلي » لا سيما الجمال في
الفنون ، وان الفن كالشريعة « لها الظاهر » كما يقول الفقهاء وهو

رأي يقول به بعض محبي المجال الصادقين في حبهم لـإيه ولكنني أحسبهم يشغلون بلذة النظر اليـه عن الانعام في أسبابه ودلـاته أو يصعب عليهم أن يجمعوا للجمال «نظـريـة» واحدة يـفـسـون اليـها بـتـعـلـيلـ كلـ ماـ يـعـجـبـهـمـ منـ مـحـاسـنـ الاـشـكـالـ،ـ فـيـأـخـذـونـ كـلـ شـكـلـ علىـ حدـتهـ وـيـضـنـونـ الجـمالـ عـالـقـاـ بـهـ لـذـاتـهـ لـاـ لـعـنـيـ يـنـطـوـيـ عـلـيـهـ أوـ لـدـلـالـةـ يـشـيرـ اليـهاـ.ـ وـرـبـماـ صـعـبـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـخـيـطـ «بنـظـريـةـ» وـافـيةـ لـلـجـمالـ تـفـسـرـهـ فـيـ كـلـ صـورـةـ وـكـلـ لـحـةـ.ـ وـلـكـنـيـ لـأـرـىـ ذـلـكـ مـانـعـاـ لـنـاـ مـنـ القـولـ فـيـ غـيرـ مـاـ تـحـرـزـ وـلـاـ اـسـتـنـاءـ بـأـنـ الجـمالـ فـيـ الفـنـ وـالـطـبـيعـةـ مـعـنـيـ لـاـ شـكـلـيـ وـاـنـ الاـشـكـالـ لـاـ تـعـجـبـنـاـ وـتـجـمـلـ فـيـ نـفـوسـنـاـ إـلـاـ لـعـنـيـ تـحـركـهـ أـوـ لـعـنـيـ تـوـحـيـ اليـهـ.ـ لـاـ فـرـقـ فـيـ ذـلـكـ بـيـنـ أـشـكـالـ الـوجـوهـ الـآـدـمـيـةـ وـالـاعـضـاءـ الـحـيـةـ وـبـيـنـ مـادـوـنـ ذـلـكـ مـنـ الصـورـ الـتـيـ تـخـفـيـ فـيـهـاـ مـعـنـيـ الـحـسـنـ أـوـ تـبـعـدـ الشـقـةـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ مـاـ تـوـمـيـ اليـهـ

فالوظيفة في الحياة تسبق العضو الذي يمثلها والجسم الإنساني نفسه لا يسعك أن تصوره إلا معبراً عن فكرة أو وظيفة مجردة ، ولا قيمة للأعضاء في ذاتها بغير الفكرة التي تعبّر عنها والوظيفة التي تؤديها ، فلا فرق في الشكل مثلاً بين بروز الحدبة على ظهر الاحدب وببروز النهد على صدر الكعب ! ولكن الحدبة معيبة والنهد مستجمل مرغوب ، وما ذاك إلا اختلاف المعنى بينهما لا اختلاف الشكل

والصورة ولتبين الوظيفة التي يشملها كلّاها لا لتبين الحجم والبروز .
وقد يعاب بروز النهد كـيعاب بروز الحدبة اذا كان في شكله ما يخل
بعنى الصحة والشباب الذي يستجمل لأجله ، إذ من البداية اتنا
لأنحب وزنًا من اللحم والدم ولا رسماً من الهندسة ولا حيزاً في
الفضاء حين نحب الصدر الناهد المفعم في شكله البارز المستدير ، ولكننا
إنما نحب الفتوة والصحة والنضج ويقظة العاطفة وما إلى هذه المعاني
من خواجـ النفس ووظائفـ الحياة

وما من شكل تراه إلا يختلف موقعه في الذوق بحسب اختلاف
الدلالة التي يدل عليها والوظيفة التي يقوم بها . فمن ذلك ان الضمور
والليس معيبات في عامة الاحياء غير أننا لا نعيهمـ ما في كلب الصيد
المهزيـل المعقود الذي لصق بطنه بظهره ودقـت أطـرافـه وكـادـت تـعرـى
من اللـحـمـ أـعـضـاؤـهـ ، لأنـاـ إنـماـ نـظـرـ إـلـىـ ماـ وـرـاءـ ذـكـ منـ خـفـةـ الـحـرـكـةـ
ـوـسـهـوـلـةـ الـعـدـوـ وـرـشـاقـةـ الـخـطـوـ ،ـ وـنـغـفـلـ عـنـ شـكـلـ «ـ الـهـيـكـلـ الـعـظـيـ »ـ
ـالـمـتـمـثـلـ لـأـعـيـنـاـ حـينـ نـرـىـ أـمـامـاـ حـرـكـةـ جـمـيـلـةـ حـرـةـ مـنـبـعـةـ بلاـ وـنـاءـ وـلـاـ
ـعـائـقـ مـتـلـبـسـةـ بـجـسـدـ ذـكـ الحـيـوانـ الذـيـ السـرـيـعـ .ـ وـلـوـ تـأـمـلـاـ فـيـ سـرـ
ـمـاـ يـعـجـبـنـاـ مـنـ حـرـكـةـ الـجـوـادـ الـجـيـلـ حـينـ يـرـفـعـ عـنـقـهـ وـيـشـيلـ بـذـنبـهـ
ـوـيـتـبـخـرـ فـيـ مـشـيـتـهـ لـعـمـلـاـ اـنـماـ نـعـجـبـ بـالـرـيحـ وـالـنـشـاطـ وـاـمـتـلـاءـ الـوـظـائـفـ
ـبـالـحـيـاةـ وـاـغـبـاطـ الـحـيـاةـ الشـاعـرـةـ بـنـفـسـهـ ،ـ إـذـ تـبـدوـ لـنـاـ مجـسـمةـ فـيـ الصـورـةـ
ـالـتـيـ توـأـمـهـاـ وـالـهـنـدـامـ الـذـيـ يـطاـوـعـهـ فـيـماـ تـرـيدـ

ومن تعود النظر إلى المعاني الباطنة وراء الصور الظاهرة
استطاع أن يخلص فكره وقلبه من قيود ذلك التحتم الصيق الذي
يتحيل إلى أكثر الناس أن جميع مانحشه من هذه الأشياء ان هو إلا
قوالب مصبوبة أبدية لم تكن قط على غير الصورة التي نحشها وإن
 تكون أبداً على غيرها ... كأنما كل صورة وجود قائم بذاته لا يدل
 على معنى ولا يتغير بتغيير المعاني التي يدل عليها ! وليس أشأم على
 العقل والنفس ولا أبطل لعملها من حصر كل شيء في صورته وحبس
 كل شيء في ظاهره وافتراض أن الصور السابقة للمعاني في ترتيب
 الوجود كما أنها سابقة لها في ترتيب المشاهدة والادراك . فان الحقيقة
 التي لا جدال فيها ان العقل المطلق لا يرى وجهًا ما لتحتم صورة من
 الصور دون غيرها ولا يمنع أن تظهر الحياة نفسها في أول من الاشكال
 المختلفة غير أشكال الآدميين والأحياء المألوفة في الأرض التي نسكنها .
 وكم ذا يختلف الانسان عن الانسان في اللون والحجم والادراك
 وال عمر وسائر المزايا والصفات ؟ وكم قد اختلف الانسان في حاضره
 عما كان في ماضيه البعيد المجهول أيام الوحشية والهياج بين الأجسام ؟
 فما كانت صورة « الحياة الإنسانية » واحدة في زمن من الأزمان
 ولا هي بال قالب المصوب الذي لا يقبل التغيير ولا يأذن بالزيادة
 والنقصان ، فلقد كانت هذه الحياة قابلة لأن تظهر في جسم ليست له
 هذه الجوارح التي تمثل بها وظائفنا الآن ، وقد كانت عصيّة أن تسلك في

تجسدها مسلكاً غير الذي سلكته واستقامت عليه من قديم العصور،
وما أكثر الأعين التي نراها في الحشرات والدواب والطيور والأسماك
وغيرها من أنواع الالحاء وأجناس الانواع وفصائل الأجناس؟ ثم
ما أكثر الاختلاف بينها في الألوان والأشكال والمواقع والتراكيب؟
ولكن هل «النظر» في ذاته إلا وظيفة واحدة تستخدم جميع تلك
الآلات وتبدو في جميع تلك الأشكال؟

وقد سألت نفسي كثيراً: هل ينتظر في مستقبل الأجيال البعيدة
أن يتغير جسم الإنسان عن تركيبة الذي صار إليه أو هل يرجي أن
يستفيد من ذلك التغير جمالاً فوق الذي استفاده في تدرجه من أطواره
الأولى إلى هذا الطور الذي هو فيه؟ والجواب على ذلك نعم مadam
مشتاقاً إلى حرية الحركة راغباً في المجال؟ فان الحرية والجمال معنيان
لأنهما لا ينفصلان فيما اعتقد ولا يتم أحدهما بعزل عن الآخر. وأمثال ان
الإنسان كان موسكاً ان يزداد جمالاً في الجسم واتساقاً في المندام
لولا اختراع الآلات والاستعانت بمحيل الصناعة، فإنه كان يصبو إلى
حرية الحركة فيتعديل قوامه وتنطلق وظائف جسمه وتزداد قدرته على
استخدام أعضائه، فلما اخترع الآلات أصبح اعتماده على الفكر لا
على الجسم في بلوغ ما يصبو إليه من سرعة الحركة واتقاء عاديات
الطبيعة، وسهل عليه أن ينتقل من مكان إلى مكان وأن يطير في
الهواء وأن يغوص تحت الماء دون أن يتحسن جسمه أو تزداد حرية

أعضائه ولباقة وظائفه . ولست أظن الجسم الانساني استقاد شيئاً
يذكر من الحسن بعد ان ناب فكره مناب جسده في حرية الحركة
والاستعداد للكفاح والتصون من أخطار الطبيعة والأحياء
وفي النظر الى الأحياء بهذه النظرة باب من المتعة الفنية لا يوصى
وطريق من اللذة الحسية لا نهاية له ، في وسعك أن تحول الدنيا
في كل لحظة تختارها الى متحف لاعداد لبائعه ولا حائل بينك
 وبين آياته وروائعه ، ولبيان ذلك هب أن طائفنا من السماء طاف
بالارض كاطاف بعدينة النحاس « في ألف ليلة وليلة » فترك كل من
فيها اصناماً من المعدن أو الرخام كلا اصنام الذى ينفعها الفنانون عن عذاج
الحياة ؟ أفلاترى حينئذ بين يديك متحفًا فنياً حافلاً بالتماثيل لا تميزه
عن أبدع ما صنع الصانعون ولا تمل النظر الى صوره ومعانيه ؟ فاعلم
ان هذا المتحف بين يديك في كل ساعة إن شئت أن تستجلى
أصنامه وتماثيله فأبدأ حيث بدأت في الطريق تجدها ماثلة أمامك
تعرض عليك صوراً لا تتحصى ومعانى لا تنفذ غير أنها تجمع الى جمال
الفن جمال الحياة وتتحرك في ثياب من اللحم والمدم بدلًا من أن
تسكن في ثياب من المعدن أو الرخام !

ومتى التمست المعانى الباطنة من صور الناس الظاهرة فقد طابت
ذلك الفكاهه وانفتح لك كنز التصور والخيال : هذه صورة آدمية
لو أعيد خلقها في مصنع الحياة لخرجت منه ملكاً سماوياً لا ينتصبه

حتى الجناح الذي تستعيره من لطافة روحها وطهارة أحلامها . وهذا
آدمي آخر لو أعيد خلقه في ذلك المصنع لخرج منه غرا لا تنتصه
حتى البرائين التي يستعيرها من شراسة طباعه وضراوة أخلاقه ، أو
لخرج منه حماراً تام الحلقه لا تبقى من جسمه ولا نفسه فضلة بعد خلق
الحمار فليست العبرة إذن بالصور الظاهرة وليس هي الفاصل
بين درجات الاحياء وأنواع المخلوقات ، وإنما العبرة بالصفات التي
ترسم عليها المعاني التي تحمل شعارها ، حتى لقد تكون تلك
الصفات والمعاني طائراً شادياً في فطرة آمية أو تكون ثعباناً قاتلاً في
مسلاخ إنسان

ومن فكاهات هذه الملاحظات اني كنت ألقى صاحبًا لي يلازمه
في أكثر الأحيان عشير طائش الرأي سريع البطر يحول بينيه هنا
وهناك ويختال برأسه اختيال البلاء ، فكنت أقول له : يا صاحبي أن
في عشيرك هذا لشبهاً بالعزيز وما أحسبه الا جدياً متنكرًا في زري
الآدميين . . . وكنا ندعوه لذلك «بالمعزاوي» لا تحرري في الكلمة
صححة النسبة العربية ولكننا نقصد الفكاهة والمزاح ، ومضت على
ذلك أسبوع ثم لقيني صاحبى وهو يغالب الضحك ويتسكافف العتاب
ويقول لي : أتذكر الشيخ فلاناً ؟

قلت نعم ! وما خطبه ؟

قال : أتذكَّرُ كَيْفَ كُنْتَ تَدْعُونِي «بِالْمَعَازِي» وَتَقُولُ أَنْكَ
لَا تَحْسِبَهُ إِلَّا جَدِيًّا مُتَكَبِّرًا فِي زَيِّ الْأَدْمِينِ ؟

قلتَ فَمَاذَا تَسْتَغْرِبُ إِلَّا مِنْ ذَلِكَ ؟ أَوْ قَدْ عَادَ الرَّجُلُ إِلَى أَصْلِهِ ؟

قال : إِيَّاهُ اللَّهُ لَقَدْ كَادَ إِنْ يَعُودُ . وَلَقَدْ فَضَحَتِنِي مَعَهُ بِسَبِيلِ
ذَلِكَ الْقَبْضَةِ فَضِيقَةً لَا يَغْتَفِرُهَا لِي وَلَا أَزَالَ أَمَارِيهِ فِيهَا حَتَّى الْيَوْمِ ،
وَكُنْتُ دُعْوَتَهُ مِنْذَ أَيَّامَ إِلَى مَنْزِلِي وَتَرَكَتْهُ عِنْدَ الْبَابِ وَسَبَقْتَهُ إِلَى
غَرْفَةِ الْإِسْتِقْبَالِ لَاهِيَّهُ الْمَكَانَ وَأَفْسَحَ لَهُ الطَّرِيقَ ، ثُمَّ أَطْلَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ
النَّافِذَةِ أَنَادِيهِ لِيَصْبِدُ فَوْجَدَتْهُ قَدْ بَرَحَ مَوْقِعَهُ إِلَى سَاحَةِ بَجْوَارِ الْمَنْزِلِ
تَجْتَمِعُ فِيهَا جَمْهُرَةٌ مِنْ الْمَعِيزِ لَا يَخْلُفُ عَنْهَا كَبِيرٌ وَلَا صَغِيرٌ مِنْ مَعِيزِ
الْحَيِّ ! وَوَقَفَ ثَمَةٌ يَتَأْمِلُهَا وَيَتَفَرَّسُ فِيهَا وَهُوَ غَارِقٌ فِي تَأْمِلِهِ أَنَادِيهِ
وَلَا يَسْتَعِمُ لِلنَّدَاءِ . . . فَنَزَلَتْ إِلَيْهِ وَأَنَا أَعْجَبُ لَأَمْرِهِ وَصَحَّتْ بِهِ مَرَةٌ بَعْدَ
مَرَةٍ ! فَأَقْبَلَ عَلَى كَمْ أَفَاقَ مِنْ ذَهُولِهِ وَهُوَ يَقُولُ : سَبَّحَنَ اللَّهَ يَا أَخِي
إِنِّي أَحَبُّ هَذِهِ الْمَعِيزَةِ وَأَشْتَاقُ إِنْ أَنْظَرَ إِلَيْهَا حِيثُ أَرَاهَا . . .

قال صاحبي فذكرت في تلك اللحظة لقبه بينما ونظرت إلى
وجهه ولحة عينيه والتفاتة رأسه وسحننته وجهه فوالله لكانما رأيته
لأول مرة في تلك الصورة وكأنما مسخ أمامي لتوه جدياً ذا اطلاق
وذنب ! فانفجرت ضاحكا وتحاملت مكلوماً وهو يستغرب ذلك
ويلتفت إلى بدھشة وكبر ياء تزيدان وجهه شبهها بالمعيز . . . فاكبد
من مغالبة الضحك ما لا يطاق وأحاول أن اتعلل له بسبب يقبله

فلا يلهمني الله سبباً مقبولاً . ثم صعدنا وقد بدت عليه بوادر الغضب
فاعتذرنا إليه بما حضرني وظلت يومها كلما خطر لي ذلك الخاطر
حسرته عني بجهد جهيد وتحاشيت أن أقابل وجه الرجل لئلا تقع
عيناي على عينيه فتعاودني نوبة من الضيق لا أدرى كيف أفسرها
له ، ولكنني لحظ على ارتباكى وتحاشي النظر إليه وسلم علي إذ
فارقني وهو حائر في أمري وأمره غاضب علي غضباً أذ هله عن توجيه
المعيز وهو يير بها في منصرفه .

قلت هذه قصة لو عثر بها قدماء المندو لقرائناها في كتبهم برهاناً
ووجهها بين براهين تناسخ الأرواح .

وبعد فأرجو ألا يفوت القارى ما قصدت إليه من هذا
الاستطراد والتشبيه ، فإذا أقصد أن المجال لا يقوم بالأشكال المفرغة
من المعانى ولا يتجلى للحسن وحده دون القرحة . بل الشكل الجميل
هو أداة المعنى إلى الظهور و شأنه أن يتلاشى ساعة يبرز لك معناه
وأن ينسيك نفسه كل النسيان حين يخلص بك إلى ذلك المعنى
المحرد . فأحسن الأشكال وأوفقها هو الشكل الذي تخطأه إلى
دلالته ، وعالم الفن على هذا هو عالم المعنى المجردة لا عالم الأشكال
الملموسة . وما الفنان إلا ذلك الإنسان الملام الذي يوفق بفطنته
لاختيار أشكال تُبرز المعنى وتخليه من العيوب التي تحجبها عن الخواطر

أو هو ذلك الإنسان المأهمن الذي يوفق لاختيار الأشكال التي تنسينا الأشكال وتؤدي عملها وما عملها إلا أن تساعد المعنى على الظهور، لا ان تشغل الناظرين بالظواهر عما وراءها من المعاني والدلائل. وقد استجعوا البساطة في الفن واستدلوا بها على الطبع لأنها شفافة عما وراءها لا تعوق معناها عن الوصول إلى الخاطر بعقبات التكلف والتزويق وحواجز الاوضاع والتقاليد، والجملة البلغة هي الجملة التي تبلغ بك إلى خواها بلا مبالغة في التحليل تشغلك بصياغتها عن دلالتها ولا قصور في التعبير يقف بك عند ألفاظها فيثنيك عن مضامينها، وكذلك قل في الصورة البلغة والزهرة البلغة والوجه البلغ رأيت منذ أيام صورة «الأم والابن» لمصور الانجليزي هـ. وـ. دافيس - وهي صورة فرس مرضع ترأم مهرها الصغير - فما تمنت حين رأيتها الا «الأمومة وحناها وتضحيتها» بغض النظر عن الأم هل

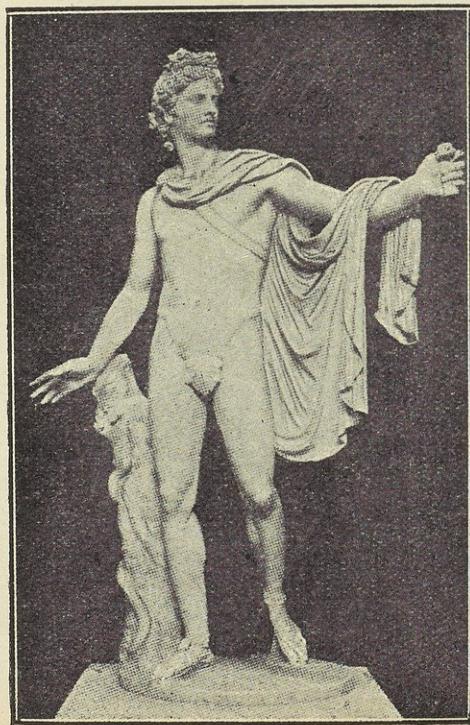


هي امرأة أو فرس وعن الولد هل هو طفل أو مهر ؟ ولو وضع المصور في موضع الفرس والمهر أمّا آدمية وطفلها لما اختلف شعوري بها في جوهره لاتني انا رأيت الحنان الماثل في الصورة وتجاوزت الشكل الظاهر الى ما وراءه ، أو لعل صورة الفرس والمهر أبلغ في تمثيل الحنان لأننا نستغرب أن تحل هذه العاطفة في قلب حيوان آخرس فيكون عطفنا عليه ألد وأعظم وتأملنا في محاب تلك العاطفة داعياً إلى الامعان في الشعور بها والتعمق في استحضارها . وتلك هي بلاغة المصور الذي ألمّ أن يختار ذلك الشكل لممثل الحنان في أبلغ مظاهره وأعجبها ، فأشعر صورة الحيوان في تمثيله على صورة الانسان

* * *

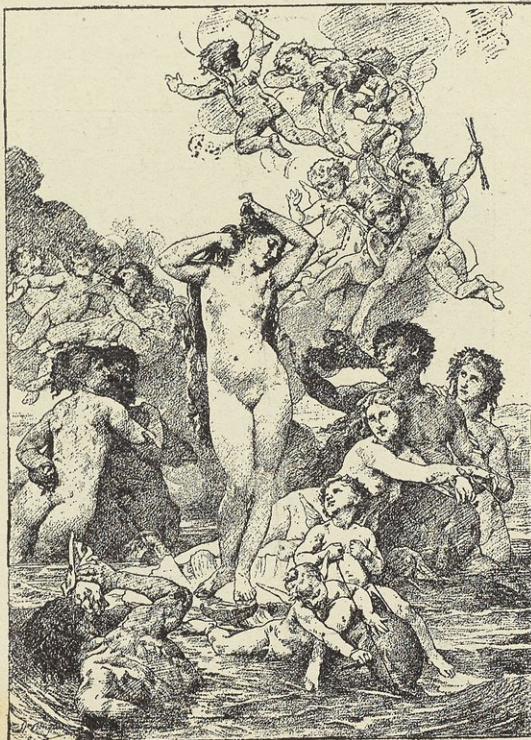
وربما بدا هذا « التجريد » غريباً لبعض الذين ينتحلون المادية ويغرقون فيها على غير بصيرة، وربما عجبوا من هذا الولع بالمعاني المجردة وهذا الاستخفاف بالأشكال الملموسة في كلام لا يراد به التصوف ولا يكتب في مباحث التعبد ! ولقد كان من حق المتأملين المادية أن يعجبوا هذا العجب قبل جيل أو نصف جيل . فاما اليوم فأي حق لهم في ذلك وقد ذهب العلم بتجريد المادة الى حد القوة الخفية والحركة المطلقة وأصبحت الأجسام في أصولها فرضاً يقرب من فرض الاخير أو هو أعجب في التصور من الاخير ؟ وهب العلم لم يذهب الى شيء كهذا فائي عقل سليم كان يستطيع أن يفرق بين تعريف القوة

وتعريف المادة عند النظر إلى حقائق الأشياء ؟ فكل تعريف صحيح للقوة تدخل فيه المادة بكل شكل من أشكالها وكل طبيعة من طبائعها ، اذ نحن لا نفرق بين المادة والقوة بأن الأولى جامدة والآخر غير جامدة ولا بأن الأولى محسوسة والآخر غير محسوسة . فان هذا تفريق لا يمس القوى والاجسام في جواهرها ولا يتناول الأشياء في ذواتها ، ولكننا إذا عرفنا القوة بأنها هي كل ما يقاومك اذا اعترضته



فقد نرى إذن أن القوة والمادة حقيقة واحدة وأنهما كليتان مختلفتان
لمعنى لا اختلاف فيه

وممّا كانت المادة نفسها قوى معنوية تتعارض فتبذر للحس
والعيان فاي عجب في أن يكون «الجمال» معنى حرا وانه لا أقرب
في النقوس الى التجريد والتزيء !



ولادة فينوس (الزهرة) الالهة الجمال والحب

معنى الجمال

في الحياة والفن



معنى الجمال واحد

في الحياة والفن لا يختلف

في جوهره وإن اختلف في
أوصافه ومظاهره . وقد أمعن

إلى هذا الرأي في مقدمة «المطالعات» فوافق

بعض الآراء وخالف بعضها وكان من المخالفين

الاستاذ ميخائيل نعيمة^(١) أحد أدباء العرب

المعدودين في الولايات المتحدة ، فكتب إلى يقول

من خطاب مسهب رقيق :

«أما نظرتك إلى الحياة نظرة فنية فأجاريك فيها إلى حد
وأخالفك إلى حد »

«مهما تسامي الفن يظل مقيداً بالمحسوسات ولا يكون فناً إلا متى
أخذ له شكلاً محسوساً . فإذا قصرنا الحياة على ما تتناوله منها

(١) مؤلف كتاب «الغربال» المطبوع في المطبعة العصرية — بصر



بالحواس امكّن أن ندعوها فنًا . غير أن في الحياة ما نشعر به ونعجز عن تأديته بكل ما لدينا من وسائل البيان الفني . وأي فن يقدر أن يصور لك خطرات فكرك — لا أقول طيلة نهارك بل في دقيقة واحدة ؟ بل أي فن يمكن من تصوير كل توجات الحب والبغض والإيمان والشك — ولا أذكُر سواها — في قلب بشري واحد ؟ ؟ فإذا كان في الحياة البشرية وحدها ما هو أبعد من الفن وفوقه فكيف بالحياة الشاملة التي ليست البشرية إلا بعض بعضها ؟ ؟

وقد أجبت الاستاذ بخطاب قلت فيه ان اعتراضه الذي أبداه على وحدة المعنى في الحياة والفن قد يكون وجهًا حاسماً لو أنني زعمت ان الحياة فن انساني يخلق الانسان ما فيه من توجات الحب والبغض وقواعد الامان ووساوس الشك . ولكنني لم أقل ذلك ولا أخال أحداً يقوله . وإنما قلت ان الفكرة التي تمثل في جمال الحياة هي الفكرة التي تمثل في جمال الفن ، أما صانع الحياة وصانع الفن فيختلفان صنعاً ويتفاوتان قدرة ويستمد أحدهما أسرار الجمال من الآخر . ولكنه لا يخرج عن نطه ولا يشذ عن فكرته .

فإذا سألنا سائل كـا يسأل الاستاذ نعيمة « أي فن يمكن من تصوير كل توجات الحب والبغض والإيمان والشك » ؟ قلنا انه هو الفن الالمي الذي نحكيه نحن بفنوننا من وجهاً ونسبة غاياته البعيدة

من وجهة أخرى ، فلتلزم حدوده اذا حاكيناه ونضيف اليها ونوسعها
اذا نظرنا الى غاياته البعيدة

وقد أحببت أن أبين هنا ما أردته بوحدة الفكرة في الحياة والفن
فأقول أولاً : إن الحرية في رأيي هي العنصر الذي لا يخلو منه جمال في
عالم الحياة أو في عالم الفنون ، وإنما نبحث عن مزية تتفاضل بها
مراتب الجمال في الحياة لأنجد هنالك المزية « حرية الاختيار »
التي يفضل بها الإنسان الكامل من دونه من المرجوحين في صفات
النفوس وسمات الاجسام ، ثم يفضل بها الناس عامة الأحياء ، ثم
يفضل بها الاحياء طبقات النبات ، ثم يفضل بها النبات الاشياء
الجامدة أو المادة الصماء ، على أن المادة الصماء نفسها تتفاضل في الجمال
بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة « الارادة » ، فتروقنا
النيران والرياح والأمواه وتطلق في نفوسنا خواج الحياة ونعطيها شيئاً
من العطف لانعطافه لغير الاحياء ، وليس لها فضل ظاهر على عامة
الجماد الا بما تخيله للناظر من حرية الارادة ومحاكاة الحياة

ولكتنا نعود فتسأل : كيف تكون هذه الحرية ؟ هل تتأنى
لنا حريتها في فضاء مطلق لا عائق فيه ولا قوة نزن بها قدرتها ونعرف
بها قيمتها ؟ وهل للحرية من معنى الا أنها تغلب العوائق التي
تصدها أو تختار بينها اذا هي لم تقدر على مغالبتها ؟ فتحن اذا أردنا
أن نتحقق « حرية » المسابق في العدو أقمنا له الحواجز وحددنا له

المسافة والوقت وقيدناه « بحريات » السابعين الآخرين فأنزلناه أن
يبين سرعته بالنسبة إلى السرعة التي تناظره وعرفنا مقدار حريته
بمقدار القيود التي نهض بها والحدود التي تكافف مراءاتها . وكذلك
الحياة فيما تمنحه من السعة لأنها إنما تقيس حريةهم بما تسلطه عليهم
من الضرورات والتکاليف وإنما تحولهم إياحات المقوق بحسب
ما تحملهم من أوقار التکاليف والواجبات ، وتجلب لهم المسرات
والافراح بقدر ما تحيله عليهم من الشدائد والألام . ومن ثم ربما
كان الأصوب وال واضح أن يقول ان المجال هو « تغلب الحرية
على الضرورة » وإن هذه الفكرة هي فكرة المجال في الحياة وفي
الفنون كلها من موسيقى وشعر وتمثيل وتصوير ورقص ورياضة
ما الجسم الجميل ؟ لا أظنتنا مستطعين أن نجح عن هذا
السؤال بأصدق ولا أوجز من أنه هو الجسم الحر الطليق . وسواء
أنظرنا إلى الجسم في جملته أم إلى كل عضو من الأعضاء على حدته
فإننا لا نرى له صفة جمال إلا وفي طيها صفة حرية وطلاقه ، فالجسم
يعاب إذا عطلت أحدي وظائفه والعضو يعاب إذا زاد أو نقص
عن حد حريته . وكل وجه تنكر منه وصفاً من الدمامنة لا بد أن
تحس بعد تأمله أن مانعاً يمنع وظائف الحياة فيه عن حرية الحركة
فيزيد أو ينقص في لحظة من ملامحه أو قسمة من قسماته . بل قد يتم
« تناسب الشكل » في وجه قسم صحيح ثم لا يعجبك ولا تنشط

إليه روحك لأنك لا تحس فيه ما يدل على حركة الحياة في نفس صاحبه ، وذلك ما يسمونه بثقل الروح ، وهو تعبير غاية في الدقة والعمق لو أنعمت فيه لاستوحى منه معانٍ لا يوحى بها الدرس الطويل والتحقيق الدقيق ، لانه يدلك على حقيقة الاحساس بالجمال في طبائع الناس وانه شيء ينافي « التقل » ويصاحب الخفة والطلاقة فلا شأن للتناسب في « جوهر » الجمال وإنما هو تبع حرية الوظيفة وحركة الحياة في الجسم ، وقد يضخم العضو في بعض الاحياء ويستدق في الاحياء الاخرى وقد يطول في بعض الانواع ويقصر في غيره ، ولكن الشأن الاول في استحسانه - على أشكاله المختلفة - حرية الوظيفة فيه لا للضخامة والدقة أو للطول والقصر أو للنسبة بينه وبين الجسم الذي تركب فيه . فلا تعيب الغزال ولا العصفور دقة الساق مثلاً ولكنها تعيب الانسان اذا نمّت فيه على الاعياء واختلال وظائف الاعضاء

ودع الاعضاء والاجسام وانظر الى الفضائل والاخلاق . فانك لا تجد خصلة معدودة في الحصول الجميلة المحمودة الا كان فيها معنى من غلبة الحرية على الضرورة وحكم الارادة الباطنة على البواعث الخارجية ، فالشجاعة والأنفة والصبر والعفة وما شاكلها من المناقب المأثورة لا تحمد في الانسان الا لانها دليل على انه مالك لحريته يقود

البواط الخارجية ولا ينقاد لها ويتصرف في نفسه تصرف القادر في شئونه ، وانظر الى « التجمل » الذي يتصف به ذوو السمت والاظرف تجده اما يظهر حيماً ظهر في هيئة واحدة : هي ألا يكون المرء مغلوباً على أمره في حركة من حركاته أو كلمة من كلامه أو سجية من سجياته ، فيكون حزيناً موجعاً ولا يظهر الحزن والتوجع ويكون مريضاً مدنقاً ولا يئن أو يتممل ويكون غاضباً مهتاباً ولا يصخب أو يتفرز ، وإذا اضطر الى التخفيف عن نفسه بحركة أو اشارة حاول أن يعطيها من هيئة الاختيار والتألق ما يخفي الاضطرار والاندفاع فتلوح للناظر كأنها مقصودة موسومة وتعبر عن نفس لا تضيق بأمرها ولا ترتخي قبضتها على زمام مشيئتها .

وفكرة الجمال في الحياة هي بعينها فكرة الجمال في الفنون . فلا فن بغير تطلع ولا تطلع بغير حرية . ولكن ينبغي أن نذكر أن الحرية تستلزم المنع وان الجمال هو غلبة الحرية على القيود أو هو ظهور الحرية بين الضرورات وليس هو بالحرية الفوضى التي لا يمازجها نظام ولا يحيط بها قانون . فلا عجب أن يمثل « الفن » قيود الجمال وأنظمته كما يمثل حريته وانطلاقه ، وأن نرى الفن حافلاً بالأوزان والأوضاع كما نراه حافلاً بالتلعلم والرجاء .

والفن بعد هو صورة مختصرة من جمال الحياة نرسمها لأنفسنا لنتبعها بالأمل والاحتساء ، وماذا تصنع أنت اذا أردت أن تختصر

المعاني والكلمات ؟ ؟ انك تأخذ منها صفاتها البارزة وخلاصتها الجامعة ،
وكذلك يصنع الفن إذ يجمع لديه في وقت واحد نظاماً أوضحاً من
نظام الحياة وحرية أطلق من حريتها أو يستخلص من جمال الحياة
عنصرية البارزين وها النظام والرجاء .

وكان الانسان قد أراد بالفن أن يتم حرية الحياة أو يستدرك
عجزها عن قهر ضروراتها التي تقلل عليها . فقد خلق الفن للانسان
أجنحة قبل أن يطير في الهواء ، وأنشأ لنا في الشعر أجيالاً من الابطال
هزموا نواميس الكون وأحكام القدر وجمع في جسم واحد من رشاشة
الاعضاء ولملحة القسمات ما تضمن به الحياة على الكثير من الأجسام
وأرسل أحلامنا في ساوات من الغبطة والكمال لا تفتح لأبناء الفناء ،
ففتمت به آمال الحياة وأصبنا في عالمه حرية لا نصيّبها في عالم الحاجة
والاضطرار

وصفوة ما تقدم ان الحرية المنظومة أو الحرية التي تظهر بين قيود
الضرورات - هي سر الجمال في الفنون كما أنها سر الجمال في الحياة .
وان أمنية الانسان القصوى التي يتطلع اليها من الحياة والفنون هي
الحرية لا القوة ولا الغنى ولا السعادة نفسها ، إذ هو يطلب القوة
والغنى ليكون حراً وهو ينال السعادة بفضل الحرية ولا ينال الحرية
بفضل السعادة . وقد يخطر لك أن تسأل من يطلب القوة لماذا أنت
تطلبها وما هي غايتها ؟ ولكنك لا تسأل من يطلب الحرية

هذا السؤال لأن كراهة المowanع غريزة مركبة في جميع النفوس ان لم
قل في جميع الاشياء .

* * *

وبعد فقد يحسن أن تنبه الى أمرين ينظر فيما من يود التوسع
في تقد هذا الرأي ليستوفي بهما بيان الفكرة التي نذهب اليها . فالامر
الأول هو أن الجمال ليس بصفة واحدة محدودة ولكنها صفات كثيرة
منوعة تتراهى لنا في الاشكال والالوان والاصوات والمعانى ، وقد
تجمعت هذه الصفات معًا فيتم الجمال ويتسق أو تتفرق فينقص أثره
ويختلف مدلوله - فمن ذلك انه ربما تهياً لجسم حسن التكوين والمهندام
دلائل كثيرة على النشاط وحرية الاعضاء ولكن لا يروق النظر ولا
يعجبنا الاعجاب الأكمل لانه أسود اللون - مثلاً - ونحن نحب أن نرى
تلك المحسن في جسم مشرق البياض ، ولا يبعد أن يكون سر تفضيل
البياض في هذه الحالة أنه يطلق سمات الجمال ولا يمنعها ، إذ كما قد
تعودنا أن نستشف منه دم الجسم يسري في أعضائه وينضح على
اهابه ويجلو لنا بشاشة الحياة التي تمنها البشرة السوداء
والأمر الثاني التفريق بين الاحساس بالجمال والرغبة في الاستيلاء
على الشيء الجميل . فان الاحساس بالجمال يطلق النفس من أسرها
ولتكن الرغبة في الاستيلاء على الشيء الجميل قد توقع النفس في أسر

الحاجة . فإذا سلب العشق حرية العاشق وقيده بأهواه معشوقه فليس ذلك بحججة على أن الجمال ينافي الحرية في صاحبه أو في الناظر إليه





رأي شو بنهور

في معنى المجال في الفن والحياة



أرثر شو بنهور فيلسوف ألماني متشارم عبوس
الفكر يولكنته جريء على تشاومه ظريف على
عبوسة فكره . وهو أشبه الفلسفه المحدثين
بالشعراء وأقربهم الى المتصوفة وأعرفهم بالحياة
على ما في مذهبـه من الوع بذمـ الحياة

وكأنـه كان منكراً للحياة لا شاكـياً منها ، أو كأنـه كان يعيـب
خلفـتها عـيب الزـميل النـاظـر في عمل زـميـله لا عـيب الخـلـوق الذـي برـحتـه
به صـروف المـقادـير وـتـقـلت عـليـه وـطـأـة القـضـاء ، فـهـو لا يـصـوب سـهمـه
إـلـى عـصـور ولا إـلـى أـنـظـمة الـاحـيـاء في جـمـيع العـصـور ، ولا إـلـى
صـورـ الـحـيـاة وـهـيـاتـها وـماـيـنـاـهـ التـغـيـير وـالتـحـسـينـ من عـروـضـها وـصـفـاتهاـ ،
ولـكـنهـ يـصـوب سـهمـهـ إـلـى صـيمـ الـحـيـاة نـفـسـهاـ بلـ إـلـى صـيمـ كلـ حـيـاةـ
متـخيـلةـ حتـىـ حـيـاةـ الـكـونـ العـظـمىـ ! وـقـلـ "ـ فـيـ النـاسـ مـنـ يـوـغـلـ هـذـاـ

الإيغال ويجتريء هذا الاجتراء . فهو لا يسمعك صرخة ألم ولا ثورة نفس ولكنكه ييدي لك ملاحظة الناقد المتأمل الذي كأنما يلاحظ على شأن بعيد عنه يعرضهعارضون عليه ، والذين يحسبون شو بنور كغيره من المشائين عبداً متمرداً على حكم الحياة صارخاً في قفاتها يظلمون مذهبه أشد الظلم ويقفون به عند منتصف طريقه . فاما هو خصم عنيد للحياة صارخ « في وجهها » لم يعترف بسلطانها ولم « يعتمد أوراقها » ولم يسلم فقط بحتموقتها من أصلها حتى يقال انه متمرد عليها ! واني لأرى في هذه الجرأة من الطموح وحيوية الفكر ما المست أراه في تفاؤل الفلاسفة الآخرين الذين لا يكلفهم التفاؤل شيئاً كبيراً من جهد الفكر ورياضة النفس ، ولا يكونون فيه الا منقادين للقضاء اقلياد الصخرة لقوة الجذب والحيوان لغريزة الحياة ، ومن الغرائب ان يحتاج الفكر الى الحيوية حتى في الاجتراء على الحياة نفسها والانحاء عليها في أساس وجودها . ولكنها هي الحقيقة التي لا مراء فيها . وهي بعبارة أخرى أن حيوية الفكر تظهر في انكار الحياة والدعوة الى رفضها كما تظهر في انفاس المنغمسين فيها واعجابهم بمحظوظها ومحاسنها . وربما كانت حيوية شو بنور في اجرائه على أصول الحياة اكبر من حيوية تلميذه « نيشه » في الاجتراء على أصول الآداب وفضائل الاديان ، وان كان نيشه قد تخيل انه أبعد النقلة ووثب من التقىض الى التقىض حين تحول من انكار الحياة على مذهب شو بنور

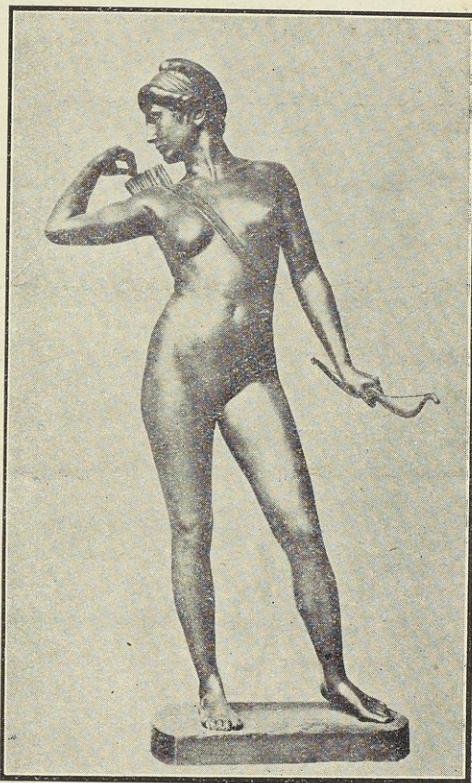
الى توکید الحياة وارادة القوة على مذهبه هو الذي دعا اليه بعد ثورته على الاستاذ الكبير وعزوفه عن دين العدم وسنة الانكار ، وليس الفرق بين « لا » الكبرى التي كان يقول بها شوبنھور و « نعم » الكبرى التي كان يقول بها نیتشة إلا كالفرق بين النهي والامر من فم الجبار القدير الذي ينهى ویأمر بقوة واحدة وحق واحد ، فكلها لا يفوه به إلا قائل مطاع في « لانه » وفي « نعمه » مخول أن یشير بيه ذات اليمين أو ذات الشمال

ولشو بنھور فلسفة واسعة زاخرة طرق فيها مباحث الفلسفة على اختلافها بمحاسنة المتندين وزکانة المتضوف وبساطة الفنان ، وفصل فيها رأيًّا في معنى المجال يشف عن غور عميق واحساس دقيق ونفس خلقت للحياة ولكنها صرفت الى انكارها بالفترة صغيرة في أداة من أدواتها أو بزيادة طفيفة أضيفت الى بعض مواهبه خارت على بقيتها ، ورأيه في المجال هو الذي یعنينا هنا وهو الذي أردننا أن نخصص له هذا المقال بعد أن یبينا رأينا آفاقًا في معنى مجال الحياة وجمال الفنون

وأقوم ما في رأي شوبنھور في معنى المجال الفني هو قوله ان مهمة الفن هي فصل الشكل « القالب » عن المادة لا أن يحکي لنا الشكل والمادة معًا حکایة صحيحة محکمة . لأن الفن موكل بالصور الباقية والماذج الحالدة لا بالكائنات التي توجد في الحياة مرّة واحدة ثم تمضي لطيفتها غير مكررة ولا مردودة . فإذا أراد المصور أن یمثل إنسانًا لفت

نظرة فليس الذي يعنيه من ذلك الانسان انه فرد من افراد نوعه مستقل بذاته وشكله وعمره ، ولكن الذي يعنيه منه أنه « قالب » يصلاح أن يكون نموذجاً عاماً لافراد كثيرين أو للنوع كله ، وهذا المنموذج هو الذي يأخذ المصور ويفصله عن مادته ليثنله مستقلاً عنها إما في تمثال أو صورة أو قصيدة من الشعر تنسيك الرجل الفاني بما تروي لك عنه من الاشكال الانسانية الخلقة بالدلوام ومعانها التي تعبر عنها تلك الاشكال . ويقول شو بنور : « ان ابراز الشكل وحده بغير مادته جوهري في كل عمل فني . وهذا لم يكن تمثيل الشمع أثر في النفس من الوجهة الجمالية ولم تحسب من هذه الوجهة بين أعمال الفنون ولو أنها حين تجاد صناعتها أهمن مئة مرة ان تخدع الناظر عن حقيقتها من أحسن تمثال وأجمل صورة ، فلو ان الخداع بمحاكاة الحقيقة هو غرض الفن وكانت تمثيل الشمع في المكان الأول بين الآثار الفنية ، غير أنها تبدو كأنها لا تمثل لنا الشكل وحده بل تقلل لنا الشكل والمادة معًا ، ومن ثم توهمنا ان الشيء المحكي ذاته ماثل أمام أعيننا ، فتختاف بذلك عن أعمال الفن الصادقة التي تبعد بنا عن الشيء الذي يوجد مررة واحدة ثم لا يعود الى الوجود أبداً : أعني الفرد ، وتقرب بنا الى الشيء الذي يوجد بلا انقطاع في الزمن الباقى الذي لانهاية له وفي العدد المطلق الذي لا حصر له وهو « الشكل » أو فكرته . فتمثال الشمع يبين لنا الفرد

نفسه أى ما يوجد
مرة ولا يعود إلى
الوجود ولكنه
 مجرد من الحياة
التي تعطى ذلك
الوجود الزائل
قيمه . فهو يبعث
فيما قشريرة
كأنها قشريرة
الناظر إلى الجنة
الهامدة . . .
ويشاهدان
الصور المحفورة
على النحاس



الأسود تم على ذوق أكرم وأرفع من الذي تراه في المحفورات
المصبوعة والنقوش الملونة وإن كانت هذه أحظى وأجل عند من
يقتضهم الذوق المذهب والنظر السليم . وسبب ذلك كما هو ظاهر
أن المحفورات السوداء تعطينا الشكل وحده في هيئته المجردة التي

يتناولها الادراك أما اللون فهو شيء متعلق بمحاسة النظر أو بالتفاعل
الخاص الذي يقع فيها »

ويجوز لنا أن نزيد على الشواهد التي أتى بها شوبنهاور ان
الصورة الشمسية لا تعجبنا كما تعجبنا صور الفنانين الحاذقين لأنها
تنقل لنا الشيء الحقيقي كما يبدو للحس في حين أن الصورة التي يرسمها
الفنان تنقل لنا شكل ذلك الشيء كما يبدي في نفس عقريه واعية تنظر
إلى معاني الاشكال المجردة لا إلى مادتها المحسوسة ، ونزيد عليها
كذلك ان الوصف الشعري الذي يعني باحصاء الموصوفات وترتيبها
وحكاية أحجامها وسرد أعدادها وتقييد موادها وألوانها لا يعجبنا
كما يعجبنا الوصف النفسي الذي ينفذ بنا لاول نظرة الى بواطن
الموصوفات وطبيعة إحساس الناظرين اليها والمفكرين فيها . وليت
شعرانا الا حصائين يقطنون الى ذلك ولا يعنون أنفسهم في وصف
الأشياء « كأنك تراها » فلا يبلغ من جهدهم في الوصف على هذا
الاسلوب الا أن يمسخوا بطاولات البريد الشمسية التي تعيد المنظر
« كأنك تراه » ولكنها لا تساوي في سوق الفن والتجارة اكثرا من
مليمين !

اما رأي شوبنهاور في وصف الجمال فبني على رأيه في كنه الحياة
وما وراء الطبيعة

فهو يقسم الدنيا « الى فكرة وارادة » ويقول ان الدنيا « في

الفكرة» هي الدنيا المكنونة قبل أن تظهر في حيز الاسباب والقوانين وعلاقة الاشياء بعضها ببعض ، وان الدنيا «في الارادة» هي هذه الدنيا التي نكابد أو صابها وقوانينها ولا نذوق السرور فيها الا لسبب من الاسباب التي تدور عليها أغراضنا وشمواتنا . ولما كان سرورنا بالجمال سروراً بلا سبب ولا منفعة فهو من قبيل الفكرة المجردة التي تحسها النفس المجردة وتنظر اليها كما هي في عالمها المنزه عن الاسباب والعلاقات . والسر في وضوح إحساسات الشباب وبجامها الكمال هو كما يقول شوبنهاور اتنا في عهد الصغر نرى «فكرة النوع» وراء صورة الفرد إذ تلوح لنا لأول مرة ، لاتنا تمثل في كل فرد نمودجاً جديداً لم تسبق لنا معرفة به ولم تظهر لنا أية دلالة أخرى عليه ، فالشجرة الأولى التي نراها تمثل لنا فكرة الشجر كاه أي نمودج هذا النوع الجديد الذي لا عهد لنا به قبل ذاك . ولا تقتصر على تمثيل شجرة واحدة زائلة كما هو شأنها عند من تواردت عليهم مناظر الاشجار الكثيرة ، «ولهذا نرى فيها الفكرة الافلاطونية التي هي في الحقيقة جوهر المجال»

تلك خلاصة وحيدة جداً من رأي شوبنهاور في معنى المجال تطلع القاريء على مجل فلسفته في هذا الباب ولا تغنه عن الرجوع الى مطولااته . فain تتفق في هذا الرأي وain فترق ؟ ؟ وain يتساوى القول بأن المجال «فكرة» والقول بأن المجال «حرية» ثم ain

يتعارضان؟ يتساويان حين نذكر أن «الفكرة» في رأي شوبنهاور لا بد أن تكون بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات ومن ثم لا بد أن تكون مطلقة من أسر الأسباب والضرورات، ويتعارضان حين نذكر أن الحرية لا تكون بغير إرادة وان شوبنهاور يخرج المجال كله من عالم «الإرادة المسببة» إلى عالم «الفكرة» المجردة

وما الذي يرجح القول بأن المجال «حرية» على القول بأن المجال «فكرة» بعيدة عن عالم الإرادة؟ يرجحه أن المجال تتفاوت في فوائدها وتفاصل في مقاييس افكارنا، ولو كان المعمول على ادراك «الفكرة» وحدها في تقدير المجال لوجب أن تكون الأشياء كلها جميلة على حد سواء

ونوضح ذلك فنقول: لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة «فقط» لما كان هناك داع لتفضيل فكرة الإنسان على فكرة الشجرة ولا صلح لنا أن نزعم أن الناس أجمل من الأشجار، ولكننا نعلم أن فكرة الإنسان غير فكرة الشجرة وان الفكرتين تتفاصلان في تقدير المجال ولا بد أن يكون تفاصيلهما بمزيدة أخرى، فما هي تلك المزيدة الأخرى؟

هي الحرية! فالإنسان أوفر من الشجرة نصيباً من الحرية ولذلك هو أجمل منها وأرفع في درجات الكمال، وكذلك تتفاوت «الفكرات» فلا يعنينا القول بأن المجال فكرة عن القول بأن الحرية

هي المعنى الجميل في الفكرة أو هي التي تهب الفكرة ما فيها من الجمال
ويقرر شوبنهاور ان المادة الصماء لا جمال فيها ولا أنس لديها
وأنها تقبض الصدر وتتقل على الطبع ، فام كانت كذلك ؟ لأنها عارية
عن الفكرة ؟ كلا ! فما من شيء محسوس إلا له فكرة مكونة في
رأي شوبنهاور . ولكنها تقبض الصدر وتتقل على الطبع لأنها تمثل
الركود والجمود أو تمثل التجرد من الارادة والحرمان من الحرية
والخضوع المطلق للقانون والضرورة . وقد ذكر شوبنهاور نفسه بعض
هذه العلة وقال « ان الحزن الذي تبعه المادة « غير العضوية »
في نفوسنا آت من ان هذه المادة تطيع قانون « الجذب » طاعة تامة
في حيث تتوجه الاشياء . أما النبات فان منظره يشرح صدورنا ويسرنا
سروراً كبيراً يزداد في نفوسنا كلما ترك وشأنه ، وسبب ذلك ان
قانون الجذب يبدو لنا كالمعطل في عالم النبات لأنه يتوجه الى خلاف
الجنة التي يجذبه اليها ذلك القانون . وهنا تتخذ ظاهرة الحياة لنفسها
طبقة جديدة عالية بين طبقات الموجودات تنتهي نحن اليها وتتصل
هي بنا ويقوم عليها عنصر وجودنا فترتاح اليها قلوبنا وتهش لها طبائعنا ،
وأول ما يسرنا في منظر النبات استقامته وانتصابه ويزداد منظره
بهجة اذا بسق من بين الاجمة الملتفة سرحتان عاليتان في الفضاء ،
وقد سميت شجرة الصفصاف بالباكيه لأن فروعها تتدلى الى الارض
وتحني قطع قانون الجذب بذلك الانحناء »

والى هنا يسبق الى ظنك ان شوبنهاور سيخلص من هذا القول الى ت نتيجه القرية فيقول ان الاشياء تحزننا بما فيها من معانٍ الخضوع وتفرحنا بما فيها من معانٍ الحرية ، أو أنها تحزننا كلاماً قل نصيحتها من الارادة وتفرحنا كلاماً عظيم نصيحتها من هذه الصفة ، ولكنه يدع هذه النتيجة القرية الى نتنيحة أخرى لا تؤدي اليها هي أن الاشياء تحزننا كلاماً ابتعدت عن عالم الفكرة واقربت من عالم الارادة ، وأئماً تفرحنا كلاماً ابتعدت من عالم الارادة واقربت من عالم الفكرة ، فيمشي مع « الحرية » شوطاً بعيداً في وسط الطريق ولكننه يفترق عنها في مبدأه ومنتها

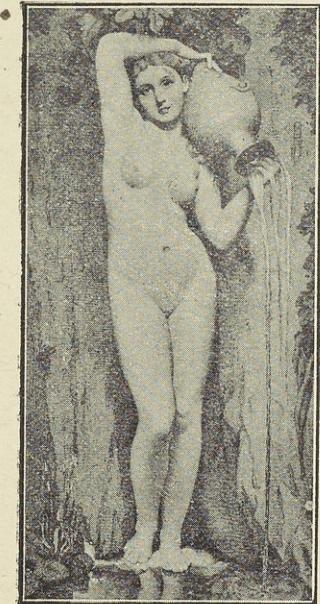


ولعلنا بعد إذ بینا ان الآداب والفنون هي أسمى مطالع الحرية واصدق ترجمتها تكون قد بینا أيضاً ان الأمم المغلوبة تنشد الاستقلال حين تنشد الجمال ولا تختلس من رسالة الحرية وقتاً تنفقه في رسالة الآداب والفنون



أصل الجمال

في نظر العلم



أثريبيه في الدماغ — بأي شكل
من الأشكال — مركز التناسل ، سواءً كان هذا التنبيه مباشراً أو

ألمنا في المقال السابق برأي أحد الفلاسفة في أصل الجمال ونريد الآن أن نلم برأي بعض العلماء في هذا الموضوع أو بالرأي الذي يراه العلم أقرب من غيره إلى تعليل أصل الجمال وسر الشعور به ، وخلاصته ان الجمال وليد الغريزة الجنسية وعنوان أهواء التناسل ، أو الرغبة في حفظ النوع ، كما يسمونها في اصطلاح النسوين يقول ماكس نوردو : « كل

آتياً من تداعي الفكر وتساوق الخواطر فهو الآخر الجميل . وصورة الجمال الأول في نظر الرجل هي المرأة في سن النضج الجنسي والاستعداد لتجديد النسل ، أي المرأة في عنفوان الشباب والصحة . في محضر هذه المرأة يحتاج مركز الغريرة النوعية من نفس الرجل بأقوى الاحساسات وأشد الخواطر وتشير رؤية « الظاهرة » وتصورها عنده أقوى بواعث السرور التي يمكن أن تستفاد من مجرد النظر أو التصور . وقد تعود الطبع أن يقرن بين صورة المرأة وفكرة الجمال فيغريه السرور الذي يستمد من ذلك بأن يصور كل ما يروقه أو يرى فيه معنى من معاني الجمال في صورة امرأة . فاللامة والشهرة والصادقة والحبة والحكمة وغيرها وغيرها إنما تمثل للحواس في هيئة مؤثثة ، ولكن لا أثر لكل ذلك فيما تدركه المرأة وتتصوره ، لأن رؤية شخص من جنسها لا تحرك بأي شكل من الاشكال مركز النسل من غريزتها ولا تجد المثل الأعلى من الجمال إلا في الرجل أما ما يشاهد من ان المرأة تقاد تقيس الجمال كله بمقاييس الرجل فسيببه ان الرجل لتفوقه عليها في القوة يستطيع ان يوحى اليها برأيه وان يسيطر على أفكارها التي تختلف فكره ، ومع هذا نرى في الواقع فكرة الجمال عند الجنسين تتقارب ولا تماثل كل المثال . ولو أتيحت للمرأة القدرة على الاستقلال بالنظر وتحليل ما شعر به ووصف

ما يدور بوجданها لا ثبتت منذ زمن بعيد ان مذهبها في الجمال مختلف
من وجوه أساسية شئ عن مذهب الرجل فيه » .

وهذا الرأي الذي أجمله ماكس نوردو هو رأي الكافة من
العلماء الاطباء الباحثين في المسائل الجنسية ، وهو المعلول عليه عند
جمهورهم في تفسير ذوق الجمال والشغف بالفنون . فلا تفسير عندهم
للفن والجمال إلا انه ميل متوقف من ميل الغريرة الجنسية ولا مكان
للاموال في العالم - على هذا القول - ان لم ننظر الى الحياة بعين
الرجل الذي يشتهي الانوثى أو بعين الانوثى التي تشتهي الرجل .
ولا سبيل - على هذا - الى التتحقق من ان الجمال شيء مستقل
عن العاطفة الجنسية إلا على شرط واحد هو ان يكره الرجال النساء
وان يكره النساء الرجال ... وان تقنع بينهم الصلة التي تنشئ النسل
وببعث الحب ، ثم ننظر بعد ذلك الى الدنيا فان رأينا فيها صورة
جميلة فهناك « فقط » يحق لنا ان نقول ان الجمال شيء والعاطفة
الجنسية شيء آخر وأن ليس حب الرجل المرأة أو حب المرأة الرجل
هو أصل الجمال في كل ما اشتغلت عليه الحياة ! وأنت تعلم ان هذا
الشرط غير ميسور ولا معقول فلم يبق لك إلا ان تسلم بأن الحياة
نفسها لا جمال فيها وإنما يأتيها الجمال من الواسطة التي تؤدي اليها ...
أى من العلاقة بين الذكر والإناث ! ولم يبق لك إلا ان تسلم بأننا لم نعط
الحياة لنشرع فيها بالجمال بل أعطينا الجمال لكي نلد الأحياء البعيدين

عنا ليس إلا ..! ولم يبق لك الا ان تسلم بأن النظر بطبيعته لا بد ان يرى الاشياء كلها دمية شائهة .. إلا اذا كان نظر « ذكر » أو نظر « أنثى » فعندئذ يجوز له ان يرى الدميم جميلاً والشائه قوياً ويسوغ له التمييز بين الصور والالوان والمعانى والخواطر التي تفرق بينها الفوارق وتختلف فيها الاوضاع والاصفات ..! فهل علمت الان الى أين يذهب منطق العلماء الذين يحصرون المعرفة والادراك في المعامل والارقام ولا يسمحون للفكر ولا للاحساس ان يخطو خطوة وراء التشريح والتحليل ؟؟ وهل علمت الان قيمة الحياة عند هؤلاء العلماء الذين لا يجعلون للحياة نفسها قيمة وانما يجعلون القيمة كل القيمة لأن تولد الحياة من اختلاف جنسين وان تنشأ من اجتماع حيين منفصلين ؟

ان الغريرة الجنسية لا ريب من أقوى غرائز النفس وأعمقها واكثرها تفرعاً وتوزعاً في جوانب الاحساس ودخلائل التفكير ، وانها ولا جدال على اتصال وثيق بشعور الجمال ومطالب الفنون لا تراها منعزلة عنها فيما ينظمها الشعاء ويتمثله المصورون ويغنيه المنشدون ، ولكن ليس معنى ذلك انها هي أصل كل شعور بالجمال وان الحياة نفسها لا جمال لها إلا من حيث انها علاقة بين ذكر وأنثى ووسيلة لاعطاء الحياة مخلوق جديد ، فان الحياة غاية الغريرة الجنسية ولديها هي الجسر الذي نعبره الى الحب والجمال . فان كانت الحياة في ذاتها

خلواً من معنى جميل أو مقصيًّا عليها بالحرمان من رؤية الكون في هيئة تسرها وترضيها وتوسيع لها من أكناف الأمل وتضاعف لها من بهجه الوجود ، فأي شيء يزيد عليها من اقسام الاحياء الى قسمين ؟ ثم ما فضل البقاء المشوه الذي تتسلل اليه باختلاف ذينك القسمين أو ذينك الجنسين ؟؟

أما اننا نصور الامة والشبرة والصدقة والحبة والحكمة وغيرها في صورة مؤثثة فاما يدل على ان الجمال في اذهاننا معاني كثيرة غير معنى الانوثة واننا نصور تلك المعاني في صورة المرأة لانها « الشخص المحسوس المحبوب » الذي تقدر الفنون على إبرازه للعيان . ولو لا ذلك لما جاز التشابه بين مثال المعاني في الدهن ومثال المرأة في النظر ما دامت المرأة قد استأثرت بكل صفات المجال في هذه الحياة .

و يقابل هذا أننا نصور الخواطر القوية في هيئة الرجولة ولا نستخلص من تصویرها كذلك ان العلاقة بين الرجل والمرأة هي أصل كل مافي الحياة من بأس وقوة وسبب كل ما يتصوره العقل من قدرة ونفذ ، على ان تماثيل الرجال في الفن اليوناني والروماني لا تقل عن تماثيل النساء والاعجب الفن بجمال جسم الرجل لا ينقص عن الاعجب الفن بجمالي جسم المرأة . فلماذا يعجب الفنانون بأمثلة المجال في أجسام الرجال ان كان في غريزتهم أن لا يحبوا المجال ولا يتخيلوه الا في أجسام النساء ؟ أقول هنا أيضاً ان المرأة لنفوتها على الرجل

في القوة استطاعت ان توحى اليه برأيها وأن تسيطر على أفكاره التي تختلف فكرها ؟ أم تقول انت المصورين والممثلين افأ عنوا قدماً بجمال الرجلة لتعجب به الناظرات من النساء دون الناظرين من الرجال ؟ ثم علام يدل تصويرنا بعض المعاني الحببية الى النفس في صور الاطيارات والغزلان وما نحا هذا النحو من فضائل الاحياء ؟ وعلام يدل تمثيلنا الجماعة والقصوة والضفينة والنسمة في هيئة الانوثة وليس هي مما يرتبط بالغريرة الجنسية ولا هي مما يخطر على الذهن من قبل العلاقة بين الرجال والنساء ؟ وهل كان من اللازم ان تخيل جميع المعاني المحبوبة والمكرورة في صور الرجال ليقال ان هذا التصور لا يتوقف على غريرة النسل وغرام الذكور بالإناث ؟

* * *

وفي مشاهدات الحياة كثير مما يدحض ذلك الرأي ويلفت القائلين به الى مواطن الزلل فيه . فالغريرة الجنسية مودعة في جميع الاحياء والنبات ولكن جمال الاشكال والالوان لا يُقسم لها جمِيعاً ولا يكون حظها من الجمال على قدر حظها من الغريرة الجنسية ، والزهرة التي تجذب الذبابة اليها بألوانها وقوتها لتنقل منها الملاحة الى أنثها هي أجمل في شكلها ولونها من تلك الذبابة التي لا تحتاج الى الالوان والقوس لتجذب الى أنثها ، ولو كانت الغريرة الجنسية هي سر

التفاتها الى الالوان والنقوش لوجب أن تطلبها في أنماطها قبل أن تطلبها
في الازهار والانوار

وقد عرفنا بالخبرة ان أحب الناس للجمال هم أرفعهم نفوساً
وأسلمهم أذواقاً وأحسنهم تهذيباً وأشوقهم الى المتع المعنوية والخصال
الكريمة ، وعرفنا بالخبرة كذلك ان الغريزة الجنسية قد تم وتقوى
في انسان لا حظ لهم من رفعة النفس وسلامة الذوق وحسن التهذيب
ومتعة الروح وكرم الخصال ، ولا يزيد الانسان في حب الجمال والفضنة
اليه بنسبة الزيادة في الغريزة الجنسية ولا يكون نصيه من النسل بقدر
نصيه من لذة المحسن الطبيعية والفنية او قدرته على فهمها وابتکارها ،
فغريزة التناسل قد توجد بعزل عن حب الجمال، وحب الجمال قد يوجد
بعزل عن غريزة التناسل، ولا معنى لأن يقال اننا نستجمل المرأة لأن
غريزة التناسل تسوقنا اليها وتضطرنا الى حبها، اذ لو كان الامر كذلك
لأغتنينا تلك الغريزة عن الجمال ولا أصبحت كلمة « المرأة » مرادفة
لكلمة المرأة الجميلة وأصبح وصف الجمال فضولاً لا يضيف الى
الأنوثة شيئاً من عنده ، وإنما الاولى أن يقال ان غريزة التناسل تعجز
بفردتها عن سوق الاحياء اليها فتتخد من الجمال شركاً توقعهم به في
أسرها و تستمياهم به الى حظيرتها ، وكلما عجزت الغريزة عن تبييه
النفس وحضرها على مؤاتتها زادت حاجتها الى معونة الجمال وعظم

اعتمادها على هذا المدد الغريب عنها ، فكأنه الحلوى التي يكسى بها
الدواء لتشهيه النفس اذا عجزت المنفعة البحتة عن الترغيب فيه .

* * *

ومما لا مراء فيه ان الحب يرينا من فتن الحياة مala نراه بغیره
وان جمال المرأة أغلى محسن هذه الدنيا المشهودة . ييد أن الحب
لا يخلق فتن الحياة وليس جمال المرأة هو كل ما في الدنيا من المحسن ،
ولكنهما يصبغان الدنيا بهذه الصبغة لأنهما يواظان القلب ويدركيان
الشعور ويعثان كوامن الوجدان فيفتح لما حوله ويرى مالم يكن يراه
ويستوعب ما كان يلمحه بطرف العين ويحسن ما كان في غفلة
عن حسه قبل أن تراءى الدنيا لخواطره في ثوبها الجديد . وكذلك
تفعل الحمر حين تركض بالشعور وتلهب الدم فانها ترى النشوان من
المحسن مالم يكن يراه في صحوه وتضاعف إحساسه وعطفه فيشعر
بسور هذا العطف في داخل نفسه ويشعر في الدنيا بهجة تخفي على
من حوله . ولذلك قيل ان الحب سكر أو أنه ضرب من الجنون
وقد أشرنا الى أن الغريرة الجنسية وسيلة لا غاية وجزء من
الحياة وليس كل ما في الحياة ، أما الغاية الحقيقة فهي التام والبقاء
وليس البقاء فحسب ، لأن الانواع تتقدم وتتجمل ولا تبقى على حالة
واحدة . ومتي كان التقدم والتحسين غاية من وراء الغريرة الجنسية

فلم اذا نحصر الجمال كله في نظره الجنس الى الجنس ولماذا نقول ان الجمال تابع لغريزة النوع - ولا نقول ان غريزة النوع تابعة للرغبة في الجمال ؟ كيف نعمل ان هناك نوعاً اجمل من نوع آخر ان لم يكن هناك مقياس عام للجمال غير المقياس الذي ينظر به كل نوع الى نفسه ؟ وكيف نعمل الاختلاف بين الام الاعالية والام الوضيعة في تذوق محسنات الطبيعة ولذات الفنون ان كانت حاسة الجمال مقصورة على غريزة النسل التي قل أن يمتاز فيها انسان على انسان بل قل أن يمتاز فيها الانسان على الحيوان ؟ فان الام العالية تدرك من آيات هذا الوجود مالا تدركه الام الوضيعة ولكنها لا تفضلها في قوة الغريزة الجنسية ان لم نقل انها دونها في قوة هذه الغريزة ، ولا يسعنا - وان غلونا في جهود العلم - ان نقول ان النظرة النوعية وحدتها هي التي تجعل الاوروبي يرى امرأته اجمل منظراً وأحلى شمائلاً من الزنجية المتبدية في خراب خط الاستواء

ولستنا نخطيء حقائق العلم المقررة إذا قلنا ان « الجمال » هو غاية الحياة وان الغريزة النوعية هي إحدى وسائله - او هي أقوى وسائله الى تلك الغاية . ان هذا لأصدق من القول بأن الفنون الجميلة نزعة جنسية محولة عن غايتها كما يزعم الباحثون في المسائل الجنسية من جماعة الاطباء « والفسسيين »

وان الغريزة النوعية لا تفهم الا على أنها مظهر جسدي للرغبة

في التام والبقاء وهي هي الرغبة التي يسعى اليها الفن من طريقه فيسبق
اليها الغريرة براحل لا تعبّرها الا في الزمن الطويل ، فالحب والفن
يسعيان معاً الى وجهة واحدة ويتعاونان معاً على المسير في سنن واحد،
ولهذا يشتق الحب الى الفن ويستنق الفن الى الحب ، ولهذا يجور
الشغف بالفن أحياناً على غريرة النسل فلا يهنا الفنانون بالنسل الموفق
السعيد . ولا ينحو حب المجال في الفنانين على حساب الغريرة النوعية
الا لانهما شريكان متكافلان يزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر،
فلا بأس على هذا المعنى أن تقول ان الغريرة الجنسية هي نزعة فنية
ظاهرة في ثوبها الجسدي وليس النزعة الفنية هي الغريرة الجنسية
المائدة عن الطريق





في الأساليب

كنت أتصفح الرسائل الأدبية التي كان ينشرها «أناول فرنس» في صحيفة «الطان» فانتهيت إلى المناقشة التي دارت بينه وبين شارل موريس على الأدب الحديث وأساليب المستقبل وفيها يقول بعد كلام اقتبسها من رسالة ذلك الأديب : «كما أنعمت النظر بدا لي أنه لا جميل إلا السهل ! فقد فرغت من ذوق الغوامض وصرت أرى أن الشاعر أو القاص الذي لا يعاب هو الذي يتمنى أن يكشف قارئه أي تعب ولو كان هيناً وإن يجسمه أية صعوبة ولو كانت طفيفة . وخير له أن يفاجئ التفات القراء ولا ينزعه منه انتزاعاً وإن يحدى التعليل على صبر القراء المطلعين وإن يعتقد أنه لا يقرأ إلا إذا قرئ سهلاً . فللعلم حق الانتباه والتأمل علينا وليس للفنون ذلك الحق لأنها بطبيعتها تسر ولا تقيد ووظيفتها ان تعجب ولا وظيفة لها غير ذلك . فيجب ان تكون جذابة بغير شرط ... » ثم

قال «وهناك فرق بين قصيدة تعنى ومقالة تكتب في الهندسة الوصفية،
ومن الواجب ألا تتكلفنا مسرات الفنون أقل مشقة»
وفي وسعك ان تقول ان أنا تأول فرنس لم يُبُدِ هنا مذهبه في
أسلوب الفن وحده وإنما أبدى مذاهبه في كل شيء من مضلات
هذه الحياة التي ينبغي - على رأيه - ألا تكون لها مضلات على
الاطلاق ! فلا يعنيانا ان نحس من هذه الحياة خيراً وراء الظواهر
التي تتراءى لنا ب نفسها ولا تفرض علينا أكثر من النظر اليها . و اذا
قيل لنا ان في الكون أسرارا لا يسمح التأدي اليها وان للنفس اغواراً
لا تطفو على وجه الحروف الأبجدية ولا تطير على السنة الشعرا
والقصاص ، وان للجمال معانى محجبة لا تبرز للناس في ثياب الحمام
في كل حين - فذلك لا يضيرنا ولا يزحزحنا عن رأينا ولا يعنيانا ان
تختلي على الكرسي الوثير ونطبق اجهفانا الكسلى ونفت قليلا من
الدخان في الهواء تتبعه باهة لطيفة تم على الذوق المترف والطبع
الأنيق ! ثم تقول : « لا ! لا ! أي حق للطبيعة أو للحياة في ان تعيينا
وتتقل علينا ؟؟ انا حقها الوحيد ان تدعنا نتماملا قليلا اذا نحن شئنا
ان نتخذ من ذلك دليلا سهلا على الرشاقة المدللة والتختنث الحبوب !
اما اذا هي ابنت ان تعرض علينا محسنهها كلها ونحن خادرون في بهو
السمير فلتذهب بها حيث تشاء ولتحجبها عن الانظار او تعرضاها على
الاشقياء الذين يطيقون فتح الاجفان والسعى على الاقدام . ! فاننا

لَا نرى فرقاً بين الطبيعة والقهرمانة التي نقدّها أجرها على
ان تخلو أمامنا كل ما عندها من التحف والمطربات ونحن في مقاعدنا
سادرون بين الاقداح والدخان وألحان التهويم والفتور . وليس
من شأن الظرفاء الناعمين ان يشغلوا أنفسهم بصاعب الحياة او يسمحوا
لخواطيرهم الوادعة ان تسألهما عن خبائياها واسرارها وتشاطرها هومها
وأشجانها وان يتأملوا وينقبوا اذا قيل لهم ان الدنيا عبث عابث
وان يجتهدوا وينقبوا اذا قيل لهم أنها جد خطير مستور المقاصد
والغايات . كلا ! كلا ! فما نحن وما ذاك ؟ وما للحياة وللناس تشغيلهم
بما يشغلها ومتى تحن ضمائرهم بما يتحن ضميرها ؟؟ انا على الناس واجب
واحد هو ان يسروا وهم نائمون غافلون ، وعلى الحياة واجب واحد هو
ان تسرهم ولا تتقاضاهم ثمناً من الفكر أو من الاحساس لذلك السرور ؛
فإن تجاوزت هذا الحد وأبت ان تنقل محاسنها لكل من يصفع لها
يديه وهو مستلق على سريره بجزاؤها الاعراض والاهمال وعليها ان
تبث عن الجن والملائكة لترتهم ما عندها . . . ، أو تنسئ لها
خلقًا جديداً غير الآدميين تتسلى بهم الى ان يقبل هؤلاء ان يتنزلوا
بعض التنزل فيعاملوها بغير ما يعاملون به الخادم التي تحمل لهم المائدة
وتنتظر الأمر على أضعف همسة وأقرب اشارة ! »

إِنَّا لَا نُشُوهُ فَلْسِفَةً أَنَّا تُولِّ فَرَانِسَ إِذْ نُصُورُهَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ

الهزيلة وإنما نجحنا ملائحتها على الهيئة التي تستحق بها نصيتها من السخرية والضحك ، والحقيقة أن من اسخف السخيف ان يقال ان مسرات الشعر والكتابه والفنون عامة لا تحتاج الى التأمل والانتباه . وأنها مطالبة بأن تعرض نفسها على الناظرين ليلتفتوا اليها حين يشاءون بلا جهد ولا استعداد

نعم ان المجال سهل معجب ولكن سهل على من ؟؟ وبعد ماذا ؟ على الذين يقدرونها ويحبونها ، وبعد الخبرة والمارسة والتذوق والتهذيب ، فليس معنى السهولة في جمال الفنون انه رخيص مباح لكل من يرمقه بجانب عينه ولا أنه غني عن التأمل والتفكير ، ولكن معناه انه سهل ساعي من يستعد له استعداده ويبذل فيه منه ، وكذلك الثرة الشهية سهلة ساعة لم يشتريها ويفرسها ولكن ليس معنى ذلك أنها تطر من السماء أو تطأح على التراب أو تمو كأنيو نبات السحر الذي لا يُسقي ولا يتعدى ولا يقام عليه بالعلم والاختبار . وان سهولة الفنون لغالبية « صعبة » على من يريد الوصول اليها مبتكرًا أو مجتنيًا بل هي قد تغلو وتصعب حتى تستدعي من التأمل والانتباه ما لا تستدعيه الهندسة الوصفية وما هو افضل منها في المعلومات والمعقولات

ولو كان الغرض من اشتراط السهولة في المجال ان يكون سهلا على كل من يطلبها بلا تفاوت في الدرجات والمواهب لما كان في الشعر

كاله قصيدة واحدة جميلة أو حقيقة بأن توصف بالجمال . فان شعر
شكسبير سهل على بعض القراء ولكنه من الألغاز والمعimitات على
آناس آخرين ، وان هؤلاء الآخرين قد يطيب لهم شعر بيرون ولكنه
اذا قرئ على من دونهم في الفطنة والشعور عابوه واستقلوه او
كابدوا في فهمه الصعوبة التي تنفي صفة الجمال في رأي أناتول فرانس
ومن جرى مجراه ، ونسوق الشواهد من شعراء العرب فنقول ان
المتنبي مثلاً صعب على من يستسهل البحتري والبحتري صعب على
من يستسهل الشعراء العذريين ، والشعراء العذريين صعب على من
يستسهل ابن معتوق والبهاء زهير ، وهكذا الى ان نهبط الى طبقة
تستصعب شعر هؤلاء جميعاً ولا تجد السهولة « الجميلة » إلا في الازجال
الغثة والأنشيد الوضيعة وما في منزلتها من الشعر المبتذل الركيك .
فإذا جعلنا السهولة ميزاناً لنا في الفنون واتخذنا الشيوع عنواناً على
السهولة فقد تمادى في ذلك حتى يصبح لغ الأطفال في عرفنا ماذج
البلاغة العليا ثم تنحدر البلاغة « سفلًا ! » حتى تنتهي الى بخوب
الشعراء وأئمة الكتاب والفصحاء !

فلا بد لنا إذن من التسليم بأن كثيراً من الشعر والكتابة قد
يوصف بالجمال وهو مع ذلك صعب مغلق على طبقات كثيرة من
الناس ، وان أسهل الشعر ربما كان أشيجه وأسيره ولكن لا يلزم

من ذلك انه هو أبلغه وأقر به الى الجمال والاقتان . وان ليست المعاني العامة هي أصدق المعاني وأولاها بأن تنظم في القصيدة وتوصف في البيان وإلا لـ لـ كنا على كل شعور رفيع يختص به العالية المثقفون بأنه شعور كاذب ومعنى غير صحيح ، وان الشعر الذي يسهل فهمه على سواد الناس ربما كان أسعد حظاً من الشعر الذي يفهمه النخبة القليلون ولكنه لا يكون من أجل ذلك أجود عنصراً ولا أحلى بالاصفاء والاشادات

ولما تقدح السهولة في الأدب ثم تدل على النبوغ والقدرة اذا أدى بها الأديب المعاني التي يؤدinya غيره بشقة واعتساف . أما اذا ضرب صفحأ عن تلك المعاني فلم يشعر بها ولم يعالج نظمها وتصویرها وتعدها الى غيرها مما لا يصعب نظمها وتصویرها فأي فضل له في سهولته وأي مقدرة له في اجتناب المأزق الذي تختبر به المقدرة و تستبرأ به الدعوى ؟ ذلك كالرجل المهزيل الذي يصر الجبار الضالع يرفع الصخرة من الارض ويسير بها الهوينا وهو يتصرف عرقاً ويتماسك جهداً فيقول لا ! حاشاي ان اتصبب مثله عرقاً او اتماسك جهداً ! اني لارباً بنفسي عن ذاك ! اني لارفع هذه الحصاة من الارض وأعدوها أمامه وهو محني الظهر متذبذب في مشيته وانا منتصب القامة خفيف القدمين !

يد ان السهولة لا تجد لها نصيراً أسوأ من أولئك الذين يجعلونها
وحدها أساس البلاغة ومحورها ويقولون أنها هي دون المغنى كل ما
يطلب من الشعر الرائق والنشر المستعدب ، ويوردون على ذلك أحياناً
اتفاق الأذواق على استحسانها والاعجاب بها ولكنها في زعمهم
خلت من المعاني ولا فضل فيها لغير « الصياغة الفظية » وطلاوة
العبارة ، وأشهر ما يوردون من ذلك قول كثير :

ولما قضينا من مخ كل حاجة
ومسح بالاركان من هو ماسح
ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
وشردت على حدب المطايا رحالنا
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا
تقعننا قلوبًا بالاحاديث واشتقت
بداك قلوب منضجات قرائح
ولم نخش ريب الدهري كل حالة
ولا راعنا منه سنيح وبارح
أو قول العتبي في وداع جارية :

ما غناء الحذار والاشفاق
وشآبيب دمعك المهرّاق
ليس يقوى الفؤاد منك على الوج
د ولا مقتنا طليح المآق
ما جنينا من طول ذاك العناق
غدرات الأيام منتزعات
بعد ما تنظرين كان تلاق
ان قضى الله ان يكون تلاق
هوني ما عليك واقني حياء
فالذي أخرت سريع اللاحق
أينا قدمت صروف المزايا

غُرْ من ظن ان تفوت المنيا
وعراها قلائد الاعناق
كم صفين متعا باتفاق
ثم ريعا بغرة وافتراق
قلت لفرقددين والليل ملق
سود أكناه على الآفاق
أبقيا ما بقىما سوف يرمي
بين شخصيكما بسهم الفراق

والقطعتان ولا ريب من أعدب الشعر وأسلسه وهما كذلك
خلو ما تعود التقاد ان يسموه « بالمعاني » في الشعر ، ولكننا لا نقول
مع القائلين أنها طلاوة لفظية ليس إلا .. ولسنا نحسب الفضل في
استحسانهما للحروف والكلمات كما يحسبون ، فان في الشعر شيئاً غير
اللفاظ « والمعاني » الذهنية وهو « الصور » الخيالية وما تتطوى
عليه من دواعي الشعور ، وأبيات هاتين القطعتين حافلة بتلك الصور
التي تتوارد على الخيال كما تتوارد المناظر للعين في الصور المتحركة ،
فيكاد القاريء ينسى كلاتها وحروفها وهو ينشدها لما يستشفه فيها من
الأحلية المتلاحقة وما يصحبها من الخواطر الحية المتساوية . ولو أن
الأبيات الأولى قلت الى اللوحة ملأت فراغاً من الشريط المصور
لا يملأه أضعافها من قصائد « المعاني » وقصص الواقع ، لأنها تنقل
لك صور الحجيج غاردين رائحين يجتمعون متاعهم ويشدون رواحهم
ويحثهم الشوق الى أوطنهم بعد ان قضوا فريضتهم التي فارقوا من
أجلها ديارهم وأصحابهم ، ثم تنقل لك صور البطحاء تعلو فيها أعناق

الابل وتسفل وتنساب أحياناً كأن تنساب الأمواج كردة بعد كرة وفوجاً
بعد فوج ، ثم تنقل اليك في المنظر نفسه صور الركبان أقبل بعضهم على
بعض جماعات جماعات يتجاذبون أطرافاً من الحديث ويتظارحون
آلافاً من الروايات والأنباء ويدهبون في ذلك كل مذهب تلم به
الأذهان في حشد كثير مختلف الاوطان والأعمار متباين التجارب
والاطوار ، ثم تنقل اليك صورة القائل وما في نفسه من الشجن
واللوعة وما يحركه من ذاك الى التسلی بالحديث واللياذ بغار الناس ،
ولا تفوتك من تلك الصورة قصة كاملة تنبئك عنها « القلوب
المضجعات القرائح » وتدل عليها رائحة السامة التي تتسم عليك من
قوله « ومسح بالاركان من هو ماسح » كأنما تمسح الاركان
لم يكن همه الذي يعنيه من تلك الرحلة وكأنه كان يتوصل به الى
مأرب يشغله عن الاركان ومن يمسحها من الماسحين ، والى جانب
هذه المناظر والخواطر حواش شتى يضيقها الخيال وتقليمها البديهية . فإذا
أنت من الآيات الخمسة في واديوج بالمشاهد ويتتابع بدوعي الشعور ،
وفي ذلك على ما نرى شيء غير فقط السهل الذي يحسب قوم من
القاد انه كل ما في هذه الآيات من فضيله الجودة ومزية الاعجاب
أما آيات العتابي فتروي لك قصة وافية من موقف وداع بين
فتاة غريرة لا عهد لها بشدائد الأيام ولا صبر لها على مصانعة الحوادث
ورجل مستسلم للخطوب عنده من لوعة الفراق مثل ما عندها ولكنه

يسري عنها ويخفض من جأشها ويريد أن يحمل على كاهله وحده مصيبيها بفراقه ومصيبيته بفراقها ، فيعود بالصبر حيناً وبالحكمة أحياناً ويستجمع لهذا الموقف كل ما أفادته التجارب من العبر وما علمته الصرف من التجمل ، ثم يغلبه لاعج الهم ويضيق به التأسي فلا يكفيه منه أن الناس يفترقون في الحياة ويلتقون ولا يرضيه أن العشاق يتبعون بالصفاء ويحرمون ، بل يذهب إلى التأسي بفارق المنايا ، بل إلى ذلك القضاء الأبدى الذي يضرب بين الفرقدين باسمه وإن أملى لهم في البقاء ومد لها في آماد اللقاء ، وحول ذلك الموقف تارىخ نفسيين يحول الخيال من ماضيهما القرير وحاضرهما الالم ومستقبلهما المريب في مسرح يتعاقب عليه الحب والصفو والأمل والشجو واليأس والعذاب وكل ما يحييك بالنفس ويدور بالخلد من ضروب الاحساس والتفكير في هذا المجال . وليس ذلك كله بالبداهة لفظاً بحثاً وكلاماً سهلاً خلا من كل معانٍ المجال إلا حلاوة السهولة التي فتن بها أنا ناول فرانس وأمثاله من فلاسفة الاندية الناعسة والكراسي الوثيرة والجمال الذي يشتري هو الناظرين ولا يشتري الناظرون .. !

و فهو ما تقدم ان الصور الخيالية والمعاني الذهنية هي الاصل في جمال الاساليب في الأدب والفنون ، وان الفنان لا يطالب بأن يكون سهلاً لكل انسان ولا يقيد بالمعاني والحواج التي يتساوى في التقطن لها والتاثر بها جميع الناس

(في الاساليب)

٢

الاسلوب الافرنجي

الاسلوب الافرنجي هو كل اسلوب معيب في رأي فئة من النقاد يحسبون في هذا العصر أنهم حذقوا ملكرة اللغة وورثوا سليقة البلاغة العربية ، وكل اسلوب ركيك مستضعف فهو عند هؤلاء النقاد من الاساليب الافرنجية التي طرأت على اللغة بعد اختلاط الشرق بالغرب ومعاجلة الترجمة من لغات الافرنج الى لغة العرب ، لأن الركاكة شرط أصيل يشترطه الافرنج في كلامهم ولا يقرن البلاغة عندهم إلا اذا شئت بشيء منه ! وليس الأمر كذلك ولا هو مما يخطر على بال ناقد رشيد ، فان الافرنج يعيرون الركاكة كما نعيها وينتقدون ضعف التأليف كما ننتقده ويعنون أشد العناية باجتناب الخطأ في النحو والصرف والقواعد الأساسية المتفق عليها . ولكن قادنا الذين يجهلون اللغات الافرنجية يفوتهم ذلك ويختصرون المسافة اذا استعرضوا الاساليب ، فما استحسنوا منها فهو للعرب خاصة وما استهجنوا فهو للافرنج عامة ! وبحسبون ان الصحيح القويم من العبارات لا يمكن ان يكون إلا عربياً وان السقيم المعوج منها لا يمكن

ان يكون إلا أعمى ، بطبيعة في اللغات لا تحول عنها ولا يد فيها
للمتكلمين بمفرداتها وتراكيها . وهذا هو الخطأ الذي نود ان نكتب
عنه لنرد العيوب الى أصولها ونوجه بنقد الاساليب الى وجة أقرب
الى الهدایة وأقمن بالتوقف للأسباب الصحيحة

* * *

كان قراء اللغة العربية وبعض اللغات الافرنجية يحسبون ان
كثرة الفصل بين الجمل خاصة من خواص الاسلوب الافرنجي
تطرقت الى لغتنا من الترجمة أو من حماكة كتاب الغربيين في رصف
الجمل وتقسيم العبارات . ولست أشك في ان الافرنج أقل منا استعمالاً
لحروف العطف والصلات الفظية الظاهرة وان بعض المقتدين بهم
قلوا عنهم هذه العادة الى الكتابة العربية فاحسن منهم من احسن
وأساء منهم من أساء . ولكنني اعتقد ان الفصل بين الجمل خاصة من
خواص التفكير قبل ان تكون خاصة من خواص حروف العطف
وصلات الالفاظ ، وأرى ان كتاب الافرنج أكثر منا عناية بوصل
المعاني وترتيب الموضوعات وان ظهر على ترجمة أساليبهم أنها أقرب الى
التفكير والانقطاع بين الجمل والفقرات ، وأرى من ناحية أخرى ان
البلاغة العربية لم تخلي من الفصل الكثير في أساليب أفصح الفصحاء
وأقدر الكتاب والمنشئين ، بل هذا القرآن الكريم توالى فيه
الآيات أحياناً بلا صلة لفظية بينها غير الصلة التي تفهم من سياق الكلام

وتؤديها علامات الترقيم احسن أداء . وسأفتح المصحف الساعة على
أول الآيات التي تصادفي وهي هذه الآيات من سورة آل عمران :
« ولا تحسن الدين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياه عند ربهم
يزرون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلتحقوا
بهم من خلفهم، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من
الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين - الذين استجابوا لله
والرسول من بعد ما أصحابهم القرح للذين أحسنوا منهم واقتوا أجر
عظيم . الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم
الله إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » وهي آيات تقع منها علامات
الترقيم موقع حروف العطف في أكثر مواضع الفصل والوصل
ولا يؤخذ عليها ذلك عند قارئ من قراء العربية الأقدمين او المحدثين ،
وقد حفظها الناس ومثلوا بها للبلاغة العالية قبل ان تنفل أساليب
الافرنج الى اللغة العربية بعدة قرون

* * *

وتارة يصفون بالتفريح كل اسلوب لم يجد فيه صاحبه حذو العرب
الجاهلين والمحضرمين الذين سبقوا الكتابة والكتاب وغبروا في
عهد البداوة على فطرتهم الأولى البعيدة عن العجمة والحضارة
وقد نفهم غرضهم من ذاك اذا قصدوا الرجوع الى اسلوب النظم

في الجاهلية ، لأننا نحفظ من شعر ذلك العصر قصائد وأبياتًا يجتمع
لنا منها نمط في الشعر يصح أن يسمى أسلوبًا يقتدي به ويطبع
على غراره

أما إذا قصدوا الرجوع إلى أسلوب النثر في الجاهلية فain هو
ذلك الأسلوب وأين هي الكتب والرسائل التي وضعت فيه ؟؟ لأننا
لا نروي من كلام الجاهليين المتثور إلا فقرات مبتورة وأمثالًا موجزة
وخطبًا مشكوكا فيها هي في ذاتها فقرات وأمثال لا صلة بينها ولا وحدة
بين أجزائها ، ويمكن أن تستخرج من هذه البقايا المشتتة رأيًّا في ذوق
البلغة الموجزة عند العرب ولكننا لا نستطيع أن تستخرج منها
مذهبًا في الأساليب المسببة والباحث المستفيضة التي تجري فيها المعانى
والمعلومات شوطًا أبعد من غاية المثل السائر والكلمة العائرة

وليس الذي نرويه من قصائد الجahليين بالنموذج الذي يقتدي
به في النظم لأنها في الغالب أبيات مبعثرة تجمعها قافية واحدة يخرج
فيها الشاعر من المعنى ثم يعود إليه ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة
ولا ترتيب مقبول . وفي تلك القصائد - غير التفكك وضعف الصياغة -
كثير من العيوب العروضية والتكرير الساذج والاقتسار المكره
والتجوز المعيب الذي يؤخذ من روایتهم له ان الشعر لم يكن عندهم
فناً استقل به صناعه الخبريون به وإنما كان ضرباً من الكلام يقوله
كل قائل ويروى الحكم منه وغير الحكم على السواء

* * *

وأضعف من القول السابق في التفريق بين الاسلوبين الافرنجي والعربي ان يجعلوا من خصائص الاسلوب الأول استعمال الكلمات الدخلية التي لم تسمع عن العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، فان أمثل هذه الكلمات قد دخلت في شعر الجاهلية ونشرها وفي القرآن الكريم وسمعت في الخطب المأثورة التي تقللت عن الصحابة وبلغاء الامويين ، ولم يخل منها كتاب واحد من امهات كتب الأدب في عصر من العصور ، وربما وجدت في قصيدة واحدة للاعشي او اطروفة بن العبد اكثراً مما تجده من هذه الكلمات الدخلية في قصيدة عصرية ، ولا نذكر جماعة المتأخرین من الشعراء والكتاب في أيام الدولة الاموية او الدولة العباسية التي تقل فيها من اسماء الشياب والطعام وأدوات الزينة ومصطلحات العلوم والفنون ما قد يربى على جميع ما تلقناه نحن في العصر الحديث

* * *

وبعضهم يأخذون على ما يسمونه بالاسلوب الافرنجي قلة المحسنات البدعية والاستعارات الحجازية يضئونها من مزايا بلاغة العرب وهي في الحقيقة قسط مشاع بين جميع اللغات اذا هي صدرت عن الطبع المرسل ولوحظ فيها الاعتدال والذوق السليم . فما كان العرب اكثراً مجازاً واستعارة من امم الغرب ولا عهد في بلغائهم المطبوعين

الولع بهذه المحسنات التي أفرط فيها المقلدون وطلاب البلاغة على جهل
بأسرارها وعجز عن التقليد الصحيح فيها . ولقد عاب الققاد والثقاف
الاكثر من المحسنات الصناعية وعدوها بدعة مستحدثة على اللغة
العربية واستجبوها فيها ان تكون في الكلام « كالخيلان في الوجبات
او كالحلية في الشياط » وان تجبيء عفواً بلا كلفة مصنوعة ، او تقصد
قصدًا ولكن لتوضيح المعنى وتجميله وليس للعرض على الانتظار
ومالمباهاة بالاحتياط والاقتدار

ولكن "أوجه" كلامهم في اختلاف الاسلوب الافرنجي عن
الاسلوب العربي هو ما يرجع الى الذوق والملائكة ، إذ يقولون ان
لغة العرب ذوقاً خاصاً وملائكة مستسراً في تراكيبها هي أشبه شيء
بالملامح الدقيقة التي تراها العين ولا يصفها اللسان ، أو هي روح اللغة
التي تسري في معانيها وتنظم تراكيبها ولا تخدعها الضوابط والتعريفات .
وذلك كلام قديم قيل في اللغة العربية كما قيل في غيرها . وكتب فيه
ابن خلدون فوق الغرض حيث قال : « ان المتكلم بلسان العرب
والبلیغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وانهاء
مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جده . فاذا اتصلت
مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملائكة في نظم الكلام عن
ذلك الوجه وسهل عليه أمر التراكيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير

منحي البلاغة التي للعرب . وان سمع تركيئاً غير جار على ذلك المنحى
مجه ونبأ عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر إلا بما استفاده من
حصول هذه الملكة . فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محلها
ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل . ولذلك يظن ^{كثيراً} من المغفلين
من لم يعرف شأن الملكات ان الصواب للعرب في لغتهم اعراباً أو بلاغة
أمر طبيعي ويقول : كانت العرب تنطق بالطبع . وليس كذلك . وإنما
هي ملكة لسانية فينظم الكلام تكنت ورسخت وظهرت في بادئ
الرأي أنها جبلة وطبع ، وهذه الملكة كما تقدم انا تحصل بمهاراتة كلام
العرب وتكرره على السمع والتقطن لخواص تراكيبه . وليس تحصل
بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان . فان
هذه القوانين انا تقييد علماً بذلك اللسان ولا تقييد حصول الملكة
بالفعل في محلها . وادا تقرر ذلك فملكه البلاغة في اللسان تهدي البليغ
إلى وجوه النظم وحسن الترکيب الموافق لتراتيب العرب ولغتهم
ونظم كلامهم . ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل
المعينة والتراتيب الخصوصة لما قدر عليه ولا واقفة عليه لسانه لأنه
لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده . وادا عرض عليه
الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلغتهم فينظم كلامهم أعرض
عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارسوا كلامهم . وربما
يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين التحوية والبيانية .

فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المقادرة بالاستقراء وهذا أمر
وجداني حاصل بمحاكاة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم »
فهذا الكلام على كونه غامضًا لا يصلح الاحتجاج به كما يقول
ابن خلدون هو أوجه آرائهم في هذا المعنى وأجدرها بالبحث والتدبر.
فالمملكة العربية هي الفارق الأكبر بين الأساليب الأصيلة في اللغة
والأساليب الطارئة عليها ولا سيما في أنواع الكتابة الإنسانية التي
تقتصر العناية فيها على صياغة الجمل القصيرة ولا يلتفت فيها إلى إطراح
المعاني وسياق التفكير. فإن أظهر ما تكون البلاغة العربية في الجملة
القصيرة وفي الخطب التي هي سلوك مجموع من الجمل القصيرة كما قدمنا.
ولكن ما مزايا هذه «المملكة العربية» ولأي شيء نحتفظ بها ونجده
في تحصيلها؟

ان من مزايا هذه المملكة ما هو مستمد من أسلوب التفكير
الذى خص به الذهن العربي دون أذهان الأمم الأخرى ، كالسخنة
التي تعرف بها وجوههم واللون الذي يميز بشرتهم واللهجة التي تنطق
بها ألسنتهم ، فلا فضل فيه غير أنه تفكير عربي وليس بتفكير مصرى
أو هندي أو أوربى ، وليس من الضروري أن تكون هذه المزايا
حسنة كلها وإن يحتذى الكتاب والشعراء حذوها في الصغار
والكبار إلا إذا كان من الضروري أن يجعل لنا أنوفاً كأنوف
العرب ورؤساً كرؤسهم وأعضاء تحكي أعضاءهم في الشكل والحجم

والحركة . ولا يقول بذلك أحد ولو كان من أشد الغالين في حب العرب والتعصب للشمائل العربية ، وأغا الشأن للعادة في استحسان المزايا اللغوية التي من هذا القبيل فإذا تغيرت العادة تغيرت معها اسباب الاستحسان

ومن مزايا الملكة العربية ما يحسن في النوق لأنه يفيد الكلام قوة ووضوحاً ويزيد المعاني صقلأ وبياناً ويعصم اللسان من الاسفاف والركاكة ويمده بذخيرة من أساليب التعبير ينفق منها في النظم والكتابة . فهذه المزايا هي التي تحتفظ بها وتوسيع فيها ونضيف إليها ما يوانها ويتمشى معها من مزايا اللغات الأخرى ، وتنصرف فيها تصرف صاحب الدار في داره فلا تقف حيالها مقيدين مأسورين كأننا نترجم عن غير أنفسنا ولنلفظ بغير ألسنتنا ونفكر بغير عقولنا التي ركبتها الله في رؤسنا ، وما من شرط في كل ذلك غير المعرفة والاحسان لنذكر أننا في عصر « انساني » جمجم الناس حصة فيه — وفي اللغات خاصة — فلا نحسب ان عالم القول والكتابة مستقل عن عالم الحياة الذي اشتركت فيه العالم والازية وتقابلت فيه الأمم من كل جيل ومكان



علم الاخلاق

الى يقوموا بـ

(تأليف ارسسطو — ترجمة احمد لطفي السيد)

من العقول ما هو بالظواهر الطبيعية أشبه والى معالم الكون
أقرب . تطلع عليه ولو لم تكن لك فائدة من الاطلاع عليه ، وتحب
أن تراه كتحب أن ترى نجم القطب أو جبال هلاميا أو شلالات
نياغرا ، وتنشده كأنه عقل « الناس » الذي لا يستثر به انسان
دون انسان وليس بعقل شخص من الأشخاص كان حيًّا على ظهر
هذه الارض في يوم من الايام . فهو منظر لمن يراه ويدرسه ويستعيره
لنفسه ساعة التأمل فيه وليس بحصة موهوبة لصاحبها الذي ينسب
إليه ، وهو هبة انسانية عامة لكل شعب وكل فرد ، بل هو هبة
طبيعية يؤتها الانسان كما يؤتي النور والهواء وخصائص الحياة ،
فلا نصيب لصاحبيها منها غير نصيب الأمين من الأمانة التي أودعها
ليوصلها إلى ذويها ، وكأنه لا امتياز له في الأمر إلا أنه هو الذي
وقعت عليه القرعة في حمل تلك الأمانة فكان لذلك أمينها المحتي

لها بغير اجتباء ! وقد يبدو لك أنه لا حق لمن كان كذلك في أن يفتخر بالعقل الذي عهد اليه لأنّه عقل لا ترى عليه طابع الملكية الشخصية ولا يمنعك مانع أن تدعيه مع صاحبه وأن تأمهه على حصنك فيه . ! فهو منحة الهيبة عامة لأنّه أكبر من أن يكون صفة شخصية خاصة . وكذلك كان عقل « ارسسطو » الكبير الذي لو ظهر عقل بغير واسطة لكان هو أولي العقول أن يظهر للناس مجرداً من واسطة الجسم مستغنياً عن أدوات الحواس والاعصاب .

عرفت اللغة العربية ارسسطو قبل عدة قرون وأخذت بنصيب من هذا العقل الشائع كما أخذت بنصيب من المدنية والتاريخ ، ولكنها لم تحفظ لنا أثراً من آثاره الكامنة ولم تبق لنا من قضاياه وآرائه إلا ما تفرق في أثناء الكتب من نبذ مبتورة تنسب إليه تارة وتغفل من النسبة تارات . فلا محيطٌ ، اذا قلنا ان أكمل آثاره في اللغة العربية هو هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن ، وهو كتاب علم الأخلاق الذي نقله عن الفرنسيية الاستاذ الفاضل احمد لطفي السيد وأتم طبعه في العام الماضي ، ف婢 به لغته أصدق البر ورد إليها حقاً وافياً من حقوقها بين اللغات في المعلم الاول ، وجاءنا بدليل جديد على ان هذه اللغة أصلح في عصرنا حالاً وأوفر قسمها في العلم والأدب مما كانت في إبان المدنية العربية والدولة الإسلامية . لأننا تقابل بين

ترجمة كتاب الاخلاق وبين ما اطعننا عليه من بقایا ارسطو في الكتب المترفة فنجد التفاوت واضحًا بين الترجمتين ونرى موضع كثيرة ييز فيها الاستاذ لطفي من تقدموه في الدقة والفهم وصفاء العبارة ، وقل أن نرى موضعًا يعكس فيه هذا الحكم ويظهر فيه فضل للمتقدمين على الاستاذ في هذه الامور

ولا يفهم من قولنا أن عقل ارسطو من العقول التي تحب أن تطلع عليها ولو لم تكن لك فائدة منها ان كتب الحكيم قليلة الفائدة أو أنها مكتوبة لغير قراء هذا الزمان . فإن مباحث ارسطو تحمل فائدتها لكل زمان و يقرأها المتأمل وهو على يقين من أنها تنفع ذهنه وتفتح قريحته ولو لم تكفل له الوصول إلى الحقيقة و المنفعة العملية في كل حين . ولست استثنى من ذلك المباحث التي عنى فيها الحديث على القديم وسلكت فيها التجارب العصرية طريقة غير طريق الفاسفة اليونانية . فان العقل الكبير لا يضل كل الضلال وان تقاصته الوسائل وقصرت به الأسباب . ولا يزال عقلاً كبيراً حتى في الخطأ الكبير الذي يقع فيه ، فهو كيما كان «موضوع» خالد لا يسهل علينا اجتنابه ولا يجعل بنا أن نحكم عليه بظروفه دون طبيعته التي هي أئزم له وأدل عليه من الظروف ، وربما كانت فائدة كتاب الاخلاق لنا نحن المصريين خاصة أكبر من فائدته لليونان الذين كتب لهم والشعوب

الغرية التي تعني به الى هذه الايام على وفرة ما لديها من آثار
الفلاسفة في الاخلاق والآداب

ذلك أن سواد الأمة المصرية - وكثيراً من الشرقيين - يفهمون
من الاخلاق أنها فضائل سلبية تبعد الانسان عما يشينه وتهانه أن
يقتل وأن يسرق وان يعتدى على غيره وان يدخل أو يجئ أو ينقاد
لشهواته ويشتغل بصفاته

ويفهمون من جهة أخرى أن القانون الاحقى سواء أكان
أمراً بالفضائل أم نهيًّا عن الرذائل هو سيطرة خارجة عن الانسان
تملي عليه ما يفعل وما يترك وتجيز له او تحرم عليه ولا شأن له هو في
جميع ذلك غير الطاعة والاذعان. ولا نعرف شيئاً أو بل على الاخلاق
ولا أشد إِيذاء للهمم من تمكن هذه العقيدة المنكوبة في الصغار
واعتبار الانسان عبداً لقانون يساق الى الخير أو قوة سلبية لا تحسن
من الاعمال الا ان تجتنب القبيح وتبتعد عن الضرر. وهذه هي العقيدة
التي يمحوها مذهب ارسطوفي الاخلاق جهد ما تستطيع المذاهب
الفلسفية أن تحوِّل أمثال هذه العقائد . فان أجمل ما في كتاب ارسطو
انه سجل فيه خلائق اليونان الایجابية وجعل الفضيلة كلها في العمل
والانشاء لا في التخلية والسكنون ، وهذه هي مأثرته التي يدها له
شراحه قبل كل مأثرة في هذا الكتاب

فالعمل الخاص للانسان باعتباره كائناً مختلفاً عن النبات والحيوان

اما هو وحي الانسان من داخل نفسه وقانونه الذي تمليه عليه فطرته وهو عند ارسطو « فاعلية النفس واستمرار افعال يصاحبها العقل » ثم يجب أن نتحقق هذه الشروط « طول حياة تامة بأسرها . لأن خطافة واحدة لا تدل على الربيع ، لا هي ولا يوم صحو واحد . فلا يمكن أن يقال ان يوم سعادة واحداً بل ولا بعض زمن من السعادة يكفي لجعل الانسان سعيداً محفوظاً » ويزيد على ذلك أن « ليس سواء البتة أن يوضع الخير الأعلى في حيارة بعض الملوك أو في استعمالها ، أي في مجرد القابلية ، أو في الفعل ذاته . ان القابلية يمكن أن توجد في الحقيقة من غير أن تنتج أي خير . مثال ذلك في رجل ينام ، أو في رجل يبقى غير عامل لأي سبب آخر . أما الفعل فهو على ضد ذلك لا يمكن البتة أن يكون في هذه الحالة ما دام انه بالضرورة يُفعل وانه فوق ذلك يُفعل حسناً - ان الأمر هنا كالحال في الالعاب الاولمبية . وليس أجمل الرجال وأقواهم هم الذين يأخذون التاج . انه لا يأخذه إلا المتنافسون الذين يشترون في المنازلة . فبيتهم فقط يكون الظافر . كذلك أولئك الذين يسيرون سيرة صالحة هم الذين يستطيعون أن يتطلعوا في الحياة الى المجد والسعادة »

فلا فضيلة إلا في قيام « الانسان » بعمله الخاص الذي يمتاز به على عامة المخلوقات ، ولا سعادة لذلك الانسان بغير الفضيلة

وارسطو أقرب الى العلماء منه الى الفلاسفة . فهو لا يبحث عن العلل الاولى والاسرار الخفية ولا يعني بغير تقرير الواقع واستقراء الحوادث . ولم يدع هو انه وصل الى علل الاخلاق الاولى واسرارها الخفية بل قال في صراحة « ان سبيباً مماثلاً للسابق يضطرنا ان لا ننفي الصعود الى العلة في جميع الاشياء على السواء . فأنه في كثير من الاحوال يكفي أن يبين بخلاف وجود الشيء كما يفعل بالنسبة للمباديء ، لأن وجود الشيء هو مبدأ ونقطة ابتداء . ومع ذلك فان من المباديء ما قد اكتشف وعرف بالاستقراء ومنها ما اكتشف بالحساسية ، وأخرى بنوع من العادة ، وأخرى تأتي من أصل آخر . فينبغي تعلم معالجة كل واحد من هذه المباديء بالطريقة التي توافق طبعه ، وذلك أفضل ما يبذل من العناية لتحديد بيانها . ان هذه المباديء أهمية كبرى في الاستنتاجات وفي النتائج التي تستخرج منها . فتمد أصحاب من قال : ان المبدأ أو البداية هو أكثر من النصف في كل شيء ، وانه وحده يكفي لايصال كثير من النقط في المسائل التي يناقش فيها »

ولهذا لا تجد في كتاب ارسسطو أرثوذكسية الشعر وخشوع اليمان ولا تلك الفلسفة الجميلة المنغومة التي برع فيها استاذه أفلاطون وامتنزحت بجميع آراء فيثاغوراس . بل هو أول من فصل بين

الرياضيات الرمزية والفلسفة الصوفية وبين حقائق الاستقراء وعلوم الاختبار والاحصاء . وآراؤه في الاخلاق مأخوذة كلها من مراقبة الحياة العملية في بلاد اليونان والقياس على ما يفعله الناس وما يدحونه وما يذمونه من الفضائل والعيوب . لكنه مع هذا لم يخل من « مثل أعلى » للفضيلة هو أسمى ما يرتفع اليه العقل ويصبو اليه الخيال . فإن من دواعي العجب ان مذهبه العملي هذا في طلب السعادة ينتهي به الى تقرير غاية للانسان لا يعودوها الخيال وان جمجم ولا يطمح النظريون الى أبعد منها وان أوغلوا في التخمين والتزويه . فالانسان الفاضل عنده هو الانسان السعيد . ومن ثم يجب ان تصدر الفضائل منه عن سجية وطوعية لا يشوبها ألم ولا اقسار ! والى أين يذهب الانسان بالخيال أبعد من هذا المقام الرفيع ؟ انا لنعلم أن من الفضيلة أن يقدم الانسان على ما يكره قضاء للواجب ، وان الواجب الذي يلذك أن ت عمله لا فضل لك فيه . وارسطو لا ينسى ذلك في بعض كلامه فيقول : « حينئذ يشرط فيمن يسمى شجاعاً الصبر على المشقات المؤلمة كما قد قيل . لذلك نرى ان الشجاعة لكونها أمراً صعباً جداً يكون الثناء عليها هو في غاية الانصاف . لأن احتمال الألم أصعب من الامتناع عن اللذة ، ولكنها يعود فيقول : « ومع ذلك ينبغي ان نفهم ان غاية الشجاعة هي دائماً شيء لمزيد جداً ، وان الظروف المحيطة بها هي وحدها التي تحجب عنها جاذبها القوي . يمكن أن يشاهد

بسهولة شبه هذه الظاهرة في مباراة الجبار . فان الغاية التي يقصدها المصارعون هي حقاً لذينه جداً لديهم . اما هي التاج ، اما هي الكرامات التي يطمعون فيها ، غير ان الضربات التي تصيبهم مؤلمة ، لان المصارعين على كل حال هم من لحم وعظام . وكل التعب الذي يلقونه حقيق بأن يكون شاقاً جداً » ثم يعن في ذلك فيقول « .. يكون الموت والجرح عند الرجل الشجاع اموراً شاقة ، وانه لا يتعرض لها الا اذا كان مكرهاً . انه يقتسمها لان اقتحامها جميل ولأنه يكون من العار الا يفعل ، ولكن كلما كانت فضيحة كاملة وبالطبع سعادته تامة . كان أسفه من الموت أشد ، لأن الحياة بالنسبة لرجل كهذا لها كل قيمتها ، وحرمانه النفس نفس النعم التي هو يقدرها حق قدرها . ذلك اما هو ألم شديد ومع ذلك لا ينقص من شجاعته شيء بل ربما زادت لأنه يؤثر على كل هذه النعم الشرف الذي يكسبه في الحروب » و إذن — على رأي ارسطو — لا يكون الانسان في شجاعته الا ختاراً بهذه الكيفية بين امررين أو عدة امور ! »

ولانصراف ارسطو عن البحث في علل الفضائل الأولى الى البحث في الأعمال الفاضلة المشاهدة بالحسـ كان معياره الارجح للأخلاق ان يوازن بينها بالدرجات والمراتب لا بالكتـ والمصدر . فكل فضيلة عنده حد وسط بين رذيلتين ، و كان الاختلاف بين

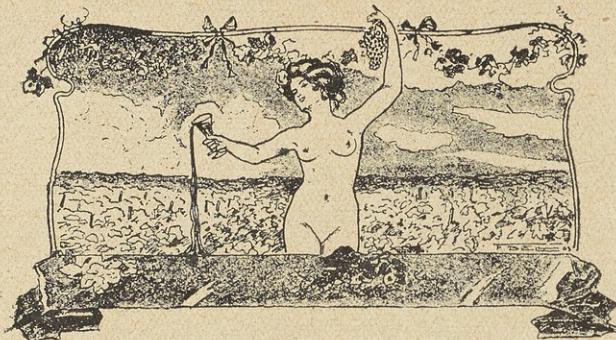
الفضائل والرذائل في تفسيره لا يكون الا من قبل الاختلاف بينها في الدرجات والزيادة والنقصان — وهو رأى منتقد عابه عليه كانت بحث فقال : « ان الاختلاف بين الفضيلة والرذيلة لا يمكن أن يكون مسألة درجات بل لا بد أن يعتمد على معادنها الطبيعية أو قوانينها . ولنطبق هنا مذهب ارسسطو فنقول ان القصد حد وسط بين رذيلتين هما الاسراف والبخل ، فهل نرى أن البخيل لا يعود بخيلا اذا زاد مقدار نفقة ؟ او هل ترى ان المسرف يصبح فاضلا اذا نقص مقدار ما ينفقه من الثروة ؟ ان التفسير (أولاً) لا يبين لنا الحد الذي يجب على كل منهما أن يقف عنده و (ثانياً) هو في الواقع تحصيل حاصل اذ أن ارسسطو يقول « ان الانسان يجب عليه أن يتجنب الخطأ بالزيادة عن الحد والخطأ بالنقص عنه » فما هو الخطأ بالزيادة عن الحد غير أن يفعل الانسان أقل مما يجب . فكأن النتيجة ان الواجب هو أن لا تفعل أكثر ولا أقل من الواجب » وهذا هو تحصيل الحاصل كما يقول « كانت » لأن تعريفنا الواجب بأنه شيء لا يزيد ولا ينقص عن الواجب هو من اللغو الذي يشبه قول القائل :

كأننا ولاء من حولنا قوم جلوس حو لهم ماء

إلا اننا نقول مع هذا ان ارسسطو قد اتبع أسلم الطريقين ونجا من أكثر الأخطاء التي يستهدف لها الباحثون في فلسفة الأخلاق ،

وانه حين تناهى في تحري العمال الاولى واجتهد في الاستقراء القريب والمشاهدة المحسوسة غبن الفيلسوف اللدنى فيه ولكنه أنصف العالم المدقق وعوض على القراء من ذلك الغبن أحسن عونس ، وانه كان قميناً أن يستهدف لاكثر من ذلك من الاخطاء لو انه عالج العمال الاولى ثم أخذ نفسه بالتأليف بينها وبين الاخلاق في جميع الدقائق والتفاصيل ، فما منعه التناهى في استقصاء العمال الاولى ان يصحح لنا نماذج الفضائل وأن يصور لنا تمثلاً متقن الصنعة من الانسان الكامل في عالم الوجود وفي عالم الخيال - وليس يغض من عمله هذا انه كان يلحظ الانسان من الجانب اليوناني الذي كانت تجلوه آداب عصره وتواريخته وتأثيراته ، فتلك سنة لا محيد عنها أن يتخد المصور نموذجاً له من الم هيئات التي يألفها والبيئة التي يعيش فيها . على ان الاتفاق بين الناس في حدود الفضائل العامة أيسر من الاتفاق بينهم في أذواق الملامح والألوان التي يترسمها المصورون .





بشار

شخصيته

لبشار شخصية ذات مفتاح قريب يدلنا على مذهبة في الشعر والحياة
ويفسر لنا الكثير من أخلاقه ونواحه . ومفتاحها هذا هو وصفه الجماني
الذي اتفق عليه مترجموه وطابتهم عليه بعض أبياته وأشعاره . فقد وصفوه
بانه كان ضخم الجثة مفرط الطول Tam al-awāḥ ، ورووا أن أديباً « دخل
عليه وهو نائم في دهليزه (كأنه جاموس) فقال يا أبا معاذ : من القائل
ان في بردى حسما ناحل لو توكلت عليه لانهدم
قال أنا ؟ فقال ، من القائل أيضاً :

في حلتي جسم فتي ناحل لو هبت الريح به طاحا
قال أنا . قال : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله اني لا رى لو ان
الله بعث الرياح التي أهلك بها الا م الخالية ما حركتك من موضعك !

وقد عاش الرجل سبعين سنة ومات بضرب السياط المبرح
لا يرض أصابه ولا بضعف الشيخوخة . سمعوه يؤذن وهو سكران
في غير وقت الأذان فأتوا به وجلوه حتى أشرف على التلف ،
 فهو في تلك السن التي تسكن فيها النفس وتهدا فيها شرة الطبع
وقتها نزوات الحياة لم ينزل كأنه في سن الفتولة وبمحنة الصبا ودفعه
الحيوية العارمة . فكان وفي الجمائية شديد الحيوانية من اصحاب
ذلك المزاج الذين يغلب عليهم اللهو والفجور والشغف باللذات والملاهي
وما تسوله غواية اللحم والدم وتغري به المطالب الجسدية والشهوات
الحسية ، فما كان له إلا أن يطبع طبيعته الحيوانة وينغمض في ذلك
التيار الذي تدفعه إليه ، ولكن أني له بذلك وقد ولد أعمى وليس
بحالس اللهو والمجون مما يليق بالعيان وأصحاب الآفات ولا هي
بالموضع الذي يزاحمون فيه أهله فيملأحون في الزحام ؟ فكيف تراه يصنع ؟
آيقهر طبيعته حذراً من العبث به والساخرية منه وإثارةً للوقار الذي
يحمل بنكتة والتدين الذي يطمئن به إلى مصنيفته ؟ ذلك وجه قد
يخطر له لو كان حب الوقار والكرامة أرجح لديه من لذة القصف
والدعابة ، ولو انه ولد كالمعري في بيت التقوى والعلم ونشأ من طفولته
نشأة مهيبة للدرس والتوقر لجاز أن يكبح نفسه وان ينهنه من بواعث
طبعه ، ولكن نشا في بيته أهون شيء عليها الوقار والكرامة . فكان
أبوه مولى طياناً من السبئ وأمه امرأة ترضى أن تتحذ عبدها زوجاً

لها ، وكان الفقه في الدين أبعد ما يتصور من أبي بشار وأغرب ما مني به الناس منه ! - قيل انه كان يضرب بشاراً ضرّاً مبرحًا لهجوه الناس « فكانت تقول له أمه : لم تضرب هذا الغلام الضرير ؟ أما تترجمه ؟ فيقول : بلى والله اني لا رحمة ، ولكننه يتعرض للناس فيشكونه الي ، فسمعه بشار فطمع فيه وقال : ان هذا الذي يشكونه اليك مني هو قولي الشعر واني ان أقمت عليه أغنتيك وسائل أهلي . فإذا شكوني اليك فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول « ليس على الأعمى حرج » فاما أعادوا الشكوى على أبيه قال لهم ذلك فانصرفوا وهم يقولون : فقه برد أغطيظ لنا من شعر بشار ! »

فطبيعة بشار وتربيته قد أرادتا به ان يكون كما كان ماجنا خليعاً مستجيناً لشهوات الحس ومطالب الجسد . وكان لا بد له ان يوطن نفسه على ما يلقى من السخرية والعبث في سبيل ذاك ، وان يستهدف للضحك والابتسام والولع به والتغامز عليه ، وان يخلع الحياة فلا يبالي بشرف ولا دين ولا يراقب الناس في أمر من الأمور التي تحذبه وتستهويه والتي يضاعف الحرمان من النظر رغبته فيها وتكلبه عليها ، فلم يكن أحد غيره أحق بأن يقول

من راقب الناس لم يظفر بمحاجته وفاز بالطبيات الفاتك المهج ومن عادة التمادي في الالهو أنه يضعف التقىة ويضري بخلع الحياة وقلة المبالاة . فأولى بالذى يجتهد الى الالهو - وهو قليل المبالاة بفطرته -

ان يزداد به هذا الخلق رويداً رويداً حتى لا يعنيه مدح ولا قدح
ولا يزعه شرع ولا ضمير ولا يحفل حرمة من الحرمات التي يقدسها
الناس ويستعينون بها على النزوات والأهواء . وقد بلغ الأمر ببشار
إلى هذا الحد فكان لا يستيقن نسباً ولا مودة ولا دينًا ولا سمعة إلا
ما يمسه منه الضرر ويحول بينه وبين ما يريد . فهو يهجو سليبو به
ف يقول فيه

« سباو يه يا ابن الفارسية ما الذي

« تحدثت عن شعبي وما كنت تبذل ! »

وبشار نفسه ابن فارسي من الموالى !

وهو يهزاً بمكان الشعراء ولا فخر له بغير الشعر الذي يتكتب
به . فقد سمع عقبة بن رؤبة يقول : أنا وأبي وجدي فتحنا الغريب
للناس واني لجدير ان أسده عليهم . فقال بشار : ارحمهم رحمة الله !
قال عقبة : استخف بي وأنا شاعر ابن شاعر ؟ ؟ فقال
بشار إذن أنت من أهل البيت الذين « أذهب الله عنهم الرجس
وطهرهم تطهيراً » يريد ان يتمكّم بحسب الشعراء ويزدرى ذلك
النسب الذي افتخر به صاحبه !

وربما كان من هذا الاستخفاف نظمه الشعر في الاغراض

المسقة الركيكة كقوله في مدح جاريته

ربابة رببة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت
ومنه أنه كان لا يترجح من تكلمة الكلام بما يحضره من
الاسماء والمفردات التي لا وجود لها في اللغة . فقال في بعض غزله
صبيت هوالك على قلبه فضاق وأعلن ما قد كتم
وقالت هو يت فت راشداً كما مات عروة غمّاً بغم
دست اليها «أبا مجلز» وأي فتي إن صاب اعتزم
فما زلت حتى أنابت له فراح وحل لنا ما حرم
فسألة سامع : ومن هو أبو مجلز ؟ فقال وما حاجتك إليه
ألك عليه دين ؟ أتطالبة بطائلة ؟ هو رجل يتربدد بيني وبين معارفي
في رسائلي !

ومات حماره فزعم أنه رأه في النوم فانشد
سيدي خذ بي أثاناً عند باب الاصفهاني
تيمتنى يوم رحنا بشنا ياه الحسان



ولها خد أسيل مثل خد الشنفراني
فقليل له : وما الشنفراني ؟ فقال ما يدريني ؟ هذا من غريب
الحمار ، فإذا لقيتهموه فاسأله عنه !
وكان كثيراً ما يخشوا شعره بهذه الاسماء الملققة لقلة صبره على
التجويد والتنميق

وإن من الم Hazel ان يحسب لبشار رأي في الدين والعصبية فيقال
أنه كان معتزلياً أو مسلماً على هذا المذهب أو ذاك . فما كان لذلك
كله شأن عنده يشغلة أكثر من ساعة سمر أو كلة يرسلها في قطعة
من الشعر للمداعبة والاغراب وأغاظة بعض التحرجين على عادة
المتهكين والخلعاء في العبث من يظهرون العفة والصلاح ، وقد نشأ
بشار في أوائل عهد المدينة العباسية أي في ذلك العهد الذي راحت فيه
الأزياء الفكرية والذوقية كما تروج الأزياء عامة في عهود المدينة
والعمران ، وكانت المندقة من أزياء الظرفاء أو كان الظرف من أزياء
الزنادقة كما قال ابو نواس « تيه معن وظرف زنديق » ! فكان بشار
يتخذ له كل يوم زياً من هذه الأزياء التي يتحلى بها ظرفاء عصره
ورواد مآلفه ، ويغشى مجالس العزلة ليتلقف منهم ما يخوضون فيه
من النحل الغريبة وما يتحذلون به من الأقوایل المعتسفة . فتارة
هو على رأى القائلين ان ابليس خير من آدم

ابليس اكرم من ايكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمى سمو النار

فهل هذا جد يسمى بالذهب في الفلسفة أو الدين !؟ وما لبشار
ولا آدم ان كان أفضل من ابليس أو كان ابليس أفضل منه ؟! ومن
هم معشر الاشرار الذين يحقن عليهم بشار لغضهم من قدر أبي الشياطين

ورفعهم من قدر أبي أخوانه الآدميين ؟؟ هذه تسلية ودعاية وزى من
أزياء التطرف لا أكثروا ولا أقل

وتارة هو على مذهب الجبرية الذين يسقطون الحساب والتکلف:
طبعت على ما في غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهزبا
أريد فلا أعطى وأعطي ولم أرد وقصر علمي أن أثال المغبيا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما اعقبت الا التعجبا

ويعود فإذا هو مؤمن شرعى يذكر الموت ويختفى الحساب
كيف يبكي لحبس في طول من سيفضي لحبس يوم طويل
ان في البعث والحساب لشغلا عن وقوف برسم دار محيل
وأبلغ من ذلك في هذا الباب قوله :

بدا لي ان الدهر يدح في الصفا
وأن بقائي ان حيت قليل
فعش خائفاً للموت أو غير خائف على كل نفس للحمام دليل
خليلك ما قدمت من عمل التقى وليس لأيام المنوت خليل
وما ذاك لأن الإيمان أو الكفر يكرهه ويعنت فكره فيطول فيه
تقلبه وبمحته ولكن لأنها دريئه تنجيه من الأذى وخواطر يتفكه
بها «الاظفاء» ويسعون بها على أنفسهم من قيود الأدب والشريعة،
وقد رروا أنهم وجدوا في أوراقه كلاماً يقول فيه أنه هم بهجو رجال
ثم ذكر قرابته من رسول الله فعفى عنه . ويستدلون بذلك على أنه
كان متشيئاً صادقاً في التشيع لآل البيت . ولكن الرواية في ذاتها

لا تصدق لأننا لم نعهد في شعراء العرب ان يدونوا خواطراً لهم وننياتهم
ولا سيما من كان مكفوفاً يحتاج الى من يكتب عنه . ولا نفي تشيع
بشار للعلويين فإنه كان من البصرة وفيه عرق من الفرس ولم يكن راضياً
كل الرضي عن دولة بني العباس ، فإذا تشيع فلا غرابة في ذاك . ولكن
الغرابة ان تظن به الحماسة لتشيعة أو لغيرهم وهو من تعلم من المجنون
وقلة المبالغة

وأنت لا تجد حتى في هجو بشار أثراً قوياً لمراة البغض الصادق
والغريب الشديد على من ينحي عليهم بالهجماء ، فاما كان هجوه صناعياً
وفنياً كما يقول نحن في هذا العصر ، وكان أشبه بالعصا التي يذود
بها من يتعرض لها ثم يلقيها من يده الى حين الحاجة . وربما تبرم
بالدنيا وصدق فيه قول الاعمعي إنه « كان من أشد الناس تبرماً
 بالناس » وإنه كان يقول : « الحمد لله الذي حجب بصري » فقيل
له لم يا أبا معاذ ؟ فقال لثلا أرى من أغض . ولتكن حريون إلا بالغ
في هذا الخلق الذي وصف به وألأنى فيه أكثر من أنه عادة
 أصحاب المهو إذ يستقلون من الناس من لا يجدون عندهم حظاً من
السرور والسمسر ، ثم لا يكلفون أنفسهم مؤونة الحقد عليهم والتعيظ
منهم ، ولا شك في أن بشاراً كان ينقم على العمى أحياناً ويشعر
بالحسد للذين رزقوا البصر من حوله فيضجر من الناس ويتبسم بالدنيا
كما لم بنفسه ذلك الخاطر ، غير أنها نوبات لا تطول عند صاحب

هذا المزاج ولا تعمق في سريرة نفسه ، فما كان بشار بالرجل الذي يجعل من المصيبة حرمًا معزولاً يحفه بسياج من الوحشة ويخله عن الذكر والعزاء ويقدم اليه ليل نهار بقربابين من المرض والكراهية ، وإنما هي لحظة عارضة يأسى فيها ما يأسى ثم تنقضي فيذكر مصيته في شعر الغزل والمزاح ويتخذ منها لعبة يتفرج بها على الناس . قيل « أنه جلس على بابه وحده وليس معه خلق وبيده مخضرة يلعب بها وقد أمد طبق فيه تفاح واترج . فربه رجل يقال له دهان الغلال فلما رأه وليس معه أحد تاقت نفسه إلى أن يسرق ما بين يديه فجأة قليلا حتى مد يده ليتناول منه . فرفع بشار المخضرة خلسة وضربه ضربة على يده كاد يكسرها . فقال الرجل : قطع الله يدك يا ابن ١٠٠٠ ! أنت أعمى ؟ فقال بشار يا أحمق ! فأين الحس . ؟ ! »

وقيل « أن رجلا سأله عن منزل ذكره له فجعل يفهمه والرجل لا يفهم . فلما يئس منه بشار أخذ بيده وقام يقوده إلى المنزل الذي يلتقي به وجعل ينشد في طريقه

أعمى يقود بصيراً لا بالكمو قد ضل من كانت العيآن تهديه
وظل يقوده حتى وصل به إلى المنزل ثم دفعه إلى داخله وقال له هذا هو المنزل يا أعمى ! »

وما من حب في الخير جشم بشار نفسه . إن يهدي الرجل إلى

المنزل الذي ضل عنه، ولكنها فرصة أتيحت له فاراد ألا تفوته حتى
يسخر بالعمي وبالبصر في آن واحد !

ويقل في فكاهة بشار السخر الذي مصدره الاهتمام بالأمور
والجد في شؤون الحياة ، كسرخ ابن الرومي النافذ الحاد أو كسرخ
الموري الشاحب الرزين ، ويكثر في هذه الفكاهة السخر الذي
مصدره اللعب وقلة الاتكاثر وذلك الأيدياء الأبلি�سي الذي يدر
من النفس عفواً بلا تعامل ولا حماسة ولا التهاب ، وليس تنقصه
أسباب هذه الفكاهة لأن الذكاء ومارسة اللهو وفتور التخوة
والتعرض لداعي المزاح والتناقض بين معيشة الإنسان والمعيشة
التي تنبغي له وتنتظر منه — كل أولئك من أدوات الفكاهة التي
اشتهر بها بشار وأعانته عليها الفطرة والعادة فحيث الناس فيه وآخاقيهم
منه . ومن دأب ذوي العاهات الذين ينغممون في غمار الحياة ان
تكثر فيهم الدعاية المضحكة لأنهم عرضة لها في كل حين ، فلا بد
لهم من سلاح حاضر يتقون به ما يصيغ لهم ويدبرون به الفكاهة
على من يقصدهم بها ، وبمثل هذه الدعاية سار ذكر بشار بين الظرفاء
والظريفات في عصره وصار بما اشتهر به من الغزل ووقائع الغرام
أعجبوبة في احاديث الناس يودون رؤيتها والتعجب منها ، وبلغ من
ذلك ان جواري المهدى — وكان من أشد خلقاءبني العباس غيرة
على المحارم — « سألته ان يريهن بشاراً وقلن له : لو أذنت له يدخل

الينا يؤانسنا وينشدنا فهو محجوب البصر لا غيرة عليك منه ؟ فأمره
دخل اليهن واستظرفنه وقلن له : وددنا والله يا أبا معاذ أنك أبونا
حتى لا نفارقك ! قال نعم ونحن على دين كسرى . » ونوادره في
ذلك كثيرة لا نظنه كان يفرغ منها

أما شعره فرصفين صحيح في الأكثر الأعم مما وصللينا منه ،
وهو يقسمه قسمين بدوي تغلب فيه الجزالة والجفوة وحضرى تغلب
فيه الرقة والنعومة . فإذا نظم في أغراض الشعر القديمة كان أقرب
إلى اللغة الأعراب التي لا تشبهها دماثة الحضارة وإذا نظم في الغزل
والمحاجن كان أقرب إلى اللغة المألوفة الشائعة التي رقت حواشيهما
وسلسلت عباراتها ، ولا اختيار له في ذلك وإنما هو اختيار الموضوعات
وحكم الصياغة وما يوامها . وقد كان يُدلّ بسلامة لفظه وجودة نظمه
ويقول من يسأله في ذلك : « ومن أين يأتيني الخطأ وقد ولدت هنا
ونشأت في حجور ثمانين شيئاً من فصحاءبني عقيل ما فيهم أحد
يعرف كلمة من الخطأ ؟ وأما نساوهم فأفصح منهم . وايفعت فأبديت
إلى أن أدركك ، فمن أين أذن يأتيني الخطأ ؟؟ »

روح شعره هو الروح الذي يعرف به أمثاله من ذوي الطبيعة
الحيوية والمزاج الدنيوي الذي يتخيل الأشياء كما يحسها في عالم الواقع
القريب ويراهما كما تبدو في صور المعيشة المعهودة وحقائق البيت

والسوق ، فلا همام في شعره ولا حنين ولا أشواق ولا بدوات ولا خيال ، ولكنها تجربة الدنيا على عليه ما ينظم من الحكمة والوصف والغزل والهجاء فلا يمتاز فيها عن سواد الناس بغير اللسان البق والقدرة على النظم والتعبير ، وأحسبه أصلح أدباء العرب لأن تؤخذ من شعره الشواهد الكثيرة على أساليب «الطريقة الطبيعية الواقعية» التي اشتهر بها بعض أدباء فرنسا على الخصوص في القرن الأخير .
فإذا قرأت له هذه القصة الصغيرة في قوله :

عجبت فاطم من نعي لها
هل يجيد النعت مكفوف البصر
بنت عشر وثلاث قسمت
بين غصن وكتيب وقر
درة بحورية مسكنة
ما زها التاجر من بين الدرر
أذرت الدمع وقالت ويلاتي
من ولوع الكفر كاب الخظر
أمتي بدد هذا لعي
ووشاهي حله حتى انتشر
فدعيني معه يا أمتي
واعتراها كجنون مستعر
أقلبت في خلوة تضر بها
دمع عين غسل الكحل قطر
بائي والله ما أحسنة
ولوني اليوم ماطعم السهر
أيها النوم هبوا ويحككم
أو قرأت له قصته الأخرى التي يقول فيها :
حسبي وحسب الذي كلفت به مني ومنه الحديث والنظر

أو عضة في ذراعها ولها
أو لمسة دون مرطها يدي
.....
فوق ذراعي من عضها أثر
والباب قد حال دونه الستر
.....
وابسترخت الكف للعنق وقا
انهض فما انت كالذى زعموا
يا رب خذلي فقد ترى ضرعي
أهوى الي معضدى فرضضه
الصدق بي لحية له خشت
.....
لت ايه عني والدمع منحدر
أنت وريي مغازل أشر
من فاسق جاء ما به سكر
ذو قوة ما يطاق مقتدر
ذات سواد كأنها الابر
.....
فاذهب فأنت المساور الظفر
أم كيف ان شاع عنك ذا الخبر
منك . فماذا أقول يا عبر
لا بأس ! إني مجرب خبر
انت كان في البق ماله ظفر
.....
أقسم بالله لا نجوت بها
كيف بأمي إذا رأت شفيتي
قد كنت أخشن الذي ابتليت به
قلت لها عند ذاك يا سكني
قولي لها بقة لها ظفر
.....
فكأنك تقرأ صفحة من زولا أوجي دي موباسان ، ومثل
هذا الغزل لا علو فيه ولا هيام لأن الشهوة فيه أغلب من الحب
والعاطف والمناجاة ، وغير عجيب مع هذا أن يقال أن الشیوخ
والرهاد كانوا یهیئون بالمهدي أن یکف بشارا عن الغزل وأنه نهاد عنه
وحرمه جوائز المدح التي كان يحتال على دس الغزل فيها

وربما كان من العبر التي لا بأس بالتنبيه اليها أن بشارا هذا على ما علمنا من قوة جسمه واتساق خلقه وطول عمره لم يسلم من فدية الادب التي يفرضها على أبناءه والتي يقول بعض الكتاب الاطباء انها حق للفن على الفنان يأخذها من عقله أو من نسله أو من حواسه أو من خلقه ولا يعفي منها أحد له اشتغال مطبوع بالأداب والفنون ، وأما فدية بشار فهي بصره الذي يقع فيه وهو جنين في بطن امه ، فكان ذلك أول خلل اعتبراه في التركيب وقد تكون له علاقة حميمة بالمزاج والاعصاب ، ونسله الذي فقده في حياته ورث منه في هذه الصفحات ولداً وبنتاً صغيرين ، ولم نعرف بعد من سيرته أنه أعقب غيرهما خلقاً من الذكور أو الإناث

ولا يتسع المقال الان لا كثر من هذه العجلة فلنرجي الكلام المفصل في بشار الى فرصة أخرى ولنشرك الأديب الذي اجتهد في جمع ما اهتدى اليه من شعره شكرًا يكافيء جهده وقصده . وبدوننا لو استطعنا أن تقف عند ذلك ولكننا مضطرون الى أن نلاحظ له بعض المآخذ في مجموعته : منها أنه لم يدقق في رواية بعض الآيات وإن كانت قليلة لا تعيب المجموعة ، ومنها أنه أورد فيها أبياتاً كان الإجل حذفها والاعراض عنها لا فراطها في الفحش والبذاء . ولا يجوز الاحتجاج بكثرة أمثال هذه الآيات في كتب الأدب المعدودة فان لكل عصر أدبًا غير آداب الفصور التي تقدمته . وهذا فضلاً عن

أن كتب الأدب في عصور الدولة العربية كانت تختلط من يعتمد
نسخها ولا تطبع للعامة بعشرات الآلاف ، فهي أشبه بالرسائل الخاصة
منها بالكتب المعروضه لجميع الانظار



٢

— غزله —

عاش بشار أيام حياته كـأ قال

قد عشت بين الندمان والراح والمر

هر في ظل مجلس حسن

وكان كثـيرـ الشـعـرـ عـامـةـ وـكـثـيرـ الغـزلـ خـاصـةـ . فـلـمـ يـقـ منـ شـعـرهـ
 ولا غـزلـهـ الاـ القـليلـ المـشـتـتـ الذـىـ عـفـتـ عـنـهـ الـاـيـامـ وـسـلـمـ منـ ضـغـيـنةـ
 الـاـمـرـاءـ الـمـهـجـوـنـ وـحـجـرـ الـفـقـهـاءـ الـمـتـطـبـسـينـ ، وـنسـيـ أـكـثـرـهـ فيـ حـيـاتـهـ
 وـبـعـدـ موـتهـ لـاشـفـاقـ الـادـبـاءـ وـالـظـرـفـاءـ مـنـ روـاـيـتـهـ وـالتـقـنـيـ بـهـ ، وـلـكـنـ
 الـقـلـيلـ الذـىـ يـقـيـ منـ غـزلـهـ فـيـ دـلـالـتـهـ الـكـافـيـةـ لـلـنـاـقـدـ الـادـبـيـ وـانـ لمـ
 يـكـنـ فـيـ الـغـنـاءـ لـلـرـوـاـةـ وـالـمـسـطـلـعـيـنـ

وـلـاـ يـنـتـظـرـ القـارـيـءـ أـنـ يـسـمـعـ مـنـ غـزلـ بـشـارـ تـلـكـ التـغـمـةـ السـاحـرـةـ
 الـتـيـ تـرـقـعـ بـالـنـفـسـ إـلـىـ عـلـمـ الـاـحـلـامـ وـالـاـشـوـاقـ وـتـسـبـحـ بـهـ فـيـ
 فـرـادـيـسـ الـاـفـرـاحـ وـالـاـشـجـانـ ، وـلـاـ يـرـجـ أـنـ يـطـالـعـ مـنـهـ وـصـفـاـًـ لـلـحـبـ
 كـأـوـصـافـ اوـلـئـكـ الـشـعـرـاءـ الـكـالـيـنـ الـذـينـ يـجـعـلـونـ الـرـأـءـ الـحـبـوـبةـ
 أـقـنـوـمـاـًـ مـاـثـلـاـ لـلـعـيـانـ يـجـمـعـونـ فـيـهـ كـلـ ماـ خـامـرـ نـفـوسـهـمـ مـنـ الـمعـانـيـ الـخـفـيـةـ
 وـالـآـمـالـ الـمـنـوـعـةـ وـالـمـحـاسـنـ الـتـيـ لـاـ أـسـمـاءـ هـاـ فـيـ لـغـةـ الـلـسـانـ وـالـمـوـاجـدـ



العطشى الى غير مورد . فكل اولئك غريب عن طبعه بعيد من
مشربه كما قلنا في الفصل السابق . واما كان غزل بشار وصفاً للذات
الحس التي يباشرها أو يشتاق اليها ، وكان جبه حجاً « للنساء »
لا حجاً « للمرأة » . أو هو كان حجاً للإثنى التي يراها واحدة في كل
امرأة على اختلاف الصفات وتعدد الأسماء ، فليس يحتاج الشاعر
إلا لأن يكون « حيواناً » ذكرياً لينظم مثل ذلك الغزل ويجيد فيه
أحسن الاجادة ، بل هو قل أن يحتاج الى البصر . فضلاً عن
النفس — ليهديه الى من يؤثر بالحب ويختار للمقعة . فربما أغنته عن
ذلك طبيعته الحيوانية التي ترضيها كل طبيعة حيوانية تقابلها وتمكن له
ثم وراء تبادل الأفراد وتغيير الأسماء والصفات

وقد ترى كثيراً من العشاق الشهوانيين يتطلعون الى ما وراء
الحس ويلجأون الى الخيال يستعيرون منه محسنات أوصاف يضيفونها
إلى محسنات الوجه الظاهرة وشمائل الجسد المرموقة ، ليضاعفوا من
السرور بذلكم ويفرقوا في الاستمتاع بصوتاتهم . أما بشار فقد أخذ
الحس عنده مكان الخيال وأغراه فقد البصر باستحضار ما فاته من
« المحسوسات » التي لا يقنع بها المبصرون ، فإذا طمح المتغزلون
الذين يشبهونه في الذوق والمزاج الى سمة معنوية محللة بزينة الخيال
يمخلعونها على الصور المنظورة واللاملاح المألوفة — فحسبه هو أن يطمح
بوهمه الى ما وراء السمع واللمس من محسنات العيان التي حجب عنها ،

وأن يجعل تلك الصور المنظورة واللامح المألوفة أقصى شأو الظنون
وغاية شوط الخيال ، فلا يخرجه التوهم عن حيز الحواس وان غلاته
وأبعد الرحلة في بواديه

ومن هنا ترى أن مكان «الحسن التخييل» من شعر بشار
قد خلا وصفر إلا من فلتات قليلة يقلد فيها غيره على السماع ولا
يعتمد فيها على الشعور والابتكار ، وشُغل ذلك المكان كله بتصور
الألوان والأصياغ واستنشاق الروائح والطيب ، فكان لا يشبب
بأميرة الا تخيلها في ثيابها ووشيتها ولون بشرتها وصبغة ما عليها من
الزينة والخليل . وهو صاحب المثل السائر في قوله

وخدبي ملابس زينة ومصبغات فهو آخر

واذا دخلت تقنيع بالحمر . ان الحسن احمر

وله من هذا النوع يصف طيفاً في النام

ولقد تعرض لي خيالكم في القرط والخلخال والقلب

وفي وصف حسناء

اما اجتليت مثل المفرطحة الصفر
ومصفرة في الزعفران جلودها

وفي أمنية

وما حاجتي لو ساعد الدهر بالمنى كعب عليها لؤلؤ وشكول

وقوله في فتاة

كأنها صورت من ماء لؤلؤة فكل جارحة وجه برصاد

وفي هذا المعنى :

وتحمال ما جمعت عليه هـ ثيابها ذهباً ودرجاً

وفيه :

وحوراء من حور الجنان غريرة يرى وجهه في وجهها كل ناظر
وقد ينقل الوصف أحياناً مما يُرى إلى ما يُحس فيصف الهوى
والجمال كأنهما شيء « مصبوّب » على القلب والجسم . كقوله :

إذا نظرت « صبت » عليك صباة

وكادت قلوب العاشقين تطير

وقوله :

« صبت » هوراك على قلبه فضاق وأعنف ما قد كتم

وقوله :

من فتاة « صب » الجمال عليها في حديث كلذة الشوان
وأكثر من ذلك ولعه بالطيب فإنه يدخله في الغزل والمدح
ويليج به ويستنشق فيه العرف الذي يشمه والوجه الذي يتصوره ،
فهو عنده رائحة ومنظر ولذة حسية وخبر عما لا يراه . ويبلغ من ولعه
به انه يذكره في وصف نعال المهدى وهو يمدحه فيقول :

تشم نعلاه في الندى كـ يشم ماء الريحان متهمياً

أما في الغزل فقد ذكره في مثل هذا المعنى فقال :

إذا وضعت في مجلس لك نعلها تضوع مسكاً ما أصاب وعنبرنا

وقال وقد زاره فتيات خمس يسألنه شعراً ينحدن به :
بـاـكـرـنـ عـطـرـ لـطـيـمـةـ وـغـمـسـنـ فـيـ الـجـادـيـ غـمـسـاـ
وـقـالـ فـيـ عـبـدـةـ :

هـوـيـ صـاحـبـيـ رـيحـ الشـمـالـ وـانـهـ
لـأـشـفـيـ لـقـلـبيـ أـنـ تـهـبـ جـنـوبـ
وـمـاـذـاكـ إـلـاـ أـنـهاـ حـيـنـ تـتـهـيـ
تـنـاهـيـ وـفـيهـاـ مـنـ عـيـدةـ طـيـبـ
وـقـالـ فـيـهـاـ :

عـيـدةـ مـالـكـ مـسـلـوـبـةـ
وـكـنـتـ مـعـطـرـةـ حـالـيـةـ
وـقـالـ يـوصـيـ زـائـرـةـ :
وـتـوـقـ الطـيـبـ لـيـتـاـ
اـنـهـ وـاـشـ اـذـ سـطـعاـ
وـقـالـ :

يـاـ رـحـمـةـ اللهـ حـلـيـ فـيـ مـنـازـلـنـاـ
حـسـبـيـ بـرـأـةـ الـفـرـدـوـسـ مـنـ فـيـكـ

وـحـتـىـ بـيـتـهـ الـذـيـ عـيـبـ عـلـيـهـ وـهـوـ :
وـاـذـ أـدـنـيـتـ مـنـهـ بـصـلـاـًـ غـلـبـ المـسـكـ عـلـىـ رـيحـ الـبـصـلـ
اـنـاـ جـاءـهـ مـنـ نـاحـيـهـ هـذـاـ الـلـعـ الشـدـيدـ بـالـطـيـبـ وـتـعـودـهـ أـنـ يـجـمـعـ
فـيـهـ صـورـ الـمـلاـحةـ الـمـغـيـبةـ عـنـهـ

عـلـىـ اـنـهـ قـدـ بـرـعـ فـيـ الـاسـتـدـلـالـ بـالـمـشـمـومـاتـ وـالـمـسـمـوـعـاتـ عـلـىـ
مـحـاسـنـ الـعـيـانـ حـتـىـ لـقـدـ كـانـ يـدـرـكـ بـسـمـعـهـ مـاـ لـاـ يـدـرـكـهـ إـلـاـ الـبـصـراءـ .
قـيلـ اـنـهـ كـانـ فـيـ مـجـلسـ فـيـهـ نـسـاءـ وـكـانـتـ اـحـدـاهـنـ تـكـثـرـ الصـيـحـكـ

فالتفت بشار الى جاره وقال له : أرأيت فلانة هذه ؟ ألسنت تراها
حسنة الأسنان ؟ فقال له جاره ويحك ! وكيف عرفت هذا ؟
قال انا تكثر من الصحك دون صويحتها لتبدي جمال ثناها !
وكان أزنه ما يتغنى به بشار من محسن النساء الحديث والسمير ،
وكان يحب أحاديثهن ويكسر وصفها ويقتن في تجميلها والتزمن بها .
وهي أبعد لذاته من المحسوسات وأقربها الى المعنيات . ومن قوله
في ذلك :

وحدثت كأنه قطع الروض وفيه الصفراء والحراء

ومنه :

وَدِجَاءُ الْحَاجِرَ مِنْ مَعْدَكَانَ حَدِيَّهَا ثُمَّ الْجَنَانَ

ومنه :

وَلَمَّا مَبْسَمَ كَثِيرَ الْأَقْاحِيِّ وَهَدِيثَ كَالْوَشِيِّ وَشَيِّ الْبَرُودِ

ومنه :

وَكَأْنَ رَجَعَ حَدِيَّهَا قَطْعَ الرِّيَاضِ كَسِينَ زَهْرَا

وَكَأْنَ تَحْتَ لَسَانَهَا هَارُوتَ يَنْفَثُ فِيهِ سَحْرَا

ومنه :

لَقَدْ عَشِقْتَ أَذْنِي كَلَامًا سَمِعْتَهُ رَخِيمًا وَقَابِي لِلْمَأْيِحَةِ أَعْشَقَ

ومنه :

وَانِي لِيَجْرِي بَيْنَنَا حِينَ نَلْتَقِي حَدِيثَ لَهُ وَشِي كَوْشِي الْمَطَارِفِ

ومنه :

وبكر كنوار الرياض حدثها ، ترور بوجه واضح وكلام
ولكنك ترى من هذا الشغف بحدث المرأة انه كان يسمع
منه ويرى في وقت معًا ، وانه كان يشرك فيه حاستين بحظ حاسة
واحدة ، ويصغي اليه أصواتاً مسموعة ثم يتصوره ألواناً منظورة فيها
الصفراء والحراء وأصياغ المطارف والازهار والثار ، لأنه - كما قلنا -
كان يصرف الخيال الى استيفاء ما فاته من حظ البصر ويتم على
هذا النحو ما يقصر عنه اللمس والشم والسماع

* * *

وقد كان أناس في عصر بشار يعجبون لتشبيهه بالنساء وميله
إلى مجالسهن ويخيل إليهم أن من فقد البصر فقد معه أدلة الغزل
وسبب استحسان المرأة واستوت عنده جميع النساء في كل شيء .
وليس العجب إلا أنهم يعجبون من غزل الأعمى ويحرمونه الطبيعة
الإنسانية لأنه حرم الإحساس بعينيه ، إذ ليس بصر العينين إلا رائداً
للنفس إلى اختيار شكل من أشكال « المرأة » وترجح صفات منها
على صفات أخرى ولكنه لا يوجد الأشكال والصفات ولا يخلق
الميل بين الرجال عامة والنساء عامة ، وليس هو بعد بالوسيلة التي
لا وسيلة غيرها للاختيار والترجح . ول بشار أقوال شتى في تقنيد لوم
اللائئن لانتحال أحداً من الشعراء قال أصدق منها ولا أبلغ في تعليق

عشق العميان بل المبصرين من بعض الوجوه ، ونجترىء منها بقوله :
وما تبصر العينان في موضع الموى
ولا تسمع الاذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا
وألف بين العشق والعاشق الصب
وقوله :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا بن لا ترى تهنى فقلت لهم الأذن كالعين توف القلب ما كانا
وليس هذا الكلام من قبيل « حسن التعليل » الذي أغرم
به البيانيون ولكنك هو التعليل الصحيح الذي نعرف مصادقه في
جميع العاشقين والمشوقين سواء منهم المكفوفون والمبصرون ، فما
أكثر ذوي الأ بصار الذين يسلطون قلوبهم على عيونهم وأسماعهم
وعقولهم فلا تبصر إلا ما تراه ولا تسمع إلا ما توده ولا تعقل إلا
ما تشتهي وتمتهاه ! فإذا هم أحجى من المكفوفين بتصديق حكمة بشار :
وما تبصر العينان في موضع الموى
ولا تسمع الاذنان إلا من القلب

ان العشق شوق من انسان إلى انسان آخر قائم على اختلاف
الجنسين ، أو هو في الحقيقة قائم على اختلاف الصفات التي يمثلها كل

من الجنسين ويتم بها كلها ما ينقص الآخر . وهذا الاختلاف بين الذكورة والأنوثة عريق في طبائع الأشياء أحسب أن المادة نفسها لا تخلو منه وأن اقسام الذرات الدقيقة إلى كهارب موجة وكهارب سالبة إن هو إلا ضرب من « الجنسية » الأولى التي تدعوا إلى التألف بين جميع الأجسام . فإذا تركنا تقسيم الأحياء إلى ذكور وإناث وقلنا في موضع ذلك التقسيم أن الأشياء كلها ترجع إلى طبيعتين أحدهما فاعلة مؤثرة والأخرى قابلة متأثرة — ففي وسعنا أن نقول حينئذ أن الذكورة والأنوثة شائعة في جميع الكائنات ابتداءً من الموجب والسلاب وانتهاءً إلى الرجل والمرأة ، وجاز لنا أن نقول إن من صفات الذكورة ما يوجد أحياناً في النساء كما ان من صفات الأنوثة ما يوجد أحياناً في الرجال ، وسواء أنظرنا في الاختلاف بين الرجل والمرأة إلى الحصول الجسدية أم إلى الحصول الأدبية فأول ما يظهر لنا انه اختلاف بين صفات فاعلة مؤثرة تبدو في العزيمة والبلاس والصلابة والعمل والغلبة وصفات قابلة متأثرة تبدو في الصبر والحنو والعطف والنعومة والتسليم ، فطبائع الرجل مبتدئة نافذة وطبائع المرأة مليئة قابلة ، والعشق بينهما هو الشوق الذي يجمع بين طبيعتين تسكن كل منهما إلى الأخرى ولا تم وتهدا إلا بالارتياح إليها وقد كان بشار من أحسن الناس بالأنوثة الجسدية وأرغبهم في الاتصال بها والاستراحة إليها والاستماع إلى حديثها ، وكان في كثير

من غزله يمثل المرأة « مؤئنة » متكسرة باكية تلين لشدة الرجولة
وخشونتها و تستعذب الخضوع لسيطرتها وأثرتها . فانظر الى قصيده
التي أوردناها في الفصل السابق والتي يقول منها :

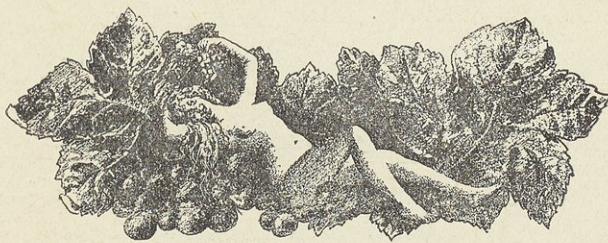
أذرت الدمع وقالت ويلتي من ولوع الكف ركب الخطر
أمتي بدد هذا لعي ووشاحي حله حتى انتشر
فدعيني معه يا أمتي :
أقبلت في خلوة تضرها
بأبي والله ما أحسنه دمع عين غسل الكحل قطر
أو قصيده الأخرى التي يقول منها :

واسترخت الكف لل العراق وقا
انهض فما أنت كالذى زعموا
يا رب خذلي فقد ترى ضرعى
أهوى الى معصدى فرضضه
الصق بي لحمة له خشت
الخ الخ

لت إيه عنى والدمع منحدر
أنت وربى مغازل أشر
من فاسق جاء ما به سكر
ذوقه ما يطاق مقتدر
ذات سواد كأنها الأبر

فإنك ترى في هذه الأبيات رجلاً حيواناً يصبو الى المرأة
الحيوان وجسداً مذكراً يشتاق الى جسد مؤنث يجاوب طبعه ويرضي
أثرته . فلم تكن به من حاجة إلى النظر بالعين والتفريق بين هيئات

النساء لأنه خلص من جسد المرأة الشاخص لعيان إلى انوثتها وطراوة
طبعها ، ونقل إلى هذا الشعور بها كل لذات النظر ومحاسن المشاهدة
 فهو يفهم « الآتشي الجسد » ذلك الفهم الخلائق بطبيعته الحيوانية
ولذاته الحسية ولكنك لا تقرأ له بيتاً واحداً يسمو به إلى ادراك
« النفس » الآثنوية وما فيها من حلاوة صافية ورحمة سماوية وكأنوز
عطف تغذى بها وجدان الرجل وترضعه بها روح الحياة طفلاً كبيراً
كما أرضعته من قبل وهو طفل صغير . ذلك ضرب من الغزل لا تقرأه
في شعر بشار وأمثاله ولا تجده في الشعر العربي إلا أبياتاً متناشرة في
مئات الدواوين ومعاني هامة بين قصائد العذريين



٣

بشار والهجاء

كان أول ما نظم بشار من فنون الشعر
الهجاء . قيل انه نظمه وهو في السابعة و إنـه
كان يهجـو الناس فيشكـونه الى أـيهـيـضـرـبهـ
ضرـبـاـ مـبرـحـاـ فـلاـ يـنـتـهـيـ وـيـقـولـ لـأـيـهـ «ـأـنـ هـذـاـ الـذـيـ يـشـكـونـهـ إـلـيـكـ»ـ !ـ
مـنـيـ هوـ قـوـلـ الشـعـرـ وـأـيـ اـنـ أـتـمـتـ عـلـيـهـ أـغـنـيـتـكـ وـسـائـرـ أـهـلـيـ»ـ !ـ
وـكـانـ آـخـرـ ماـ روـيـ لـهـ مـنـ الشـعـرـ الـهـجـاءـ .ـ قـدـ اـقـدـعـ فـيـ ثـلـبـ
الـخـلـيـفـةـ الـمـهـدـيـ فـوـشـيـ بـهـ الـوـزـيـرـ يـعـقـوبـ بـنـ دـاـوـدـ لـقـدـهـ عـلـيـهـ ،ـ فـماـ زـالـواـ
يـتـعـلـلـونـ لـهـ حـتـىـ سـمـعـوـهـ يـؤـذـنـ وـهـ سـكـرـانـ فـيـ غـيرـ أـوـانـ الـاذـانـ.
فـضـبـوـهـ حـتـىـ أـشـرـفـ عـلـيـ التـلـفـ وـمـاتـ مـنـ أـمـ الضـربـ ،ـ فـهـوـ قـدـ
أـصـابـ بـالـهـجـاءـ وـأـصـبـ بـهـ مـنـ مـطـلـعـ حـيـاتـهـ إـلـىـ خـاتـمـهـ ،ـ وـلـكـنـهـ مـعـ
هـذـاـ لـمـ يـكـنـ هـجـاءـ مـطـبـوـعـاـ وـلـاـ كـانـ هـذـاـ الـبـابـ مـنـ الشـعـرـ مـجـالـهـ
الـذـيـ بـرـزـ فـيـ بـيـنـ الشـعـرـاءـ

وـأـرـيدـ بـالـهـجـاءـ الـمـطـبـوـعـ ذـلـكـ الشـاعـرـ الـذـيـ يـوـلدـ بـفـطـرـتـهـ نـاقـقـ

هاجيًّا لا يرضي عن شيء ولا يستريح إلى مدح أحد ولا يكفي عن
النقد والعيوب، كلفًا بهما واندفعًا إليهما لا جلبًا للكسب أو درءًا
لمساءة . أو ذلك الشاعر الذي أتى من الفطنة وسعة المخيلة
واستعداد الطبع ما يفتح له معاني الهجاء إذا أراده ناقصًا أو غير ناقص
ومعتمدًا ما يقول أو عابثًا فيه . ولست أعرف في الأدب العربي غير
شاعرين اثنين ناهيَن بهنَّ بهذه الصفة هما : دعبل بن علي الخزاعي ،
وعلي بن العباس « ابن الرومي »

أما دعبل فقد كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع النامية النافرة
التي تخرج على « المجتمع » وتشور به ولا تزال في حرب معه
لا مسلمة فيها ولا مهادنة إلى أن يواريها الموت في ثراه ، وكان غاضبًا
أبدًا على الناس ينكر عرفهم ويشد على اجتماعهم ويهجو أفرادهم
باسمائهم وهو إنما يهجو الناس جميعًا في أشخاص أولئك الأفراد .
وهو القائل

إني لافتتح عيني حين أفتتحها على كثير ولكن لا أرى أحدًا !!
وكان يهيم على رأسه في البلاد سنتين عدة تقطع فيها أخباره
وتختفي آثاره ثم يظهر حيث كان فجأةً وقد أثرى وغنم ليجدد ما جمعه
في الهبو والقصف ثم ينقلب إلى شأنه من الباقي والتطواف في
ارجاء الأرض ، وربما لقي الشرارة أو قطاع الطريق في بعض رحلاته
فيجالسهم ويوأكلهم ويأمر غلاميه أن يغينا لهم ويعرفهم ويعرفونه

فلا يسونه بأذى ولا يذكرهم بسوء ، لأنهم أبناء نحلات واحدة يؤلف
شلّهم التفور من الناس ويوقف بينهم الشذوذ عما توافقوا عليه من
الآداب والدستير . فهو قاطع طريق بفطرته التي ولد عليها وإن لم
يحمل السيف ولم يخرج لقتلك والغيلة ، بل لقد قيل أنه قطع الطريق
في بعض أيامه فعلا « وانه كان يمكن للناس بالليل فرصد يوماً صيرفيأ
طمعاً بما معه فقتلك به ولم يجد في كمه إلا ثلات رمانات في خرقه
فخرج هاربا من الكوفة لاشتداد الطلب عليه » وما كان هجوه
لوبحثت في أسبابه الا ضرباً من قطع الطريق على الناس اشتهره في
أكثر الاحيان للذلة الصيد والقنص وزروة المطاردة والتخويف
لا طمعاً في المال أو طلباً للتراث . فما اتفق الناس على امام إلا هجاه
وألح في هجائه وان أحسن اليه واجزل له العطاء . ولا ترك أميراً ولا
وزيراً ولا ولياً إلا ناله باسانه عرضأً أو قصداً ولو كان من أبناء قبيلته
ومن خاصة المفضليين عليه ، فلما مات الرشيد ودفن بطورس الى جوار
قبر الرضا قال فيه :

قبران في طوس خير الناس كلهم
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا
وقال في المؤمن
أيسوني المؤمن خطة جاهل
أني من القوم الذين سيوفهم

ووبر شرم . هذا من العبر
على الزيكي بقرب الرجس من ضرر
أو ما رأى بالامس رأس محمد
قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذرك بعد طول خموله
 واستنقذوك من الخضيض الاوهد
 ولا نهض ابراهيم بن المهدى للخلافة — وكان عاكفاً على
 الغناء — قال يتهكم به وباجناده .

وارضوا بما كان ولا تسخروا
 يتذها الامر و الاشط
 لا تدخل الكيس ولا تربط
 خليفة مصطفى البر بط

يا عشر الاجناد لا تقنطوا
 فسوف تعطون حنينية
 والمعبديات لقوادكم
 وهكذا يرزق قواده

وقال في المعتصم :

فليس له دين وليس له لب
 يُملّك يوماً أو تدين له العرب
 من السلف الماضين إذ عظم الخطيب
 ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب
 خيار إذا عدوا وثامنهم كلب
 لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
 وجاءه نعي المعتصم وقيام الواشق فارتجل هذين البيتين

ولا عزاء اذا أهل البلى رقدوا
 وأخر قام لم يفرح به أحد

وقال في المتوكل :

لأمر ما تبعدك العبيد !

ولست بقائل قدعا ولكن

وهذا هجاؤه للخلفاء واحداً بعد واحد ، أما الوزراء والولاة
والقادات فكان كأنما يجترىء عليهم ويولع بهم على قدر ما عرفوا به
من الغضب والسطوة وحدة الخلق . فكان المأمون يقول : أترون
رجلًا يجترىء على أبي عباد ولا يجترىء على ؟ ؟ وأبو عباد هذا هو
الذى يقول فيه دعبدل :

أولي الأمور بضيعة وفساد أمر يدبره أبو عباد
.....

وكانه من دير هرقل مفتاح حرد يجر سلاسل الأقیاد

وهو رجل « حديد جاهل » كا وصفه مولاهم المأمون

وقد روجع دعبدل في هذه الاتهامي التي كان يقتحم بها غضب
الملوك والأمراء وأخطار العداوات وأحن الصدور فكان يقول :
« أنا أحمل خشبي على كتفي منذ خمسين سنة لست أجد أحداً
يصلبني عليها » وقال له أبو خالد الحزاعي الإسلامي : « ويحك ! قد
هجوت الخلفاء والوزراء والقادات ووتربت الناس جميعاً فأنت دهرك كله
شريد طريد هارب خائف ، فلو كففت عن هذا صرفت هذ
الشر عن نفسك ! فقال ويحك ، أني تأمّلت ما تقول فوجدت
أكثر الناس لا ينفع بهم الأعلى الرهبة ولا يبالي بالشاعر وأن كان
مجيداً إذا لم يخف شره . ولمن يتقىك على عرضه أكثر من يرغب
ليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل

من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة — ولم يكن ذلك فيه — انتفع بقولك . فإذا رأك قد أوجعت عرض غيره وفضحته اتفاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر ! « وهذا كلام يقبله العقل من حيث ينظر اليه دعبل ، ولكنه قد أخطأ طبعه ولم يعرف نفسه إن كان قد ظن أنه هنجا من هجاهم هذه العلل التي انتحلها وأوادعها فلسفة المجاد العري كله ! فإنه لم يُف من الذم مسيئاً ولا محسناً ولم يبق من وجوه عصره على بخيل ولا كريم ، فلم يكن قد حبه في المطلب بن عبد الله بن مالك الذي ولاه ولالية أسوان ووهبه الجزييل من الهبات دون قدحه في الوزراء والولاة الذين حرموه وتعقوه لأنه بدأهم بالنم والتشهير ، مع أن المطلب بن عبد الله من خزاعة التي هو منها ، فهو يمت إليه بصلة من القرابة وصلة من الاحسان ويستشفع إليه بكل شفاعة تنجيه من ذلك اللسان ، ولكنه هكذا خلق هاجياً مطبوعاً لا يأوي إلى الناس ولا يكف عن ذمهم والعيب عليهم ولو غمرته الثروة وبات أغنى الخلق عن عطاء المدوحين والمذومين ، وكان كثيراً ما يعرض بأصحابه في المجاد لغير علة يعرفونها كما قال وهو يهجو ابن أبي دؤاد ولو سكت ولم تخطب إلى عرب لما نسبت الذي تطويه من سبائك عد البيوت التي ترضي بخطبتها تجد فزاره العكلي من عربك فلقيه فراراة العكلي وقال له : يا أبا علي ! ما حملك على ذكري

حتى فضحتني وأنا صديقك قال : يا أخي والله ما اعتمدتك بعثروه .
ولكن كذا جاءني الشعر لبلاء صبه الله عز وجل عليك ! ومن
هذا أنه هجا أبا نصر بن جعفر بن محمد بن الأشعث فقال فيه :
ما جعفر بن محمد بن الأشعث عندي بخير أبوة من عثثت !
فلقيه عثثت وقال له : « عليك لعنة الله ! أي شيء كان بيبي
وبينك حتى ضربت بي المثل في خسفة الآباء ؟ » ففضحك وقال
« لا شيء والله إلا اتفاق اسمك واسم ابن الأشعث في القافية ! أو لا
ترضي أن أجعل أباك وهو أسود خيراً من آباء الأشعث بن قيس ؟ ! »
وكانت في دليل تلك الدعاية التي تجدها في هؤلاء الناقمين
المتباهين الذين تضيق صدورهم وينفذ صبرهم فيفضحون الناس
ويضحكون الناس منهم . وكان قوم من خزانة يدعون أن جدهم
كل الذئب وأنه جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام « خذته أن
الذئب أخذ من غنمك شاة فتبعده فلما غشيه بالسيف قال له : مالي
ومالك تمنعني رزق الله ؟ قال : فقلت يا عجباً للذئب يتكلم ... ! فقال
أعجب منه أن محمداً نبي قد بعث بين أظهركم وأنتم لا تتبعونه ! ! فبنيوه
يفخرون بتكليم الذئب جدهم » فكبرت هذه الحماقة على صبر
دليل وضاق بهذه الدعوى فقال يهجوهم
تهم علينا بأن الذئب كلكم ! فقد لعمري أيام لكم الديبا
فكيف لكم الريث الهصور اذن أفنيت الناس ما كولا ومشروا با

هذا السندي لا فضل ولا حسب يكلم الفيل تصعيداً وتصويباً
ومن دأب أصحاب هذه الطبائع النافرة الملول أنها تنفس عن
نفسها بشيئين : بهذه الدعاية التي تخفف مراة الجد وترقق حواشي
البغضاء ، وبالعقيدة التي تخذونها من قوة ما يحيش بقلوبهم من
السخط والكرابية . والعقيدة سواء كان منشؤها الحب أم البغض
إذا قوم بأمل يحييها ويثبتها ويعينها على حبها أو بغضها . فما
كان من السهل على دعبدل - أو أي إنسان مثله - أن يسطخ
على الناس ويهجوهم وينكر جميع حالاتهم بغیر أمل يتوقد اليه
ويصب عليه كل ما في نفسه من قوة الشعور النافر والاعطف المعكوس ،
فمن لم يؤمن بشيء لم يتابر على حب ولا على بغض ولم يصبر على
رضى ولا على نفقة . ومن أضعاع الامل أضعاع الإيمان ثم أضعاع الشعور
بنوعيه من خير وشر ومن حدب ونفور . وكذلك من أضعاع الشعور
فقد فتر أمله وترأخي جلده وسدت دونه منافذ الإيمان
ولكن دعبدلا كان رجلاً شديداً الشعور بالنفقة فلم يفتر إيمانه
وانعقدت هذه الشدة في نفسه على التعصب لآل البيت من العلوين
والامل في انتصارهم وظهور أمرهم وغلبتهم على أعدائهم ، وجمع قسمته
على « المجتمع » كله في كراهة من يكرهون العلوين ويعصبون حقهم
ويقعدون عن نصرتهم . وخيل اليه أنه لم يكن ينبو بالناس إلا لأنهم
أجحافوا بآل البيت وخذلوكهم وما لاؤا عليهم أعداءهم ، والحقيقة أنه لم

يعصب لآل البيت الا لأنه كان ينبو بالناس ويجد في اعتقاد الظلم
الذي حاق بآل البيت معواناً له على كراهة الظالمين والسخط عليهم
والشوق الدائم الى تبديل حالمهم . ولو أفلح هؤلاء المظلومون في أيام
دعل لرأينا أن ذلك السخط على « المجتمع » لم يذهب من نفسه
ولم يطف من نزوة الهجو التي في طبعه ، ولسمعنا له في هجائهم
مثل ما سمعنا من هجائه لظالمتهم ، فهو « هجاء مطبوع » قد ولد
ليذم ويبغض ويصل الى المدح والحب من طريق الدم والبغضاء ،
وهو في تكوينه كله قصيدة هجاء حية تلقي الناس أبداً بالتجهم
والubit والشذوذ

* * *

أما ابن الرومي فلم يكن مطبوعاً على النفرة من الناس ولم يكن
قاطع طريق على « المجتمع » في عالم الادب ، ولكنه كان « فناناً »
بارعاً أötti ملكة التصوير ولطف التخييل والتوليد وبراعة اللعب
بالمعاني والأشكال ، فإذا قصد أحداً أو شيئاً بهجاء صوب اليه
« مصوريته » الواقعية فإذا ذلك الاحد أو الشيء صورة مهيبة في
الشعر تهجو نفسها بنفسها وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها
كما تنطبع الاشكال في المرآيا المعقوفة والمحدبة ، فكل هجوه تصوير
مستحضر لاشكاله أو لعب بالمعاني على حساب من يستثيره . كقوله
في هجو صاحب لحية طويلة

ولحية يحملها مائق
مثل الشراعين - اذا اشرعا
لم ينبعث في خطوه أصبعا
او غاص في البحر بها غوصة
صاد بها حيتانه أجمعوا
وفي آخر :

ان تطل لحية عليك وتعرض
فالمخالي معروفة للجمير
علق الله في عذاريك مخلا
في مهب الرياح كل مطير
لو غدا حكمها الى لطارت
وفي مغنية :

تضغط اللحن الذي تشدو به
غصة في حلقة معترضة
فأذا غنت بدا في جيدها
كل عرق مثل بيت الارضة

وفي أصلع :

ووجهه يأخذ من رأسه
أخذ نهار الصيف من ليله
وفي أحدب :

قصرت أخادعة وطال قداله
فكأنه متربص أن يصفعا
وكانما صفت قفاه مرة

وفي قصير أبور أصلع :

أقصر	وعور
وصلع في واحد ؟	
ناهيك من شواهد	مقبولة
متخبرا عن رجل	المقادف

أقامه القعد فأضى حى قائمًا كقاعد

وفي معن معلم صبيان :

لاب في غناه ولا تعليم صبيان
 صوت بصر وضرب في خراسان
 في قبح قرد وفي استكبار هامان
 عند التنعم فكي بغل طحان ؟

وفي طويل الأنف :

هلك للجبن المطمس
 فالغيل عندك أفطس
 ق ولا أرى لك تجلس
 فتجيب أنت وينحرس

واذا نهضت كما بوج
 ان كان أنفك هكذا
 واذا جلسست على الطري
 قيل السلام عليكما

وفي ثقيل :

طالعته نائحة تلتدم
 وجهه بخيل وقفنا منهزم
 لأن بغداد لدن أبصرت
 مستقبل منه ومستدبر

وفي طيسان :

يتجنى على الرياح الذنو با
 صاح يشكو الصبا ويشكو الجنو با
 قشقق الأخرى عليه الجيو با
 لن يكون الكريم الا طروباً

يا ابن حرب كسوتي طيسانا
 طيسان اذا تنفست فيه
 تتغنى احدى نواحية صوتاً
 فإذا ما علنته قال مهلاً !

وفي وجهه هو

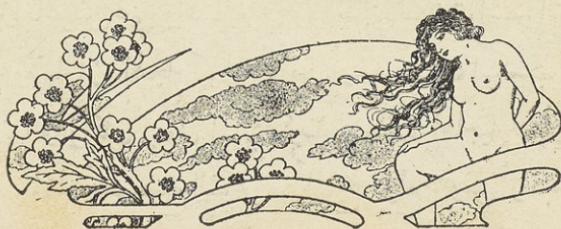
أهيم بالخزد الحسان وما يص سلح وجهي إلا الذي ورع
كي يعبد الله في الفلاة ولا يش هد فيها محافل الجمع
وهكذا وهكذا مما ازدم به هجوه ومدحه ووصفه وعامة شعره
من هذه الاشكال السهلة الصحيحة التي تقاد تسلكه في عداد
الرسامين كما سلكه نظمه في عداد الشعراء . فلو نقل المصور ديوانه
بريشته ملأً به مجلدات ضخاماً من خير ما تستنبطه القرىحة الفنية من
صور الهزل والجذب ومعاني التهيجين والتحسين . ومثل هذا الشاعر
يهجو حيث شاء بأداته الحاضرة كالرسام الذي يحمل « مصورته
السميسية » ليلتقط بها المناظر التي تروقه وتسترعيه أينما كان

* * *

أما بشار فلا هو من طراز دعبدل ولا هو من طراز ابن الرومي ،
لم يكن عنده من مرارة الخلق وحدّة العقيدة ما يقيم حربه على الناس
فيه جوهم صادقاً في شعور الحفيفة عليهم وان أخطأه الصدق فيما
ينعتهم به من المساويء والعيوب ، ولم تكن له أداة ابن الرومي من
ملكة التصوير المطبوعة التي لا تخذله في مواقف التمثيل والتلوبيه .
ولكنه كان رجلاً يحب المجتمع وينعم فيه . وكان هجاء كل
بضاعته من الهجاء أن يجمع أقبح العيوب وأشين الرذائل التي تزري
بساحبها فيقذف بها على من يهجوها ويصوغها شعراً تسهل روایته

وتقي ميرة انتشاره ، فإذا هو هجاء لا عمل فيه لقريحة الشاعر غير
نظم الكلمات وجمع العيوب ! وكلما أعزته البراعة وصدق الشعور بالغ
في الاقتذاع وأخفى في المجرى وجاء بكلام لا يصلح منه للنقل في الصحف
والكتب المهدبة إلا القليل الذي لا طعم له ، وما كان ليخفف الناس
لو لا شناعة المثالب التي يلصقها بهم وخبيث الدعاوى التي يفتريهما
عليهم ، أما قدرته على التصرف في معانى النقد وفنون الهجو فلم تظهر
في شيء من شعره الذي تختلف في الكتب ولا نظيرها ظهرت في شعره
المفقود وحده ثم لم يبق لها أثر يدل عليها في هذه البقية المحفوظة .
وإنما كثربشار من الهجو على قلة أدواته عنده وضعف سلينته
فيه لا سباب شتى دعاها إليها عصره وميل نفسه وحالة معيشته : منها
أنه أدرك الشعراء الهجائين في صدر الدوله الأموية وسمع روايات
الناس عن مناقضاتهم وبما هلاهم وعرف هو الرواية في حفظ
مساجلاتهم ورغبة الأمراء والولاه في التحريش بينهم ، فأحب أن
يقتدي بهم لينبه ذكره وينقل شعره وروي عنه انه قال : « هجوت
جريراً فأعرض عني واستصغرني ولو أجباني لكنك أشعر الناس ! ٠ »
ومنها أن الهجاء كان باباً من أوسع أبواب الكسب في ذلك
الزمان ، وهو كان يقول اذا ذكرت له كثرة أهابيه « إني وجدت
الهجاء المؤلم آخذ بضيع الشاعر من المدح الرائع . ومن أراد من الشعر
أن يكرم في دهر اللثام على المدح فليستعد للغير وإلا فليبلغ في الهجاء »

ليخاف فيعطي» . ومنها ان الهجاء كان في عصره كالامتحان للشعراء
المتنافسين يكون أقدرهم وأبلغهم في رأي الناس من يفهم خصميه
ويسير على الألسنة نقه وذمه . فإذا كثر الشعراء في بيته واحدة
حول مرزق واحد فلا ندحة لهم عن التهابي والتباهي ليعرف أئمهم
أمضى لساناً وأكثر افتناناً وأجدر بأن ينبع ويتقي وأن يحفظ كلامه
ويروي ، ومنها ان الایقاع بين الشعراء كان من لذة بعض الأمراء
والولاة ليهوا بالتغيير بينهم والاستماع الى نوادرهم وأهاجيهم على نحوٍ
ما كان معروفاً شائعاً في مصر الى حين قريب من الایقاع بين المجان
والخلعاء في ليالي الافراح والمواسم ، ومنها أن بشاراً كان أحوج
الشعراء الى أن يخافه الناس ويستكتوا عنه ويحذروا الاستخفاف
ب شأنه ، وكان سليطًا لا يستحي ولا يخشى على عرضه ولا على أعراض
الناس فلم يكن يمنعه من الوقوع فيهم مانع ولا يتكلف في ذلك منازعة
نفس أو مصاداة لاثم . فقد تمت له بذلك أسباب الميل الى الهجاء
والاكتثار منه وان لم تم له فيه سلية مساعدة وملكة مجيدة



ممثل من التصوير في شعر

ابن الرومي

علاقته بظيرته

أشرت الى مملكة التصوير في هجو ابن الرومي وسائر
شعره ، وقلت في مقدمة مختاراته انه « ينظر الى الاشياء
بعين مصور صناع لا يفوتها لون من الالوان التي تنسجها خيوط
الشمس في ائتلاف او اختلاف وفي سطوع او خفوت ، فاذا أضفت
الى ذلك مقدراته في تصوير الحدب والصلع والقصار وأصحاب اللحى
الكثيفة والأنوف الغليظة أمكنك أن تقول أيضاً : ولا يفوتها
شكل من الاشكال . فهو فنان لا تقصه إلا الريشة واللوحة بل
لا تقصه هاتان لأنه استعراض عن الريشة بالقلم وعن اللوحة بالقرطاس .
فاكتفى بهما وأثبتت في النظم البديع ما لا تثبته الألوان والأشكال »
وقد استشهدت بابن الرومي في هذه الخصلة لأن مملكة

التصویر الصادق أظهر ما تكون في شعره بين عامّة شعراً العرب من
المشارقة والمغاربة والأقدمين والمحديثين ، ولا أعرف شاعرًا يسبقه في
هذه الخصلة البارزة المتجلية على غير قصدٍ في كلامه الجيد والرديء
على السواء ، والتي أحسبه من أجلها قد خلق على فطرة المصور وطبع
على الاتقان في صناعة الرسم لو ساعفته أسبابها وأملت له البيئة في
دواعيها . فلو انه نبغ في أمّة تروج فيها هذه الصناعة لشهدنا من آثار
ريشه مثل ما شهد الآن من آثار لسانه ولصاريح المصور منه الشاعر
ان لم يقه ويعمره بالشهرة والاتقان .

وليس ملكة التصویر غريبة عن الشعر . فان النفس الفنية
جبة واحدة تختلف ما تختلف ولكنها تتفق في المعدن الأصيل
الذى يجمع بينها عند دقة الاحساس وحب المجال ، وهي اما تختلف
من ناحية « الحاسة » التي تبلغها رسائل المجال والوسيلة التي تعبر بها
عما يخامرها من إلهاماته وخواطره . فالشاعر لا يخلو من ملكة الألوان
والأشكال والقطناء الى الحركات والأنقام ، والمصور لا يخلو من
معاني الشعر واصدأ النغم التي تراها العين معكوسه على صور الاشياء ،
والموسيقي لا يخلو من السرور بمحاسن المناظر والمعاني التي يترجم عنها
في أصواته والحانه ، وكلهم - لو أمكننا أن تخيل قرائحهم بعزل عن
الأبصار والأسماع والأيدي والألسنة - أسرة من التوائم لا تعرف
الواحد منها إلا حين يرتدي علامته من اللباس !

أما ابن الرومي فقد كانت المكستان فيه — الشعر والتصوير —
 متقارب بين أيما تقارب ممزوجتين أيما امتزاج ، وكان لا يعجب بشيء
 إلا ولملكة المصور نصيب من ذلك الاعجاب ، ولا يشتهي شيئاً إلا
 وللناظر حظ منه حق الطعام ! ولقد شهروه بالنهم لكثره وصف
 الطعام في شعره ولكنني أراه منهوماً بجواسه ومذاقه — وبالنظر
 منها على التخصيص — أكثر مما أراه منهوماً بعدهاته وأحساناته
 فانظر الى قوله في الأكلة التي يشتهيها

خذ يا مرید المأكولات الذي يذم
 جرد افتى خبز من السميد
فقشر الحرفين عن وجهيهما

حتى ترى بينهما مثل اللبن

واعمد الى البيض السليق الاحمر
 فدرهم الوسط به ودنر
وترب الاسطر بالملح ولا
 تکثر ولكن قدرًا معتدلا
وردد العينين فيه لحظا
 فان للعينين منه حظا
ومتع العين به مليا
 واطبق الخبز وكل هنبا

أو انظر الى قوله في « الزلالية »
 رأيته سحرًا يقليل زلالية

في رقة القشر والتجويف كالقصب

(١١) المراجعت

كأنما زينة الملي حين بدا
كالكيمياء التي قالوا ولم تصب
يلقي العجين لجيناً من أنامله
فيستحيل شبابيكًا من الذهب

أو قوله في الرقاق :

ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بقدر ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمي فيه بالحجر
بل انظر الى كل ما قاله في أوصاف الطعام تجد نهم النظر
والذوق منه أشد من نهم المعدة والاحشاء ، وسرور المصور فيه
حاضرًا عند كل سرور يتملاه وكل لذة يشتاق اليها . وهذه هي الملكة
الشاعرة المصورة الشفافة التي تحدثك عن شعور وحياة في أجد الجد
وأهزل المزمل بلا اختلاف بين الموضوعات والاطوار

وقد أحبت أن أورد له في هذا المقال نحبًا من قصيدة واحدة
في المدح أيّين بها الفرق بين الشاعر الذي ينظم ويقلد ولا ينظر
والشاعر الذي يستوحى نفسه وينظر الى الدنيا حتى في قصائد المدح
التي ندها أخلى الكلام من أغراض الشعر ومعانٍ الحس
وبداع النظر الفنان ، ولو شئت لأنّيت على عشرات من مدائنه
كلها تصلح للاستشهاد بها في هذا السياق ، ولكنني أقل ما يتسع

له المقام وأعني التونية التي قالها في تهشة عبيد الله بن عبد الله يوم المهرجان . وهذه بعض أبياتها على غير اطراد :

مهرجان كأنما صورته
كيف شاءت مخيرات الاماني
واديل السرور والاهو فيه
من جمیع الهموم والاحزان
لبست فيه حفل زینتها الدا
يا وزافت بمنظر فتنان
واذالت من وشیها كل برد
كان قدماً تصونه في الصوان

زخرفت يوم نعمه حجرات
وزراءت بها تهاؤيل رقم
ثم قام الكلمة صفين من كـ
كلهم مطرق الى الارض مغض
وتخلل على السرير جبين
يمكن العين لحظة ثم ينهي
فله منه حاجب قد حماه
فاستوى فوق عرشه بوقار
ثم قام المجددون مثولاً
ليس من كباراء فيه ولكن . كل وجه لذلك الوجه عان
فيه آلاء بكل لسان
فتشوا سؤدد الامير وعدوا
وقضوا من مقاهم ما قضوه

ثم سام الامير سوم الملاهي
وقيان كأنها امهات
مطفلات وما حملن جنيناً
ملقمات أطفالهن ثدياً
مفعمات كأنها حافلات
كل طفل يدعى باسماء شتى
أمه دهرها تترجم عنه
أوقي الحكم والبيان صبياً
لو تسلى به حديثة رزء
عجبأ منه كيف يسلى ويله
فترى في الذي يصيخ اليه
وتنقته بالمدائح فيه
ذات صوت تهزه كيف شاءت
يتشنى فينفض الطل عنه
جهوري بلا جفاء على السم مع مشوب بغنة الغزلان
فتأمل هذه الأيات هل قوى فيها إلا صوراً تتوالى عليك
بالمناظر التي تبصرها العين والخواطر التي تتلقاها النفس والحركات
التي تؤلف بين ما ترى وما تحس تأليف الشريط المتحرك لما انطبع

عليه من الاشكال والفصول ؟ وتأمل الشاعر هل تراه في
قصيده إلا كالرسام الذي بسط أمامه لوحته وأقبل على الوجوه
والأشكال يتفرسها ويطيل النظر في ملامحها وشاراتها وما تشف عنه
من المعاني وتشير اليه من الدلائل ويراقبها في التفاصيل وما وصفها
وحركتها ليثنى بعد ذلك الى لوحته فيثبت عليها ما توارد على بصره
وقريحته من الالوان والمعارف والهيئات من حيث هي تحفة فنية
تسهوي الحواس والاذواق ! ؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان
واختيال الدنيا بنظرها فيه وبرود الوشي التي أذالتها للناظرين والمهو
والسرور الذي شمل كل شيء وأدليل له من جميع المهموم والاحزان ،
ثم يرسم حجرات الأمير بزخارفها وتهاؤها وقيام الكلاة فيها صفأً بعد
صف مطريقين الى الأرض مغضبين بالأبصار حانيا على السيف ،
ثم يرسم الامير على سريره وقد طلع على الجموع بوجه مهيب يمكن العين
منه لحظة ثم ينهاها عن ادامة اللحظان فيه ، وعليه وقار الامارة
وسمات الحلم والزانة بين قوم يعنون له ويجلون قدره من الحب
والتبجيل لا من الصلف والكبراء ، ثم يرسم المادحين بين يديه
يرتلون عليه الثناء « ضار بين الصدور بالاذقان » وينصرفون من
حضرته بالعطايا والمحلنان ، ثم يرسم القيان الكوابع حانيا على
العيдан حنو الامهات على الاطفال بنهود مفعمات ولكنها « صفر
من درة الالبان » ، ثم يرسم اثر الغناء على وجوه السامعين فإذا هو

شجن وسلوى وأمرات من الحزن والجلذل وطرب يشوبه السكون
وسلامون يشوبه الطرب ، ثم يرسم الصوت نفسه فإذا هو يهتز
« مثاما هزت الصبا غصن بان »

يتثنى فينفض الطل عنہ في ثنيه مثل حب الجمان
جهوري بلا جفاء على السـ مع مشوب بغنة الغزلان
فلا تزال في القصيدة تتنقل بين أبياتها من صورة الى صورة
ومن منظر الى منظر ومن حركة الى حركة حتى تأتي عليها وقد
استعرضت في خيالك متحفًّا واسعًا من الاشكال والخطوط عملت
فيه القرحة والنظر واشتراك فيه الفن والاحساس وروى لك أصدق
الرواية عن عين تلمح فتعي ونفس تحس قستوعب وخيال يدخل
الجمال المنظور فيثري بالالوان والسمات ، ولو وقف مصور في موقف
ابن الرومي من ذلك المهرجان لما زاد عليه بعد ذلك التغرس الانعام -
إلا أن يجري الريشة على اللوحة بصورة بعد صورة مما قد امتلاءت
به عينه وانطبع في قريحته

واذا بلغ من تهافت النفس على التهام الأشكال المختلفة هذا
المبلغ فلا جرم تترك فيها أثراً قويأً من حسنها وقبحها وما توحيه من
بواعث الفرح والنشاط أو بواعث الفزع والوجوم ، فاما الحسن في
تلك الاشكال فيزدهي بها ويطرد بها ويختت آمماها وتأنس منه البشرى

الجميلة والفال السعيد ، وأما القبيح فيقبحها ويرووها وتتوjos منه العاقبة السيئة والطالع المشئوم ، وهي إذا غلت في الاتباض خلقة أن تتطير بالقبيح وأن تقرن بينه وبين كل شر توقعه وكل نذير تحشاد ، ومن هنا خطر لي أن « التشاوم » الذي اشتهر ابن الرومي بالأفراط فيه قد يكون قريب العلاقة جداً « بذوق المجال » الذي طبع عليه أو « ملكة التصوير » التي تقتاً تزحم خياله بالمناظر والهيئات

ولم أقرأ نادرة من نوادر « التشاوم » التي تروى عن ابن الرومي إلا رأيت السبب الأكبر فيها للتشاوم أحد عاملين اثنين : هذه « الملكة التصويرية » وملكة أخرى فنية هي « تداعي الفكر وتساوق المعاني » التي كان ابن الرومي يؤلف بها بين أقصى الخواطر وأقصاها بحرف يصفه أو معنى يعكسه أو مناسبة تهيئها له قريحته المتوجبة الحافظة

فيتو كان يتشاءم « بالتشويه » حيث رأه ، وكان يكره أن يقع نظره على أحدب أو أعور أو دميم أو أصلع . بل كان يكره أن يطلع الناس منه على الصلح حين أصابه « فكان لا يزال معتماً وينقضب اذا سئل عن ذلك ، وسئلته بعض الرؤساء لم تعمم ؟ فقال بدليهياً » يا أيها السائلي لأخبره يعني لم لا أراك معتبراً أستر شيئاً لو كان يمكنني تعريفه السائرين ما سُترا ومن كان يتشاءم منهم ابن طالب الكاتب وفيه يقول :

أَزِيرقْ مشئومْ أَحِيمِرْ قَاشِرْ
وَهُلْ أَشَبِهِ الْمَرِيْخِ إِلَّا وَفَعَلَهِ
وَهُلْ يَتَارِيِ النَّاسُ فِي شَوْئِمْ كَاتِبْ
وَيَدْعُى أَبُوهُ طَالِبًا وَكَفَاكِمْ
أَلَافَاهِرْ بِوَامِنْ طَالِبُ وَابْنُ طَالِبْ
وَمِنْ قَوْلِهِ « اَنَّ الْفَأْلَ لِسَانَ الزَّمَانِ وَالظِّيرَةِ عَنْوَانَ الْحَدَثَانِ »
وَنَظَمَهُ شَعْرًا فَقَالَ :

لَا تَهَاوُنْ بِطِيرَةِ أَيْهَا النَّظَارِ
رَوَاعِلْمُ بِأَنَّهَا عَنْوَانَ
قَفْ اذَا طِيرَةِ تَلَقْتِكَ وَانْظُرْ
وَاسْتَمِعْ ثُمَّ مَا يَقُولُ الزَّمَانِ
فَلَمَّا غَابَ عَنْ عَيْونِكَ عَنْوَا
فَهُوَ يَرْبِطُ بَيْنَ الظَّواهِرِ وَالْبَوَاطِنِ بِذَلِكَ الرِّبَاطِ الْمَوْهُومِ وَلَا يَرِى
الظَّاهِرَ الْقَبِيْحَ إِلَّا عَنْوَانًا حَادِثَ مَشْئومَ يَنْذُرُ بِهِ الزَّمَانِ
وَقَالَ ابْنُ النَّاجِمِ « دَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي عَالَمِهِ الَّتِي مَاتَ بِهَا وَعِنْدِ
رَأْسِهِ جَامَ فِيهِ مَاءٌ مَلْوَجٌ وَخَنْجَرٌ مُجَرَّدٌ لَوْ ضَرَبَ بِهِ صَدْرُ خَرْجٍ مِنْ
ظَهِيرَ، فَقَلْتَ : مَا هَذَا ؟

قَالَ اَمَاءُ اَبِيلَ » بِهِ حَلَقَ فَقَلَمَا يَوْتَ اِنْسَانٌ إِلَّا وَهُوَ عَطْشَانٌ ،
وَالْخَنْجَرُ اَنْ زَادَ عَلَيْهِ اَلَّمُ نَحْرَتْ نَفْسِي . ثُمَّ قَالَ : أَقْصَى عَلَيْكَ قَصْتِي
تَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى حَقْيَقَةِ تَلْفِيِ . أَرَدْتَ الْاِنْتِقَالَ مِنَ الْكَرْخِ إِلَى الْبَصَرَةِ
فَشَاءَرْتَ صَدِيقَنَا اَبَا الْفَضْلِ ، وَهُوَ مَشْتَقٌ مِنَ الْاَفْضَالِ ، فَقَالَ : اَذَا

جئت الفنطرة فخذ عن يمينك وهو من اليمين ، واذهب الى سكة النعيمة وهي من النعيم ، فاسكن دار ابن المعافى وهو مشتق من العافية . فحالفتُه لتعسي وتحسي !

« وشاورت صديقنا جعفرًا وهو مشتق من الجوع والفارار ، فقال : اذا جئت الفنطرة فخذ عن شمالك وهو من الشؤم ، واسكن دار ابن قلابة وهي هذه . لا جرم قد اقلبت بي الدنيا . وأضر ما علي العصافير في هذه السدرة تصحح سيق سيق ... فها أنا في السياق ... »

وهذا مثل من الطيرة التي كان يوسرس له بها « تداعي الفكر » - وهي مملكة تكثر في أصحاب الفنون يضمون بها الخاطر الى الخاطر بتصحيف يسير في المفظ أو المعنى وبنسبة دقيقة من الخيال الصحيح أو الوهم الكاذب . فيصلون بها بين الطرفين يراها عامة الناس على أشد البعد والتناقض ، ويلتمسون بها المشابه والمغازي حيث لا شبه ولا مغزى لمن لم يوهبوا هذه السرعة في توارد الفكر وتساوق المعاني والالفاظ

غير بعيد أن تكون « طيرة » ابن الرومي وباللغة منحرفة من ذوق المجال وسرعة الخاطر تناهى بها الى هذا الشطط خبل الأعصاب ومضاضة الغبن وقلة فهم الناس إياه وطوارق أحداث لم تدعه حتى أسامته الى ذلك المصرع الحزين .

أدب المنفلوطي

لم أكتب عن أدب المنفلوطي على أثر وفاته لأسباب شتى يرجع بعضها الى شواغل السياسة وبعضها الى التحرج من مناقشة الحزن بالفقد والتقدم الى تshireخ الفقيد الراحل في موقف التشيع والتأبين ، فأبيت أن أقول فيه غير ما أعلم . وأن أكذب على الموت مداراة جلاله وتوقيراً لقطوه به وهبته ، وكرهت أن أشيشه الى مرقده الاخير بغير ما يحمل في ذلك الموقف من الثناء والعزاء لأنني أراه أكرم وأجدر بالرفق والمحاملة من أولئك الذين تقال فيهم كلة الحق و تستخلص من حياتهم عبرة الاخلاق وحكمة الحوادث وهم بين أيدي النعامة والمشيعين . فالآن وقد مضى على وفاته عام وأيام وقد سألهني بعض الادباء أن أخصه بكلمة من الكلمات التي أكتبهما في هذه الصحيفة - أرى من الراجح على أن أغعرض له بالشدة والتقدير لأقوم له ببعض حقه وأدل على مكانه من أدب العصر الحديث في رأيي . اذ لا شك ان المنفلوطي قد كان صاحب «مكان» في هذا الأدب يُعتد به ولا يحسن اغفاله لقد كان المنفلوطي أحد أولئك الادباء القلائل الذين أدخلوا

« المعنى والقصد » في الإنشاء العربي بعد أن ذهب منه كل معنى
وضل به الكتابون عن كل قصد

وليس يظهر فضل هذه الخطوة المباركة إلا للذين وقفوا على
حقيقة من أساليب الإنشاء في الجيل الذي غير قبل نبوغ المتفلطي
واخوانه ، فقد كانت الكتابة في ذلك الجيل قولاب محفوظة تنقل
في كل رسالة ويُزج بها في كل مقام وتُعرف قبل أن يَمِسَ الكاتب
قلمه ويليق دواته ، وكانت لمعاني القليلة المحدودة صيغ وقولاب
لا يتعورها التصرف والتبدل إلا عند الضيق الذي لا محيس عنه
والافلاس الذي لا حيلة فيه ، وكانت أغراض الكتابة كخطب
المنابر تعاد سنة بعد سنة بنصها ولهجتها القائمة ووحدة موضوعاتها ،
كأنها تعاد من آلة حاكية لا تفتقه ما تقول على آلات حاكية مثلها
لا تفتقه ما تسمع ! والمحصرت الذخيرة اللفظية - التي تتناول منها الأقلام -
في أنسجاع مبتذله وأمثال مرددة وشواهد مطروقة وآيات من القرآن
تُقتبس في غير معارضها ويحذر المقتبسون أن يغيروا مواضع نقلها
وترتب الجمل التي تسبقها وتلحق بها كحدتهم من تغيير حروفها
وكلماتها . فإذا جمعت هذه الذخيرة المحفوظة بين دفيهي كتاب فقد
جمعت عندهك كل ما خطه المنشئون من قبل وكل ما في نيتهم أن
يخطوه من بعد واستغفنت عن الأقلام والأوراق والماهير وأدوات
الكتابة كلها ومنها المنشئون والمحبرون !

هكذا كانت حاله الأنساء في الجيل الذي سبق جيل المغلوطي
واخوانه من المنشئين . غير انها لم تكن كذلك حين أخذ المغلوطي
في الكتابة وظهر في عالم الأدب . لأن الكتابة في الصحف والمحلاط
وترجمة المؤلفات الغربية واتشارة الأسلوب المختلفة من أسفار الأداب
العربية القديمة اضطرت الأقلام قبل ذلك الى اختيار الالفاظ
المقصودة واقتصرت المترجمين والكتابين على العناية بالمعانى التي
يفهمونها ، فنشطت الكتابة في تعثر وسلكت على نهجها القديم في
بطء وتحير ، وبقي فيها أثر من ذلك الجمود كأثر النقاوه في الوجه
تعرفه في زيارة المادة وصعوبه التوفيق بين المعانى الطارئة والعبارات
الميسورة وقرر الكتاب وعجزهم عن التصرف فيما بين أيديهم
من ثروة التعبير

فهزيمة المغلوطي في هذا الدور الناقه الهزيل انه بريء من آثار
ذلك النقاوه ومشى بقدمين على النهج الجديد الذي دخل فيه المعنى
وألقى صد على الانشاء العربي . وقول ما شئت في تينك القدمين وفي
ذرع خطوهما واستنقاومة سيرهما على النهج الجديد : ليكن فيما ما فيهما
من الضعف والعيب أو ليكن عندهما ما عندهما من الرخاوة والكسل ،
فإنما بعد كل ما يقال فيما قدمان آدميتان وليستا بعضوين من
الحشب المنجور

وقد تقدم المغلوطي الى هذه المزية أدباء قليلون في مصر أشهرهم

المويحي الكبير فالمويحي الصغير . وكانا كلامها أذكي منه جناتاً
وأعرف بهنون الأدب وأقدر على النقد الاجتماعي وأفطن إلى الفساد
وأوسع اطلاعاً على شؤون الحياة ، ولكنـه كان أحدث منهما عهداً
وبـعـدـ مـنـ ذـلـكـ العـصـرـ الـذـيـ وـصـفـنـاهـ فـمـالـ إـلـىـ الـاسـلـوبـ المـرـسـلـ وـسـلـمـ
مـنـ تـكـلـفـ السـجـعـ وـقـلـ الصـيـغـ وـقـوالـبـ ، فـكـانـ لـذـلـكـ أـدـنـىـ إـلـىـ
الـكـتـابـةـ الـحـدـيـثـ الـمـطـلـقـةـ وـأـسـعـ حـظـاـ بـهـهـ الـمـزـيـةـ الـيـ أـخـرىـ بـهـاـ أـنـ
تـحـسـبـ لـأـيـامـهـ لـأـجـرـأـتـهـ وـحـسـنـ اـخـتـيـارـهـ . أـمـاـ الـمـوـيـحـيـ الـكـبـيرـ فـكـانـ
يـتـعـمـدـ السـجـعـ حـينـ يـحـتـفـلـ بـالـتـفـخـيمـ وـالـتـمـيقـ ، وـأـمـاـ الـمـوـيـحـيـ الـصـغـيرـ
فـلـعـلـ الـذـيـ قـيـدـهـ بـالـسـجـعـ فـيـ كـتـابـهـ «ـ حـدـيـثـ عـيـسـىـ بـنـ هـشـامـ »ـ اـنـهـ
وـضـعـهـ عـلـىـ نـسـقـ الـمـقـامـاتـ وـاخـتـارـلـهـ اـسـمـ رـاوـيـةـ كـأـسـماءـ روـاـتـهـ فـالـتـزـمـ
فـيـهـ مـاـ كـانـواـ يـلـتـزـمـونـهـ فـيـ مـقـامـهـمـ مـنـ اـسـجـاعـ وـالـأـوـضـاعـ

ذلك هو مكان المنفلطي في أدب العصر الحديث على وجه
الإجمال . ولكن ما مكانه في عالم «الآدب» عامة اذا أردنا ان ننظر
إلى الآدب من وراء البيئة والظروف بل من وراء الاجناس واللغات؟؟
أقول أولا ان المنفلطي منشيء وليس بكاتب ، أو هو يحسب مع
أصحاب الأشاء اذا قسمنا الآدباء الناشرين الى كتاب ومنشئين
والفرق بين الكاتب والمنشيء في عرف هو: ان الكاتب «انسان»
قبل أن يكون حامل قلم و صانع كلام ، وفضيلته فضيلة نفس شاعرة

مدركة لا فضيلة لسان وعبارة ، وأحسن مواهبه تبقى له كاملة ناطقة
إذا هو رُجم من لغة إلى لغة أو حيل بين قارئة وبين بلاغة لفظه
وأسوب أدائه

وأنت تعجب بالكاتب لصفة تأنسها في نفسه وعقله ثم تعجب
يأسلاً به لأنَّه وسيلة إلى إبراز تلك الصفة في الصورة التي توائهما ، فإذا
سئلْتَ أنْ تفصل بين الكاتب وكتابته في تقديرك لم تدركِ كيف تفصل
بينهما لأنَّك تحس حينئذ أنْ كتابته جزءٌ منه وعضوٌ من أعضائه ،
بل هي الصدق به من جميع أعضائه وجوارحه لأنَّها خلاصة حياته وزبدة
نفسه وعقله وتاريخ خلايا جسمه وروحه

وفي كلِّ كاتب شيءٌ من طبيعة النبوة ، لأنَّه يحمل رسالة
« خاصة » من لدن الحياة إلى إخوانه في الحياة . ولهذا كان لا بد
للكاتب من هبة خارقة يحس بها ما لا يحسه سواد الناس ويفهم بها
ما لا يفهمون من أسرار هذه الدنيا وعجائب الغيب والشهادة ، فإنَّ
لم تكن له هذه الهبة قفزةٌ تقدح هباته المألوفة وتستفزها إلى البروز
والاحتدام وتجافي بها عن سبيل أمثلاها المعبد في نقوس الآخرين
فتبدو كأنَّها أجنبية غريبة عما يألفونه بينهم من هذه الهبات ، فإنَّ لم
تكن له تلك القوة بجانب من جوانب الطياع يراه الناس فيه
مكبراً مشروحاً يدرسون عليه ذلك الجانب من النفس البشرية
كما يدرسون الأعضاء الدقيقة وراء المجاهر المعظمة وعلى الرسوم

الواسعة المفصلة ، فاذا كان التيمن أو التشاوم أو الحب أو البغض أو
المدعاة أو الكبراء أو الحسد أو البر أو غير ذلك من الحلال خفيًا
ضارعًا في عامة النفوس فربما كان فيه ظاهرًا مفسرًا يتيح لك أن
تتأمله وتحقق عن بواعته وتستقصي غاياته كما لا يتيح لك ذلك من
مراقبة ألوف من الناس ، فإن لم يكن فيه جانب من هذه الجوانب
المكثرة فلكلها تصريح المشاهد الدارجة بلون لا تراها به كل عين ولا
تخليعها كل بصيرة . وقد تتفق هذه المزايا كلها للكاتب أولاً
يتفق له إلا بعضها ، ولكنها لا بد أن يكون على الحالين نمودجًا خاصًا
يحمل رسالته التي لا يغنى عنها أحد في ابلاغها والتي تشعر وانت
تقرأها انها رسالة « وشفر » في آن واحد ، وانها لو افصلت عن
صاحبها لصاع معها السفر الذي يفك رموزها وتتوقف عليه فوائدتها
والكاتب جماله في الاسلوب جمال المعدن الصحيح لا جمال
الزيف والطلاء ، فيياضه بياض الفضة وحرمة النحاس واصغراره
اصغرار الذهب ولمعانه لمعان الماس . وكل شيء فيه له قيمة الطبيعية
التي لا مبالغة فيها ولا تمويه عليها . فهو يذكُر أبدًا بالطبيعة الصادقة
والباب المكنون

أما المنشيء فيختلف عن الكاتب في هذه الحال . فانك تقرأه
وكأنما تشعر بالقشرة المطلية تحت يدك ويوحي إليك أنه يخدعك
ويحاول أن يبيعك الشيء الزهيد الذي تراه في كل مكان باسم غير

اسمها وقيمة أغلى من قيمتها ، فأنـت تبصر فيه لون المعدن ولا تسمع رنته وترؤـز شـله ، وتعلـم أنـ السـر كـله في الصـقل الظـاهر ولا يعـجبكـ أنـ تتـطلع إلـى الـباب الـمستـور وراءـه ، ويـخـيل إلـيـكـ أنـها صـنـاعـة آـلـيـة قد يـبـرـعـ فيـ المـخـرـعـونـ عـدـاـ فيـ حـدـثـونـ لـلـآـدـابـ آـلـةـ تصـقلـ الـكـلامـ كـالـآـلـاتـ التيـ اخـتـرـعـوـهاـ لـصـقلـ الـمـعـادـنـ !ـ وـقـدـ يـعـنـ لـبعـضـ الـمـشـئـينـ أـنـ يـفـتـحـ لهـ مـكـتبـاـ لـتـوـشـيـةـ كـلامـ غـيرـهـ كـهـؤـلـاءـ الـكـتـبـةـ الـذـينـ يـدـبـجـونـ الرـسـائـلـ للـمـسـكـتبـيـنـ فيـ أـغـرـاضـ نـفـوسـهـمـ الـتـيـ لـاـ يـنـوبـ عـنـهـمـ فـيـهاـ سـواـهـ .ـ وـلـيـسـ لـلـمـنـشـيـءـ رسـالـةـ خـاصـةـ يـؤـدـيـهاـ منـ لـدـنـ الـحـيـاةـ وـيـضـيـعـ شـفـرـهاـ إـذـاـ لمـ يـقـمـ هوـ بـادـائـهـ ،ـ وـلـكـنـهـ —ـ عـلـىـ أـحـسـنـ مـاـ يـكـونـ —ـ صـاحـبـ زـيـنةـ يـسـرـكـ أـنـ تـنـظـرـ إـلـيـهاـ وـتـجـريـ يـدـكـ عـلـيـهاـ ،ـ وـتـقـدـدـهاـ كـلـاـ اـذـاـ أـرـدـتـ أـنـ تـنـقـلـهـ مـنـ لـغـهـ الـتـيـ كـتـبـتـ فـيـهـ إـلـىـ لـغـهـ أـخـرـيـ تـحـفـظـ مـعـنـاهـاـ وـتـنـقـيـ قـوـالـبـهـ وـأـلـفـاظـهـ ،ـ فـلـيـسـتـ فـضـيـلـتـهـ فـضـيـلـةـ «ـ اـنـسـانـ»ـ يـخـاطـبـ جـمـيعـ النـاسـ بـلـغـةـ الـحـيـاةـ وـلـكـنـهـاـ فـضـيـلـةـ حـرـوفـ لـاـ حـيـاةـ فـيـهـ وـاـصـدـاءـ لـاـ اـرـتـباطـ لـهـ بـعـانـيهـ

وـخـيـرـ ماـ يـكـونـ الـمـنـشـيـءـ اـنـ يـكـونـ تـزوـيقـهـ فيـ أـسـلـوبـ الـفـكـرـ وـأـسـلـوبـ الـصـيـاغـةـ مـعـاـ ،ـ كـاـكـانـ «ـ أـوـسـكـارـ وـاـيلـدـ»ـ فيـ انـجـلـتراـ وـ«ـ تـيـوـفـيلـ جـوـتـيـهـ»ـ فيـ فـرـنـسـاـ وـ«ـ بـدـيـعـ الزـمـانـ»ـ فيـ الـلـغـةـ الـعـرـيـةـ .ـ فـهـؤـلـاءـ قـدـ تـبـقـيـهـمـ بـعـضـ مـلاـحـتـهـمـ اـذـاـ تـقـلـوـاـ مـنـ لـغـهـ إـلـىـ لـغـهـ وـخـسـرـواـ وـشـيـ أـسـالـيـبـهـمـ وـرـنـةـ الـفـاظـهـمـ ،ـ لـاـنـ سـوـانـحـ أـفـكـارـهـمـ قـدـ تـبـهـرـ الـنـظـرـ

بألاعيبها ورقصاتها وللاء أصافتها كما تهر الآذان نغمات كلماتهم
وتراكيب عباراتهم . على أن المعاني المزروعة قلما تنجلب عن قيمة
نفيسة وبجمال دائم

والمنفلطي إذا نظرنا اليه بهذا النظر لم نقل فيه إلا انه من شيء
لبق الصناعة كثير التزويق في الصياغة قليله في المعاني والأفكار ،
أو هو — إذا بالغنا في انصافه — أقرب إلى جماعة المنشئين منه إلى
جماعة الكتاب



المفلوطي والنفس الإنسانية

قرأت في بعض ما رأي به المفلوطي أنه كان «كاتب النفس الإنسانية» يريد القائل أنه كان رحمة الله يكيي آلام النفس ويستبطن أهواها وأشواقها ويعطف على آمالها وهمومها ويكشف عن فضائلها وأدوارها، كما يروي عن كبار الكتاب الملميين الذين سبروا أغوار الطبائع واخترقوا حجب الأذهان والبصائر وعرفوا من سرائر «النفس الإنسانية» امماً لا يدركها الحصر وأحوالاً تخسب من تصفحها ان الإنسان في هذه الحياة خلاق لانهاية لها ولا مشابهة إلا على بعد بين أنواعها وفضائلها

ولست أرى في كل ما وُصف به ذلك الفقيد صفة هي أبعد من الحقيقة وأدل على الجهل بالنفس من هذه الصفة التي يُظن لأول نظرة أنها أصدق صفاته وأحرارها بالقبول.

ولا أقول ذلك لأن المفلوطي كان قليل البكاء في قصصه ومقالياته أو كان مغلق النفس على الحزن والأسى بطبيعة مزاجه، ولكن لأنني أرى أن غزارة الدموع شيء والاحساس بخصائص النفس الإنسانية شيء آخر. فالاطفال هم أكثر الناس بكاء وأغزرهم دموعاً

ولكنهم أغرب الناس عن الحزن وأنهم عن لواجع الآلام وتجارب الأيام ، والنفوس التي تلقي الحياة بالوجوم والاتقاض ولا تعرف فيها غير الشكوى والاشفاق إنما هي نفوس عجزت عن تجربة الحياة وابتلاع ما فيها من الخير والشر والفرح والحزن فقنعت منها بتلك الحشية الضعيفة التي تبدو للنظر القريب في ثوب الرأفة والحنان وبتلك القشعريرة الجفالة التي تسري في الجلد لأدنى الملامسة وأهون المقاومة ، مثلاها في هذا مثل «الساجع» المقرر يقف على شاطيء البحر فيقترب منه في خوف وحدر ويغمض فيه أطراف أصابعه في تردد وأناء ثم تسري في جسده قشعريرة الماء فيرتعد عنه ويحجم عن خوض عيشه وهو يتهم البحر ويرثي للسابحين فيه ! فليس ذلك الرثاء رثاء الساجع الذي جرب البحر وصارع أمواجه ومارس حيتانه واقترب من أعماق قيعانه وارتفع على متون أثابجه وتدوّق فيه نشوة السباحة مرة وشارف فيه وهلة الغرق مرة أخرى ، ولكن رثاء الساجع الذي لم يجرب البحر ولم يعرف منه إلا تلك القشعريرة الجلدية التي هي أول حدود البحر في عالم الاحساس ! وأحرى بمثل هذه القشعريرة أن تسمى «رمحة الجلد» لا رحمة القلب وصوت الشاطيء اللين لا صوت البحر الواسع العميق ، ولو أن ذلك «الساجع» قدف بنفسه في الماء قبل أن يحسه بأطراف أصابعه وتحرك فيه بملء قوته قبل أن يقف على شاطئه لعلم أن صرخة البحر الجائش غير صرخة الرمل

الليل ، وان الرثاء الذي خامره على حافته هو الحقيق من الساجين
بالرثاء ، وان الحزن في غمار الماء قوة وشعور ولكن على الحافة
الندية خوف من القوة وهرب من الشعور

* * *

وربما كان أدب المنفلوطي أصدق الأمثلة وأقربها إلى توضيح
الفرق بين ليةنة الطبع — وان شئت قفل دماثته — وبين صدق
الاحساس وسرعة العطف على الآلام والاشجان ، فان كثيراً من
الناس يخيل اليهم أن الطبع الذي يصفونه بالدماثة والرقه هو أصدق
الطبع حسأ وأسرعها إلى العطف على مصائب النفوس والاصحه إلى
شكایة البائسين والحزونين ، وليس أخطأ من هذا الخطأ في فهم
حقيقة العطف الصحيح الذي اتى يتفجر من سعة الاحساس وغزاره
العواطف ويقظة القلب لا من تلك الدماته التي تفتأ باكرة شاكية
أو من تلك الرقة التي تشدق أن تذوب من الهباء !

وانظر الى أبطال المنفلوطي في قصصه ومقالاته فكيف تراه يعطف
عليهم ويري لآلام نفوسهم وأشجان ضمائرهم ؟ أتراه سريع الاحساس
بما يعتري النفوس ويخامر الضمائر أم تراه لا يلتقت اليها ولا يشعر بحالها
حتى يبلغ بها الرزء أقصى مانتنتهي اليه الأرzae ويجرعها الدهر صباية
العذاب وقرارة الكدر والبلاء ؟ وما ظنك بقلب لا يستدر العطف
على الصاب حتى يجمع عليه بين ضنك الفاقة وتبريع السقم ويأس

الحب ووحشة العزلة وذلة اليم وسائل ما يحيق بأشتات المعذبين في الأرض من صنوف الشقاء وضروب المهوان والحرمان؟ وما ظنك بعين لا تجود بالدموع على السكير أو المقاوم أو المنكوب حتى تخربه من الدنيا شريداً مسلوباً أباً لأيتام يتضورون من الجوع وزوجاً لأيم تتبع بثمن العفاف؟ أتظن أن قريحة تلد هؤلاء الأبطال المساكين وتسأل لهم الرأفة بتلك الكوارث والأهوال قريحة تجيب داعي العطف القريب وتسرع إلى الاحساس بالألم الضئيل أو هي على خلاف ذلك قريحة لا تبصر من مصائب النفوس إلا ما جل وعظم وأوشك أن يتساوى فيه القساة والرحماء وأن يتلاقي عليه الأعداء والاصدقاء؟

فأشقياء المنفلطي كالم إما فتى مات أبوه وجار عليه كفيفه وضن عليه بابنته التي يحبها وتحبه وبنده من بيته إلى حيث لا مال ولا مأوى فما زال به الفقر والوله حتى أسلماه إلى اليأس والسلق وما زال به اليأس والسلق حتى أسلماه إلى الموت العاجل في ريعان الشباب، وإما رجل غره الرفقاء وزينوا له الخمر فشرب منها كأسه الأولى فادمنها فتلقى بدنها وضعاع مورد رزقه وغدر به أصحابه ورفقاوه واصطلحت عليه آفات الفاقة وأوجاع العلل وعثرات الجد ثم طال ثواؤه في البيت بلا طعام ولا فراش ولا عزاء حتى ثوى في مضجعه الأخير، وإما فتاة غوت فقادتها الغواية إلى الفجور وقادها الفجور إلى الداء وانتهى بها الداء إلى العدم فالنسينيان فالموت الشائن المهن، وهكذا وهكذا.

بحيث ترى أن ليس للناس عند المفلوطي مصائب غير هذه المصائب الجسيمة وأشباهها التي يبصرها الأعمى ويسمعها الأصم ويحتمق فيها الجوع والداء والذل والموت بلا افتراق ولا تنويع، وهي على فداحتها وثقل وطأتها ليست مما يسمى بـ«المصائب الإنسانية» وآلام المصائب الحية لأنها مصائب وآلام يشترك فيها الإنسان والحيوان ويرفها كل من يعرف الجوع والمرض والموت من هذه الأحياء.

واما مصائب النفس وآلام الضمير تلك التي يتفرد بها «الإنسان» الشاعر وهو قاتم المأرب من طعام وشراب ومتاع وسلطان، وهي تلك التي تحملها له نوافل الكمال التي ينعلو بها عن الأحياء الدنيا وعن بني آدم الذين يشبهونها في المطالب والهموم. وليس من الضروري أن يُعنى الإنسان بالجوع والضر والتبريج جميًعا ليجتمع من كأس الشقاء وياخذ بنصيب من لعنات الحزن والضيق وأشجان الأسف والكابة. فربما ملك وساد وقت له نعمة المال والبنين ودانت له المتعة والصحة وهو في ضميره مع هذا في سورة لا تهدأ وحرب لا قرار لها ولا سلام، وربما عشق وأسعده العشق وهو في حيرة السعادة نفسها على حال من التلقق يشبه الكرب والشقاء، وربما شيب له الصفو بالكدر لأنه بلغ غاية الصفو أو مدق له النعيم بالسآمة لأنه أوفى على مدى النعيم، وربما كانت خلاصة هذه الآلام الرفيعة ألمًا واحدًا يتخالها جميًعا وترى فيه كائنا

«الإنسانية» تستيقن إلى مرتبة فوق مرتبتها وسعادة فوق سعادتها وحاجات من العيش والوجود فوق حاجتها ، فهو ألم التشوّف إلى ما وراء الإنسانية من حظ الحياة والختين إلى «المجهول» الذي لا يمده الحس ولا تحيط به الأفكار . وذلك هو الألم الذي لم يعطف عليه المنفلوطي قط ولم يجعل للإنسانية نصيحة منه في كل ما ألف أو ترجم

* * *

ونظرية المنفلوطي إلى الأخلاق من فضائل ورذائل كنظرته إلى ألوان الشعور من مسرات وألام . أي أنها نظرية لا تنفذ إلى بواطن «النفس الإنسانية» ولا تشملها بالعطاف الواسع والفهم السديد والادراك السليم ، لأن الإنسان عنده إما صاحب فضيلة وإما صاحب رذيلة ولا وسط هنالك بين الحالتين ، والعمل من الاعمال عنده إما أبيض وإما أسود ولا مزيج هنالك بين الصبغتين ، وحدود المحسن والمتساويء عنده كأنها مقسمة على رقعة من الورق لا في طبيعة حية يتصل بعضها بعض ويتوشح فيها الخير بالشر والحسنة بالسيئة والقوة بالضعف والصعود بالهبوط ، فليس من الجائز في عرفه أن تكون النفس الواحدة معتدلاً لفضائل ورذائل تنتصر فيها هذه تارة وتنتصر فيها تلك تارة أخرى ، وأن يكون العمل الواحد خليطاً من الخير والشر يميل بعضه إلى الصلاح والكمال ويميل البعض الآخر إلى الطلاق والقصور ، وذلك لأنه يحكم على الأخلاق والطبع

بأسئلها وتعريقاتها لا بما يحسه من العطف عليها وعلى أصحابها، فيختفيء هنا في تفصيل الأخلاق كما يختفيء هناك في تصوير الشعور، ومصدر الخطأين واحد هو أن «النفس الإنسانية» التي يعهد لها ويعطف عليها نفس ساذجة محدودة يقل فيها التركيب وتعدد الجوانب ويبلغ مداها في الغور والذروة بأقرب مسبار

* * *

ولكنتنا تقدر المنفلوطي ولا نريد أن نبخسه حقه وتنكر عليه أئمته. فلا بدّ لنا أن نقول إن النفوس التي يعهد لها ويعطف عليها أكثر عددًا وأوحاج إلى التسقيف والتعليم من النفوس التي لا عهد له بها ولا صلة عطف بينه وبينها. وإن نظرته إلى الأخلاق والشعور أقتنى أن تقيد قراءه وتحظى لديهم من كل نظرة سواها، ولعلها — لولا ما نأخذه عليه من الليونة والرخاؤة في أكثر كتاباته — أصلح زاد لهم من غذاء الفكر والعاطفة، بل لعلهم كانوا في حاجة إلى منفلوطي يظهر لهم لم يظهر لهم هذا المنفلوطي الذي عرفوه وأقبلوا عليه



سید درویش

في مثل هذا الشهر ، منذ عامين ، مات السيد درويش . واذا
قلت السيد درويش فقد قلت إمام الملحنين ونابغة الموسيقى المفرد في
في هذا الزمان . مات والقطر كله يصغي الى صوته . وسمع نعيه من
سمعوا صوته ومن سمعوا له الصدأه من مرتبلي ألحانه ومرجعي أناشيده ، فما
خطر لهم — إلا القليلين — أنهم يسمعون نبأ خسارة خطيرة
وان هذه الأمة قد بعثت في رجل من أفذاد رجالها العدددين
كان ذلك النابغة الفقيد رحمة الله قد نبه ذكره قبل موته
بعامين أو قرابة ذلك ، واشتهر اسمه وذاعت أغانيه والحانه فطافت
القطر أجمعه وطبقت المدن والقرى وانبسست منها مائدة سرور
واسعة الاكتاف تناول منها كل غاد ورائح وتصيفها كل طارق
وواغل ، وكان لكل قلب في عالم السماع نصيب من قلب صاحبها
ولكل لسان حظ من وحي لسانه ولكل مسمع خبر من أخبار روحه
الهامم في أسعد ساعاته وأجمل أوقاته ، فكان يرسل اللحن في الرواية

أو القصيدة أو الأغنية الصغيرة فما هي إلا أيام حتى تتجاوب بها الأصداء في أنحاء البلاد فيهتف بها المنشدون على الملاعب وترتمن بها العازفات في أندية الأسر ومحالس البيوت وينطلق بها الصبية في السبل والأسواق وتغدو مصر السامعة كلها كأنها فرقة واحدة وقف منها السيد في منصة الاستاذ فهو يلبي عليها وتسمع وهو يبدأ لها وتتابع: كل على قدر طاقته من الفن وعلى حسب حظه من جمال الصوت وحسن الاداء والاصغاء ، وما بالقليل على الرجل الفرد في هذه الدنيا أن يمون أمة كاملة بهذه المؤنة الحميمة وأن يجعل لها سروراً لا تجلبه لنفسها بما تصبح فيه وتنسي من جهاد الحياة ، وأن يهدي إليها ساعات صفو وأريحية ترتفع بها إلى ملا العبطه والنعيم وترجح بأعوام تنقضي في شقاء العيش وأعمار تمضي في أسر كأسر الأنعام وقيود كقيود السجناء ، إِي والله ان ساعة سرور واحدة هي ساعة حياة بل هي ساعة خلود ، وإن ساعة خلود هي نفس من عمر مسخر وأغزر من وجود كوجود الجماد يسوى فيه الدهر الطويل واللحظة القصيرة ، وأجدى على النفس الشاعرة من كنوز الأرض وذخائر البحار . وما بالقليل على السيد درويش أن يمون أمة كاملة بهذه المؤنة العلوية يوماً واحداً لا أعواماً عدة ولا بعض عام .

ولكن الأمة الكاملة — مع هذا — بمحضت عن قضاء حق الرجل الفرد فمات بينها وهي لا تعلم أنها أصييت من قدره بصبية

قومية ولم تبال حكومتها أن تشارك في تشيع جنازته واحياء ذكره كما
تباالي بتشيع جنائزات الموتى الذين ماتوا يوم ولدوا والمشيئين الذين
شيئتهم بطون امهاتهم الى قبر واسع من هذه الدنيا يفسدون فيها من
اجوائهما ما ليست تفسده العظام النخرات والجثث البالات
أقول مع هذا ؟ بل ما لنا لا نقول ان الرجل قد أهمل في
حياته وبعد مماته ذلك الاهالى القبيح لأجل هذا ؟ أوليس آدابنا
هي تلك آداب الشرق الجامد الذليل الذي تعاورته الرزايا وران
عليه الطغيان ؟؟ أوليس آداب هذا الشرق المسكين تعلمنا أن العزيز
العظيم من يسيء إلى الناس وأن المبين الحقير من يتوكى لهم الرضى
ويوطئ لهم أسباب السرور ؟ أوليس من شرع الاستبداد وسنن
آدابه أن يكون الرجل عظيمًا لأنه يطغى ويقهر ويكسر النفوس
ويختفي الظهور ويعفر الوجوه ؟

أو ليس هذا أعظم ما رأينا من العظمة في هذا الشرق الآفل
منذ علم أبناءه انهم صغراً حقراء فلن يكون الذي يتقدم اليهم بالرضى
والسرور إلا أصغر منهم صغيراً وأحقر منهم حقارة ؟؟

بلى وأسفاه ! ان دفائن الاستبداد ما برحت عالقة فينا بدخيلة
السرائر ننفضها فلا تنقض إلا ذرة بعد ذرة ونزن المتفوض منها
فإذا هو لا يزيد في الهباء ولا ينقص راكم ذلك التراث الدفين ؟
فما يزال العظيم عندنا عظيمًا بازráائه من الآخرين وما يزال تمحيص

السعادة لطلاها عندها عملاً من أعمال الأذلاء الماهنين ، وانت لا تعرف انك في أمة أحرار حقاً كارهين للاستبداد حقاً إلا إذا رأيت بينهم لعظاء المطربين شأنًا لا يقل عن شأن أندادهم ذوي المواهب والأعمال والقدار . فان المرء في مثل هذه الامة لا يكبر إلا بما يمحض الناس من صفو وسعادة ولا يسعدهم أحسن السعادة إلا بما يحيي فيهم من نبيل الشعور وجميل الأمل ورفع التفكير والتخييل . فهو إذا غناهم أحسن الغناء كان عندهم كمن يفتح لهم أحسن الفتوح ويسموهم أحسن السياسة ويعلمهم أحسن العلم ويصلّي بهم أحسن الصلاة ، وهو كبير بنفسه لأنه كبير الأثر في نفوس الآخرين بعيد المدى في تشريف الحياة وتطهيرها وتهذيب أبنائهما وتحبيبهم في محاسنها ومطامحها ومسراتها . أما الأمم التي لا حظ لها من الحرية ولا يد لها في تعظيم العظيم منها لأنه يعظم بينها غضبـتـ عليه أو رضـتـ عنه وأعجبـتـ به أو انـكـرـتـه فـتـلـكـ ماـذاـ يـبلغـ منـ شـأنـ المـغـنيـ المـطـربـ بـيـنـهـاـ ؟ بل ماـذاـ يـبلغـ منـ شـأنـ كـلـ مـنـ يـسـعـدـهـاـ وـيـسـرـيـ عـنـهـاـ كـرـوبـهاـ ؟ انـ كـرـوبـ حـقـيرـةـ ، وـاتـ أـحـقـرـ مـنـهاـ لـسـعـادـهـاـ وـانـ أـحـقـرـ مـنـ هـذـهـ وـتـلـكـ لـمـنـ يـمـسـحـ عـنـهـاـ تـلـكـ الـكـرـوبـ وـيـجـلبـ لهاـ تـلـكـ السـعـادـ ؟ فلا غـرـوـ يـكـونـ فـيـهاـ «ـالـفـنـانـ»ـ عـامـةـ وـالـمـعـنـيـ خـاصـةـ خـلـيـعـاـ مـنـ خـلـعـائـهاـ وـماـجـنـاـ مـنـ مـجـانـهاـ ، بـصـاعـتـهـ أـنـ يـضـعـ عـلـيـهـاـ وـقـتـ الـهـوـ الـذـيـ هوـ فـضـلـةـ مـنـ وـقـتـ الـعـملـ الضـائـعـ . . . أوـ الـعـملـ الـذـيـ لاـ يـسـتـحقـ أـنـ يـعـملـ

ولا يتيح الانسان أن يعلو بهامته عن مراتب الحيوان ، وهو إنما يضيع عليهم وقت اللهو بحياة الردىء فيهم من الشعور والذميم فيهم من الأمل والوضيع فيهم من التفكير والتخيل . فلا غبن عليه ولا نكران لحقه أن يعيش في هذه الأمم زحافةً آدميةً تمشي على بطئها وتحمد الله أنها لا تسحقها باقدامها ، وكذلك عهدنا المطر بين والمعنى في مصر الى زمن غير بعيد .

ولو كان السيد درويش واحداً كآحاد الفئة لما ليهم كبير ولا صغير على اهله ولا لحق هذه الامة ضير من غفلتها عن تثمير ملوكاته وتكميل شوطه . ولكن رأس طائفة وطليعة مدرسة : رأس طائفة لم يتقدمها متقدم وطليعة مدرسة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الموسيقى المصرية ، ولا أحاشي أحداً من اتصل بنا بأهله في العصر الأخير فضل السيد درويش — وهو اكابر ما يذكر للفنان الناهض من الفضل — انه أدخل عنصر الحياة والبساطة في التلحين والغناء بعد أن كان هذا الفن متناولاً كجميع الفنون الأخرى بأوقار من أسباعه وأوضاعه وتقاليده وبديعياته وجنساته التي لا صلة بينها وبين الحياة . وجاء هذا النابغة الملهم فناسب بين الالفاظ والمعاني وناسب بين المعاني واللحان وناسب بين اللحان و « الحالات النفسية » التي تعبر عنها ، بحيث تسمع الصوت الذي يصفعه ويلاعنه ويغنيه فتحس بـ ان كلاته ومعانيه وانعame و خواجه قد تزاوجت منذ

القدم فلم تفترق قط ولم تعرف لها صحبة غير هذه الصحبة اللازم
ولم يكن الغناء الفني كذلك منذ عرفناه وإنما كان لغواً لا محصل فيه
وألحاناً لا مطابقة بينها وبين ما وضعت له . فربما كان « الدور »
مقصوداً به الحزن والشجو ولحنه أميل بالسامع إلى الرقص واللعب ،
أو مقصوداً به الجذل والمزاح ولحنه أميل إلى الغم والكآبة ، ولم تكن
الأنقام والاصوات عبارات نفسية وصوراً ذهنية ولكنها كانت
مسافات وأبعاداً تقاوم على كذا من الآلات وترتبط بكلها من المفاتيح
ثم لا محل فيها بعد ذلك لقلب يتكلم ولا لقلب يعي عنه ما يقول —
وعلى هذه السنة درج الغناء عهداً طويلاً إلى أن أدركه المغنيان
الشهيران عبده ومحمد عثمان ففتحا بعض التقييم بيد أنهما لم يخرججا
به من حيز التقليد ولم يردا إليه نسمة الحياة ، وكانا فيما صنعوا في هذا
الفن كالذي يطلق الطائر السجين من قفصه وينسى انه مقتصوس
الجناحين كليل العينين يحس قضبان القفص حوله أينما سار



حدثني بعض أصدقاء الشيخ سيد الذين حضروه في تلحين
أدواره ومقاطيعه انه كان اذا قصد التلحين أخذ الورقة التي
كتب فيها الكلام شرعاً أو ثرياً فقرأها في نفسه قراءة متفهم
متأنل يستشف روح معانها وإيماءات الفاظها ومضمون اغراضها ، ثم
يتلوها جهراً لتصحح كلماتها وفواصلها ، ثم يرفع الصوت مؤدياً كل

جملة بما يوائها من لهجة الدهشة أو الغضب أو الحنان أو الفرح أو الزهو أو الوجوم . فإذا تم له ذلك هدأ اختلاف المهمجات في تلاوة الجمل إلى اختلاف الألحان التي تناسبها ، فيخلو بنفسه هنية ثم يعود إلى رفاته وقد أفرغ عليها الحانها الدائمة فلا يستهان بها بعد ذلك التفهم والانعام ملابسة الأهاب المشرق الصحيح لجوارحه السليمة التوعية ، فتسمعها كأنك تسمع تفسيرًا موسيقياً لدقائق المعاني وكوامن الاحساس أو ترى صوراً طيفية تنسجها لك الموسيقى من خيوط النغم ونباط القلوب ، وطريقته في استيحاء الموسيقى طريقة العبريين الغربيين إذ يستفتحون أبوابها بين مناظر الليل والنهار وأصوات الرياح والأمواج ولمحات البروق والنجموم ، فكثيراً ما كان يبيت عند شاطيء البحر ليالي متواليات يصغي ويتوسم ويغمغم ويترنم إلى أن يسلس له التنشيد كما يريد ، وكثيراً ما أحيا الليل إلى الفجر يستقبل أذداءه وأنواره ويترجمها شدواً بديعاً يطلع على الأسماع بمثل الفجر في حلل الانداء والأنوار ، وخلفه في رواية هدى حيث تظهر أشباح الأجداد عند القناطر الخيرية في مطلع الفجر قد صيف في ذلك المكان في تلك الساعة بعد ليلة ساهرة لم يغمض له فيها جفن ولم يكف لحظة عن التهؤ « للقدر » للأمول وللولي السعيد وكان الشيخ سيد يستعير بعض الانقام القدمية ليعيدها على أغاني جديدة هي بها أشكال وعليها أكياس وأجمل ، ثم لا يخفي الاستعارة

ولا يدعى ما ليس له على عادة بعض الادعاء عندنا ، فـأـذـا وـضـعـ
الـلـحـنـ مـبـتـكـرـاـ أوـ مـسـتـعـارـاـ حـرـصـ غـاـيـةـ الـحـرـصـ عـلـىـ أـنـ يـؤـدـيـهـ
الـمـشـدـوـنـ كـامـلـاـ مـضـبـوـطـاـ كـاـوـحـيـ إـلـيـهـ وـتـقـلـ عـنـهـ ، فـلـاـ يـطـيقـ أـنـ
يـتـصـرـفـ فـيـهـ مـتـصـرـفـ أـوـ يـعـبـثـ بـهـ عـابـثـ مـنـ عـشـاقـ التـزوـيقـ
وـالـتـرـطـيبـ . وـبـلـغـ مـنـ فـرـطـ غـيـرـتـهـ عـلـىـ صـنـاعـتـهـ أـنـ سـمـعـ لـيـلـةـ اـحـدـيـ
الـفـرـقـ تـنـشـدـ الـخـانـهـ فـيـ بـعـضـ الـرـوـاـيـاتـ فـهـاـلـهـ مـاـ وـجـدـ فـيـهـاـ مـنـ التـحـرـيفـ
وـجـنـ جـنـونـهـ مـنـ الغـيـظـ وـالـهـيـاجـ وـجـعـ يـصـبـحـ : أـهـذـهـ مـوـسـيـقـايـ ؟
أـهـذـهـ مـوـسـيـقـايـ ؟ شـمـ أـغـنـيـ عـلـيـهـ لـتـوهـ وـقـيلـ لـىـ أـنـ ظـلـ بـقـيـةـ حـيـاتـهـ
يـرـغـبـوـنـهـ فـيـ الـعـلـمـ مـعـ تـلـكـ الـفـرـقـةـ بـالـأـجـرـ الـغـالـيـ وـالـتـوـسـلـ الـكـثـيرـ وـهـوـ
يـأـبـيـ عـلـيـهـمـ أـشـدـ الـإـبـاءـ

وتـرىـ السـيـدـ قـتـرـىـ مـنـهـ رـجـلـ مـوـسـيـقـايـ بـخـلـقـهـ وـخـلـيقـتـهـ . فـكـانـ رـحـبـ
الـصـدـرـ قـويـ الـخـنـجـرـةـ أـهـرـتـ الشـدـقـينـ وـاسـعـ المـخـرـينـ عـالـيـ الـجـبـينـ ،
وـكـانـ مـاـ شـئـتـ مـنـ جـزـالـهـ الصـوتـ وـوـفـائـهـ وـتـجـوـفـهـ وـاـمـتـدـادـهـ وـمـطاـوـعـتـهـ
إـيـاهـ فـيـ أـصـعـ الـلـاحـنـ وـأـسـهـلـهـ مـطاـوـعـةـ لـمـ نـسـمـعـهـ لـغـنـ غـيرـهـ ،
وـجـبـ الرـجـلـ عـلـىـ شـدـةـ الـإـيمـانـ وـطـيـبـ الـقـلـبـ فـكـانـ يـتـصـدقـ عـلـىـ
الـقـرـاءـ وـيـصـفـ عـمـنـ أـسـاءـ إـلـيـهـ وـيـؤـثـرـ الـخـيـرـ وـالـحـسـنـيـ وـيـتـبعـ عـنـ
الـلـجـاجـةـ وـالـأـذـىـ ، وـآـفـهـ الـكـبـرـىـ أـنـ اـسـتـهـرـ بـعـضـ الـمـخـدـرـاتـ فـيـ
أـوـلـ شـبـابـهـ فـأـفـسـدـ صـحـيـتـهـ عـلـىـ مـاـ فـيـهـ مـنـ قـوـةـ عـظـيمـةـ وـصـلـابـةـ نـادـرـةـ

وعاجل الانقلاع عن هذه العادة الوبيلة قبل موته فاعتزم التوبة الصادقة عن المخدرات جمِيعاً . ولكن لم تقدر هذه النية لأنَّه مات بعد ذلك بأيام قليلة في شرخ شبابه ولم يتجاوز الثلاثين من عمره

اما مولده فكان في الاسكندرية في سنة ١٨٩٣ م من أبوين فقيرين ، وكان أبوه نجاراً معيناً بتعامِل أبناءه فأدخله مدرسة تسمى شمس المعارف يتعلم فيها التلامذة تحويه القرآن وانشاد القصائد وتشيل الروايات الصغيرة في ختام السنة على عادة أكثر المدارس في ذلك العهد ، فظهرت هناك موهبته الغنائية وزين له بعض اخوانه إحياء الليلات الخاصة ففعل ونجح فيها نجاحاً أغراه بالمشاركة والمزيد ، ثم انقطم في مسجد أبي العباس لتلقى الدروس الدينية فكثُر فيه إلى أن توفى أبوه وتركه ولا عائل غيره لصغراه وأهله ، فعمل مع صهره في بيع الأثاث أيامًا ثم اختلافاً فانفصل عنه واشتعل بالنقاشة فالعطارة يحترفها بالنهار ويحضر الليالي الساهرة والموالد التي يدعى إليها للغناء وترتيل المولد عند أبناء حيه الاقربين ، وكان يعطي في الليلة عشرة قروش في ذلك الحين ! ثم تألفت في الاسكندرية فرقه تمثيلية فاتصل بها مطرداً لها وسافر معها إلى الشام ولقي هناك الشيخ الموصلـي وبعض أساندـة الصناعة فأخذ عنهم الكثير من اصولها وفوائدها ؛ وعاد من ثم وقد كلف بتعليق علامات النوطـة والاطلاع على كتب الموسيقـى والتـوفـر على

دراسة مراجعتها الميسورة لقراء العربية، وأنشأ له فرقة للغناء في الفهوات
فاستقل بنفسه في تأليف الأدوار وتلحينها ونبغ في ذلك بوعاً لفت
إليه عشاق هذا الفن وأساتذته، فأعجبوا به وشجعواه وذكروه بالثناء
ويعرف أخصاؤه انه وضع كل دور من أدواره في حادثة من
حوادث غرامه فلم يخل من فضل للحب عليه في اذ كاء قريحته
وتهذيب فنه وإغرائه بصناعته، وكأنه طبع على حب التجديد وسلامة
الذوق فكانت نفسه تعاف لوازم المغنيين التي طفقوا زماناً يرددونها
في جميع الأغاني والأناشيد «كيليل وياعين» وما شابه ذلك مما
هو في الغناء كوصف الطلول والنيلاق في الشعر والأدب، وقد عدل
عنها بيته في أدواره الأخيرة وبنذر التكرير الذي لا معنى له فلا تسمعه
منه الا في «اسطوانات» يؤخذ فيها بلا صفحاتها الأربع
وقد لا تحتاج مادتها الى أكثر من صفحتين أو ثلاثة، ولما اشتهر
أمره في الإسكندرية نصح له بعض عارفيه بالانتقال الى القاهرة
فانتقل اليها وعرف فيها فضله وبدأ فيها صناعة التلحين المسرحي
المجدي في اللغة العربية، فبد كل منافس وجاءت له في هذه الصناعة
آيات بارعات تشهد له بجودة الفهم ودقة الذوق وخصوصية الخيال،
وما زال يتفرد في تلحين الروايات المختلفة حتى عرض عليه اربعينه
جنيه في تلحين رواية قبل موته بشهور
ولم يكن هذا الاقبال وهذا الاعجاب ليخدعاه عن جلاله فنه الذي

وقف عليه حياته أو يملا به الى المدعة واستمراء هذا الرجح الوافر

المضمون ، فتاقت نفسه الى التبحر في فنون الموسيقى العالية وأجمع عزمه على ادخار المال والسفر الى معاهد الغرب المشهورة ليستقصى فيها اصول الموسيقى وفروعها على كبار الاساتذة المنشئين . ولو أمل له في العمر حتى ينجز هذه العزيمة لكان لمصر منه نابغة في فن الموسيقى وعلمه لا يقتصر عن أكبر النابغين بين أعلام الغربيين ، ولكنه فوجيء بالموت البكر وهو يتذهب على ابواب مستقبلة الجيد ، فذهب بموته ذلك الاجتهد المكسوب وذهب معه ذلك الأمل المنظور

* * *



على انه اذا كان قد فاته أن يصبح في آفاق الموسيقى العالية وان يهبط الى سراديب أسرارها الخفية فأنت له لحسنات في بعض الأغاني واللحان الصغار لا ندرى كيف كان يسبقها السابقون ولو اجتمع لها كل من في الأرض من المنشئين والعازفين

خواطر في الأخلاق

حول شخصية غريبة — الطاغية

من الأبيات المنظومة التي يحفظها كل تلميذ مصري في صغره
هذا البيت المشهور في تزكية علم التاريخ
ومن وعي التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره
ولكثنا نظن ان التمثيل اولى بهذه التزكية من التاريخ . لأنه
يعرض لنا الأعمار وأطوار الحياة فتشربها نفوسنا وتتعذر بها أرواحنا
ونعود بعد رؤيتها وكأننا عشنا كل عمر من تلك الأعمار واستخلصنا
لأنفسنا كل طور من تلك الأطوار . وإذا وُجدت للنفوس حالات
وطبائع يعز على الحياة أن تصوغها في قلب واحد من اللحم والدم
فقد يخلق التمثيل ذلك الشخص الذي عز على الحياة فيخرج لنا الطبائع
النفسية والمواهب العقلية كاسية بالجسد المنظور تعم في الذهان مala
يعمره المولودون في الأجساد



ومن «الشخصيات» التي عرضها علينا التاريخ
والتشيل معاً شخصية «قيصر بورجا» الريبة
العجبية التي ظهرت في إيطاليا في عصر النهادج
(قيصر بورجا) النادرة من رجال السيف والرائحة والقلم ، والتي عد
منها التاريخ في نحو جيل واحد أسماء كاسماء ليوناردو دافinci
وميكالانجلو ورافائيل وسافنرولا ومكيافلي وكولمبس ! وكلهم - بعد
استثناء روفائيل - كانوا أبطالاً غريبين مجذعين قل نصيحتهم من
«الإنسانية» واشتد التقارب بينهم وبين الخلائق العلوية أو السفلية .
فهم في الحيز والشر اما مردة جبارية تعنيهم «الفكرة» التي استحوذت
على قلوبهم أكثر مما يعنيهم الأحياء الدين يعيشون بينهم ، وأما
سحرة أبالسة يتقلبون في جو الخبث والجريء كـ تقلب السمكة في الماء
بلا استغراب ولا تهيب ولا ندم . فليوناردو الذي كان يترك المدينة
تحترق تحت عينيه وينظر إلى السماء ليرصد حركات الطيور ويستخرج
منها قوانين الطيران ، وميكالانجلو الذي كان يخلق العلاقة في الإبدان
والصروح ، وسافنرولا الذي كان يبغض الفن الجميل جـاً للتفصيف
واحتقاراً لهذا العالم الغافل المطرود من رحمة الله ! وما كيافلي الذي كان
يلبشر الملوك والأمراء بدين الفتى والقصوة وكتاب الحديعة والنفاق ،

وكولبس الذي كانت تضيق به الأرض لانه يبتغي فيها طريقاً إلى
الغرب من بحر الظلمات وينشد الهند فتعثر قدماه بعالم جديد !
كل أولئك كانوا في مختلف المناهج والدروب رواد عوالم جديدة
أو كانوا هم أنفسهم عوالم غاصة تشي في أتون رجل .

وما كان للنابهين في ذلك العصر إلا أن ينبووا كما نبت أولئك
الجبابرة أخلاطاً من القوى العلوية والسفلية لا يعنينا أمر الناس كما
تعنيها مقاصد السماء وجهنم . أو لم يكن العالم كله في عصرهم ميداناً
تتقاول فيه السماء وجهنم بما لديهما من الملائكة والشياطين ليهوي به
الظافر إلى مغاور ظلام أو ينجو به إلى معارج نور ؟

أما «قيصر بورجا» فكان انموذجاً غريباً غامضاً بين هذه النماذج
يستحق أن يخلق في الدنيا ليكون طرفة من طرف الفن إن لم يكن
رجالاً من رجال التاريخ ! كان وسيماً رشيقاً قوياً يحسن الرقص
ويركب الخيل ويصارع الثيران ويتلهي في ساعات الفراغ بطيء
قضبان الحديد بين يديه ! وكان فارساً شجاعاً وسائساً حصيفاً
وحاكاً رفيقاً برعایاه بجميل الادارة والتصريف ، وكان إلى كل هذا
قاتللا مجرماً بفطرته يقتل في هدوء وراحة بال كاجرام الذئب والثعبان
أو كاجرام السيف الذي يقطع الأعناق والفالس التي تهشم الرؤوس
بلا كلفة ولا تبكيت ضمير . قتل أخيه وهو في العشرين من عمره على

أثر ليلة راضية قضيابها عند أمها يودعانها قبل السفر ! ثم قتل زوج اخته وقيل إنه إنما قتله وقتل أخيه من قبله لأنهما كانوا يقاسمانه سرير تلك الاخت التي كانت تضمن بين الأخرين ! ولم يكن هذا الفقى الرشيق من طلاب المجالس وعشاق الملاهي والصبوات كدأب أمثاله «الدنيويين» ولكننه كان في حياته الخاصة كثير الخلوة يميل إلى اعزاز الرجال والنساء ولا يقبل على موائد الشراب ، فهو دنيوي لا يألف الناس ومحرم مطبوع شديد الضراوة لا ينفر من سريرته كما ينفر المحرومون من سرائرهم ، وهو عبد مخلص لمطامعه ولكننه سيد للجريمة يسوقها إلى يده غير منساق إليها بداعف من الغضب والاضطراب ، وهو وسيم الطاعة ممسوخ الطوية ولكننه قادر على اخفاء ما في قلبه فلا ينضح على وجهه الصبور أثر من خبايا ذلك القلب المظلم الكئنود ، أو لعله لا قلب هناك ولا مجاهدة في الاحفاء بل خواصم لا يشعر بنفسه ولا يدرى بما يقع فيه

هذه صورة مجلمة حفظ التاريخ خطوطها لذلك الطراز العجيب من الآدميين . غير ان المؤلف الذي أظهره على المسرح أراد ان يحيو من تلك الصورة بعض الظلال وان يصلق ما يبقى من سوادها بقصال المعاذير . فكان قيسر بورجا الذي أنشأه روڤائيل سباتيني في رواية الطاغية ^(١) خلقاً آخر غير الذي أنشأه التاريخ ،

(١) مثلث هذه الرواية للدرة الاولى في الاسبوع الماضي على مسرح رسيلس

وربما كان أجمل وأقرب إلى الآدمية من الرجل الذي عاش بين
أواخر القرن الخامس عشر وأوائل تاليه وبقيت لنا اخباره ونواتره ،
ولكنا نفضل الصورة الأثرية الغامضة على هذه النسخة الجديدة
اللامعة ! ونرى أن مؤلفنا الطيب هذا لم يرزق من خصب الخيال
وصدق الفراسة ما رزقه زميله الروسي « مرجوكفسكي » الذي أهتمته
البداهة والنوق الفني مالا تلهمه « الأخلاق » والمداراة لسباتيني ومن
على شاكلته . فجاء في روايته « الرائد » بأتفه « بورجا » وأتقن
« مكيافيلي » يهتدى اليهما الاختراع ويرضاهما الواقع المحفوظ

قلنا إن « قيسر بورجا » كان أنفوذجًا غريباً بين الآدميين ،
ولكن استاذ الشكوكين وشفيع النقاد في زمانه (أناطول فرانس)
يقول ان بورجا موجود في كل مكان مخبئ في كل انسان . كالظلم
في طبائع الاحياء القوة تظاهره والضعف يخفيه ، ويزعم « ان هؤلاء
الأسبان الرومانيين (يعني أسرة بورجا) لم يخلقا - على قدر ما نعلم -
بقلوب مختلفة لقلوب كافة الناس ولا بعقول مختلفة لعقولهم ، وان عادة
الاجرام التي طال فيهم عهدها لم تستأصل جذورهم من أرومة الانسانية
ولم تقطع ما بينهم وبينها من عروق دامية ميتون بها اليها ...
« ... كلا ! ان البورجيين ما كانوا أعاجيب في الخلق
بعض هذه الكلمة الصحيح ، وما كانت طبيعتهم الخلقية مشوبة بأية

آفة دخيلة مستسرة في تركيب البنية . فانهم لم يختلفوا في أفكارهم ولا في شعورهم عن أبناء سافيلي وجاياني واورسيني الذين كانوا يعيشون حولهم . وإنما كانوا خلائق عنيفة في ابان عنفوان الحياة . وكانوا يشتهون كل شيء وما كانوا في هذه الخلة إلا من بني الانسان ، وكانوا قادرين على أن يفعلوا كل شيء وهذا الذي أخرج منهم أولئك الجنة المربعين ، لأن من الخطأ أن نعي أنفسنا عن هذه الحقيقة . فإن في المجتمعات الإنسانية كثيراً جداً من البورجيين : أعني كثيراً جداً من ركب في طباعهم سعار الشره الى المال والملذات . ولا يزال في جماعتنا عدد كبير منهم يجوزون فيه ببنية شائعة دارجة ويخشون من رجال الشرط ! إنها هي الحضارة التي تستند دوافع الطبيعة . أما الاساس في الانسان فذاك لا يتغير وذاك فقط شديد الآثرة والغيرة مطبوع على الشهوة والضراوة »

أفكذلك الانسان حقاً ؟ أو يبعد الانسان من مثل الإنسانية وينفصل عن أساسها كما ابتعد من مثل قيسر بورجا وانفصل عن طرازه ؟ ان الآراء لا تتفق في هذا ولكن الرأي الذي نقلناه من مقالات آناتول فرانس شبيه به بل شبيه بالنعمنة التي أذاعتھا في هذا الزمان العقول المستنيرة التي أطفأت كل نور غير ما تسميه نور العلم الحديث ! وفي طليعتها زمرة العقول الفرنسية لأنها عقول الطلاؤة والحقائق التي يستبد بها الفكر ويأتي عليها أن تلجم الى حمى السريرة

وخطيرة المجهول . فالقول الفصل عند جمهورهم الآن ان الاخلاق طواريء لا أساس لها في غير العرف وضعف تبرأ منه الطبائع القوية والارادة السليمة ، ويقول جورج دوماس وهو باحث فرنسي آخر « ان حالة الغم والتعب تلائم بزوغ الندم . فتنتقض عقائد العرف في هذه الحالة على الروح المتعبة لتعمرها ثم لا تزال بها تتقاب فيها وترتع في جوانبها . والندم هو العالمة على ان عقائد العرف — وان شئت فسمها العادات الاخلاقية — قد ظفرت بغيرائنا ولا يتم هذا الظفر على الأغلب إلا في نوبات الغم والفتور ، ومن ثم يسوع لنا أن نصل إلى هذه النتيجة وهي : ان الحياة الصحيحة « غير خلقية » بطبيعتها وان الضعف والمرض والآداب الخلقية متزامنة بطبيعتها »

وقد يكون من اللغو هنا أن نرجع الى أدوار الهمجية الأولى لتتخذ منها حكماً على اصول الأخلاق ومثلها العليا . إذ كيما كانت أخلاق الانسان في تلك الأدوار فليس من المسلم به أن حالة الهمجية هي الحالة الطبيعية الصحيحة بأي معنى من معاني الصحة في الجسد أو العقل ، ولا من المفروض أنها الطبيعة كأن حسن ما يمكن أن تكون . فماذا يريد أن يقول ذلك الباحث الذي ينقب عن الضمير والآداب والأخلاق في الفطرة الهمجية فلا يجد لها أو يجدوها على غير ما نعرفه في هذه الازمان ؟ انه لا يستطيع أن يصل من ذلك التقييب

الى نتيجة تبني أي شيء مما يثبته نصراء الأمثلة العليا في الآداب
والأخلاق

ولا يفيد الغاضبين من أصول الآداب والأخلاق في تلك
المباحث العقيمة والحقائق الناقصة أن يستكشفوا لنا رجلاً قويًا ميت
الضمير أو غبيراً عظيماً يقترف الجرائم ويستبيح الموبقات . فان هذه
الكشفة المكشوفة للجميع لا تنتهي بهم إلا الى نتيجة بدھية من
قبيل تحصيل الحاصل . لأنها لا تختلف عن القول بأن سوء الخلق
عيوب قد يكون في العظام الأقوباء كما يكون في الصغار الضعفاء ،
ومن الذي قال غير ذلك ؟ من الذي كان يحسب ان العظمة تبني
بجميع العيوب ؟ على أن ما يلاحظ على أولئك العظام قد يقابل
بلحظة أخرى هي أصح وأجدى ، وهي ان عيوب الخلق تنسفو
في الضعفاء كما اشتد بهم الضعف وعجزوا عن مكافحة الاغراء
والتحريض ، واننا نجوز لنا أن نبني على ذلك أن الخلق قوة واضحة
وأن الجريمة والغواية ضعف وسقم

ومن خطأ التفكير أن يفهم باحث كجورج ديماس ان الأخلاق
مزامنة للضعف لأن الندم يظهر على النفس في نوبات الغم والفتور .
فإن الندم ليس بأول ما يشعر به الإنسان من بواعث الأخلاق
ولكنه عاقبة تأتي بعد شعوره بقوانينها وتتمكن تلك القوانين من
ضئيره وإحساسه . وسواء كان الندم أول الشعور الأخلاقي أم

كان هو آخره فمَا لا ريب فيه أنه ليس بالشعور الوحيد الذي تظاهر به التزعة الأخلاقية في نفس الإنسان . فان من الناس ملئ تراه أقوى ما يكون حين تأخذه التزعة الأخلاقية وحين يقدم على المكروره أو يقمع هواه عما يحب بسلطان من القوة لا يقدر عليه الواهن المهزيل . وليس في استطاعة أحد أن يقول ان الضعف يخلق الآداب لأنه والندم يتزاملان أو يتجاوران . فمن قال ذلك كان كمن يقول ان ضعف الأبدان يخلق جرائم الأمراض لأن هذه الجرائم تسقط على الضعفاء وتحتسب الأقواء

لا ! ليس قيس بورجا بالمثل الشائع للنفس الإنسانية وليس من الطبيعة الصحيحة أن يتجرد الإنسان من العطف بينه وبين الطبائع الأخرى حين تباح له أسبابه . ولتكن « الحفريات » و « وظائف الأعضاء » كل واجب ثبته الضمير وتومن به البصيرة فلن يسعها أن تذكر هذه الحقيقة الجامدة وهي أن الواجب أساس الحياة وإننا نصون الحياة ونحترمها لأننا مقيدون بواجبها لا لأننا مختارون فيما نحب ونكره منها . وما دامت للإنسان حياة فعليه واجب ، وما دامت تحيط به في هذه الأرض قوة أكبر من قوته وحياة أكبر من حياته فعليه — شاء ذلك أو لم يشاً — واجب فوقه ومثل عال أعز من الحياة

الاعتراف بالعيوب

قال لي صاحب معجب بأتاول فرنس — أو مقدس له — على
أثر ما كتبته في الأسبوع الماضي « عن قيسر بورجا » : اذن أنت
من دعاة التستر والمداراة في الأخلاق ؟ وقبل أن يسمع جوابي في
ذلك سألني : أو ليس الأفضل للعلم والبحث والأجدار بكرامة
العقل والنفس أن نعرف « الطبيعة الإنسانية » على حقيقتها وأن
ندرسها كما هي على بینة بكل حسناتها وعيوبها
قلت ذلك أفضل ولا ريب . ولكن أنت على يقين أن
هؤلاء الكتاب الذين يسمون أنفسهم تارة « بالطبعيين » وتارة
« بالواقعيين » ويسمبون في شرح شهوات الإنسان وتهوين شرهـا
وتوطين النفوس على الاقرار بها والارتياح إليها — أنت على يقين
أن هؤلاء الكتاب يعرفون « الطبيعة الإنسانية » على حقيقتها
ويدرسونها على بینة بكل ما فيها ؟
واحقيقة اننا لا نرى جهلاً بهذه « الطبيعة الإنسانية » أكابر
من الجهل الذي يحرك تلك الأقلام باسم العلم والمعرفة والبحث

ال الحديث والدرس الصحيح . فما كانت « الطبيعة الإنسانية » قط خلواً من حيز كبير فيها تهيمن عليه « الحقائق المطلقة » التي لا يحيط بها العلم وتهضه وتنهض الطبيعة الإنسانية كلها إلى طلب الكمال والتقدية بالراحة واللذة ابتعاد ذلك المطلب المتعدد . ما كانت الطبيعة الإنسانية قط خلواً من جانب موقوف على « المجهول » يوحى إليها أن ما تعلمه من شأنها أقل مما تحمل وإن حياتها في هذه الأرض خاصة لذلك « المجهول » كل الخضوع من جميع جهاتها وإن كانت هي لا تعرفه ولا تملك الوسائل التي تسلك بها إلى معرفته . فـأين مكان هذا « المجهول » في آداب الطبيعين والواقعيين ؟ أي حساب في كتاباتهم يحسبونه لـذلك العالم المستتر الذي لا يفينا أن نغمض الأعين عنه وأن نفترض بيننا وبين أنفسنا أنه في حكم العدم لأننا لا تقيسه بالأشرار ولا نزنـه بالدرـاهم ولا نظرـه على مائـدة التـشريح ؟ أي شيء تراه في أقوال أولئـك الطـبيعـيين والـواقـعـيين يـدلـك عـلـى أـنـه يـدرـكون أـنـا نـقـيمـ في دـنـيـا تـسـيرـ بـنـا مـنـ حـيـثـ لـا نـعـلمـ إـلـى حـيـثـ لـا نـعـلمـ وـلـيـسـ في دـنـيـا نـسـيرـهـا نـحـنـ إـلـى مـا يـسـرـنـا وـيـرـضـيـ شـهـوـاتـنـا وـتـقـفـ بـهـا نـحـنـ عـنـدـ مـا يـؤـمـنـا وـيـسـوـءـنـا ؟ إـنـا أولئـكـ الطـبيعـيينـ والـواقـعـيينـ يـصـفـونـ لـكـ الـإـنـسـانـ كـأـنـهـ مـخـلـوقـ مـقـتـضـبـ منـ الدـنـيـاـ الـتـيـ نـجـمـ فـيـهـاـ لـاـ يـطـالـبـ بـأـنـ يـحـسـبـ فـيـهـاـ حـسـابـاـ لـشـيءـ غـيرـ مـاـ يـعـلـمـ وـيـفـهـمـ لـاـ أـنـ يـقـتـعـ مـنـ شـيءـ إـلـاـ مـاـ يـعـرـفـ لـهـ عـلـةـ ظـاهـرـةـ مـنـ الـمـبـداـ إـلـىـ الـخـتـامـ وـلـاـ أـنـ يـسـعـىـ إـلـىـ شـيءـ إـلـاـ مـاـ فـيـهـ لـهـ سـرـورـ وـحـظـوةـ .

ويسألون : ما بال الانسان يحرم على نفسه اللذائذ التي تسره وتعجبه ؟
فان وجدوا بذلك مانعاً فلا يكون ذلك المانع إلا انها تصيبه بضرر
عاجل أو آجل في جسده ! ويفوتهم ان تلك اللذائذ لو كانت ابداً
خلقت لسره وتعجبه - لا لأمر آخر وراء هذه الغاية - لما صاح أن
يكون فيها ضرر له ولا محظوظ يصده ، ول كانت مباحة له مأمونة
العقوبة كلاماً سره أن ينال منها ما ينال

فكان الانسان الطبيعي الواقعي هو ذلك الانسان الذي يعترف
بالشهوات ويدين بها ويطمئن اليها ولكنها لا يعرف ان مجاهدة
الشهوات ونكرانها من مطالب الطبيعة والواقع في بعض الاحيان !
وحجته في هذا أن الشهوات موجودة قوية في الغرائز والميول !!
كأنه كان يريد أن يسلم بمجاهدتها وهي معدومة أو ضعيفة لا تحتاج
إلى المجاهدة . . . وهذه هي الطبيعة الانسانية كما يفهمونها . ! الطبيعة
التي تجحد كل ما لا تتفق وتأبى أن تبذل « للمجهول » حصة من
حظوظها ومسراتها لأن هذا المجهول لا يظهر لها ولا يقناعها في المعامل
الكيمية والمحلات الدورية بحقه الدائم المفروض عليها ! هذه هي
طبيعتهم الانسانية فهل هي « الطبيعة الانسانية » على حقيقتها وهل هم
يدرسونها كما هي على يينة من كل ما فيها ؟

لا . فما طبيعة الانسانية في هذا العالم المسيطر عليها إلا كالجندي
في الجيش الكبير . لا بد له فيه من طاعة ليس يعرف لها

سبباً وليس يلتمس لها علة . وسيقى الانسان كذلك - وان قال بلسانه غير ذلك - ما بقي جزءاً محاكمـاً في هذا العالم المجهول . وسيقى « للحقائق المطلقة » حصتها فيه سواء عليها أصلح بينها وبين تفكيره ومعلوماته أم وقف كلاهما من صاحبه على طرفي التقينيين

وما كانت شهوة من الشهوات الشيطانية التي يخرجها من مقامها في هذا العصر كتاب الواقع والطبيعة معدومة أو منسية في العصور الماضية - أي في تلك العصور التي قضت عليها الأديان والعقائد أن تسدل الستار على شهوات الجسد أو تنظر إليها بعين الريبة والتوجس ، ولا كانت اللذائذ بغية إلى الناس أيام كانوا يعفون عن ذكرها بهذا البداء الذي تورط فيه كتاب العصر الحديث ، ولا كانت « الطبيعة الإنسانية » التي يلقونها سراً مدفوناً مكتوباً عليه أن يلبث في قبره إلى أن تبعثه معجزات « الريالزم والفالترزم » في القرن العشرين ! كلا ! ما كان شيء من ذلك كذلك وإنما الذي كان ان القدماء قد أحسوا ما نحس وأحبوا منه ما نحب وأبغضوا منه ما نبغض ثم زادوا علينا أن جعلوا للمستقبل نصيحة ورصدوا للغيب المجهول قربانه . وكانت علومهم ومعارفهم لا تناقض « الحقائق المطلقة » في أزيائها التي ظهرت لهم يومئذ بها . وبعبارة أخرى لا تناقض الأديان والعقائد وما هو في حكمها من المذاهب

والفلسفات . فلما جاءنا العلم الحديث يخلع تلك الأزياء ويزقها ويرد كل لحمة فيها وسداة الى نسيجها حسبنا أنها كانت أثواباً لغير لابس وأغطية قائمة على هواء وخاطنا بين الحقائق التي لا وجود لها والحقائق التي لا تقبل الحصر والاحصاء والتي ستظل أبداً مطلقة من كل قيد لا تبدو للأعين إلا في كماء من الرموز والكلنائيات . ومن حقنا نحن أن ننفي كل ما تقدر على نفيه بالدرس والبحث والتفكير ولكن هل من حقنا - مهما بلغ الغرور منا - أن نؤكد ان الحقائق يجب أن تكون كما محددة محصورة قابلة للترتيب والتبويب لأننا نحن لا نقدر على أي ادراك للاحقائق في غير هذه الهيئة وبغير هذه الوسيلة ؟ أفي العقول السليمة عقل واحد يشك في ان «الحقيقة المطلقة» موجودة وان كنا نحن لا نستوعبها ولا يمكننا أن نصل الى استيعابها ؟ ومتى كانت هذه الحقيقة موجودة بينما محيطة بنا فأي عقل سليم يحيك فيه الظن بأنها بعيدة منا مغلولة الأيدي عن الوصول الى عقولنا وفوسنا والظاهر في أخلاقنا واعمالنا واتخاذ الاشكال المحدودة المحصورة التي تستوي بها بين أفكارنا وهو جسنا ؟ أقول ان العلم الثابت المقرر لا يقبلا على هذه الصفة ولا يدرى كيف يوفق بينه وبينها ؟ حسن ؟ لندع العلم اذن وشأنه فيما يدرى وما لا يدرى ، ولنعلم اتنا نحن نملك هذا العلم ونسخره فيما نريد أما الحقيقة المطلقة فهي تملكتنا وهي

تسخرنا فيما ت يريد، ثم هي التي تلهمنا أن نوفق بينها وبين العلم على بعد
ما بين الظواهر من خلاف

لقد ظهرت «النسبية» على يد «إينشتين» في أوائل هذا القرن ونعتقد أنها ظهرت على النقوس مشرّبًا في الأخلاق قبل أن تظهر على الورق مذهبًا في العلوم . ومضى على الناس قبل «النسبية» زمان طويل كفروا فيه بكل رأي مطلق في الفضائل والhammad وقاربوا بين أعلى الحاسن وأوسع المساويء بسلم متوي الدرجات من الشبهات والاحتمالات . فلا فضيلة تحمد على اطلاقها ولا رذيلة تندم على اطلاقها . لا شيء – وإن عظم – إلا وفيه جانبه من الصغر ولا شيء – وإن صغر – إلا وفيه جانبه من العظمة . إفعل ما شئت فلك مشبه في فعالك بين الكبار والمدوحين ، واترك ما شئت فلك مشبه في تركك بين العاملين والمقدرين . وقد يضر الخير وقد ينفع الشر وقد تحسن النية والثرة زرية قبيحة وقد تصبح النية والثرة شهية جميلة . وهكذا وهكذا من فروض هذه «النسبية» التي مشت فيها الحامد إلى جانب المثالب ولحقت فيها المساوىء بأذىال الكلمات ، والتي سجلتها الأخلاق قبل أن تسجلها العلوم فأصبح لكل مليح وجه من الدمامنة ولكل ديم وجه من الملاحة وبطل المجهد في طلب الاتم الا كل مذ صار أرفع العلو قريباً من أوهد الحضيض في هذا الاعتبار

وتقدمت «الديموقراطية» قبل ذلك فوسعت للفرد من الحرية الى حدتها الاقصى وجعلته غرض نفسه يفعل ما يروقه وينبذ كل حق للأمة أو للإنسانية عليه فيما يخصه . فأصبح السرور هو دين العهد الجديد لأنه مطلب يعرفه كل فرد ويتوثق اليه بسائق من طبعه غير ظاهر الى عواقبه فيما بعد لذته وحريته .

وربما كان من آثار الديموقراطية في الأخلاق — غير هذا — أنها أزاحت الستار عن أسرار سياسة الأمم فزال غشاوها الذي كان يحجب فضائلها وخبيئتها واشترك الصغير والكبير في فهم ضروراتها وحيانلها وعلم العلية والسفلة ما يمكن وراء الفتوح والغزوات والألقاب والمظاهر من الخسائر والذنوب فالتبس عليهم الأمر وضعف الوازع الأدبي في ضمائرهم وساقت ظنونهم بأصول الأخلاق ومقاييس القدار ووقر في أذهانهم أن مقادير الأمم — به الأفراد — لعبة في أيدي الشهوات والاكاذيب بعد أن كانت ولا سلطان عليها في رأيهم لغير الله والحمد والشرف والأبهة والجلال

ومن دأب المدينة أنها تعدد التألف بين تقاضن النفس الواحدة كما تؤلف بين أشتات الأمم البعيدة واحلاط الشيع المتغيرة ، فيلتقي خير ما في النفس وشر ما فيها وجهاً لوجه في كل حادثة وكل يوم ويتعود الإنسان أن يطمئن الى عيوب المعمودة وان ترتفع الكافحة

بين خصاله المشروعة وعاداته المخضورة ، فلا يتجمم حميدها لذميمها ولا ينجل شريها من وضعها . ثم لا تثبت الحواجز بينها أن تقترب أو تتصل ولا تزال العادة تُضعف النفرة وتحوِّل الفضاضة حتى يجرؤ أرداً مافي النفس وأسوأ ما تحتويه من الخبايا المكتومة على البروز جنباً إلى جنب في وضح النهار مع أشرف سجايها وأفخر مكارها وطبياتها

وهذه العادة المدنية هي سر التسامح الذي يمتاز به الحضرى على سكان الريف وابناء الام المعاشرة ، وإنما مداره كما رأيت على التسامح بين أجزاء النفس الواحدة والتفاهم بين الجانب المشرق الظاهر منها والجانب المظلم المستور

ولكن لاتسامح المدنية ولا تبذل الدبلوماسية ولا انها يار العقائد القديمة القائمة على أساس « الحقائق المطلقة » — لا شيء من ذلك يقادر على أن يخرس في الفطرة الصادقة القوية ذلك الصوت الآخر الذي يفتاً يهتف بالانسان في أعماق اخلاقه أن « للمجهول » حساباً يحسب ، وأنه هو جزء محدود من كلِّ لاحدله ، وأنه بعد أن يُوفّي نفسه حظها وبعد أن يرعى للمجتمع حقه وبعد أن يرضي في هذه الأرض من يلزمها الأرض — يبقى وراء ذلك دَين دائم لافكاك منه يتضاطاه صاحبه من سرورنا وأهواننا وأمالنا وأفكارنا . وما صاحبه إلا ذلك الدائن الذي يلف النفس و « المجتمع » والأنسانية والحياة بأسرها في اطواء قدره

وَقْصَائِهِ ، وَالَّذِي لَا يَكُونُ أَنْ يَكُونُ مَعْدُومًا مَوْهُومًا ثُمَّ لَا يَكُونُ مَوْجُودًا حَقِيقَيًا وَلَا يَتَقَاضَانَا قَرْبَانَهُ الْمُخْتَارَ مِنْ صَفَوَةِ مَا فَلَكَ وَنَخْبَةِ مَانْحَبَ

* * *

أَنَّ الْأَنْجَلِيزَ يَعْلَمُ كُلَّ مَا يَعْلَمُ الْفَرْنَسِيُونَ مِنْ الْمَعَارِفِ
وَيَارِسُونَ كُلَّ مَا يَارِسُهُ أُولَئِكَ مِنِ الشَّهْوَاتِ وَيَفْهَمُونَ كُلَّ مَا يَفْهَمُ
جِيرَانُهُمُ الْأَذْكَىءُ مِنْ « الطَّبِيعَةِ الْأَدَمِيَّةِ » وَالْحُرْيَةِ الْدِيمُقْرَاطِيَّةِ ،
وَلَكُنْكَ لَا تَرَى فِي مَسَارِحِ لَندُنَّ مَا تَرَاهُ فِي مَسَارِحِ بَارِيَسِ وَلَا
تَقْرَأُ فِي الْغُلَةِ الْأَنْجَلِيزِيَّةِ مَا تَقْرَأُهُ فِي الْغُلَةِ الْفَرْنَسِيَّةِ مِنْ كُتُبِ الْخَلَاعَةِ
وَالْمَجَونِ وَلَا تَشْعُرُ بِالْإِبَاحَةِ فِي بَيْتَهُ الْأَنْجَلِيزِ كَمَا تَشْعُرُ بِهَا فِي بَيْتَهُ
الْفَرْنَسِيَّينِ ، وَلَمْ ذَاكْ ؟ ؟ أَمْحَضُ رِيَاءَ وَنَفَاقَ كَمَا يَقُولُ ظَرَفَاءُ فَرْنَسَا
الْهَازَلُونَ ؟ كَلَا ! وَإِنَّمَا جَعَلَ الْأَنْجَلِيزَ كَذَلِكَ مِنْ جَعَلِهِمْ مِنْ أَصْدَقِ
النَّاسِ إِعْيَانًا وَأَصْدَقِهِمْ شَعْرًا وَأَصْدَقِهِمْ رِزَانَةً وَأَصْدَقِهِمْ بَدَاهَةً فِي
اسْتِكَنَاهُ طَبَائِعَ بَنِي الْأَنْسَانَ ، جَعَلَهُمْ كَذَلِكَ خَلْقَ مَتِينٍ يَذَكُرُ الْحُرْيَةَ
وَلَا يَنْسَى الْحَدُودَ وَيَحْسُسُ بِالْجَانِبِ الْمَحْجُوبِ فِي هَذِهِ الدِّينَيَا كَمَا يَحْسُسُ
بِالْجَانِبِ الْمَكْشُوفِ

لَنَا أَنْ نَعْرِفُ « الطَّبِيعَةِ الْأَنْسَانِيَّةِ » وَلَكُنْ عَلَيْنَا أَلَا نَتَسْسَى أَنَّ
الْأَنْسَانَ لَمْ يَصْعُدْ فِي سَلْمِ الْخَلْقِ انسَانًا لِيَظْلِمْ حَيْوانًا فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَلَنَا أَنْ
نَعْتَرَفُ بِالْشَّهْوَاتِ وَالْعَيُوبِ وَلَكُنْ عَلَيْنَا أَلَا نَتَخَذُ مِنْ هَذَا الْاعْتَرَافِ
نَشِيدًا تَنْغُنِي بِهِ غَنَاءُ الْأَفْتَخَارِ وَنَحْرُقُ حَوْلَهُ بَخُورَ الْبَشَرِيِّ وَالْأَنْتَصَارِ

عند الصحراء

أختيلة وأشباح

صحراء الماظه القرية الى المدينة لا الصحراء الكبرى التي
يستوي فيها الخراب على عرشه الأَكْبَر ويقيم حوله من الوحشة
والخوف أحوالاً الخيال خُرَاساً لم يذللها القيد ولم يروضها اللجام .
وهذه الصحراء «الماظه» ليست بالصغيرة في مساحتها ولا بالهينة
في مراكمها لأنها تبدأ عند تخوم القاهرة وتضرب الى الشرق في بوادي
الشام وجزيرة العرب . ولكنها — لقربها الى المدن واحاطة العمار
بها في كل موضع — تبدو للوهم كأنها الوحش المكبوح أحدق به
نطاق الأسر من كل صوب ! أو كأنها صحراء بيته صناعية أعدها
الناس حول ديارهم لا ي Kash أفسفهم من فرط الأنس بالعمار كما
يعدون الشلالات والغياض في ساحات البيوت وأرباض المدن ،
محاكاً لشلالات الطبيعة النائية وغياضها المتأشبة في مجاهل الأرض
والزمان

وقارة تعكس هذه الصحراء الصغيرة من روحها على المدينة
المجديدة التي نبغت في جوارها نبوع الجزر البركانية في عرض البحار ،
فيخيل اليك أنك تنظر حيالها الى مضارب خيام في العراء نفتحتها
ناحية من السحر أو ترزلت عليها كلمة من كلام الله فانتقضت في
اما كنها عماير وقصوراً ومنائر وبروجاً يوشك أن يزول عنها السحر
فتتطوى عن النظر وتدع الشاحسين إليها يعركون الجفون دهشة
وذهولاً . فأنت ان شئت من هذه الصحراء في بادية بيته ، وأنت
ان شئت من هذه العماير في مدينة بدوية ، وكلا الناظرين يوفق لك
من غريب الشعور ما لا يتفق في المدينة ولا في الصحراء !

* * *

والصحراء — ككل منظر جليل — تريك الحياة على وجهين
مختلفين أبعد الاختلاف : هذا غاية في العظمة والسمو وذاك غاية في
الصغر والمهانة . تنظر الى النملة الضئيلة فيها وهي تدب على الأرض
الموات بين الشقوق والأخداد فتملاً من نفسك فراغاً شاسع
الأطراف عميق الأغوار خفي الشعاب مجھول البداية والنهاية
موصولاً بالأبد الذي لا أول له ولا مقياس لقربه وبعده : فراغاً
تدركه على حين غرة قائماً أبداً كالهاوية المسوددة بين الجماد الميت
الذي تراه ثم حيناً وليت يصرلك وبين هذه الخلوقات الصغيرة التي
تبصر وتسمع وتأمل وتحشى وتحب وتبغض وترى لها وجوداً تؤمن

عليه وتسقى به وتواجه به السكون قاطبةً في فترة عابرة من الزمن ، فتقوى عليه بجياثها أكثر مما يقوى هو عليها بأرضه وسمائه وماهه وهوائه وحره وبرده وكل حركة من حركاته وناموس من نواميسه ، وتقف هذه المخلوقه الصغيرة في جانب وتلك الصحراء المترامية في الجنب الآخر فإذا هي أعظم منها قدرًا وأهول منها سرًا وأضخم من كل ما فيها من الآكام والمضات والزلزال والاعاصير ، وتحدق أنت بعينيك هذا البرزخ السحيق الذي لا يعبر ولا يحد فتستعيدي في ضميرك سياحة الحياة من آرائها الجھولة وأصولها المستورة ، وتعلم أنها إن كانت تقاس بالعمر بسبعين أو ثمانين أو مائة دورة من دورات الأرض في الفضاء فإنها بالكتنه والطبيعة سياحة لا مبدأ لها ولا ختام ولا أوج لها ولا قرار

إن الحياة في المدن رخيصة مبتدلة لأنها كثيرة مألفة يقاد بعض بمقاييس بعض . أما في الصحراء فلا مساحة على الحياة من ذلك الابتذال ولا هي تقاس إلا إلى الموات المنتشر في كل مكان الذي بينه وبينها مالا يحده ولا يدرك ولا يتخيّل . وما رأيت حياة في صحراء إلا تصورت المعجزة الكبرى تعاد جأة على مشهد مني في ومضة من نور النجوي والاطلاع : معجزة الحياة تظهر لأول مرة بين أحضان الجمود والعماء ! ويالها من ومضة بارقة تنير الاكوان كلها في طرفة عين بنور نافذ كنظرة الله . فهل لمحتها ؟ هل تخيلتها ؟ هل شعرت بها ؟

إن لحظة تضيئها في استحضار تلك المعجزة لتجزئتك عاجلاً بسياحة
الحياة التي حدثتك عنها كاملاً شاملة تفيء إليك جملة واحدة كأنك
أعطيت حياة كل حي ووجود كل موجود وبلغت العمق الذي
لاتكون الحياة فيه إلا «حياة» مطلقة مجردة لا أنواع فيها ولا
أفراد ، فلا هي حياة انسان ولا هي حياة حشرة ولا هي حياة شيخ
ذابلة ولا هي حياة طفل نامية ولكنها هي هي الـ «حياة» التي يعب
فيها جميع الأحياء في جميع الأحيان على حد سواء . وإذا ألمحتك
الحشرة الدارجة في الصحراء هذا الشعور فقد أكيرتك ورفعتك
وأطلعتك على آصرة الرحم التي بينك وبينها وأرتتك في كل جسم حي
هي كلاماً مقدساً ينبغي أن يصان كأنه طراز مفرد لا مثيل له في هذا
الوجود .

* * *

وتنظر إلى الصحراء من وجه آخر قهون عليك الدنيا وما فيها
وتصغر عنك الحياة ومن يحرص عليها . ترى أمامك فضاء يحسر
عنه الطرف على هذا الكوكب الذي يسكنه الإنسان بين كواكب
لا عداد لها في السماء ، وترأه قد فقد ذلك الإنسان ولم يشعر له
بفقدان أو وجود ولم يعبأ به حياة أو ممات ولم يحفل بقائم أو مغيب .
وترى إلى جانب ذلك الفضاء الغامر بقعة ضيقة من الأرض يحشد فيها
الإنسان جموعه وينشد لديها آماله ويفرق فيها من أوجاته ويحصر

لديها هه في العالم ، ويحسب ان هذا العالم الذي لا نهاية له خواء بلقع
إن لم يسعد هو بما يصبو اليه في تلك البقعة المكتنفة بن زاحمهونه
عليها ويندوونه عن أحشاءها ، وما هي ؟ بقعة كسائر البقاع لو أُقيمت
في الصحراء لضاعت في جوفها كما تضيع فيه ألف النجاد والوهاد ،
وماذا يدع بعده عليها مما يميزها عن تلك النجاد والوهاد ؟ لا شيء .
أو شيء كلاشي ؟

* * *

والقمر مأنوس المحضر حيما ظهر ، متبع الخطوة أينما خطر ،
تبسم لك نضرته على الحدائق والمرور وتروعك طلعته على البحار
والامواج ويستخفك لألوه في مجالس الصفو والحبور ، ولكنه في
بعض لياليه — ولا سيما في المدن — يلوح لك انه يهبط بالسماء الى
الارض ويقترب بها من منازل البشرية الوضيعة ويقوم لها في عيلائه
مقام الخادم الحامل المصباح لملاهيها والمضيء لها الطريق في غواياتها
ودياجيتها ، ويعري للناس وجهها المحجب بالظلمام المحروس بجنود
الكواكب فتقول هذه السماء وهذه الارض قريب من قريب
تلمسها الاعين وتهم بها الا كف ! فلا حجاب هناك من ظلمة
الغيب المترافق ولا تلك العيون التي لا عدد لها تهولك بالسر
المكتنون الذي تفتح عليه جفونها سرمداً بلا هداية ولا وجهة ولا
دلالة

أما في الصحراء فالقمر أبداً مهيب السمت موفر الحرمة يغض
من الانظار ولا تغش منه الانظار ، ان أخطاؤه حلية الجلال لم تخطئه
حلية الحزن والألم . وأبصره على تلك السهوب الماومة فريداً شاحباً
مشدوهاً يتنقل في أجواز الفضاء بلا أمل ولا مقصد ولا اطمئنان
فيشبّه لي هيئة الحسناء الوالمة جنت من الحزن على حبيب قفید فعمها
الموت في متعة عطفه وأنسه فلاذت بالقبور تهم بینها على غير هدى
وتحملها اللوعة الكاسفة الى غير قرار . ويحتمع لي ذلك الشبه الكثيف
من شحوب القمر وانفراده وطواوه الذي لا يهدأ واقتراه بسمة
الملاحة وخاطر الجنون في آداب الأم ومن موات الصحراء وسكون
المقابر الذي ينحيم عليها، فيوضع هذا الحزن الشامل عندي ما غاب من
هيبة النساء في ليالي الظلام

* * *

ان الصحراء ترىك نفسك في منظار الحقيقة من طرفيه المتقابلين ،
ترىكها كأعظم ما تكون وكأصغر ما تكون ، وهي لا تعرفك الى أحد
ولكنها تعرفك الى نفسك ! ولا تقدم اليك صديقاً جديداً ولكنها
تقدملك الى صديقك الذي بين جنبيك على غير ما تراه كل يوم .
وكفى بذلك داعياً يكتب عليك فريضة الحج اليها كلما استطعت
اليه سيدلاً

بائع القلوب

حدثنا جهينة الاخبار قال : هبطت في بعض أسفاري مدينة من مدن الغرائب ، فسمعت أن بالمدينة ساحراً قديراً يبيع القلوب قديماً وحديثها ويحتجبها من حيث كانت لمن يبذل له الثمن الذي يريد . ولقيني بعض سماستره الكثرين فقال لي : ألا ترد على الرجل مع الواردين قشري لك قلباً من الطراز الذي يعجبك ؟ فالقلوب عنده من كل طراز والناس مقبلون عليه من كل صوب ، ولم يبق في المدينة أحد غيرك لم يجرب حظه في هذه البضاعة العجيبة ! فتعال جرب أنت حظك فلعلك تحمد التجربة أو ترجع منها بنباً طريف !

قال جهينة : قلت للسمسار : إليك عني يا هنا ! لا حاجة لي بقلب آخر غير هذا القلب الذي لم أذمه ولم أحدهه ولا أكاد احتاج إليه كله : أرأيت في وجهي أمارة على فتور في الدورة الدموية فأنت تغريني بشراء قلب آخر غير الذي ينبض في جانب هذه المعدة ؟ لا والحمد لله ! « وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » وصدق الله العظيم

قال جهينة : ومضت أيام بعدها أيام وسنون تتلوها سنون ، وطوفت في الشرق والغرب وعرفت من طبائع الناس وأبناء العالم مالم

أَكُنْ أَعْرِفُ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُجُوبُ مِنَ الْمَدَنِ مَا يَسْعُهُ
فَضَاءُ اللَّهِ وَيَبْقَى فِي نَفْسِهِ بَعْدَ ذَلِكَ فَضَاءً يَجْهَلُهُ وَيَضْلُّ فِيهِ إِذَا نَزَلَ
بَيْنَ مَفَارِزِهِ وَبَوَادِيهِ . وَكُنْتُ أَجُوبُ الْأَرْضَ وَلَا أُلْقِي بِالاِلْتِلَاقِ بِالْأَنْتَلِ
الْفَضَاءِ الَّذِي أَحْتَوَيْهِ بَيْنَ جَنَبَيْهِ . فَلَمَّا انْتَشَيْتُ إِلَيْهِ رَاعَنِي مَا رَأَيْتُ
وَهَالَنِي مَا جَهَلْتُ ، وَضَحَّكْتُ مِنِّي كَيْفَ كُنْتُ أَرْضَى بِقَلْبٍ وَاحِدٍ
أَحْمَلَهُ وَلَا أَكَادُ أَحْسَسُ بِهِ وَعَلَى قِيدِ خَطُوطَاتِ تَاجِرِ الْقُلُوبِ يَبْعَثُ
لِلنَّاسِ مَا يَرْتَضُونَ ! فَقَدْ عَرَفْتُنِي الرَّحْلَةُ بَعْدَ الرَّحْلَةِ وَالتَّجْرِيَةُ بَعْدَ
التَّجْرِيَةِ أَنَّ مَنْ يَعِيشُ بِقَلْبٍ وَاحِدٍ إِنَّمَا يَعِيشُ بِغَيْرِ قَلْبٍ ! وَانَّ الْقُلُوبَ
كَالْأَحْذِيَّةِ لَا تَصْلَحُ بِفَرْدَةٍ وَاحِدَةٍ . . . وَخَيْرُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَمْشِي
حَافِيًّا مِنْ أَنْ يَمْشِي بِجَذَاءِ ذَى لَوْنِينَ . . .

وَنَذَرْتُ اللَّهُ لِئَنْ عَدْتُ إِلَى تَلْكَ الْمَدِينَةِ لِيَكُونَ بَائِعُ الْقُلُوبِ
أُولَئِكَ مَنْ أَقْصَدَ مِنْ سُكَّانِهَا ، وَلِيَكُونَ الْقَلْبُ الَّذِي أَشَدَّهُ إِلَى جَانِبِ
قَلْبِي أَوْلَى مَا اشْتَرَى مِنْ بِضَاعَتِهَا . وَكُنْتُ قَدْ اسْتَخْلَصْتُ لِنَفْسِي مِنْ
تَجَارِبِ الْأَيَّامِ أَنَّ الْقُلُوبَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَاحِدَةٌ ثَانِيَنِ : فَإِنَّمَا قَلْبَ
يَنْسِيكَ نَفْسِكَ وَتَنْسِيهِ نَفْسِهِ ، وَيَتَرَجَّزُ بِقَلْبِكَ فَإِذَا هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا
يَنْفَصِلُ شَطَرُهُ عَنْ شَطَرٍ وَلَا تَعْرِفُ لَهُ بِدَايَةٌ مِنْ نَهَايَةٍ ، وَيَجْرِي
فِي الْوَئَمِ عَلَى مَذْهَبِ الْقَائِلِيْنِ أَنَّ الْحُبَّ اجْتَمَاعَ نَفْسٍ كَامِلَةٍ مِنْ جُزَيْنِ
مَتَشَائِكِيْنِ يَتَعَاطِيَانِ السُّرُورَ وَالْحُزْنَ مِنْ مَعِينٍ وَاحِدٍ . فِي مَثْلِ هَذَا
الْحُبِّ لَا تَحْسُبُ الذَّنْبَ وَلَا تَشْكُرُ الْهَبَاتَ ، لَأَنَّ الْإِنْسَانَ كَأَنَّهَا

يُهْب نفسه حين يُهْب صاحبه السرور الذي يستطِيعه ، وإنما يتَّظَلُ
الشَّكْرَ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَعْطِي كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يَأْخُذُ شَيْئًا يَعْدُلُ
عَطَاءَهُ ، وَلَيْسَ يَدُومُ حُبُّ عَلَى هَذِهِ الْعِقِيدَةِ . بَلْ رَبَّا كَانَ شَعُورُ
الْمُحِبِّ الصَّادِقِ أَنَّهُ يَأْخُذُ كُلَّ شَيْءٍ مِّنْ حَيْبِهِ وَلَا يَعْطِيْهِ هُوَ شَيْئًا
يَسْتَحْقُ عَلَيْهِ شَكْرًا

وَإِمَّا قَلْبٌ يَتَمَّ لَكَ وَجُودُكَ وَيَكْمَلُ فِيكَ «أَنَانِيتِكَ» وَيَسْتَثِيرُ
مِنْ قُوَّتِكَ مَا كَانَ خَافِيًّا عَلَيْكَ وَيَشْبَعُكَ مِنْ إِحْسَاسِكَ بِكُلِّ جُوانِبِ
نَفْسِكَ ، وَيَجْرِي عَلَى مَذْهَبِ الْقَائِلِينَ أَنَّ لَيْسَ الْحُبُّ أَنْ تَنْهَيِ
شَخْصِيَّاتَنِ في شَخْصِيَّةِ وَاحِدَةٍ كَمَا يَجْسُسُ فِي خِيَالِ الشَّعْرَاءِ ، وَإِنما
الْحُبُّ أَنْ تَكْمِلَ كُلَّ مَنْ الشَّخْصِيَّاتِنِ بِالاتِّصالِ بِالْأُخْرَى ، فَقَسْتَدِ الْغَيْرَةِ
فِي الْحُبُّ لِاشْتِدَادِ شَعُورِ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ وَيَغْفِرُ الْمُحِبُّ كُلَّ شَيْءٍ
إِلَّا أَنْ يُشارِكَ فِي ذَرَّةِ مِنْ عَطْفِ حَيْبِهِ .

وَتَخَيَّرَتْ بَيْنَ الطَّرَازِيْنِ فَاخْتَرَتِ الطَّرَازَ الْأَوَّلَ لِأَنَّنِي عَرَفْتُ فِيمَا
عَرَفْتُ أَنْ خَيْرَ الْكَيْمَالِ مَا يَنْمُو فِيكَ دُونَ أَنْ تَشْعُرَ بِهِ أَوْ تَقْصِدَ إِلَيْهِ
طَلْبَهِ . كَذَلِكَ يَنْمُو الْطَّفْلُ الصَّغِيرُ وَكَذَلِكَ يَنْمُو كُلُّ طَفْلٍ صَغِيرٍ فِي
عَالَمِ الْأَجْسَامِ وَالْمَعَانِي

فَلَمَّا نَزَلَتْ بِمَدِينَةِ السَّاحِرِ يَمْتَدُّ دَكَانَهُ نَصَارًا وَمَا نَفَضَتْ عَنِي غَبَارُ
السَّفَرِ ، فَإِذَا هُوَ أَحْفَلُ مَا رَأَيْتُ وَأَعْجَبُ مَا شَهَدْتُ فِي الدَّكَانِ .
زَحَامٌ عَلَى الْأَبْوَابِ لَا يَنْتَهِي حَتَّى يَعُودَ كَمَا بَدَأَ ، وَقُلُوبٌ مَعْرُوضَةٌ

لا ينمايل منها قلبان في الخصائص والألوان ، فمن قلب ناصع البياض إلى قلب حalk السواد ، ومن قلب أحمر قان إلى آخر أصفر فاقع إلى آخر لalon له إلى آخر كعنق الحمامه يبدو في كل لون ! ومن هذه القلوب المحترق المتوهج والبارد المشوّج ومنها الصحيح السليم والكسير المثوم ، وأسعارها غاية في الشذوذ لا تدرى كيف يقدّرها الباعة والشراة - فهذا قلب محترق يكثر عليه الطلب ويفعل في البائع ، وذاك قلب كسير يعلو بقيمةه على أضعاف ثمن الصحيح . وكل له آنية يحفظ فيها لا تشبه الآنية التي تصلح لغيره . فمنها ما يحفظ في صندوق من الذهب ومنها ما يحفظ في علبة من الحديد ومنها ما يحفظ في غلاف من الورق ومنها ما يحفظ في كوب من الماء . ومنها ما يحفظ في الهواءطلق بلا آنية ولا وقاء ، والناس على الدكان بين ذاهب واياب يصيحون ويهتفون ويعطون وياخذون وهم فرحون أو متقارحون !

فانتظرت حتى سكت اللجب وخف الزحام وهذا التاجر من حركة البيع والشراء ، فتقدمت إليه فتلقاني بشاشة الساحر الذي تعود اصطياد القلوب : وقال :

يلوح لي أنك قادم إلينا من بلد بعيد . فهل من طلب نقيس
نخدمك فيه ؟

قلت : في ذلك أتيت ، ولا أطيل عليك فانك قد مارست التجارة وخبرت أصنافها وعرفت أوصافها فإذا ذكرت لك طرفةً من الصفة التي أريدها فقد أغنتيك عن الاسهام في تفاصيلها . أليس كذلك ؟

قال : أرجو أن أكون عند حسن ظنك ! أتريد قلباً ؟
قلت : نعم ! قلباً ينزع بقلبي وأنسى فيه نفسي وينسى في
فلم يهمني الرجل ان أتم كلامي الوجيزه ، وضحك في شيء من الاشغال والسخرية الطفيفة ، ونظر الى صاحبه في الدكان . . . فلان ! هذا

طالب جديد للمستحيل الرابع . . فهل عندك ما يرضيه ؟

فالتفت اليه صاحبه متهانفاً وهو يقول : لقد انقطع عنا هؤلاء
الطلاب منذ زمن بعيد ، وما احسبك الا غريباً عن المدينة ! فانظر
ما تقول واعلم انك تروم منا مراضاً عسيراً لا يقدر عليه ولا يقدر عليه
أحد . أفلأ يغريك عن القلب الذي تنشده قلب سواه من لونه وان
لم يكن من صنف بضاعته ؟ ان الذين سبقوك الى هذا الطلب قد
اتهوا بعد اليأس الى القناعة بذلك ، ووجدناهم راضين عن الصفة
او مكرهين على الرضا . فكن أنت مثلهم واطلب منا مثل ما يطلبون ،
انك سترضى عن نصيبك ان شاء الله أو إن شئت ان تريح نفسك
من عناء الامتحان بعد الامتحان والخيبة بعد الخيبة

والتفت الى الساحر وقال :

لو جتنا قبل الآن لخدعك وزينا لك من البضائع التي عندنا
غير ما تصف . ولكنك جتنا والتجارة رائحة والمطلوب أكثر من
المعروف فلا حاجة بنا إلى خداعك . مر بما تشاء من هذه الأصناف
التي نبيعها ، فإن الدكان وما فيها جميعاً بين يديك
قلت : أحكى لك حكاية

قال : حسن . هات حكاياتك !

قلت : زعموا أنه كان في مدينة لندن تاجر يدعى القدرة على
كل شيء والاستدعاء للتلبية كل مطلب . وزعموا أن ظرفاء المدينة
كانوا يهزؤون منه ويعيشون به ويتنفسون في تعجيزه بالطالب الغريبة
النادرة وهو لا يعجز ولا ينلي عن المحاولة والنجاح . فكان هذا يطلب
منه فيلا في كذا من العمر وذاك يطلب فاكهة في غير أوانها
وغيرها يطلب بنتاً لا يغرس في بلاد الأنجلترا وهو يحيطهم واحداً
واحداً ولا يزيد على أن يستمهلهم بضعة أيام أو أسبوع إذا اسرفوا عليه
في الشطط والتعجيز ، فجاءه ذات يوم مداعب خبيث يطلب إليه
حقيقة من البراغيث في أيام قليلة وحسب أنه لن يقبل البيعة ولو
أنسني له الثمن وبالغ في الترغيب ! غير أن الرجل قبل كعادته وأرسل
أعوانه في كل مكان ليأتوا له بحقيقة البراغيث في الموعد المحدود . فجاؤوا
في كل مكان واحتالوا بما وسعهم من الحيلة على اقتناص هذه المخلوقات

الصغيرة التي تشد القلوب في سرعة التقلب والانتقال . فجمعوا منها
عددًا عظيمًا وعادوا به إلى صاحبهم وأفرغوه في الحقيقة فإذا هو لا يملأ
منها إلا النصف ولا سبيل إلى الزيادة المرغوبة قبل انتهاء الموعد ..
فاسقط في يد الرجل وهم بالاقرار بالعجز والاذعان للفشل لولا أن
خطر له أن البراغيث لا تعيش بغير هواء وان الفراغ الباقى في
الحقيقة لا يقبل الامتلاء الا اذا أراد الطالب براغيثة ميتة وهو
لا يريد لها إلا حية تقفز وتتسع ! وبذلك نجا من المأزق على غير
قصد منه وفاز بسمعة التاجر الذي لا يقول «لا» لاقتراح عليه وان

تعسف في الاقتراح

فضحك الساحر ثم قال وهو يقبض بأصابعه على لحيته :
حكاياتك هذه ظريفة ! أظنني فهمتها . فأنت تريد منا الآن أن
نبدي لك من المهارة في جمع القلوب الشاردة ما أبداه ذلك التاجر
العنيد في جمع البراغيث الطيارة .. حسن ! فاعلم اذن اننا سنفعل
الطاقة وما فوق الطاقة وسترضيك جهد الرضى وان كان لا يخفى
عليك ان القلوب أكثر شروداً وأسرع طيراناً من أطيس
البراغيث ... حسن يا صاح ! عد علينا بعد أيام فستجد عندنا
قصاري ما نستطيع في هذه الصفقة . وليتنا نستطيع أن نحتال لك
يقلب نصفه كما تهوى ونصفه الآخر من الهواء !!

وانظرت أيامًا ثم عدت إليه فلم يسرع إلى مقابلي بتلك البشاشة

التي رأيتها على وجهه في المرة الاولى. فأوجست شرّاً . ولكنني دنوت منه وسألته سؤال من يهياً للانصراف ، فأطرق قليلاً . ثم قال لي كأنما يخاطب نفسه : لقد أتعينا يا بني " وكلفتنا ما لا نطيق . ولكنني آمل أن يوافقك هذا القلب الذي صنعناه لك في مصنوعنا باشراف مهندسنا الأكبر ومحترعنا الأوحد ونطاسينا المدرب في جبر الكسير وترميم العتيق من القلوب !

فابتدرته سائلاً : العله قلب نصفه هواء ؟

فقال لا تعجل ! بل هو قلب من عدة قلوب . جمعناه لك من كل خصلة شريقة في القلوب التي لدينا وأخذنا الاخلاص من جانب والثبات من جانب والجمال من هنا والذكاء من هناك . وأنتفنا مائة قلب ثمين لنستصفي لك قلباً واحداً من خيرة ما فيها من الطيبات والسمائل الحسان . فحساً بعد هذا التوفيق والتنسيق يعجبك ويغريك أو يقنعك بعض القناعة ولو الى حين

قلت : هذا يا سيدى مرقعة وليس بقلب ! هذا ليس بقلب واحد ولا هو بعده قلوب . وماذا أصنع يا ساحري العزيز بضفة من أشلاء الفضائل الممزقة جمعتها الهندسة ولم تجمعها الحياة . ! على انكم قد تعتمم فيه كما قلت فهاته أترجع عليه واشتريه لأبيه في غير هذه المدينة هواة التحف المصنوعة والعاديات المهجورة . انهم قد

يُشترونَهُ ويفاخرونَ به كَمَا يُشترونَ كُلَّ زهيدٍ رخيصٍ مِنْ سُقْطِ الأشياءِ
بِالكَثِيرِ الغَالِيِّ مِنَ الْمَالِ

وَجَاءُونِي بِهِ فِي مُثْلِ الْفَائِفِ الَّتِي تَطْلُو عَلَى الْجَثَثِ الْمُخْنَطَةِ .
فَاقْشَعَ جَسْدِي وَاسْتَعْدَتْ بِاللَّهِ ! لَمْ أَقْمَلْكَ أَنْ أَصْبِحَ بِالرَّجُلِ : يَا هَذَا
أَرْخَصُ قَلْبٍ عِنْدَكُمْ فِي هَذَا الدَّكَانِ لِأَنَّفْسِ مِنْ هَذِهِ الْمُضْغَةِ الَّتِي
لَفَقَمُوهَا مِنْ مَائَةِ قَلْبٍ مُسْكِنِ ! وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَسُقْطَ الْفَ
قْطَعَةَ . . . وَسُقْطَتْ مَعَهُ عَنْيَاهُ الْحَكْمَةُ وَالْهَنْدَسَةُ وَالْتِجَارَةُ وَالْأَخْتِبَارُ !
وَصَرَخَ الرَّجُلُ لَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! يَا ضَيْعَةَ الْقُلُوبِ ! يَا حَسْرَةَ
عَلَى الْمَالِ ! يَا خَسَارَةَ الْأَخْتِرَاعِ ! وَنَظَرَ إِلَيْيَّ حَاقِّاً وَهُوَ يَتَهَدَّجُ :
أَيْسَرُكَ هَذَا يَا سَيِّدِي ؟ أَمَا كَانَ لَكَ فِي هَذَا الدَّكَانِ الْوَاسِعِ سُلُوةً
عَنْ ذَلِكَ الْقَلْبِ الَّذِي جَسَّمْنَا صَنْعَهُ الْأَمْرَيْنِ وَضَيَّعْتَهُ أَنْتَ عَلَيْنَا فِي
لَحْةِ عَيْنٍ ؟

وَحَرَتْ فِي أَمْرِي لَا أَدْرِي مَاذَا أَقُولُ وَمَاذَا أَفْعُلُ وَذَكَرْتَ اُنْتِي
جَنِيتَ عَلَى الرَّجُلِ هَذَا الْغَرْمُ الْفَادِحُ فِي غَيْرِ اسَاطِيرِ اُنْتِي بِهَا وَلَا مُنْفَعَةٌ
أَصَابَهَا وَمِنَ الْعَدْلِ أَنْ أَعْوَضَهُ عَنِ الْغَرْمِ أَوْ اشَاطِرَهُ حَمْلَهُ ، فَطَيَّبَتْ
خَاطِرَهُ وَهَدَاتِ رُوْعَهُ ، وَقَلْتُ لَهُ اُنْتِي مُوْفِيكَ الثَّمَنُ الَّذِي تَقْتَرَحُهُ فِي
ذَلِكَ الْقَلْبِ الْمُخْطَمِ . فَاقْتَرَحَ مَا تَشَاءُ !

وَكَانَ الرَّجُلُ قَدْ تَمَاسَكَ وَعَاوَدَهُ سَكِينَةُ الشَّيْخِ وَرَصَانَةُ السَّاحِرِ ،
فَهَوَشَ لَيْ وَتَلَطَّفَ فِي الْاعْتِذَارِ وَقَالَ : بُورَكَ فِيْكَ مِنْ رَجُلٍ كَبِيرٍ

القلب كبر الطلب . كلانا خاسِر أيها الصديق بغير فائدة ! ولست
أقبل ثنا تبذله دون أن أُعوضك عنه بعض العوض من بضاعتي
الكثيرة الباقيَة . هذه قلوب الدكان كلها فتأملها وتفرس فيها وخذ
لديك نموذجاً لكل طراز يعجبك منها ، ثم جربها عندك أياماً أو
شهرَّاً وترى في التجربة ولا تغل في الاشتراط فعلك بعد أن
عاينت عاقبة القلب المحطم المجموع من شئ القلوب تخفف من الغلواء
وتعثر بين أصنافنا على قلب جييل ان لم يكن هو بغيتك الموموقة
فليكن هو أدنى اليها من سواه

ونادى مساعدته في الدكان : يا فلان ! هات لصديقنا نموذجاً
لكل صنف منفوس به على عامَة الشراة ودعه ينتقي منها الأقوم
الأقوم وأحمل له ما ينتقي الى مأواه

*** *

قبلت الفكرة متقائلاً وحملت الهدية شاكراً ، ورجعت بالمناذج
إلى مأواي وفي نيتِي ألاً أعود إلى الدكان إلا وفي يدي قلب اختاره
واجترى به عملاً ينال . وطبقت أنزل بالمعيار درجة بعد درجة
عسى أن يعلو في نظري ما لم يكن عالياً ويحمل عندي ما لم يكن
بالمجبل ، حتى لقد خشيت أن أعكس الأمور فأسيغ الكريه وأمج
السائع وأرى البياض في موضع السواد والسواد في موضع البياض .
ثم ترددت نفسي على بجأة فسئمت النزول بالمعيار إلى ذلك الحد

وسمته وسمته وأبىت أن أخدع نفسي بأشد من خديعة التاجر لي
لو أنه عمد معي إلى التمويه والترويج

قال حهينة : ولا أشق عليك بتفصيل ما رأيت فإنه مرير أليم .
وماذا أقص لك وماذا أدع من قلوب عيوبها أثبت من فضائلها
وأكاذيبها أصدق من حقائقها ؟ فكلها من طينة واحدة في الصميم
وكلها في الهوى سواء ! ورب قلب يحس ولا يعلم وقلب يعلم ولا يحس ،
وقلب آخر يحس ويعلم ولكنه لا يصفو ولا يقنع ، ورب قلب يحب
ولا يقول وقلب يقول ولا يحب وقلب آخر يحب ويقول ولكنه
يتكلم بالأحاجي وينطق بآلف لسان ! وجميعهم يتقون في نهاية
تحف الآمال وتخيب الظنون

وعدت إلى الساحر ولم ينتقض الأجل المستظر بيني وبينه فتمال
واستبشر وحسب ابني ظفرت بيغئي وأكتفيت بما وجدت فأسرعت
إليه قبل الأوان المنظور . فبدائي بالتحية وصاح بي : مبارك يا صديقي
مبارك !

قلت بارك الله فيك على كل حال . وخجلت من مجاهته
بالرفض لأول وهلة فبادرته بالكلام وعطفت عليه وأنا أقول : إنك
قد أعطيني هذه القلوب لأسعد بواحد منها . فما قولك فيمن قد
عاف السعادة ؟ ما قولك فيمن يريده له قلباً يستحق أن يشقي لأجله ؟
فأدرك حقيقة الأمر وأطرق غير قليل ، ثم جعل يهمس بين

شفتيه كأنه في حلم : أو تحسب الفرق كبيراً بين قلب يقدر على أن
يسعدك وقلب يستحق أن تشقي لأجله ؟ كلامها يا بني " واحد
في المدح والقيمة . فإذا عدلت هذا فقد عدلت ذاك ، وإذا
انطويت على اليأس من أحدهما فلا أمل لك في صنوه الذي ينبع
معه على أرومة واحدة

قلت : فاقتراح أخير أعرضه عليك . فهل لك في سماعه ؟

قال : هات ما عندك فما في ذلك ضير

قلت : قلبي هذا الذي بين جنبي " . قد غنيت عنه الآن خذه
الىك ! وأصنع به ما أنت صانع !

وكان أبوغت بهذا الاقتراح فبدت الحيرة في عينيه وقال : بكم ؟
فأجبته كما يحب الصدى . بكم ؟ واستولت علي " سخرية
الغالض فنظرت اليه متعجباً وقلت له متهمكاً : أنت ساحر ؟
أنت تاجر ؟ بكم مازا ؟ أي شيء يساوي قلب لا يجد بين
هذه الخلائق التي لا حصر لها قلباً واحداً يستحق أن يشقق لأجله ؟
خذ ياشيخ هذا القلب الذي لا يساوي تعب حمله ! خذه عني
ياشيخ وأنت المغبون ! خذه واذكر قول ابن سينا :

أني عظمت فليس مصر واسعي لما غلا ثني عدمت المشترى !



صورة السعادة

لي صديق مصور كلف بتصوير المعاني النفسية والتعبيرات الغريبة على وجوه النابهين والعظاء . قال لي مرة إنه شرع في تخيل صورة مبتكرة للسعادة وأراني مسودة من ملامحها في خياله . فإذا هي صورة فتاة في نحو العشرين مشوقة القد مرهفة الجوارح مستهامة بالسرور وضعت قدمًا على الأرض ما تقاد تمسها مسًا ورفعت الأخرى كأنها ترقص أو تهيأ للرقص ، وسطع في عينيها بريق من نشوة الحبور كبريق الخمر في عيون السكارى ، وتهدل شعرها متشاراً يطير في الهواء حول جيدها ورأسها كالأشعة المذهبة حول الجذوة اللامعة ، وفي يديها دف ممزوق تقر عليه في عنف وخيلاء ، وعلى الصورة كلها سمة التوشب والجموح تتراءى في نظرات العين كأنها تتراءى في حركات الأصابع وهزات القوام

وكان يريني المسودة ويشرح لي مقاصدھ منها ومواضع التعديل
التي ينوي أن يدخلها عليها . فأعجبت بالصورة ولم اوفق على الاسم
الذي اختاره لها . وقلت له : لو غيرت الاسم لتمت الاجادة وأمنت
الاتقاد . سماها الطرف أو الفرج ، أما السعادة فلا أتخيلها يا صديقي
على هذا المثال

وكانت معرفة الصديق المصور بخواج النفس وعبارات العواطف
أكبر كثيراً من معرفته بمفردات اللغة ومعاني الكلمات ، فقال لي
وما الفرق بين الطرف والسعادة ؟

قلت : أنا اتصور أن السعادة هي الاكتفاء واليقين . وليس في
هذين الشعورين معماً يجمع بهماد النفس ويثير بالاعضاء ، إنما
تكون النفس إذا اكتفت وأيقنت قريرة باسمة ووديعة حالة ،
وراضية في سكون وغبطة ومسترسلة في هناءة مضمرة ، إذا بدا منها
أثر على الوجه فقد يكون ذلك الأثر أقرب إلى السوداء والخشوع
منه إلى الابتهاج والعربدة ، أما الطرف فهو نوبة تملك النفس وتستفزها
فتشرّجها عن صوابها وتدفع بها إلى الحركة في ثورة هياجها . فالنفس
فيه مسخرة من خارجها لا تستطيع أن ترجع إلى باطنها ولا تطيق أن
تخلو إلى ضميرها ، ولن يكون الإنسان سعيداً وهو نافر من الخلو
بنفسه مضطر إلى إسكات الالم بالحركة وإخفاء القلق الذي يفع
الخطير باللجب الذي يساور الاعضاء . السعادة راحة صديق ناعمة

تمسح على الوجوه والقلوب أما الطرف فهماز راكب يجور على مطيته
وينحي عليها بسوطه . السعادة مظللة وارفة أما الطرف فساطع متلهب .
السعادة ملك رحيم يرافق السعيد ويهديه ويستقيه من شرابه في
صمت وسكينة وبحال أما الطرف فشيطان مريد يستولى على الطروب
فيتحبظ به ويعتسف قياده ويصله عن هداه

انني قد أتصور الوحش الفاتك طروباً ولكنني لن أتصوره
سعیداً ، وقد أتصور الآله الخالد سعیداً ولكنني لن أتصوره طروباً ،
فالسعادة كمال وأنس والطرف حاجة وقلق ، وبينها من التباين
ما يوشك أن يجعلها من طبيعتين مختلفتين بعد اختلاف

قال : وكيف تخيل السعادة اذا أردت أن تصورها ؟

قلت : أول شيء لا تخيلها في العشرين من العمر ، وإنما اختار
لها سناً يكثر فيهاوعي والدرایة ويقل فيها الجهل والغرارة . لأن
السعادة شعور عاقل متزن سميح . وليس هذا الشعور مما تحسه بنت
العشرين ولا هي تراد لأجله حين يعشقاً العاشقون . إن الطرف
أغلب على هذه السن عاشقة كانت أو معشوقه ، أما السعادة فلها
بعد ذلك سن يضيء عليها نورها الساجي العميم ولا يدع الاضاءة فيها
كلها لومضات البرق وخطفات اللهيب

قال : وبعد

قلت : وبعد فاني اختارها ملامح الرضى الذي يشوبه الحزن ،
والامل الذي تلطفه الذكرى ، واللذة التي يطهرها الحنو ، والنشاط
الذى يلوح عليه التعب ، وأجلوها في شارة لو جلست بها في مأتم لم
ظهرت عليها غرابة ملحوظة بين شاراته . واصور سرورها الى داخل
نفسها الذى تدركه البصائر وتناجيه العاطفة وليس الى خارج أعضائها
الذى تسمعه الآذان وتترنّع له الحواس ، وأتوسها حالة في يقظة
شاعرة ، وليس جامحة في غيوبة الجنون وسورة المياج
قال : إذن ما هي السعادة عندك ؟

قلت : انى لا أحاول تعريف السعادة حين أرسم صورتها أو
استحضر ذكرياتها ، ولكنني هكذا أشعر بها حين أظني سعيداً ،
وأخال اننا لا نخطيء في الشعور بالسعادة ولا في طلبها إلا يوم تدخل
 علينا التعريفات والحدود ونبداً في فهمها بالرأي قبل أن نناها بالتدوّق
والاحساس . وقد يملا خيل الى الناس أن السعادة نهاية ما يختليج به
قلب الانسان من الفرح والبهجة فهي على هذا طرف في هذه الجهة
والغم الشديد طرف مقابل لها في الجهة الأخرى ، وهي تثير الانسان
طرباً وهو يتيره حزناً وهلعاً . وليس السعادة فرحاً شديداً يقابل
الغم الشديد كما خيل الى الذين عرقوها هذا التعريف ، ولكنها يقين
كاف في النفس لا يثور ولا يثير

* * *

والحق إننا إذا بحثنا عن السعادة بالتعريفات والحدود فقد
نطلبها وهي تطرق بابنا وقد نعرض عن طلبها ونحن أحوج الناس إليها.
وأحسب أن سعادات الصبا كلها من قبيل تلك السعادة المتركرة التي
نستمتع بها ولا نعرف ما اسمها ولا يخطر لنا أن نرفع القناع في تلك
اللحظة عن حيالها ، وكأنني كنت في حالة قريبة من هذه الحالات
يوم قلت في نحو الثامنة عشرة أخاطب السعادة

مه يا سعادة عني فما أنا من رجالك
لا تطمعي اليوم مني بالمعنى خلف خيالك
فقد سألتك حتى ملأت طول سؤالك
وقد جهلتكم لما سحرتني بجمالك
إن الحبيب بغرض إذا استعز بخالك
فلا ترى بيالي ولا أمر يبالك
أشقى الانام أسير معلق بمحالك

ثم علمت لما اقضت تلك الأيام أن سعادة من السعادات التي
نطلبها ونلح في طلبها قد زارتني يومئذ مراراً وسائلني حتى ملت
طول سؤالي خلافاً لما زعمت من أنني قد سألتها حتى ملأت سؤالها ...
وكان خطأي أنا أني لم أستقبلها بحفاوةها التي تستحقها ، وكان خطأها

هي أنها لم تعلن ليحقيقة اسمها . ومضت كا قلت بعد سنين « كأنها قبلة في ثغر محمور » !

ولما جاوزت الثلاثين وضح لي رأي جديد في السعادة الإنسانية
فقلت إنها هي شيء خلق لنفسين اثنين تشعران بها معاً لا لنفس
واحدة تشعر بها منفردة . وأننا إذا طلبناها وحدنا فقد شطرناها
شطرين فلا تقع في حوزتنا إلا وهي سعادة ميتة !!! وذاك إذ أقول :

أن السعادة لمن تراها في الحياة بقتلين

خلفت لاربع أعين تحظى بها ولمجترين

لكل مقتلات ومهجة أترى السعادة شطرين ؟

على إنك قد تغير رأيك في السعادة من عام إلى عام ومن فترة
إلى فترة ولكنها هي فيما بين ذلك لا تحرملك زياراتها المختلسة
على غير مذهبك أنت في آداب هذه الزيارات ، فانتظرها في كل
زى وفي كل لحظة ! أو لا تنتظرها على الاطلاق ! فإنها تحبيك في
أكثر الأحيان على غير انتظار

وهنالك سعادة واحدة تتفق عليها جميع التعريفات وتتوافق لديها
جميع الآراء . تلك هي السعادة المطلقة . أو هي سعادة لاكتفاء التام
الذي لا يتوقف إلى شيء واليقين الدائم الذي لا يعتريه شك ولا
اشتباه . وليس تلك السعادة منا ولا نحن منها . لأنها فيما نظن هي
سعادة الروبية الغنية عن كل أمل والخلود الآمن من كل آفة . وهل

نطمئن نحن في هذه الامنية ؟ بل هل نريد نحن في هذه الحياة أن
نكتفي فلا نأمل وان نوقن فلا ترتاب ؟ كلا ! هذا ما لا نحبه ولا
نريده ولا نتاله اذا أردناه . فاما طلبتنا نحن معلقة بغير السعادة التي
تنتفق عليها التعريفات وتتوافق لديها الآراء — وإذا تركنا هذه
السعادة المطلقة جانباً فقد بقيت لدينا سعادات كثيرة بغير حصر ولا
تعريف وليس سعادة مفردة يحدها تعريف واحد . وكل واحدة منهن
كالمرأة التي تحبها هي خير النساء وأجملهن في الساعة التي تتجلّي فيها
على قلبك وخيالك ! وكلهن قيّنات أن يصاحبن أغرب خواج
النفس وأبعدها عن فكرة السعادة الدارجة في أوهام الناس . ولكنهن
لا يخلون أبداً من علامة ثابتة تيزن بها بين اخواتهن السعادات
الدعيات الكاذبات ، وتلك هي علامة اليقين والاكتفاء !

الْمَعْرِفَةُ

«..... ليس لك بي معرفة سابقة . لكن اسمح لي أن أسألك
سؤالاً في غاية الإيجاز وهو :

يمكن الإنسان أن يفكر في الأشياء التي له عليها تأثير فعلى (وقد)
يكون تفكيره وحكمه عليها صحيحاً لأنّه هو المسيطر عليها . ولكن
كيف يمكنه أن يحكم حكماً صحيحاً على الأشياء التي تسيطر عليه
مثل الكون ، والقضاء ، والطبيعة ؟ أن هذه الأشياء التي نسميها بذلك
الأشياء ليست في متناول يد الإنسان بل هي على عكس ذلك لها كل
التأثير عليه وعلى تفكيره . وقد يقول قائل إنّ الإنسان له (عقل)
يصل إلى حيز معلوم من الأدراك ولكنني أقول له إنه لو كان كذلك
لما اخطأ في أمر ما وان ما نسميه عقلاً كثيراً ما يخطيء في حكمه على
الأشياء التي بين أيدينا ، فكيف يمكنه ادراك الأشياء البعيدة بل
الموهومة . وأخيراً ما هو الخطأ ؟ وما هو الصواب في التفكير ؟ وما
الدليل المادي الذي يقوم كمizar لها ؟ هذا سؤال فارجو إجابتي عليه
ولكم الشكر والثناء الجزيل ما حبيب عوض الفيومي

سؤال الأديب الفاضل واسع الاطراف عويس الموضوع . ولكن
أجيب عليه بقدر ما يسع المقام وأقول له من مبدأ الأمر اننا لا نعلم

علمًا صحيحاً مطلقاً قل أو كثُر عن « كنه » شيءٌ فقط مما في هذا الكون

فاما أن كان المراد بالادراك أو المعرفة أن نلم بأوصافٍ واعراضٍ مما نحس وجوده في الكون فقد نصل إلى حدٍ من المعرفة ينفعنا في الحياة العملية وفي موضوعات التفكير التي ترتبط بها ، وقد نصل إلى علمٍ ما عن الاشياء المحدودة وعن الكون الذي لا نعرف له حدًا ، ويكون الفرق بين المعرفتين أن أحدهما لها مقاييس من الواقع المحدودة تقادس به وأن الثانية لا مقاييس لها ولا فيصل فيها بين أصول الخطأ واصول الصواب .

وأما إن كان المراد بالمعرفة أن ننفذ إلى حقائق الاشياء من وراء أوصافها وأعراضها فنحن لا نعرف معرفة صحيحة عن أي شيءٍ في الكون فضلاً عن الكون الذي يحتوي جميع الاشياء . بل نحن لا نعرف كيف تكون المعرفة الصحيحة عند « العقل المطلق » الذي يقدر عليها ويلو في هذه القدرة على طاقة عقل الانسان

* * *

هناك شيءٌ موجود وهناك عقل يعرف . والمعرفة الانسانية هي علاقة بين ذلك الشيء الموجود وذلك العقل العارف ، ولكن ما هي

المقصوص بشكل بديع . وكان ثوبها الشفاف يمكن الناظر من رؤية
تقاطيع جسدها الرائقة . أما ثغرها وصدرها فقد نازعا الأزهار بهاء
الصنع وجمال التكوين . فلما تأمل بافنوس فيها ، غضّ من بصرة ،
وأجاب « الصوت » بقوله :

— لماذا تأمرني بمشاهدة هذه الصور ؟ إنها ولا شك تمثل الحياة
الترامية لـ الكافر الدفين هنا تحت قدمي ، في قاع جب ، في تابوت
من صخر بركاني أسود . إنها تعيد حياة رجل ميت وتذكّر به .
وهي على الرغم من ألوانها البرّاقة ليست سوى أخلال ظل ، حياة
رجل ميت ! .. فيا للغرور ! ..

فردّ عليه « الصوت » بهذه الكلمات :

— إنه ميت ولكنّه قد عاش ،
وأنت ستموت ولن تكون قد عشت .
من ذلك اليوم لم يذق بافنوس
طعم الراحة قط . واستمر الصوت يكلمه
بلا انقطاع . ونظرت إليه الضاربة بالطنبور محدقةً من تحت أهداب
عينيها الطويلة . ثم كلامته قائلة :

— انظر ! أني خفيةٌ وحسناً . فاحببني . وأفرغ في حضني



الهوى الذي يضئيك . ان " خوفك لا يجديك نفعاً ، ولن تستطيع الفرار مني . أنا جمال المرأة . فيا أيها المعتوه أين المفر ؟ سوف تجد صوري في براء الأزهار ، في أناقة النخيل ، وطيران الحمام ، وقفز الغزلان ، وتموج الغدران ، وضوء القمر . وإذا أغمست عينيك ، وجدتني في سويدة قلبك وقرارة نفسك . منذ ألف سنة ضممت إلى صدرك الرجل الراقد هنا ، ملفوفاً بأكفانه ، فوق مضجع من حجر أسود . منذ ألف سنة تملأ القبلة الأخيرة من في ولا يزال رقاده معطرًا بشذاها . إنك تعرفي يا بافنوس حق المعرفة . فكيف تتتجاهلي ؟ أني أحد تجسدات تاييس التي لا تعد . وانت راهب راسخ في العلم والمعرفة ، وقد سافرت ، والسفر خير معلم ، وكم من يومٍ يقضى في الغربة ويأتي بطرف وفوائد لا تُتَّال في عشر سنوات تقضى في الوطن . لقد طرق سمعك أرن تاييس عاشت قديماً في بلاد اليونان باسم « هيلانة » وكانت لها حياة أخرى في مدينة طيبة ، وأنا التي كانت تاييس طيبة . فكيف غاب عنك هذا الامر ؟ لما كنتُ على قيد الحياة ، اشتراك في أكثر خطايا العالم ، والآن وان كنتُ لست سوى خيال ، لا أزال قادرة على الاشتراك في ذنبك وحملها عنك أيها الراهب الحبيب . فما مصدر دهشتك ؟ أيان تذهب ، تجد تاييس حتماً أمامك .

هذه العلاقة وكيف تكون ؟ أهي انتقال الشيء المعمول برمته الى العقل العارف ؟ لا ولا ريب . أم هي نفاذ العقل العارف الى جوهر ذلك الشيء المكنون وراء العوارض والظواهر ؟ لا كذلك ولا ريب . أم هي انتقال أوصاف من الاشياء الى العقول يمكن أن يطرأ عليها اختلاف اذا اختلفت العقول أو اختلفت الأوصاف ؟ وظاهر أن إدراك الانسان هو من نوع هذا الادراك الأخير . ومع هذا لا بد لنا من التسليم بأننا لا نعرف كيف تنتقل تلك الاوصاف ولا كيف نضع الحد الفاصل بين الوصف العارض والكتلة الثابت في ذاته ، ولا نعرف ما هي طبيعة القدرة التي تجعل العقل « عارفاً » ، ولا كيف يعرف العقل نفسه إلا كما يعرف الاشياء الأخرى التي قد يصيب فيها وقد ينحيط بقياس الصواب والخطأ الدارج المألف

* * *

لكن . هل في هذا الحكم ما يدعوا الى اليأس من الوجود ؟
أما أنا فأقول لا . لأن الوجود شيء والمعرفة المعهودة شيء آخر ،
وليس من طبيعة الوجود المحتومة أن يعرفه الانسان أو غير الانسان ،
فليست المعرفة هي الوجود أو الحياة وليس الجهل هو العدم أو الموت .
وللإنسان في هذا الكون شأن غير أن يعرفه ويحيط بسره ويدرسه
بعقله عن طريقته المعهودة في درس معلوماته . شأنه في هذا الكون

أن يكون جزأً منه وأن يحفظ الصلة بينه وبينه ، وهذه الصلة ليست كلاها من طريق العقل ولا كلها من طريق الاحساس . وإنما هي صلة أكبر من ذلك . لأننا لا نتصور انفصامها في حين إننا نتصور انفصام ما بين الإنسان وبين الكون من صلة العقل والاحساس
ومن خطأ العقل أن يحتم معرفته التامة بحقائق الكون أو إنكاره البات لتلك الحقائق . إن العقل لا يفهم حقيقة شيء في ذاته ، فليس أمامنا إلا أن نفترض أحد فرضين : فاما ألا يكون هنالك حقيقة تفهم ، واما ان العقل يضع نفسه في غير موضعه حين يتصدى لاستكناه تلك الحقائق . والفرض الأول بعيد التصديق ، فلم يبق إلا أن العقل غير منوط بهم كل صلة بين الإنسان وهذا الكون الذي نشأ منه ، وإن الصلة موجودة وإن لم تكن معقوله . إذ نحن لا نكاد نتخيل أن يكون الإنسان ولد هذا الكون بكل ذرة من ذرات خلقه ثم يخلو من الاطمئنان إلى حقائقه والإيمان بسره والاتصال بكل منها

هذه الصلة التي لا تدرك بالعقل هي الصلة التي ينسح فيها المجال للإيمان والاطمئنان إلى حقيقة الكون بحكم نشوء الإنسان فيه لا بحكم سبب آخر . ولكي ندرك هذا المعنى أقرب إدراك مستطاع تخيل أن هنالك كوناً آخر مناً فاصفاً لتركيب الإنسان قد نقل إليه الإنسان بطبيعته التي هو عليها — فماذا يكون ؟ يكون أنه لا يستقر فيه لحظة

ولا يطمئن اليه أى اطمئنان . ففيض هذه الحالة هي الحالة التي يُنِي
عليها الإنسان في كونه هذا . وهي حالة الثقة : ثقة صاحب الدار في
داره ، أو هي حالة العقيدة والآيات

والعقل أن يأخذ منا ما أعطانا . وليس اطمئنان العقيدة من
عطایات فليدعه جانبًا ولیأخذ من معارفنا ما يشاء . وهو لا يمس ذلك
الاطمئنان إلا في ظاهره ، ثم لا قوة له على باطنها الذي لا يسمع صوته
ولا يحفل بقضياته

العقيدة هي الثقة بالنفس أو بالكون وليس هذه الثقة مستمدۃ
من العقل . وإنما هي مستمدۃ من طبيعة تركيب الإنسان ومن كونه
متصلًا بهذا الكون الذي هو فيه بصلة الوجود والحياة
فهذه الثقة هي أساس العقيدة ، وأما الأديان والشعائر وفرض
المعرفة الأخرى عن حقائق الوجود فتلك هي الأشكال التي تمثل بها
العقيدة للفكر أو للخيال ، وهذه الأشكال هي التي تخضع لنقد العقل
ومقاييس التفكير

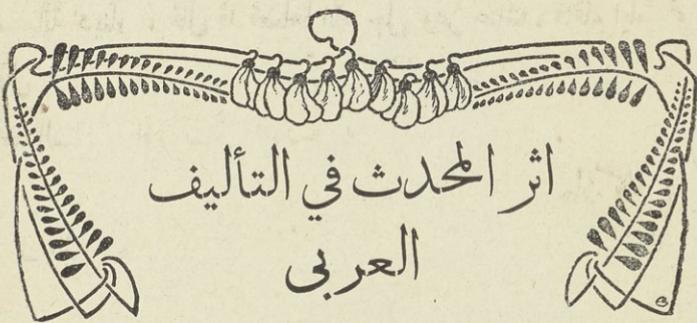
وقد تختلف أشكال العقائد الظاهرة فترد على الحس من الف
مورد وتلبس للخيال لبوساً لا يثبت على حال واحدة ، ولكن أساس
العقيدة في النفس يظل بنجوة عن هذه الفتاوض ويسلم من سطوة
النقد الصحيح ، كما يسلم المعنى الصادق من اختلاف الكلمات التي

تعبر عنه في لغات الناس ومن اختلاف الخطوط التي تسيطر بها تلك الكلمات

* * *

وقد بدأت الجواب بقولي « اتنا لا نعلم عالمًا صحيحًا مطلقاً قل أو كثرون كنه شيء ما في هذا الوجود » وأختتم، بأن العلم المطلق لا يدخل في حاجة الإنسان ولا في مقدوره ولا في طبيعة وجوده ، وان للتفكير عالمًا ثابتاً بالنسبة اليه يستطيع أن يعتمد عليه كل الاعتماد ما بقيت النسبة بينه وبين ذلك العلم محفوظة كما يقولون ، فهو اذا أخطأ في فهمه خطأه ثمة سهل التدارك والصلاح ، لأن وسائله المحدودة كفء لتلك المعرف المحدودة .. أما اذا هو تجاوز هذا الشاطيء الأمين الى غير الحقائق المطلقة فهناك لا حيلة له ولا سلطان على أصغر شيء من الأشياء ولا فرق بين الخطأ والصواب في تيه ذلك الفضاء الذي لا مبدأ له ولا نهاية

ولنسلم بأن « الموجود » شيء أعم وأشمل من « المعروف » ، وان الإنسان لم يخلق ليعرف الوجود في حقائقه المطلقة ولكنك خلق ليكون جزاً حياً منه يتصل به بصلات كثيرة والعقل صلة واحدة من بين تلك الصلات ، فحسبه في دنياه ان يكون ذلك الجزء الحي المفروض في صميمها وأن تتمد صلاته بها من كل طريق والى كل غاية . انه اذا استطاع أن يكونه فقد باع من الحياة بأصدق المعرفة وظفر من الكون بأوفى نصيب



اثر المحدث في التأليف العربي

أمامي الجزء السادس من «مهذب الاغاني» الذي يصنفه الاستاذ محمد الخضري بك ترتيباً وختصاراً لاغاني أبي الفرج الأصبهاني . أفتحه فأجد فيه عشرین صفحة في ترجمة «ابن هرمة» أحد الشعراء من أدباء قريش الذين أبقى ذكرهم ذلك الكتاب ، وانصفح هذه الترجمة الطويلة فلا أتعثر فيها إلا على حديث استدحة وعطاء أو منع وهجاء كثيراً ما يقول فيه قوله صريحاً إنه قد مدح من مدحهم لأنه أخذ منهم أجراً على ذلك أو هو يطمع في الأجر بعد المدح ! ومن هذا الكلام قصته مع السري بن عبد الله إذ نزل به وأنسده قوله «عوجا نحي الطول بالكتشب» إلى آخر القصيدة . فلما فرغ راويته (ابن ريح) من الانشاد قال السري لابن هرمة : مرحباً بك يا أبا اسحق ! ما حاجتك ؟ قال جئتك عبداً ممولاً . قال بل حرّاً كريماً وابن عمّ فما ذاك ؟ قال ما تركت لي مالاً

الا رهته ولا صديقاً إلا كفته . فقال السري : وما دينك ؟ قال
سبعينة دينار ، قال قد قضاها الله جل وعز عنك ، فأقام أياماً ثم
قال يتسوق الى بلده ويمدحه بآيات هذا بعضها
أما السري فاني سوف أمدحه

ما المادح الذي الاحسان كالماجي

فلست أنساه اتقادي واخرافي
هاج اليه بالجام واسراج
مصاحبات لumar وحجاج
إلى قروع لباب الملك ولاج
كم من يذلك في الأقوام قد سلفت

عند امريء ذي غنى أو عند محتاج

فأمر له بسبعينة دينار في قضاء دينه ومائة دينار يتجهز بها
ومائة دينار يعرض بها أهله ومائة دينار إذا قدم على أهله «

* * *

وقصته هذه مع السري مثل تجيع قصصه مع الأمراء والعلماء .
لم يصنع في حياته إلا أن يستجدي ثم يمدح أو يهجو بكلام كذلك
الكلام الذي فرأته لا براعة فيه ولا صناعة ، فما الذي أبقى ذكر هذا
الرجل اثنى عشر قرناً بعد موته ؟ وبم استحق أن نسمع اليوم اسمه
وان يسمع به من تقدمنا بعد القرن الثاني للهجرة إلى الآن ؟ وكيف

هان الخلود هذا الهوان بلغه مثل ابن هرمة وهو أغلى ما تسمى اليه
الهم وتصعد اليه الأ بصار ؟ أبهذا الشعر الذي لا خير فيه ؟ أم بقدر
كان له يرفع من قيمة الشعر ما فاته من رفعة الاجادة ؟ أم بمهابة
لشخصه تعنيه عن مهابه القدر وبلاعنة الشعر ؟ لا ! فان ابن هرمة
كان دعياً منبوداً في نسب منبود من أنساب قريش . ولعل أظرف ما
في ترجمته ما رواه الكتاب اذ روى أنه نزل بعد الله بن حسن في
البادية وجاءه رجل من اسم « قال ابن هرمة لعبد الله : أصلحك
الله . سل الاسلامي أن يأذن لي أن أخبرك خبري وخبره . فقال له
عبد الله بن حسن : ائذن له ! فأذن له الاسلامي

« قال ابراهيم : أني خرجت أصلحك الله أبي ذوداً لي فأوحشت
وتضيفت هذا الاسلامي فذبح لي شاة وخبز لي خبزاً وأكرمي ، ثم
غدوت من عنده فأقمت ما شاء الله ، ثم خرجت أيضاً في بغاء ذود
لي فأوحشت فضفته فقراني بلبن وتمر ، ثم غدوت من عنده فأقمت
ما شاء الله ثم خرجت في بغاء ذود لي فقلت لو صفت هذا الاسلامي
فاللبن والتمر خير من الطوى ! فضفته بفاني بلبن حامض . . .
قال الاسلامي : قد أجتبه أصلحك الله الى ما مسأل ، فسله أن
يأذن لي أن أخبرك لم فعلت

قال : ائذن له . فأذن له . قال الاسلامي : ضافي فسألته من
هو ؟ فقال لي رجل من قريش . فذبحت له الشاة التي ذكر ، ووالله

لو كان غيرها عندي لذهبته له حين ذكر أنه من قريش . ثم غدا من عندي وغدوات على الحي فقالوا : من كان ضيفك البارحة ؟ قلت رجل من قريش . فقالوا لا والله ! ما هو من قريش . ولكنه دعي فيها ! ثم صافى الثانية على أنه دعى من قريش فجئته بابن وتر وقلت دعى قريش خير من غيره . ثم غدا من عندي وغدوات على الحي فقالوا من كان ضيفك البارحة ؟ قلت : الرجل الذي قلم عليه إنه دعى من قريش . فقالوا لا والله ! ما هو بدعي من قريش ولكنه دعي أدعياه قريش . ! ثم جاء لي الثالثة فقرrietه لبناً حامضًا ووالله لو كان عندي شر منه لقرrietه إيه . . . فانخذل ابن هرمة وضحك بعبد الله وضحك جلساؤه معه ! »

فهذا نسب ابن هرمة . أما منظره فلم يكن مبيب الشخص لا في نفسه ولا في جسمه ، لأنـه كان ضعيف الحال وكان كما وصفه الكتاب « قصيراً دمياً أريص » فلا شأن لنسبة ولا شأن لشعره ولا شأن لشخصه كما رأيت . فبأي معجزة نجـا اسم هذا الرجل من غمار النسيان الذي طـأ على أسماء الملـيين من ابناء تلك القرون الـاثـنى عشر ثم وصلـ اليـنا فـعلـمنـا في زـمانـنا هـذا أـنـ اـنسـانـاً اـسـمـهـ ابنـ هـرـمةـ ظـهـرـ فوقـ هـذـهـ الـأـرـضـ وـتـحـتـ هـذـهـ السـمـاءـ قـبـلـ الفـ وـمـائـيـ سـنـةـ ؟ وـحـفـظـنـاـ لهـ كـلـامـاـ قـالـهـ وـأـخـبـارـاـ حـدـثـتـ لـهـ بـيـنـ مـنـ نـحـفـظـ هـمـ الـكـلـامـ وـنـزـوـيـ عـنـهـ الـأـخـبـارـ ؟ لـأـقـلـ أـنـ لـهـ شـعـراـ تـسـلـلـ فـيـ جـانـبـ أـخـبـارـ العنـاءـ الـتـيـ أـورـدـهـ

الاصبهاني فيما أورد فيقي بذلك ذكره وخلص اليانا اسمه ولم ير梓ح تحت زحام الاسماء التي يصيّها الكلال والاعياء في أشواط القرون . فليس هذا سبببقاء اسم الرجل . لأن كتاب الاغاني أثبت له أخباراً مسموعة غير شعره ولأن الاصوات المائة التي اختارها ذلك الكتاب بتراجمها وقصصها وأشعارها لم تكن كل ما غنى به المنشدون في الدول العربية الى عهد أبي الفرج - فابن هرمة كان معروفاً إذن بغير كتاب الاغاني ومحتاراً بغير اختياره ، وكان ابن الاعرابي يقول ختم الشعر بابن هرمة .. ! ولا بد من سبب آخر غير الغناء وغير رواية الكتب جعل اسمه بين الاسماء الطافية على عباب التاريخ ولم يرسب به الى أعماق النسيان التي هوی اليها من هو خير منه وأولى بالبقاء .

أما ذلك السبب فما أظن إلا انه هو هوان قدره الذي حسّبنا انه كان خليقاً ان يُعْقَى على اثره ويفض من شعره . فان هذا الهوان هو الذي سهل له أن يتجرد لكسب الرزق من الاستجداء بالشعر ولا يبالي اللوم على عرضه ولا على قومه . وما دام قد تجرد لنظم الشعر في مدح قوم وهجو آخرين فله من « الحياة البدوية » كفيل بالعيش الميسور والذكر بعد الممات ، إذ كانت هذه الحياة قد جعلت الثناء غاية محمد الماجدين وجعلت رواية الاخبار غاية حكم الحكماء وعلم العالمين

فاما حب البدو النساء بالسنة الشعراه فقد جعوا فيه كل ما فطر عليه الناس من حب الفخر والشهرة والخلود فقام لهم مقام التاريخ و « الرأي العام » وال蔓اثيل وكل ما يحفظ به الذكر من الانباء والآثار وأما الرواية فهي غاية العلم عند العرب لأنهم قوم رحل لا زبدة لأعمارهم - بعد أن ينقوها في ارتياض الكلأ وقل المتأجر من بادية إلى أخرى ومن حاضرة إلى غيرها ومن حي إلى حي - إلا هذه الزبدة من تواريخ الناس وعبر الحوادث وتجارب الأيام وقصص المشهورين والمغمورين . فمثل الحياة التي أُنفقت عندهم فيما يفيد ولم تذهب سدى في غير طائل هو حياة الرحالة الذي يعرف ما لا يعرف سواه من أنباء كل قبيلة وواقع كل جيل ويطرفك بالخبر كلما كان بعيداً منسياً كان ذلك أدل على وفرة عالمه وطول تجربته . ومن كان له هذا العلم وهذه الخنكة فهو الحكيم وهو الواقع وهو الرواية وهو « المحدث » الذي يُصنّع اليه وتلتمس المعرفة عنده ولما تحضر العرب وقامت دولتهم في المدن كان جاساء الملوك في السمر والمنادمة كلهم من « المحدثين » باللسان أو من يؤلفون الكتب للتحديث في الورق . فغير عالم ولا مطلع فيرأيه من يغيب عنه خبر في قبيلة أو بطن من بطونها ، أو من يُسأل عن شطارة بيت قالها شاعر في ذي خطر فلا يكون له معرفة بها ونادرة عنها . وظللت هذه بضاعة الأديب العربي أو « الفقيه الأدبي » إلى سنوات مضت

نذكرها ونذكر كيف كان الأدباء — من لا يزال بعضهم على قيد الحياة — يرودون المجالس بأساطير القبائل وأقصاص الأعراب وصفائر الأبناء عن البائد المغمور منهم قبل النابه المشهور ، ثم لا ينسون بين حين وحين نادرة من نوادر الكرماء المحمودين الذين يجذون بالآلاف على التصصيدة يُمذحون بها وينحوون الضيعة في الكلمة يستفسرون عنها ! ولولا هذا « التحديث » الذي غلب على التأليف العربي والأداب العربية والذي يغري بأجزاء العطاء للمؤلفين والأدباء لما بقي لابن هرمة وأضرابه أثر في الأغاني ولا غير الأغاني ولا سمعنا عالماً يباهي بالغريب كابن الأعراب يقول انه كان خاتم الشعراء !

* * *

وليس ابن هرمة بالشاعر الوحيد الذي استدر العطاء بالثناء ، فهذه سنة غالبة بين شعراء العرب في البدو والحضر وندر بينهم من لم ينظم الدواوين **الكبيرة** في هذه الأغراض ، إلا ان الأكثر من هؤلاء **كسروا الشهرة** والذكر بغير ما **كسروا به المال** ورويت لهم حسنات شعرية — قلت أو كثرت — تحفظ لهم أسماءهم بعد موتهم ولو لم ينظموا حرفًا في المدح والهجاء . ومنهم من لا يُعرف له اليوم شيء من مدحه وهجائه غير ما يراجع في صفحات الكتب أو يستظره الدارسون والمحفظ . فهم شعراء ثم مستجدون بعد أن كانوا شعراء . أما ابن هرمة وأضرابه فإنهم مستجدون من مبدأ الأمر ثم نظموا

الشعر لأنه اداته في صناعة الاستجداء . وهم خلقه المحدث وحده
ولا مكان لهم في سجل التاريخ بغير اذنه

ولكن لا يفهم من هذا اتنا لا تقرأ في «الأغاني» أو في المذهب
إلا شعراً كشعر ابن هرمة وترجمة كترجمة حياته الفاحلة العقيم ،
فإنما قصدنا إلى العبرة من سيرة انسان ككذا بقية اثني عشر قرناً
وكان كثيراً عليه مسافة عمره من المولد إلى الممات !
وأردنا أن نرى كيف تقتسم الصغار مكانتها الفسيح بين العظام
حتى في ساحة التاريخ وأمام عرش الخلود ! ولا حاجة بنا بعد ذلك
إلى تنويعه بأغاني أبي الفرج أو بهذبه المختصر ، فقد أضاف به الاستاذ
الحضرى عملاً جديداً إلى أعماله النافعة في الأدب والتاريخ



مذکرات ابليس

اغواء فتاة (١)

قال ابليس : كنْت أَمْشِي في بعض أَحْيَاء الْقَاهِرَه وَقَدْ نَهَكَنِي
الْفَكْر وَأَمْضَنِي اعْمَال الرَّأْي وَأَنَا مُشْتَغَلُ الْبَال بِمَكِيدَة جَهَنَّمِيَّهُ أَوْقَعْ بِهَا
سَاسَةُ الْأَمْمَ في طَامَة مشَكَلَهُ وَحَرْب زَبُون^(٢). فَيَنِّا أَسِيرُ في طَرِيق
عَامِرَة بالقصور آهَلَهُ بِاصْحَابِ الثَّرَاءِ وَالْجَاهِ الْقَدِيمِ إِذْ حَانَتْ مِنِي التَّفَاتَهُ
إِلَى نَافِذَهُ في دَارِ قُورَاء لَحْتَ فِيهَا فَتَاهَةً عَذْرَاء مَغْرِغَهُ فِي قَالَبِ بَدِيعِ
مِنِ الْحَسَنِ تَنْسَجِمُ عَلَى جَسَدِهَا الغَضِ غَلَّةً يَضْيَاء كَأْنَهَا نَسْجَتْ
مِنْ رُغْوَهُ الْمَاء وَخِيُوطِ الضَّيَاء ، تَشَفَّ منْ بَدْنَهَا عَنْ بَشَرَهُ صَافِيَهُ
بَضْهَهُ ، وَنَهَدِينَ قَاعِدِينَ كَأَمَا يَنْقَذَانَ مِنْ خَلَالِ ذَلِكِ الشَّفَ الرَّقِيق ،
وَقَدْ اتَّكَأْتَ عَلَى النَّافِذَهُ تَنْظَرُ إِلَى الطَّرِيقِ وَتَنْسَمُ الْهَوَاء
تَلَكَ هِيَ صَاحِبِي الصَّغِيرَهُ مَرِيم ، وَمَا كنْتُ أَجْهَلُهَا وَلَا أَنَا غَافِلُ

(١) هو فصل مستقل من فصول يشرح فيها ابليس اساليب
اغوائه للناس

(٢) قد أفلح ابليس في تدبير هذه الحرب على ما يظهر فإن الحرب
العظيمى قد اشتعلت بعد كتابة هذا الفصل بستة واربعة شهور !

عنها . ولكنها كانت طفلة تمرح في حراسة ملائكة الطفولة فلا
أجرؤ على الدنو منها ، وكانت زهرة في كام الفضيلة فلا تتمد يدي
إلى اقتطافها — وللطفلة حرم تحوم حوله الشياطين ولا تخطاه
فاما وهي اليوم كاعب نبض قلبها بدم الشهوة وجرت في عروقها
حرارة الموى ، وتفرق عنها ملائكة الطفولة فلا شيء يعصمها مني ،
وتفتحت زهرتها فامتنزح عرفها الظاهر بهواء هذه الدنيا ، فلسوف
يكون لي معها شأن كالذى كان لي مع غيرها من بنات حواء ، ثم
اتركها وما بقي فيها إلا كالذى يبقى في الزهرة الذابلة من شذى أحقره
في مبارح الحجم

ورأيت أن أعرّج عليها في طريقى فألهو بها وأرفة عني ساعة
بهذه الفكاهة اللطيفة ، فأرجح ذهني من جد الخبائث الكبيرة
والشروع المستطيرة ، وأشغل نفسي بهذه الغواية الساذجة وان كانت
لا تحتاج إلى أكثر من دعابة شيطان صغير من تلاميذى المبتدئين
في صنعة الفساد

وكانت مريم بنت رجل ذي مكانة وثراء ، ظلت اضارب بعقله
في المضاربات حتى خسر عقله وماله ولم يبق له من الضياع والنشب
إلا هذا القصر الذي يقيم فيه ، فخجروا عليه وأقاموا له فيما يتولى تأجير
جانب من القصر وينفق من أجراه فى مؤنة العائلة وتربيه الصغار ،
فعكف الرجل على بيته لا يريم عنه ، وهجره أصدقاؤه وتسلل حشه

واحداً بعد واحد إلا خصيًّا منحوسا حفظ عهد سيده كما يقول ويؤنس
من غير هذا المرتزق كما يعلم الله !! ولو علم الخبيث مرتزقاً أوسع
جناباً وأوطأ رحاباً لفر من بيت سيده فراره من المأسدة . !

وكنت قد وكت بعيرم ولدي الأبور^(١) فصرفته في دعوة فتى
انسى استعين به احياناً على خلب قلوب العذارى ، وصعدت الى
ميرم فدخلت غرفتها وهي لا تراني وقد قامت تخظر الى المرأة ،
وانى لأعلم اننى أفقن المرأة بكل صورة إلا صورتها فانها خلقت مفتونة
بها ، وأقودها الى كل مكان إلا مكان المرايا فانها تنقاد اليه طيبة
ragبة ، وما أحسب حواء حين أبصرت صورة محياتها في ماء الغدير
إلا قد حسبت أن الله أجرى لها الماء لتتراءى فيه لا ليروي منه
العطاش ويحيى بها موات الأرض ، وكذلك نشأ بناتها على هذا الرأى ،
والحمد لله !

يد اني اذا كنت لا أبث في نفس المرأة بذور الغرور بجمالها
فقد أنيه وأمدتها فيه وامهد منه سبيلاً الى إذ كاء الحسد والبغضاء
والاستهثار بالعشق وسائر الأهواء ، واحتلَّ الذين خيل اليهم أن
افتتان المرأة بجمالها واضعها بنجاة من طمع مرضى القلوب ورافعها عن

(١) الأبور من ولد ابليس الخمسة هو الموكل بالخنا والفساد في الارض
كما جاء في الاحياء

منال الراغبين، فتكبر في نظر نفسها وتصغر المتطلعين إليها ، فأنا قو لهم
هذا بعض الضن وكل الخطأ . ومتي صد الدلال عاشقاً؟ بل أي عاشق
لا يتصبه الدلال ولا يضم رغبته المتنع والمطال ؟
ان افتتان المرأة بجمالتها ليبعدها عن طائفة من الطامعين لا خبرة
لها باهوا المرأة . فأما الذين يعلمون الى أين يثبت غرورها فربما
أدنهم منها وأعنهم عليها . فهي تخندع من جانب ذلك الغرور ويلقى
بها العجب في وسط ميدان الشهوات فاذا هي كالقائد الذي تحمله
كسوته المذهبة وأنواطه المتلائمة هدفاً للرمادة وغرضًا للرأشين
ولو علم الآباء أي حظ لي في المجال المفتوح لما امتدحوا آنفة بناتهم
ولما خافوا عليهم من شيء خوفهم من هذه الآنفة ، لأنها سلاح ترفعه
الفتاة في وجوه الأزواج فيفرون منها وتضنه تحت اقدام الفساق
فيظفرون بها ، واني ليعجزني من الملامة الوديعة ما لا يعجزني من
الدمامة الشنيعة ، وأنا القائل عن لسان بعض الأنس :
أحب اللواتي في صباحهن غرة وفيهن عن أزواجهن طاح
مسرات حب مظاهرات عداوة تراهن كالمرضى وهن صبح
وكذلك نزيغ الشعراء ، ونخدع الامهات والآباء .

* * *

فاما نهضت مريم تخطر الى المرأة قلت لقد سنت الفرصة
وقضي الأمر .

وأقبلت عليها أقول :

« تبارك الله » ما هذا الجبين الساطع والوجه البارع والحسن الرائع ! على مثل هذا المجال فلتقطع قلوب الرجال حسرة ، ومن مثل هذا الرواء فلتتحرق صدور النساء غيرة ، ووالله ما هما إلا صورتان فازتا بمعاني الحسن وسماته : هذا المحيى في عالم الشهادة ، وذلك المثال في عالم الخيال ...

فتبسمت الفتاة وترنح عطفاها وأنسأت تحيل في المرأة نظارات كانت قبل اليوم تلحظها من سواها ولا تقفه معناها ، فأخذت اليوم تتعلم كيف ترمي ، وتنظر أي الرميات يوجع وأيها يدمي ، وأي السهام يخطىء وأيها يصمي ، وأرسلت من بين اجفانها تلك النظارات الآتية التي تشبه المغناطيس لأنها تجذب إليها قلوبًا من الحديد الصليب ، وإن كان ذلك الحديد ليكونن عليها في بعض الأحيان حداً حكم السيف ونصلاً كنصول الحراب

ورأيتها عارية الشعر ، عاطلة للنحر ، مجردة المعصم ؛ فقلت : ما كان أجمل هذا الليل لو زانته النجوم الجوهرية ، وما أنفس الخلي الذهبية على هذه الترائب البلورية !! أو ما كان قرط الماس أجمل في هذه الأذن منه عالقاً في أذن جارتكم السمراء كأنه شرارة طارت من فمه ؟ وما بال هذا النحر لا تكسوه لبة ربما فاضت على صدر

فأتم فلاحت فيه كايلوح وضح البرص في الاديم الاسود ؟ وما لهذا
المعصم لا يزيشه سوار ربا التوي على ذراع مهزول فكأنه مسرع قد
التق عليه ثعبان !! وهل استخرج النصار الاليمع على هذه
الصدور ؟ أو التقط الجوهر الا ليسطع في ضياء المجال الفضاح ؟
وتلك رقية ما رقيت بها فتاة قفویت عليها وما دسست في
صدر أنتي خدعة هي أسرى فيه منها . بل لقد كنت اهجس بها في
قلب المرأة فتؤثر لو انها تصبح بغير جيد من أن يكون لها جيد
لا تطوه الحلي والعقود !

فما تلوتها على مریم حتى انكسرت كبر ياؤها وزال عنها ذلك
البشر الذي كان يتفرق في أسارير وجهها . وكأنها تقول : أنتي لي
هذه النفاس وقد حرمني الله نعمتها وأباهما على الله أن يعني بها ؟
قلت أولاً يغريك أبوك عن هذا المني ؟

قالت أن أبي لكان الضيف في المنزل لو أنه يكرم أكرام الضيف .
وهذا القيم قد بات يقترب عليه في النفقه ويقطر عليه الدرهم بعد الدرهم
فإذا ظفر بعلبة التبغ حسبها منه غناً كبيراً ومنة عظمى
قلت : خطيبك !! فأجهشت الفتاة بالبكاء وهي تقول : لقد
كان لي خطيب يزورنا أحياناً فيتودد إلي ويلاطفني ، فلما تضعضعت
حالنا وقعد بنا الدهر هجر الرخاء منزلنا وهجره في يوم واحد . فما
سمعنا عنه منذ ذلك اليوم إلا أنه عقد خطبه بالامس على احدى

قريني في المدرسة ، ولو أنها كانت أملح مني خلقاً أو أصبح صورة
لحسدها على ملاحتها وصاحتها ، ولكنني لست أحسدها إلا على
أب أكثر من أبي مالا وأدنى إلى القبر قدمًا
قلت لا يعدم هذا الجمال عاشقاً يتربّ إليه بمحياه ، ويدل
المال في سبيل مرضاته !

فانتفضت الفتاة ارتياً من كلة العشق . وكان مبلغ عملها فيه
أن العشق والفسق شيء واحد ، وان البنت التي تُعشق غير جديرة
بأن تُعشق ، وكانت تسمع العجائز يقلن عن بنات اليوم أنهن فطح
القلوب تكشف نقوسهن لعيون الرجال وهي سر من أسرار الجنس
لا يجوز افشاوه وخطة مدبرة يحرم اعلانها لغير بناته ، ويأخذن على
الفتيات الناشئات إطاعهن الرجال في جنس النساء ثم يتذكرن الأيام
الخواли أيام كن يتععن وهن الراغبات ويحرقن قلوب أزواجهن باليه
والصدود والتجني والدلال وهن بهم أكلف وعليهم أحنى وأعطف ،
ثم يتوجعن لسوء حظ بنات اليوم ويقلن من حضر منهن : لقد
نعمنا بزماننا فاستقبلن اليوم زمانكن المعكوس ! **كأنما** يضعن من
شأن الصبا بعد أن فارقهن ويأسفن على حظ الصبيات من الشباب
لئلا يأسفن على ما فاتهن منه . أو **كأنما** يحسن الفتيات ضرائر لهن
في هذا العاشق المقلب فيلتقمن لاقسمهن ويبخسن ما يوليه أولئك
الفتيات من تحفه ولطائفه

وشوه وجه العشق في عينيها ما كانت تقرأ وتسمع في المدرسة
من وصف الفضائل وصفاً كوصف الأئمَّة لنجموم السماء ، وتعريف
العفة تعريفاً ينافق كل صلة بين الرجل والمرأة غير تلك الصلة التي
يسجلها الشيخ المأذون في دفتره ، ولعمري أنها لفضائل هوائية لا
تعيش إلا بعزل عن الرذائل ولا تتجاذب الشهوات في ميدان واحد ،
وانها لجنود تقتum عن عداتها في حصن بعيد فلا تثبت أن تقتتحمه
العداة عليها مرة حتى تستأسر لها أو تتقدّل سلاحها وتحارب بها في صفها ،
وليسـ الثقة بهذه الفضائل الا كثافة هاروت وما روت بنفسيهما في
السماء . فاما هبطا الى الأرض سكرًا وفسقاً وقتلا في لحظة واحدة !

يضع حمقى الانس فضائلهم هذه عثرات في طريقه فأتناولها
وأجعلها معالم يهتدي بها الناهجون فيها . ولا شيء يهون على "اغواء"
الفتاة الشرقية غير عفة هي بتصدور الكتب أجمل منها بصدر الفتاة ،
ليس لاغواء الفتاة الشرقية عندي إلا طعمة واحدة . فاما فتاة
الغرب فاني انصب لها أحبوة بعد أحبوة حتى تقع في يدي ، وتصبح
فريسة لي

فاما انتقلت بالشرقية من الصيانة الى العشق أبصرت نفسها قد
انتقلت الى حال ينكرها أهليها وذووها ويستهجنها الناس من حولها ،
وعلمت أن ما هي فيه رجس لا يرضاه أحد غيرها فلعت العدار
وارسلت نفسها في التيار ، فذهبت الى الغاية من التبذل والاستهثار

فاما اختها الغريبة فلا بأس بها من العشق ولا انكار عليها
فيه . فاذا أحبت لم ينته منها أرببي ولم أزل انتقل بها في أدوار شقي
واتدرج بها من السانع الى المخظور ومن الطيب الى الخبيث حتى
يفضي بها الأمر الى الفساد
وكذلك استنيد من غلو الشرقيين في فضائلهم ما لا استفيده
من تفريط سواهم . فكلما ضيقوا دائرة الفضيلة اتسعت دائرة الرذيلة ،
وكلما حصروا حدود الحسنات افرجت حدود السيئات

* * *

وآمنت من مريم استعصاء وتناقلـا . فأخذت يدها الى نافذة
تطل على حديقة قصر في جوارهم تسكنه اسرة لها فتاة من لداتها قد
سبحت في الغواية سبحا وقلبت في المقامح ردها ، وجرت في
العشق على مذهب أولئك الذين يخجلون من أن تراهم اليوم مع
عاشق الأمس ، ويحسبون أن الدوام على عاشق واحد كالدوام على
لباس واحد . هذا ينم عن فقر الى المال ، وذاك يبين عن فقر
إلى الجمال

وكانت يوم ذاك في هوئي فتى هو ثالث عشاقها ، فكان مختلفـا
اليها في الحديقة وتعلم أمها من شأنها ما تعلم ولكنها تبادلها غضـ
النظر . ولعلها لا تذكره زيارة الفتى لأن عين ابنة الثلاثين قد ترى
كما ترى عين ابنة الحمس والعشر !

وكان مجلسها في الحديقة عند سرحة فرعاء يقضيان تحتها ساعة أو ساعات لا مقدار لها في تقويم العاشقين ، لأن الله الحب وربات الزمن لا يتلاقون في مكان واحد ، فإذا شغل الحب موضعًا فر منه الزمن ، وإذا خلا موضع من الحب تقطى فيه الوقت وتطاولت الساعات

وجلسا في تلك اللحظه وقد تعاقدا بالأيدي وتجاذبا بالنظر . فكأنهما يعالجان التنويم المغناطيسي أو كأن كلا منها قد جمع روحه في عينيه لتعرف من وجه صاحبه روحًا لقيتها في عالم الدر ، فيطول أمد النظرة لطول العهد ، ثم تختم بقبلة لا يدريان أهي راحة الذاكرة من هذا الامعان والاستصاء أم هي بين الروحين تصافح المعرفة واللقاء

فما رأتهما مريم على هذه الحال تضرمت في نفسها شعلة الصبا ، وسرت في عروقها حميًا الهوى ، فقالت ليت لي عاشقًا ! !
قلت أوتعشقين ؟

قالت ولم لا ؟ بل أني لعاشرقة الساعة . وكأنني أجد نفسي بين يدي فتي أجلس منه مجلس هذه الفتاة من ذلك الفتى ، وانتا تتلاحظ كا يتلاحظان ، وتنعائق كا يتعاقبان ، وتنطفف من زهر المنى في روض الهوى مثلاً يقطفان

قلت فاذهبي الى عين شمس ... فهناك تجدين عيانا ما تتوهمين
خيالاً . واستقبلي عصاري اليوم في وادي الضياء والغرام حبيبك المأمول
ونعيمك المسؤول

* * *

وجاء الأعور بالفتى الانسى فأرصده في منعطفات عين شمس
بحيث أمرته . فوقف يتشغل بالصفير ويغازل الغاديات والراحات
أما هذا الفتى فهو من طمست على بصائرهم وأضللت ألباهم ،
وطوحت بهم في الفساد الى حيث لا يبلغ صوت الضمير ونداء
الوجودان . فأصبح فاتر النفس ، بارد القلب ، لا يخف الى غير
الخازي ، ولا يرتاح الى حديث في غير الشراب والنساء ، ولا يرى
إلا ان العالم حان أو ما خور

وذهبت مريم الى امها فاستأذتها في الخروج أصليل ذلك
اليوم ، وكأن امها خافت عليها مغبة ما بها من الهمد واشقت أن
تللاشى نفسها عمّا من غدر خطيبها وانصرافه عنها الى صاحبها ،
فكرهت أن تجمع عليها بين ضيق الصدر وضيق الأسر ، فأذنت لها
ونادت بالخصي جوهر ليصحبها الى حيث تشاء

* * *

ولم يبق الا ريم من التهار فتوردت الشمس وتزيينت مريم

بأحسن زينتها وبرزت تهادى في الطريق كأنها طاقة الزهر ترك
بعدها عبقاً في حيث صاحت المواه
وطفقت كلاماً نقلت قدمًا سمعت كلة اطراء وغزل ، وكلما أرسلت
نظرة تعترض في نظرات المقل ، وهي ترى ذلك وتسمعه ولا تعييه
نظراً ولا توليه مسمعاً، حائرةً الطرف في دنياه الجديدة مشردة النفس
بين الخجل والغرابة . حتى رمقت الفتى على قرب فرأت قواماً قوياً
ومشية رشيقه ووجهها تشرق فيه بشاشة الصبا وفيما تبتسم فيه الملاحة
وعينين ألاقتين كأنما تصاحكان الضياء ، فأحسست كأن طائراً نضّ
جناحيه بين جوانحها ، ومشت قبالتها وهي تنجدب الى ناحيتها على
غير عمد ، وعلمت أنها سمعت من ذلك الفم الجميل ما قد سمعت من
أولئك الشرايرة المتعشقين . خفق قلبها وتوهج خداتها . وإذا هي على
قيد باع منه تسمع صوتاً رخياً ولكنها لا تتبين ما يقول
وحاولت أن تحرف عنه فخانتها قدمها . ثم همت أن تنظر
إليه فلم تطعها عيناه . ورأى الفتى ترددتها ووجومها فأقبل عليها
بكيسة الامراء وقال لها بلباقة الخطباء : ألسن أنا أولى بصاحبة
هذا الملك السماوي من ذلك العبد الأعلم ؟؟ وأشار الى الحصي
جوهر - وكان على بعد يجادل بعض أصحابه - فضحكـت .
وأدانت عينيها اليه ولكنها لم تثبت أن أدارتهما عنـه . وما كان
فتاي ليجهل أن إعراض الخجل والدلـل إنما هو عـين الاقبال ؟ وان

الثناء الروعة اما هو هزيمة في هذا المجال ، فأسرع اليها بجرأة أفادته ايها ممارسة هذه المواقف وأمسك يدها وهي ترتجف بين يديه ، فأخذتها هذه المفاجأة ولبست هنئها يخيل اليها أنها تتأهب للحركة ولا تحرك وانها تنبس بالكلام ولا تتكلم . كأن القلب الذي يوحى اليها الكلام والاعتزام قد طار منها في ملوكوت الحب والهياق . فلم يبق منها إلا بصر شاخص كما ينظر الصبي في أثر العصفور أفلت من يده ، وإلا بدنٌ مستسلم كأنه بين راحتي الكري وأدركهما جوهر وها على هذه الحالة . فأرسل الفتى يدها وأفاقت هي إلى نفسها وهي تقول : وافضيحتاه ! هذا جوهر أغآ ! وسماعه يحرجهم ويططمط بما لا يفهمانه ، وكأن كلاته من اللكتنة والعجمة أصوات بغير حروف . ثم قال : « عيب يا بيك ! لا يليق بك أن تهجم على الحرائر في قارعة الطريق ! ان هذه ليست من أولئك اللائي تعرفهن !! . . . »

فاستقبله الفتى باسماً وقال بما يعهد في هؤلاء الفتىان من الطرف وتزويق الكلام : « سامحك الله يا أبي جوهر فقد بالغت في اساءة الظن بنا ! ولستنا نحن كما ظننت من السوقه الهمل ، ولكننا أبناء قوم كرام والحمد لله . وأنت تعلم أن الآلة أبعد من أن تكون مظنة ريبة وهي ربيتك وفتاتك ! ووالله ما كنت لأتصدى لمجادتها لولا أنها زميلة أخي في المدرسة ، وإنما كانت تزورها في

منزلنا فعرقها وعرفتني هناك » وامتد بينهما الاستسماح والاعتذار
هنيهة ثم دس في يده ديناراً طال عهد الخصي بأمثاله فطار له به
وقال : والى أين تذهبان الساعة ؟
قال : نتمشى قليلاً حول هذه الحدائق ثم نعود . قال اذن
أدع الآنسة في صيانتك ريثما أذهب الى هذه القهوة ثم أحق بـ
بعد ذلك . قال مع السلامة !

وكذلك تصنع الدنانير والدرام .. فانها - بارك الله لي فيها -
قد سكها الناس ليجعلوها ثنائاً للعرض والخطام فما زلت بهم حتى
تركتهم يشترون بها الحسن والمواهب والأعراض والمذاهب . بل
حتى لقد جعلتها في أيدي بعض الناس ثنائاً للفردوس وبراءة من النار
فاما شعر الزنجي بالدينار في كفه رأيته كأنما قد انعكس بريقه
على وجهه واعتلد ما التوى من خراطيمه . ثم تذكر موائد القمار
وقد ودعها منذ سنين ، فخن اليها وذهب يمتنع نفسه باللعب وال الحديث ،
وهما حظ الخصيان من الدنيا ولذتهم فيها ، بعد الطعام والشراب
أما أنا فقد استدرجت الفتى والفتاة الى حيث اختيا في بعض
تلك الأماكن المزوية عن الانظار . . . ثم مضيت في سبيلي

* *

عادت مريم وهي لا تطيق الصبر يوماً عن عين شمس . ولدت

رنات الذهب والفضة للشخصي فأصبح يشترق تلك النعمة كل أصيل،
وتتأخر آنسته عن الموعد قليلاً فيصعد إليها مستعجلًا . حتى خامر
الشك قلب الأم . . . فأبانت عليها الخروج يوماً ومانعتها يوماً ثانياً
وأغفلت لها يوماً ثالثاً . فأطاعت على كره وانتظرت في اليوم الرابع
على مضض ، وألظّ بها القلق في اليوم الخامس فبقيت تتلهف حيرة
وشوقاً . إلى أن حاز موعد العصر فعنمت على موافقة عاشقها
— سمحت لها أم لم تسمح — وإنما لستيناً للخروج إذ قابلتها أمها
فاستغربت منها هذه الجرأة . وقالت ، إلى أين يا مريم ؟

قالت : إلى عين شمس !

قالت : ألسنت تعلمين ابني أخاف عليك من هذه المدينة
المشومة ؟

قالت : أما أنا فأعلم أنه لا خوف عليَّ منها . . .

قالت : حسناً ، ولكنني لا أريد أن تذهب إلىها

قالت : ولكنني أنا أريد ذلك . . . ألسنت حرة فيما أريد ؟

* * *

هذه هي الكلمة الجديدة التي تعلمتها الفتاة ! الحرية ؟ لقد
كانت تعرفها من قبل ولكنها كلمة لم تكن لتوئدي في قاموس الطفولة
معنى عقوق الأم الرؤوم ، وايام ذلك الحنان الظهور
ألسنت حرة فيما أريد . . . ؟ نعم أيتها الفتاة أنت حرة فيما

تریدین .!! وكل فتاة حرة أيضاً . . . هكذا قال فلاسفة الحرية ،
اكثر الله من امثالهم

ان حرية النساء مبدأ صحيح قويم ، بيد أن الهيئة الاجتماعية
لا تخلو من منعرجات ومنعطفات لا تنطبق عليها المبادئ القوية إلا
اذا التوت عندها بعض الالتواء ، فهل من شأن الشريعة أن تحد
مواضع هذا الالتواء ؟ لا ! إن الشرائع العامة لا تضع إلا القواعد
العامة ، واما ذاك عمل الهيئة والاسرة ، وما دامت هذه الأزمة في
الهيئة الاجتماعية فالمبادئ القوية لا تتحرجها كلها . فلا زال الحكام
يرسمون هذه المبادئ لاصلاح الناس فنتخذها نحن ذريعة الى
افسادهم في بعض الاحيان



المرأة الشرقية (١)



١ - مَا يَحْسِنُ أَنْ تَسْتَبِقَ مِنْ أَخْلَاقِهَا التَّقْليديَّةِ

٢ - مَا يَحْسِنُ أَنْ تَقْبِسَ مِنْ شَقِيقِهَا الغَرْبِيَّةِ

(١) من الصعب أن نعرف على وجه التحقيق ما هي «الأخلاق» أو الصفات التي اختصت بها المرأة الشرقية دون سائر النساء في العالم ، فان كثيراً من الأخلاق التي تنسب اليها ويُظَن أنها خاصة بها ومقصورة عليها قد وجدت من قبل وتوجد الآن في بعض النساء الأوروبيات عند تشابه الأسباب ، وهي في الغالب الجهل والاستبداد . غير اننا لا يسعنا الا ان نعتقد من وجهة عامة ان هناك اختلافاً بين الشرقيات والغربيات مردّه فيما نرى الى فرق واحد : هو ان المرأة الشرقية احسن بطبعها الانوثة من صاحبتها الغربية ، فهي اوفر منها حظاً من عنصر النسوية او ان المرأة الصميمية فيها اكثر من المرأة الصحيحة في تلك ، وهي على الجملة ارأاً لأنثائها وألف

(١) كانت مجلة الهملا قد وجهت هذين السؤالين الى جماعة من الكتاب والادباء فكتب صاحب المراجعات اليها بهذين الجوابين

لزوجها وأسكن إلى المعيشة البدنية من صاحبها الغربية . وهذه هي الحصلة التي نود أن تستيقنها المرأة الشرقية في أساسها لا في تفاصيلها فتظل كما كانت في كل عصر مملكة البيت الحاكمة المحكومة يسكن إليها الرجل من متاعب الحياة ولا يزال عندها — صغيراً كان أو كبيراً — طفلًا لاعبًا يأوي منها إلى صدر الأمومة الرفيق واحضانها الناعمة رضيعًا ويافعًا وفتى وكلاً إلى أن يشيخ ويفنى . ويستدعي ذلك أن تعيش هي في ظله وتعتمد في شؤون العالم الخارجية عليه وتدع له كسب رزقها وتدبير حاجاتها وتنظر إليه من ناحيتها أيضًا نظرة الابن إلى أبيه لا نظرة المنافس المزاحم إلى من يناجه في ميدان واحد . ولنسنا نعني بما يقول أن تكون المعيشة البدنية واجبًا مفروضًا على المرأة كما يفرض السجن على السجين ولكننا نعني أن تكون هذه المعيشة حقًا من حقوقها المفروضة على المجتمع ، لأن عملها في البيت — وهو اعداد الجيل القادم — أكبر وأجل من أن تجتمع بينه وبين السعي في طلب الرزق والاحتيال على شؤون المعاش . فهي تعول المجتمع القادم وتسره عليه فمن حقها على المجتمع الحاضر أن يعولها ويسهر عليها ، والا كان خروجها إلى معرتك السعي والجهاد علامه على التقصير والخلال من جانب المجتمع ونديرًا بالشذوذ عن تقسيم الطبيعة الذي عرفه الشرقيون بالبداوة من قديم العصور . ولا بد للمرأة من أن تبني كل سيرتها في الحياة على الایمان بهذه الحقيقة التي لا سبيل إلى نكرانها

بصفة جدية : وهي ان الرجل أقوى من المرأة على نضال الحياة مما يدل على انه قد خلق له ، وانها قد خلقت لتعتمد عليه في هذا الأمر لا لتراظمه فتقهر وتنهزم لا محالة . ولا يغنى عن القائلين بغير هذا الرأي قوله ان المرأة اما تختلف عن الرجل في مضمار الحياة العمومية لانه تغلب عليها في عصور الظلم والجهل فان تغلبه عليها دليل في ذاته على انه أقوى منها جسداً وعقلاً والا لما استطاع التغلب عليها بالقوة الجسدية وحدها كما لم يستطع الحيوان ان يتغلب على الانسان بتفوقة عليه في القوة الجسدية دون العقلية

* * *

(٢) أما ما يحسن أن تقتبسه المرأة الشرقية من المرأة الغربية فهو الاخلاق أو الصفات التي تعينها على تدبير المنزل وتربيه الاباء وآداب المجالس وحرية اختيار الزوج . فيجب ان تمارس الالعاب الرياضية لتقوى جسداً وتصح مزاجاً، وان تتعلم الضروري من اصول الاقتصاد وتقويم الصحة وطرائف الآداب ، وان تتحذق فناً أو أكثر من الفنون الجميلة ولا سيمها الموسيقى ، ولا بأس بالرقص في محافل الأسر ولكن على طريقة تناسب عادات المغارقة ، تقتبس من الرقصات الشرقية القديمة والحديثة التي لا تخل بالصيانة والحياء وتبه بوجه خاص الى آداب المجالس لانها تعزو كثيراً من العيوب التي ترين على المجتمع المصري الى احتجاج الجنس اللطيف

عن مجالس الرجال وأنديتهم ، وأحسب لو ان الشبان عندنا تعودوا أن يتحدثوا الى النساء المذهبات وأن يتحدثن النساء اليهم لعنوا بتقنيف عقولهم وآخلاقهم والاطلاع على ما يحمل التحدث به على مسمع من الأوانس والسيدات ولنزعوا نفوسيهم وأسلتهم عن اللغو والهجر الذي يقضون به ساعات سيرهم ، ولا تخدت المنافسة على المرأة سبيلاً أكرم

وأبلق وأجدى من سينالها المعمود

اما حرية اختيار الزوج فحق للمرأة أن شاءت تولته بنفسها وأن شاءت تركته لأوليائها . على اني لا أغالي بهذا الحق مغالاة الذين يحسبونه اس السعادة كلها في الزواج

وبعد ، فأنني أحب ان تحفظ المرأة الشرقية « بآتونتها » وألاء تقتبس من المدنية الغربية الا ما كان سلاحاً لهذه الأنوثة في أداء وظيفتها وصون حقوقها



الاصلاح الادبي

كل اصلاح في شأن من شؤون الام لا يتناول تصحيح مقاييس الحياة فيها هو عبث فارغ لا يستحق عناء — وفي مقدمة ذلك اصلاح الآداب والفنون

ويجب أن يكون مفهوماً بالبداهة ان اصلاح الآداب شيء غير تناول صيغ الالفاظ أو تحويل أوزان الشعر أو تعديل النحو والصرف فاما هو في الحقيقة لا يقل عن تصحيح حياة الامة ومن ثم تصحيح التعبير عن تلك الحياة . فهو بثابة خلق جديد للأم و هو من صناعة الآلة لا من صناعة الخالق الماكين

وأصدق ما تُمحن به مقاييس الحياة في الام أن تُعرف الفضائل التي يزبون بها مقادير الرجال : ماذا يتغرون منهم وفي أيّة هيئة يحبون أن ينظروا اليهم ؟ أيطلوبون منهم حياة تكفيها حدود من الطعام والشراب والثياب المزركشة والأسماء الطنانة ويوم واحد من الزمن يفتّأ يتكرر على وتيرة واحدة ويُعاد كما بُدىء إلى أن يطويه الموت في ظلماته ؟ أم يتغرون منهم حياة لها حدود ضارة في

اوائل الآزال وأواخر الآباد تحتاج الى سماء عالية وأمام غير متناهية
وفضاء متربع بالنور والجمال وَاكوان مفعمة بالقوى والاسرار وآلة
تعمل في الجهر والخفاء ولحظات سرمدية تمر كل لحظة منها
باستكشاف جديد من الحياة وفن طريف من فنون الوجود ؟ فان
كانت الاولى فانقض يديك منهم ولا تحدثهم عن علينين فانهم
يشون الى أسفل ولا عن الجمال فانه غير جميل لديهم ولا عن معاني
الحياة فان حياتهم معنى واحد لا يفهمونه ولا يستحق أن يفهمه أحد .
وان كانت الثانية فلا تأس عليهم ولا تهولنك العقبات التي في
طريقهم فانهم لعلى بصيرة من أمرهم وانهم لمهديون الى الآداب العالية
والفنون الرفيعة وان صرقوهم عنها بعض الدواعي الى حين
يعثر الباحث الآخر على جثة هامدة في لفائف شاحبة حولها
كسر من الفخار بينها قطع من الورق فلا يليث أن ينسئ في خياله
عالماً حافلاً من تلك الآثار ودنيا حية من تلك البقايا الميتة : يجمع
من تلك الكسر آنية صحيحة ، ويضع تلك الآنية في البيوت
التي تلائمها ، ويعمر تلك البيوت بظاهر الحضارة التي تدل عليها
الجثة المحفوظة والا كفان البالية والاوراق المتهافتة والعمارة المتخلية ،
فإذا هو قد أسبغ من خياله عالماً رحيباً جليلاً على هيكل ضعيف
ضئيل .

فالآن هب ان باحثاً أثريًّا عثر بعد الف عام على ديوان من

دواوين الشعراء الذين ينعتون بيتنا اليوم بالعظمة والخلود وأراد أن يستدل منه على الحياة التي كانوا يحيونها والعالم الذي كانوا يعيشون فيه فـأي عالم يكون هذا العالم الذي يتخيله الباحث الـأثري على هذا القياس ؟

أتريد الجواب بصراحة وابحازه انه ولا شك عالم مطموس لا يختلف عن عالم «الـأمير» مـضروباً في عشرة أو في عشرين بل مقسوماً في بعض الصفات والأبعاد على عشرة أو عشرين ! ... عالم العـلـف والمـذـود والـقـيـد والـلـاجـام والـلـاتـان ! ... عـالم لا يتطلب من النازلين فيه احساساً أكبر من احساس الدواب السائمة في الفلاة ولا يـشـعـرـ المـتـقـدـدـ لـأـثـارـهـ انـهـ كـانـتـ لهـ سـمـاءـ أوـ كـانـتـ لهـ آـرـاـلـ وـآـبـادـ أوـ كـانـتـ فيهـ أـرـواـحـ وـأـسـرـارـ أوـ كـانـتـ فـيـهـ أـفـرـاحـ وـأـهـوـالـ أوـ كـانـ لهـ إـلـهـ قـدـيرـ ... وـلـوكـفـيـ خـلـقـ هـذـاـ عـالـمـ المـطـمـوسـ ... وـلـوكـفـيـ أـنـاـ الـإـلـاـنـسـانـ الحـائـنـ تـعبـ خـمـسـ دـقـائقـ لـمـ رـأـيـتـهـ جـديـراـ بـهـذـاـ التـعبـ القـلـيلـ فـيـ حـيـاتـنـاـ المـزـدـحـةـ بـالـتـاعـبـ وـالـأـشـغالـ !

وـأـنـتـ يـاـ مـصـلـحـ الـآـدـابـ ، يـاـ مـنـ تـرـيدـ مـنـ النـاسـ أـنـ يـنـظـمـوـاـ الـحـيـاةـ شـعـراـ مـنـ لـخـنـ السـمـاءـ وـفـنـاـ مـنـ فـنـوـنـ الـخـلـقـ وـالـأـنـشـاءـ وـصـورـاـ الـهـيـةـ مـنـ حـقـائقـ الـأـشـيـاءـ مـاـ عـمـلـكـ أـنـتـ بـيـنـ هـذـهـ الـخـلـوقـاتـ الـتـيـ تـمـاـجـنـ الـأـقـدـارـ بـخـلـقـهـاـ وـتـكـلـفـكـ أـنـتـ ثـمـ بـجـوـتهاـ وـدـعـابـهـاـ ؟ عـمـلـكـ أـنـ تـنـقـلـهـاـ مـنـ عـلـمـاـ الـمـقـبـورـ الـذـيـ هـيـ فـيـهـ إـلـىـ الـعـالـمـ الـحـيـ الـفـائـضـ بـالـمـعـانـيـ الـتـيـ

فَكِرْ فِيهَا أَفْلَاطُونْ وَعِبْدَهَا الْغَزَالِيْ وَشَعْرَ بِهَا شَكْسِيرْ وَغَنَاهَا فَاجْنَرْ
وَتَطَلُّعَ إِلَيْهَا نِيتشَهُ وَصُورَهَا لِيُونَارْدُو وَاسْتِنْشَقَ هَوَاءَهَا الْوَفُ الْمَلَائِينَ
مِنْهُمْ أَقْلَ حَظًّا مِنْ هُؤُلَاءِ فِي الْعَبْرِيَّةِ وَالْإِبْكَارِ وَلَكُنُّهُمْ أَخْوَاهُمْ
فِي وَطْنِ الْمَعْرِفَةِ وَالْأَدْرَاكِ ، فَأَنَّ أَنْتَ يَا صَاحِبُ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ وَمَا ذَادَ
لَدِيكَ مِنْ الْعَدَةِ ؟ أَمْلِ إِلَهٌ وَيَدُ اِنْسَانٍ وَصَبْرٌ تَلْقَى بِهِ الْحَوَادِثُ هُوَ
صَبْرٌ مُخْلُقٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْفَنَاءِ .

لَقَدْ عَالَجْتُ هَذَا الْعَمَلَ الْمُوْبِقِ سَنِينَ طَوَالًا وَوَهْبَتْهُ حَيَاتِي
فَخَسِرْتُهَا وَمَا اسْتَفَادَ هُوَ مِنْهَا شَيْئًا ! وَكَادَ أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ الْيَأسُ
وَوَرَدَ عَلَى خَاطِرِي مَرَاتٌ أَنْ هَذَا الشَّرْقُ الْعَرَبِيُّ أَوَالْمُسْتَعْرِبُ مَا كَانَ
قَطُّ فِي عَصْرٍ مِنْ عَصُورِهِ الْمَاضِيَّةِ خَيْرًا مَا نَزَاهَ الْآنَ ، وَزَعَمْتُ أَنَّ
الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّوحَانِيَّنَ مَا ظَهَرُوا فِيهِ إِلَّا كَمَا يَظْهَرُ الْأَطْبَاءُ حِيثُ يَنْتَشِرُ
الْوَبَاءُ ، فَلَا قَدَاسَةَ وَلَا رُوحَانِيَّةَ وَلَا شَعُورٌ وَلَمَا هُوَ فَقَرٌ فِي الرُّوحِ عَالِجَتْهُ
الْطَّبِيعَةُ بَدْوَاءَ النَّبُوَّةِ ، وَقَدْ ذَهَبَ الْأَنْبِيَاءُ وَبَقَى الدَّاءُ بَعْدَهُمْ كَمَا كَانَ ،
وَسَيِّقَ هَكُذا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ . وَلَكَنْتُ لَا نَزَالْ نَعْمَلُ
وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ عَمَلُ الْيَأسِ لَا عَمَلُ الرَّجَاءِ . إِنَّ الزَّادَ لِيَقْلِلُ
ظَهُورَنَا فِي الصَّحْرَاءِ الْمُجْدَبَةِ وَلَسْنَا نَأْمَلُ أَنْ نَعِيشَ فِيهَا حَتَّى نَأْكُلهُ
فَنَطْرُحُهُ عَنْ ظَهُورَنَا مُرْغَمِينَ ، ثُمَّ تَقُولُ : لَعُلَ غَمَامَةٌ تَعْبَرُ بِهِ فِي هَذِهِ
الْمَفَازَةِ فَتَكُونُ مِنْهُ وَاحَةٌ وَتَكُونُ مِنَ الْوَاحَةِ حَيَاةً ! وَلَكُنْ تَرَى هُلْ تَعْبِرُ
الْغَمَامَةُ ؟ أَوْ تَعْصِفُ السَّمُومُ بِالْبَذُورِ قَبْلَ أَنْ تَدْرِكَهَا رَحْمَةُ السَّمَاءِ !

5 cm

كتاب عن طبع

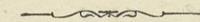


لِطَبْعَةِ الْعَصْرِ

تأسست سنة ١٩١٩

دارها بشارع الخليج الناصري رقم ٦
باوأول الفجالة - بصر

(بالقرب من قرقول الاذبكية بميدان
باب الحديد)



جميع الكتب المذكورة في هذا الملحق من علمية و تاريخية
واجتماعية هي من أجدود الكتب العصرية، و مؤلفوها أشهر كتاب
الشرق، ومطبوعة أتقن طبع على أحسن ورق، و مزينة بالصور
المجيبة، و مغلفة بأجمل وأمن غلاف

يُضاف إلى ثمن الكتاب الذي يُطلب ٤ قروش أجرة بريد
لبلاد القطر المصري و ١٣ قرشاً للخارج وهذا المبلغ يكفي لارسال



ما زنته ٥ كيلوجرام . فيحسن بن يرغب في طلب كتاب واحد
أن ينتخب من هذه المجموعة الفنية بعض كتب أخرى فترسلها
كلها معاً ضمن طرد بريدي واحد

قيمة الكتب ترسل مقدماً مع الطلب ، أو يرسل نصفها ويحول
عليه بالباقي .

(القرش المصري يساوي $\frac{2}{3}$ بنسات انكليزية أو ٥
بنسات أمير يكانية)

العنوان البريدي — الياس انطون الياس ، صندوق البريد رقم ٩٥٤ — مصر
Mr. Elias A. Elias, P.O. Box 954, Cairo, (Egypt.)

التعليم والصحافة

تأليف حضرمة

الدكتور محمد عبد الحميد

هذا كتاب يجب أن يطلع عليه كل معلم ووالد وتلميذ ، وجباً
في تعليم فائدته قد جعلنا ثمنه ١٠ قروش م

القاموس العصري

انكليزي وعربي

تأليف

الياسى انطوند الياسى

(طبعة الثانية منقحة وموضحة بالصور)

ان جميع المعاجم الانكليزية وعربية التي تقدمت «القاموس العصري» لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من الشرقيين، بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين، ولذلك تجدون يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا أمامها من البيانات ما يفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في حالاتها المتعددة، وجمعها ومفردها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منه مطلقاً لطلاب الشرقي . وأول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو «القاموس العصري »

ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هذا المعجم . وانا نتصفح لكل من لم يطلع عليه للآن ، مكتفيأ بما عنده من القواميس العتيقة

أن يبادر إلى أقرب مكتبة ويفحصه فيرى بنفسه حقيقة ما ذكرناه
ويرى الفائدة التي ينالها من اقتنائه

وقد قررت وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة
الإنكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في
القطر المصري، وذلك بخطاب تاریخه ۱۳ مايُو سنة ۱۹۱۴ رقم ۷۷۷
والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الأولى — ثمنه ۷۰ قرشاً.

مِلْقَةُ السَّاحِلِ

مِنْ زَهْبِ الشِّعْرِ وَالْأَنْقَافِ

وأثره في الانقلاب العسكري الحديث

تأليف الباحثة الاستاذ

اسما عيّل مظہر

القاموس العصري

عربي وإنكليزي

مُصْوَرٌ

تأليف

الباس انطونيه الياس

هو معجم لم ينسج على منواله حتى الآن ، ويمتاز بأسلوبه البسيط (المسجل في المحاكم المختلفة تحت غرة ١٦٢) الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبع في كل القواميس الإفرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربية أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تميذاً لذكر الترجمة الانجليزية . إذ بدون ذلك لا يتسعى للطالب أن يتحقق من صحة المقابل الانجليزي للمعنى الخاص الذي يطلبه اطلع عليه فتعلم انه أكثر فائدة لك من أي قاموس آخر مادمت من المستغلين باللغة الانكليزية -

عدد صفحاته ٧٠ من القطع الكبير ويحوي نحوه ٥٢،٠٠٠

كلمة عربية وما يقابلها من الترجمة الانكليزية . وقد قررته وزارة

المعارف العمومية لاستعمال معلمى اللغة الانكليزية والترجمة في
جميع فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري . عدد صفحاته
٦٩٣ من القطع الكبير وثمنه ١٠٠ قروش مصرى والبريد

فِي اَسْمَاءِ الْمُلْكِ

تأليف

الكاتب الروائي الشهير ميشيل زيفاكو

وترجمة الكاتب البلجي الاستاذ

طانيوس عبد

هذه الرواية لم يسبق طبعها — مترجمة بلغة عذبة ، تقع في

٢٣٥ صفحة من القطع الكبير في جزء واحد ومتبوعة على ورق جيد

ومغلفة بخلاف جميل وثمنها ١٠ قروش فقط والبريد

قاموس الجيب

انكليزي وعربي

عرب وانكليزي

اجابة لطلب وزارة المعارف العمومية قد طبعنا قاموسي الجيب
الانكليزي عربي والعربي انكليزي في مجلد واحد وجعلنا منه ٣٥
قرشاً — وقد قررته الوزارة لتلامة مدارسها الابتدائية مـ

أعيد طبع هذا الكتاب للمرة الرابعة
التحفظ على حقوق النشر في مدة وجيزة ، وهو مجموعة كبيرة جداً
لطلاب من المفردات والمجل وخطابات الاكثر
اللغة الانكليزية استعمالاً، خصوصاً المفردات والمجل المختصة
(لا ياس انطون الياس) بالمعاملات التجارية والادارية والقضائية،
 وبالاختصار كل ما يكثر استعماله في الاعمال العمومية . لا يستغنى
عنه أي طالب للغة الانكليزية ، فسل من تقدمك في درس هذه
اللغة عن هذا الكتاب يخبرك بعظيم فائدته — منه ١٠ قروش

يكفي للتوضيح بفائدة هذا الكتاب
المبتدأ بالبسننية أن نذكر انه طبع للمرة الخامسة في بحر
 اطلان **اللغة الانكليزية** عشر سنوات . وكل من بدأ دراسة
 (لا ياس انطون الياس) من مهولة اسلوبه ، خصوصاً لأن الطريقة
 الحديثة التي ابتكرناها للفظ الكلمات الانكليزية بأحرف عربية هي
 الطريقة التي لا يمكن ايجاد أسهل واضح منها
 اشترا نسخة منه ، وجرب أن تعلم اللغة الانكليزية من دون
 احتياج الى الاستعانة بعلم . ثمنه ١٢ قرشاً والبريد

التربيه الاجتماعيه

تأليف البرستاذ على فسكري

أمين دار الكتب المصرية

ظهر هذا الكتاب حديثاً وقد جمع من الحقوق والواجبات
 والأداب الاجتماعية الشرقية ما يعرف به المرأة ما له وما عليه ليعيش
 في راحة بال واسعد حال : وهو أول كتاب في موضوعه ، ثمنه
 ١٠ قروش مصرية والبريد

أَنْتَوْلْ فَرَانْسَ فِي سَابِزِ لِهِ

تأليف جاك بروسوون

مع خلاصة كتاب

«محادنات مع أَنْتَوْلْ فَرَانْسَ ، لِيفُولَدَ سِفُورَ»

وزبدة ما قالته الجرائد الفرنسية في فرنس يوم وفاته

نقله إلى العربية وصدره بـ مقدمة وعلق عليه بعض حواش

كاثب الشِّرقِ الْأَكْبَرِ صاحب العِطْوَفَةِ

من أعضاء المجمع العلمي العربي

وقد حلليناه بما يزيد عن المائة والخمسين صورة وطبعناه على
ورق جيل وجعلنا ثمن النسخة ٢٠ قرشاً ، وطبعنا منه نسخاً قليلة
على ورق ممتاز وثمنها ٢٥ قرشاً فقط

الإنجليز في أميركا

تأليف

حضره الطيب المصري الا سناز امير بفطر

سكرتير الجامعة الاميركية

(و خريج جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك)

(حائز لدرجة M.A)

كتاب عظيم محلى بكثير من الصور البدية يصف لك ما في
اميركا من الغرائب والمدهشات ويطلعك على سر تفوق الاميركان
ثمنه ١٥ فرساناً ، واجرة البريد

تأليف الا سناز فرانل ناصر سناز الراشدية

الغرائب

ثمنه

١٠ قروش مصرية) او ٢ دينار مصري او ٣ دينار سوري يحب امير بفطر

الكتاب في المكتبة المحمدية دار دفع السطور الحديث

القصص العصرية

مجموعة ممتعة تشمل ٨٠ قصة أدبية غرامية مختلفة المغزى
والأسلوب وحملة بكثير من الصور الرمزية ومتدرجة بعبارة فصيحة
قريبة المتداول لطيفة الأسلوب على طريقة أهل الغرب في كتابة هذه
القصص المستطرفة التي يتودى بها الذهن بلذة السيرة الحكيمية وايصال
الفائدة المقصودة الى العقل من طريق تلك اللذة باسلوب انشائي
خاص تجتمع فيه السهولة والسلامة الحاذقة الوصف الى رشاقة المحاذنة
وظرفها ، الى حكمة سامية او عظة كافة عن الشر داعية الى الخير ،
كما قال نابغة الشعر والنثر خليل بك مطران في المقدمة التي كتبها لها
وتقع هذه المجموعة في ما يقارب الحمس مئة صفحة وثمن
النسخة ١٠ قروش والبريد

مختارات

سلامه موسى

ليس بين كتاب مصر الآن من هو أصرح برأيه وأجهز به
من الاستاذ سلامه موسى الذي يعرفه جميع قراء الصحف والمجلات ،

فهو كثيراً ما يقتحم الميادين التي تخشى اقتحامها الملائكة ، لا يبالي
أن يصرح برأيه في الدين وفي الاشتراكية وفي المرأة ، وفي مثل
هذه الشؤون الاجتماعية ، غير متعمد في كل ما يكتبه اظهار براءة أو
التباهي بهارة ، وإنما غايتها التي لا يجده عنها هي فائدة القاريء ،
وليس هذه بالميزة القليلة القيمة في وقت نرى فيه عدداً غير قليل
من كتابنا لا يغطي من وراء كتابته إلا أن يقول عنه الناس كما يقولون
عن البهلوان « ما أبرعه ! » في حين كان يجب أن يقولوا « ما أنفعه »
ولسنا نشك في أننا نخدم جميع قراء العربية بجمع هذه المقالات
الفنية ، وغيرها مما لم ينشر لآخر ، حتى يتيسر للجيل الجديد
قراءتها والاتفاق بها دون أن يحتاج إلى الكد في البحث عنها في
متفرق المجالات والصحف . وثمنه ١٠ قروش مصرية والبريد

اسرار الحكمة الزوجية

تأليف الدكتورة ماري ستوب

نُقلَّه إلى العربية لخدمة الإنسانية وللحرص على سعادة الزوجين وسلامة العيلة
الكاتب المعروف الاستاذ نقولا الحداد

وقد ذيل أكثر فصوله بزبدة اختبارات الأخصائيين

فيما يتعلق بمصر وسائر الاقطارات الشرقية

لا يطالعه غير المتزوجين والمتزوجات ومن هم على أهبة الزواج
عن ١٥ فرشاً مصرياً والبريد (يظهر في مايو سنة ١٩٣٦
فاطلبه حالاً عند ظهوره)

في أوقات الفراغ

تأليف الكاتب الكبير

الدكتور محمد بلk حسين هيكل

مدير جريدة السياسة

مجموعة مقالات مختارة مما كتبه هذا العالم

عن انثال فرانس وبيرلوتي وقاسم أمين وجورجي زيدان
وغيرهم . ثم رسائل خاصة بمصر منها خلاصة كتاب مستر كارتر
عن قبر توت عنخ امون وقصصاً وأحاديث كأليس وسمير اميس
وخلال وغير ذلك مما يضيق بنا المقام عن الاسهاب في شرحه
عن النسخة ١٥ فرشاً والبريد

الزبقة الحراء

(قصة مزينة بنحو ثلاثين صورة)

بعلم الكاتب العظيم أنطوان فرنس

تعریف الاستاذ احمد الصاوي محمد

مع مقدمة بعلم كاتب الشباب النابه ابرهان منصور فرعون

عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية

لم ينشر كتاب في الحكمة انتشار كتاب « تايس » ، كما لم
ينشر كتاب في الحب انتشار كتاب « الزبقة الحراء » ، ويكتفى
أن تعلم أن الترجمة العربية لهذه القصة منقولة عن الطبعة السابعة
والثمانين بعد الأربعينه ! ! فتأمل !!

وقد عما وصف « شكسبير » نابغة الدهر الغيرة بإنها : تلك الخلقة
الشوهاء ذات العيون الحضراء التي تسخر مما تقتندي به من لحوم
الناس ! وقال : أن الرجل الذي يلثم عرضه فيعرف مصابه ويكرهه
جالبه عليه سعيد بجانب ذلك الذي يقضى الدقائق الجهنمية شغفاً ،
الآ انه مستربب ، عاشقاً أشد العشق ، ولكن تساوره الشكوك ...
وحدثنا ، بعد ثمانينه عام ونيف ، جاء أنطوان فرنس ، افلاطون

العصر ، فخلال الغيرة في قلب رجل العصر ، الرجل الباريسى ،
بأسلوبه الرقيق الجزل البليغ المداعب الأخاذ بجماع القلوب .

فلن تجد في هذه القصة عبث اطفال وغرام أيفان . كلا !

انك ستتجدد الرجل الغيور المستهام وكيف يتعدب ويعمل على
تكوين حزنه وضجره . كما انك ستتجدد المرأة بكل انوثتها القوية
المستكملة لا سلطان عليها الا سلطان الهوى — هوى عقلها
وفؤادها وجسمها ..

والى غير هذا الغرام والغيرة تجد أحاديث اخرى فياضة
طليقة طريقة ساحرة .. منها فصل معقود على « نابليون » الذي
يراه المؤلف مشهوراً بسرقة علب التسوق المرصعة من النبلاء !!!
ثم حديث « فلورنسا » الجميلة ، والفنون الجميلة ، والاشتراكية ،
والزواج . الخ الخ

الزنبقه الحمراء ! انها نداء صارخ عميق الى الحب كأنه هدير
البحر ! قتلى الحب ، ذلك الطاغية الجبار ، آتيا مليئا النساء تهتز
لقدومه الكائنات .. فيطلع الفجر مبرقاً بشوша الحب الأولى ،
ثم تشتعل ناره ويشتد أواره حتى تأتي الغيرة قتريني بيدها على الغرام
ستار ليل المهرج الأبدى ... فياله من مشهد مهيب ترتعد من هوله
الفرائص وينقلب الأسى العيون فتذرف الدموع المحتون .. ?

الزنقة الحمراء ! إنها كتاب الحب ! وهل كتاب الحب إلا
كتاب الحياة ؟ ؟
من النسخة ١٥ فرشاً مصرياً و ٢٠ فرشاً على ورق خاص
متناز والبريد ٤ قروش و ٦ للخارج

روح الاشتراكية

تأليف الدكتور غوستاف لو بون

تقله إلى العربية الاستاذ محمد عادل زعيم

كتاب اجتماعي يبحث في مبادئ الاشتراكية ونفسية انصارها ،
وعن كونها معتقداً ، وعن اختلافها باختلاف الشعوب ، وعما بين
مقتضيات الاقتصاد من التباين ، وعن المبادئ الديموقراطية ،
ورغائب الاشتراكيين ، وتطور المجتمعات في الوقت الحاضر ،
ومصير الاشتراكية . منه ٢٥ فرشاً والبريد

مقدمة الحضارات الاولى

تأليف العلامة الحكيم غوستاف لو بون

ما ألف الدكتور غوستاف لو بون كتابه في حضارات المصريين ، والأشوريين والفينيقيين ، والفرس وغيرهم ، وضع له مقدمة هي بالنسبة الى تاريخ الامم القديمة بعنوان مقدمة ابن خلدون بالنسبة الى تاريخ الامم الاسلامية ، فأرسل هذا الفيلسوف بنظره الثاقب في تاريخ الحضارات الاولى واستعان على ذلك بسياحاته الكثيرة واستنتج من كل ذلك حقائق في فلسفة التاريخ بناها على قواعد علم النفس وعلى النواميس المقررة في العلوم الكونية ، فأصبح كتابه المرجع في كشف النقاب عن كيفية اشراق شمس الحضارة في شعوب البشر وتدرجها في سلم الرقي . مطبوع طبعاً متقناً في ١٢٧ صفحة كبيرة على ورق صقيل وثمنه ٨ فروش والبريد

قاموس الـ جـ يـ بـ

عـ بـ ، وـ انـ كـ لـ يـ زـ

عدد صفحاته ٥٤٠ وكلاته ٢٥٠٠٠

وثمنه ٢٥ قرشاً

تايسٌ

(قصة مزينة بالصور)

تأليف شيخ كتاب العصر أناتول فرانس

وترجمة الاستاذ احمد الصاوي محمد

تايس - صورة صادقة لمصر القديمة بعلومها وفنونها وفلسفتها
وادابها ، وصورها وحقولها ، وصحابيتها ووديانيها ، وملاءبها
وأدبارها ، وعادات أهلها

تايس - قصة حب تملك عليك نفسك ، فتظل تهراً حتى
تنسى نفسك وتحملك دعابات أناتول فرانس اللذينة المشهورة الى
عالم كله ضحك ومسرات ، ثم تجعلك تبكي لآلام رجل راح ضحية
الدنيا الغرور بعد ان عذبه فكره عذاباً فظيعاً .

إقرأ تايس - تجد الحكمة والمعرفة والردود الصائبة على
الاستلة التي تخالج نفوس الشباب الفتية الحائزه ، وقلوب أهل الفتنه
والذكاء .

ما الحب ؟ ما الكره ؟ ما الحكمة ؟ ما الضلاله ؟ ما المعرفة ؟
ما الجهلة ؟ ما الفلسفة ؟ ما الغباوه ؟ ما الوطن ؟ ما الخيانة ؟ ما الشر ؟
ما الدين ؟ ما الكفر ؟ ما الجنة ؟ ما النار ؟ ما الشهوة ؟ ما العفة ؟

ما التلذذ ؟ ما التقشف ؟ ما الحرية ؟ ما العبودية ؟ ما العشق الحلال
والعشق الحرام ؟ مافلسفة الفضيلة والرذيلة ؟ ماحكایة الارض والسماء ؟

إقرأ تايسن - تايسن تحمل لك كل هذه الالغاز المفلقة !
تايسن تبوح لك بأسرار الغرام ! إقرأ قصة تايسن الفاجرة !
تايسن القديسة !

ثمن النسخة ١٠ قروش والبريد

الحقوق الوطنية

تأليف الاستاذ فرنسيس ميخائيل

الغرض منه تعليم الطالب مقتطفات من النظام الاجتماعي ليم
بحقوقه وواجباته نحو أبناء وطنه ويقف على القوانين والأنظمة التي
تحجّي على بلاده ويطلع على حدود السلطة التنفيذية والقضائية وما
يتّمّى عليه دستور وطنه - يقع في ٧٠ صفحة

وثمنه ٣ قروش والبريد قرشان

مِنْبَرُ الْأَنْهَانِ

بِمُجْوَهَةِ دَوْبَيَّةِ فَيَّةِ رِوَايَةِ
فِحْقَيْفَةِ الْمَيَا

تبحث في حقيقة الحياة بأسلوب عصري لم يسبق لكاتب عربي
النسج على منواله ، وضعها الاستاذ خليل بيدس صاحب مجلة الفناس
نجاءت آية بدعة في فن الكتابة والطباعة ، تشمل ٣٥ قصة لذيند
جمعت من كل فن وضربت بكل سهم في الادب والاجماع والحب
والفلسفة في لغة سلسلة هي السحر الحلال . ويتخلل هذه المجموعة
كثير من الصور الجميلة التي تزيدها بهاء وروقاً وقرب مقاصدها
للقاريء . تقع في ٣٣٢ صفحة - وثمنها ١٠ قروش والبريد

عَلَى الْأَجْمَاعِ

بِحَيْثَاهُ الْهَيْكَةُ الْأَجْمَعَةُ وَتَطْوِرُهَا

تأليف الكاتب الشهير الاستاذ نقولا حداد

(التزام المطبعة العصرية)

هلْ بنا ندخل في بوابة علم الاجتماع ونكشف اسرار الهيئة
الاجتماعية ، تلك الاسرار العجيبة الغربية
ترى امما عظيمة راقية متقدمة حيوية تضرب في طول الكرة
الارضية وعرضها ، وترى شعوًباً متأخرة خاملة خامدة الحركة ، وترى
جماعات همجية متواحشة منحطة جداً — اذا كانت هذه الجماعات
كلها ابناء آدم وحواء ، فما سر تفاوتها في الرقي ؟
ففي « علم الاجتماع » تعلم كيف تكونت الجماعات والشعوب
والامم ، وكيف تنوّع وتفاوتت في رقيها
ترى جهوراً متهيّجاً متّحدساً متهوّساً ، ثم ترى جماعات هادئة
عاملة ، ثم ترى انساً في مجالسهم يتناقشون ويقترون ويقررون
اموراً . ثم ترى هيئات نظامية من جمعيات وشركات وحكومات الخ ،
هذا هو سر التهوّس والتناقش والنظام ؟ . ثم ترى ازياء تعاقب ،
وعادات تتواتي ، وتقالييد تُتوارث ، ورمياً عاماً يسود ، وقوانين
تتقرّر . فكيف تنشأ الازياء والعادات والتقالييد والقوانين ؟
في « علم الاجتماع » ترى العواطف والعقول تصادم فشير
الجماعات ثم تسكنها ، وتمخض الثورات الفكرية عن الانظمة والهيئات
« علم الاجتماع » يبين لك ان الشهوة الجسدية ، والحب ،
والذوق الجميل ، والعواطف ، فعلت كل ذلك ، وفي وسعها أن تقول
للحجل انتقل من هنا الى هناك فينتقل

« علم الاجتماع » هو علم التكوُّن والنشوء ، وعلم العواطف
المسيطرة على الهيئة الاجتماعية ، وعلم العقل المدرِّب للعواطف ،
وعلم الحب والجمال اللذين يرتفعان بالمدنية الى فوق
« علم الاجتماع » هو البوابة التي تدخل منها إلى عالم أسرار
الهيئة الاجتماعية حيث تكشف لك وترى العجب العجاب . هذا
هو العلم الذي بسطه الاستاذ تقولا الحداد الكاتب الاجتماعي
المعروف في هذا الكتاب الذي نحن في صدده ، بسطًا يدع كل
قارئ يفهم بكل سهولة
فهذا الكتاب هو الوحيد في موضوعه باللغة العربية والمستوفي
كل ما يخطر لك ببال من هذا القبيل . أفلًا تشعر أنه يجب أن
طالعه وأن يكون في مكتبتك لكي تعود اليه كلما رمت أن تعرف
منزلك في الجماعة ومنزلة قومك في الامة ومنزلة أمتك في المجتمع
الإنساني ؟ وما هي وسائل الارقاء لك ولقومك ولامتك ؟
الكتاب الأول - في حياة الهيئة الاجتماعية - ٢٥ قرشاً
الكتاب الثاني - في تطور الهيئة الاجتماعية - ٢٥ قرشاً

المرأة وفلسفه النسائية

تأليف الدكتور فخرى طبيب الجلد والامراض التنسالية

اذا أردت أن تفهم « من هي المرأة ؟ » وتاريخ معاملتها عند الشعوب القديمة . وكيف تعيش المرأة ، وكيف تفكّر ، وما تأثير طبيعة جسمها وعقليتها ونفسيتها على حياتها التنسالية وعلى حياتها الأدبية والاجتماعية . وإذا أردت أن تعرف معنى جمال المرأة وكيف يتأثر بالعناية الصحية أو بالزيينة الصناعية . وإذا أردت أن تفهم حقيقة موقفها كفتاة ، وكأم ، وكواحدة حرة طليقة لا تخضع لأنظمة الزواج

اذا أردت أن تعرف كل شيء عن المرأة بصرامة فنية ودقة علمية فما عليك الا أن تقرأ كتاب « المرأة وفلسفه التنساليات »

يقع هذا الكتاب في نحو ٦٥٠ صفحة ، ومحلى بأكثر من ٥٠ صورة تمثل حياة المرأة في مختلف الأقطار والعصور وثمه عشرون قرشاً مغلفاً و ٢٥ قرشاً مجلداً واجرة البريد

كتاب

الأمراض الشائعة عجمت

وعذبها وطرق الوقاية منها

تأليف الدكتور فري طيب الجلد والأمراض التنايسية
في سنة واحدة أوشكت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أن
تنفذ لانه أحسن كتاب ظهر باللغة العربية حاوياً كل المعلومات
اللازمة للطبيب ولأفراد الشعب عامة عن هذه الأمراض وكيفية
التعرض للعدوى بها وطرق معالجتها وأحسن ما يتبع عملياً لمنع العدوى
بها .كتاب حيوي للشبان والشابات يفهمهم الاخطار التي يتعرضون
لها من أول التقىيل الى ويفهمهم واجبهم الادبي والصحي
لتحاشى هذه الاخطار

يقع هذا الكتاب في ٣٣٣ صفحة بالقطع الكبير وبه أكثر من
٦٠ صورة تقتل المرض في الاعضاء التنايسية عند الذكور والإناث
ووثنه ثلاثون قرشاً مجلداً بقاش واجرة البريد

قاموس عربي وانكليزي باللُّفْظِ الانكليزيِّ لِلكلماتِ العربيَّة

تأليف سفراط سيررو

(وقد التزم طبعه ونفعه الياس انطون الياس واضع القاموس
العصري الشهير)

قد جمع هذا القاموس كل شاردة وواردة من مفردات وجمل
واصطلاحات اللغة المصرية الدارجة في الكلام والكتابة . ولا نغالي
اذا قلنا انه لازم لكل مشتغل باللغة الانكليزية من ابناء مصر
خاصة والشرق عامة لما يحييه من الكلمات التي لا يمكن وجودها
في غيره من المعاجم العربية انكليزية — ثمنه ١٠٠ قرش صاغ

روكامبول

في ١٧ جزء كل منهم رواية حيلة كاملة
(الجزء الاول «الارت الخفي» وثمنه ٥ قروش)
(تظهر في يوليو ١٩٢٦)

رواية الحال العظيم

تأليف

الكاتب الروائي الشهير ميشيل زيفاكو

وترجمة الكاتب البلجيقي الاستاذ

طانيوس عمده

لم يلق من كل الروايات المنقولة الى اللغة العربية ما لاقته هذه
الرواية الساحرة من الاقبال ، فقد طبعت للآن ثلاثة طبعات على
ورق رديء وطبع ذري ولكنها رغمًا عن ذلك وعن غلو ثمنها
إذ كانت تطبع في ٤ أجزاء صغيرة وكل جزء يُباع بعشرون قروش)
كانت تتخطافها اليدي عند ظهورها

وقد طبعناها الآن في جزئين كبيرين على ورق جيد ، وغلفناها
بخلاف جميل وجعلنا ثمنها ٢٠ قرشا فقط والبريد

روايتها بـالـأـدـلـيـانـ

تأليف الروائي الشهير ميشيل زيفاكو

وترجمة الكاتب البليغ الاستاذ طانيوس عبده

ليس الاستاذ طانيوس عبده في حاجة الى التتوييه بذكره فهو أعظم من اشتهروا في عالم الترجمة بنقل الروايات الادبية الشيقية الى لغة العرب ، وامتاز على كثير من المعربين بأنه ينقل رواياته في عبارات سلسة خلابة .

وهذه الرواية من أشهر الروايات التي ظهرت باللغة العربية الى لآن وهي تقع في ثلاثة أجزاء (بدلاً من مثانية اجزاء في الطبعة الاولى) مجموع صفحاتها ٨٥ من القطع الكبير - ومطبوعة على ورق جيد جداً وحرف جميل وتجلييد متين وثمن الثلاثة اجزاء ٢٠ قرشاً فقط والبريد (بدلاً من ٤٠ قرش للطبعة الأولى) وتليها

رواية

الأميرة فونستانا

(كاملة في جزئين كبيرين بدلاً من ثمانية أجزاء صغيرة)

وهي تابعة لرواية بارديليان - وثمنها ٢٠ قرشاً والبريد

تم روایت

باردیلیان

١ كاملة في جزئين كبيرين بدلاً من ثمانية أجزاء صغيرة)

وفيها تكملة حوادث الروايتين السابقتين وثمنها ١٦ قرشاً

